@ketab_n
Follow Me
22.7.2015

الطبعة الثانية

الشراع المقدس

عبد العزيز آل محمود

عبد العزيز آل محمود

الشَّراعُ المُقدَّس

رواية

مؤسسة قطر
Qatar Foundation

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING

Twitter: @ketab_n

الشّراع المقدّس

Twitter: @ketab_n

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر

www.bqfp.com.qa

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING
مؤسسة قطر
Qatar Foundation

كلمة بلومزبري وعلامة ديانا هما علامتان مسجلتان باسم شركة بلومزبري للنشر.

صدرت الطبعة الأولى ٢٠١٤
الطبعة الثانية ٢٠١٥

سفينة برتغالية لوحة للفنان غوردون فريكرز: Gordon Frickers / frickers.co.uk ©
صور بهارات ومجوهرات: Shutterstock.com ©
صورة فتاة: Tim Graham / Alamy ©
صورة خنجر: Heritage Image Partnership Ltd / Alamy ©
الخط: سولاف خليفة

جميع الحقوق محفوظة.
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر باستثناء في حالة الاقتباسات المختصرة التي تتجسد في الدراسات النقدية أو المراجعات.

الترقيم الدولي:
الغلاف العادي: ٩٧٨٩٩٢٧١٠١٧٠٠

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

MIX
Paper from responsible sources
FSC
www.fsc.org
FSC® C020471

تمت الطباعة في بريطانيا العظمى بمعرفة CPI Group (UK) Ltd, Croydon CR0 4YY

زورونا على موقعنا www.bqfp.com.qa للمزيد من المعلومات حول كُتّابنا ومؤلفاتهم.

Twitter: @ketab_n

الشراع المقدس

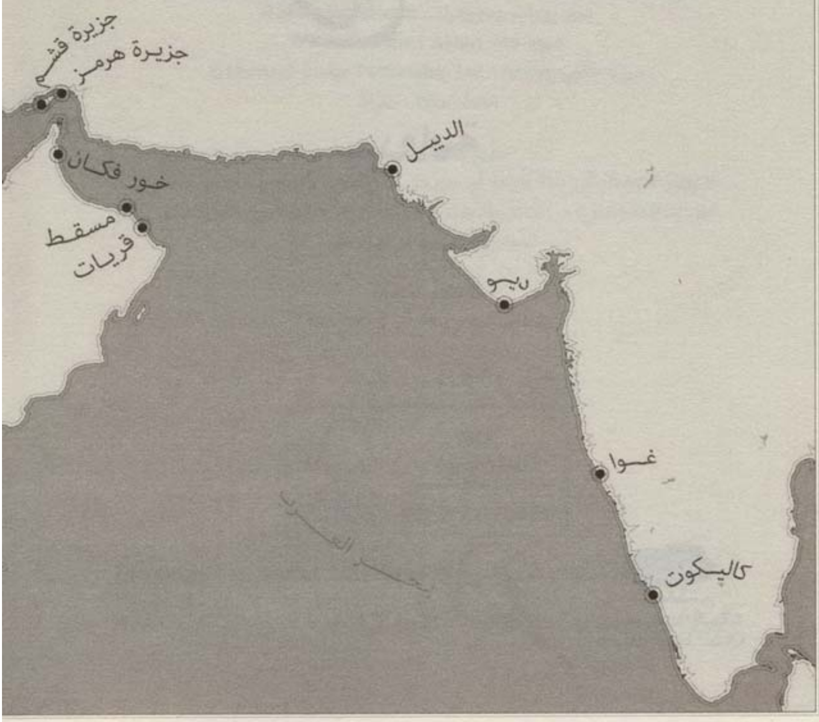

Twitter: @ketab_n

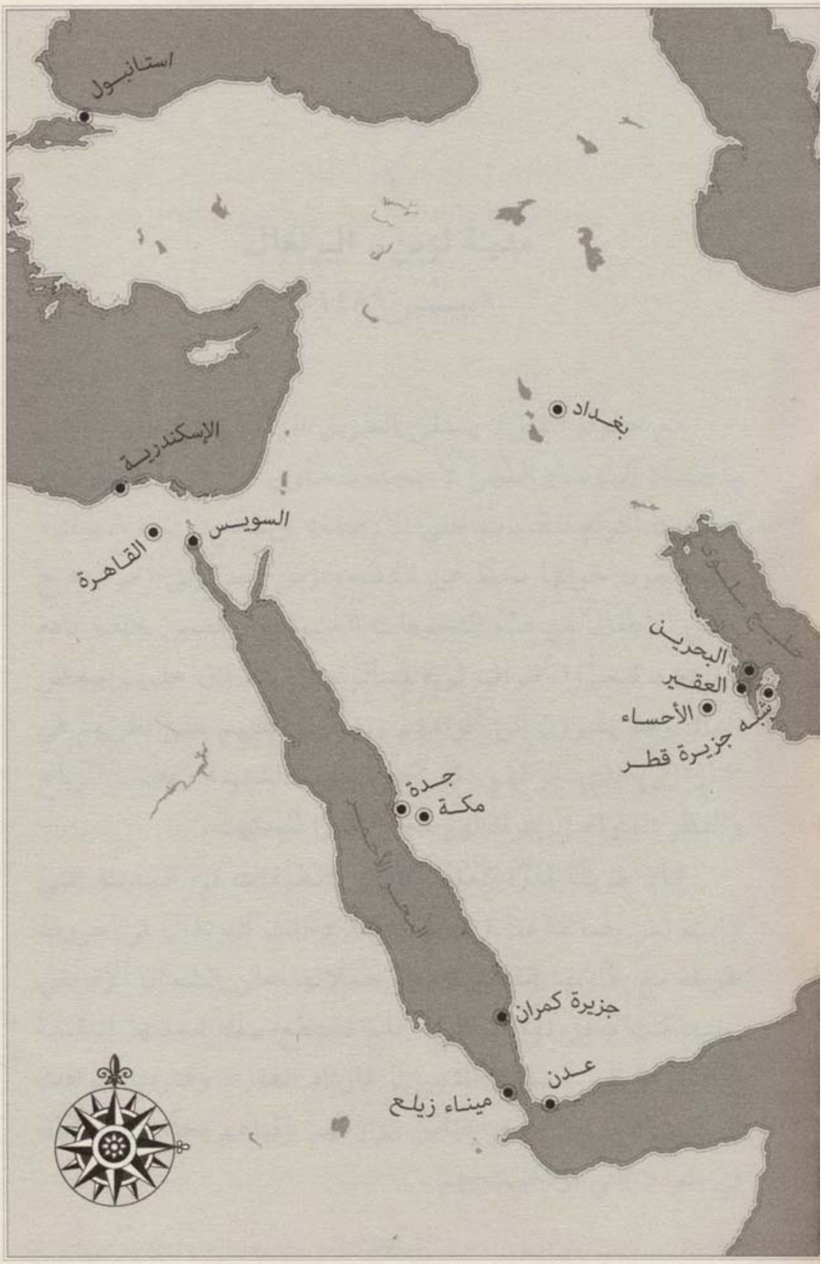

Twitter: @ketab_n

١
مدينة لزبن، البرتغال
(ديسمبر ١٤٨٦م)

مع حلول الليل، يمتلئ الطريق الرئيسي في مدينة لزبن بأجساد البؤساء الذين لا يجدون مأوى في البرد القارس، فيضعون أكوام النفايات على الأرصفة، ويشعلون فيها النيران، ويتجمعون حولها بحثًا عن الدفء، ومن حين إلى آخر يخرج بعض الأطفال من هذه التجمعات العشوائية راكضين خلف قادم من بعيد ليجرُّوا أطراف ثوبه يسألونه أن يتصدق عليهم ببعض المال وهم يشيرون إلى أفواههم ويضعون أيديهم على بطونهم في إشارة إلى مدى جوعهم. لم تكن البرودة الشديدة وعصف الرياح والمطر المتواصل لتترك لهم مجالًا كثيرًا للحديث.

كان طريقًا قذرًا كعادة الأزقة والطرقات في المدينة التي كانت تمر بضائقة مالية خانقة، فقد دخلت البرتغال في حروب طويلة مع جارتها إسبانيا، وفي حملاتها على الشمال الإفريقي استهلكت مخزونها المالي، فلم تستطع سك عملتها النقدية لافتقارها إلى المعدن الثمين، فازداد الفقر، وكثرت حوادث السلب والنهب، وهجر الناس مزارعهم وقراهم بحثًا عن الأمان في المدن التي ازدحمت بهم.

Twitter: @ketab_n

في وضع كهذا تكثر الجرائم بكل أنواعها، فبدأ السكان بتحصين منازلهم، وإخفاء ثرواتهم، متفادين السير في الكثير من الطرق والأحياء بعد حلول الظلام. وكثرة أعداد الجثث التي يراها الناس صباحًا أمام منازلهم أو في الطرقات وقد سُلبت وعُريت من ملابسها جعلتهم لا يأمنون على أنفسهم ولا على أملاكهم مهما قلَّت قيمتها. لقد ألفوا المنظر المتكرر، ولم يُفرِّق الناس كثيرًا بين جثث القتلى وأكوام النفايات، ففي كل منها ما يمكن أن يُسلب، فشارك الشرفاء الذين ذاقوا مرارة الفقر مؤخرًا اللصوص في البحث عن أي شيء ذي قيمة، فانعدمت الثقة بين الناس، وخاف بعضهم من بعض، وانغلقوا على أنفسهم محاولين التشبث بالحياة بأقل خسائر ممكنة.

ظهر من بعيد رجلان يلبسان ملابس ثقيلة، ويضعان على رأسيهما أغطية الرأس المخروطية الموصولة بأرديتهما وكأنهما كاهنان كاثوليكيان، مرَّا بسرعة بين البؤساء المتدثرين بكل أنواع الأقمشة المقطعة والممزقة، لاحظهما الأطفال فتحلقوا حولهما بسرعة وارتفع صراخهم طلبًا للمال، لم يعيرا ذلك أي انتباه وواصلا سيرهما مواجهين الرياح التي تسف المطر المتجمد سفًّا في وجهيهما وكأنهما لا يأبهان بها، فمن الواضح أنه ليس لديهما وقت للنظر إلى أي شيء، ولو تأملا الأطفال قليلًا لوجدا أن أنوفهم الصغيرة حمراء متجمدة، يعضون شفاههم تجاوبًا مع ألم المعدة الذي يجاري لسعات البرد الشديدة، ولكن من الذي لديه الوقت لقراءة كل هذا؟ لقد أبقيا أنظارهما مُركَّزة على الطريق بدون أي تعابير، وكأن وجهيهما قُدَّا من صخر أصم.

Twitter: @ketab_n

تسارعت خطواتهما وبان لهاثهما من كمية البخار التي كانت تبرز من جانبي وجهيهما وهما يغذان السير محاولين الخروج من هذا المكان. تركا كل ذلك وراءهما، فقد يئس الأطفال من لفت انتباههما وعادوا إلى النيران المشتعلة يبحثون حولها عن الدفء. مضى الرجلان في طريقهما بعض الوقت ثم دخلا زقاقًا مظلمًا على يمين الطريق الرئيسي، بدا الزقاق أقل قذارة، وأقل إنارة، وخاليًا من المارة ومن الفقراء وكأنه مُحرَّم على البشر الاقتراب منه، فالتصقت أكتافهما تلقائيًّا بحثًا عن الأمان الذي فقداه طوال سيرهما في طرقات المدينة. أصبحت خطواتهما أسرع وأقوى بسبب الصدى الذي تردده الجدران من حولهما والتي جعلت وقع أقدامهما يأتي متأخرًا، وكأن هناك جيشًا من الرجال يتبعهما، التفتا محاولين استكشاف المكان الذي يبعث على الريبة، لم يعرفا حقيقة شعورهما، فهل غياب الناس واختفاؤهم المفاجئ يعطيهما نوعًا من الأمان أم أن ذلك مبعث حذر وخوف، لم يفكرا كثيرًا، وواصلا سيرهما حتى بلغا نهاية الزقاق المغلق، ووجدا نفسيهما أمام جدار حجري على يساره باب خشبي كبير به طاقة صغيرة ومُعلَّق عليه حلقة معدنية.

ضرب أحدهما الحلقة بالباب فأحدثت صوتًا مزعجًا تردد صداه في المكان، كرر الأمر فغدا الصوت أكثر إزعاجًا بعد أن تلاقى صوت الطرق بصدى سابقه الذي بقي محصورًا في الزقاق لا يريد أن يغادره ولم تستطع الريح طمسه بصوتها. لم يكن البرد ليرحم وقوفهما أمام هذا الباب الموصد. وبعد عدة محاولات برزت لهما عينان كبيرتان من الطاقة، وسمعا صوتًا أجش كأنه قادم من الجحيم، لم يتفوه إلا بكلمتين:

Twitter: @ketab_n

- «الشراع المقدس»!

رد أحد الرجلين بصوت متناغم مع اهتزاز جسده، فالبرد قد أثقل لسانه وشفتيه:

- إننه يتتجه ششرقًا.

أُغلقت الطاقة وفُتح الباب محدثًا صريرًا غريبًا، دخلا بسرعة ثم أُغلق مرَّة أخرى.

وفي الداخل، رفع الحارس السراج الذي يحمله إلى وجهي الضيفين اللذين بدآ يفركان أكفهما بعضها ببعض طلبًا للدفء. تأملهما بعناية قبل أن يقول بصوته الأجش القادم من أعماق صدره:

- أرجو أن تتبعاني.

نظرا حولهما فوجدا أنهما في ساحة بيت مورسيكي مصبوغ باللون الأبيض، نظيف، حسن الإنارة والتصميم، تتوسط حديقته الجميلة نافورة ماء هادئة، وتزين مداخله وشرفاته أقواس كبيرة مزينة بنقوش رائعة، يشبه الكثير من البيوت المورسيكية التي تركها أصحابها فجأة وكأنهم اختفوا في الظلام بلا عودة.

مشى الحارس قاطعًا الحديقة إلى الجهة الأخرى مارًّا قرب نافورة الماء التي يوحي صوتها بالراحة، نظر بعضهما إلى بعض بسرعة، ثم أعادا النظر إلى الرجل الذي يقودهما، فصوت خرير الماء أعاد إليهما شيئًا من الطمأنينة، توقف الرجل أمام باب طرقه بيده قبل أن يدخل ويتبعه الضيفان وهما يزيلان أغطية رأسيهما بشكل تلقائي.

Twitter: @ketab_n

شاهدا غرفة مضاءة بعدة شموع موزعة في أرجائها، وفي وسطها طاولة مستطيلة الشكل جلس حولها ثلاثة أشخاص يبدو من أزيائهم وهيئاتهم أنهم نبلاء لا علاقة لهم بما يحدث خارج هذا المنزل، قام أحد الجالسين ومد ذراعيه في بادرة ترحيب بهما، ومع حركته لمع صليب معدني كبير معلق في رقبته.

- أهلًا بضيفينا، كنا في انتظاركما، اعذرانا أن استدعيناكما في ليلة باردة مثل هذه، دعاني أعرفكما على هؤلاء السادة.

ثم أشار بيده إلى الرجل الأول الذي بدا شابًّا نبيلًا، يلبس ملابس مخملية غالية الثمن، وأمامه قبعة مخملية من نفس اللون تعلوها ريشة طويلة:

- هذا النبيل «مانويل»، أخو زوجة الملك وكاتم أسراره.

أحنى الرجلان ظهريهما في بادرة احترام تعودا عليها، ثم واصل الرجل:

- أما هذا الذي يجلس بقربي فهو السيد «رودريكو» طبيب الملك الخاص وعالم الفلك المعروف.

ثم أكمل ضاحكًا:

- ثم أنا موسى المسكين، أحمل اسمًا طالما سبب لي الكثير من المشاكل، سامح اللّه أمي التي أصرت على أن أحمل هذا الاسم!

ضحك الجميع على تعليقه.

ثم وجه حديثه إلى الضيفين، وهو ما زال محافظًا على ابتسامته التي استقبلهما بها:

- لقد طلبت منكما أن تأتيا إلى هذا المنزل متخفيين عن

Twitter: @ketab_n

الناس حتى لا يتعرف عليكما أحد، وهذا المنزل هو المقر السري لاجتماعاتنا المهمة، وأرجو أن يبقى كذلك.

نظر إلى أعين الرجلين وكأنه ينتظر منهما إجابة حتى يطمئن إلى أنهما فهما قصده.

رد أحدهما:

- سيبقى مكان المنزل سرًّا يا سيدي، نعدك بذلك.

انفرجت أساريره وطلب منهما الجلوس.

جلسا بهدوء، وانتظرا ليسمعا سبب استدعائهما.

لم ينتظر موسى كثيرًا، فوجَّه حديثه للجالسين حول الطاولة قائلًا:

- أيها السادة، دعوني أعرفكم على أصدقائي الأعزَّاء.

ثم أشار بيده إلى الضيفين اللذين لم تذهب من وجهيهما علامات الاندهاش بعد:

- السيد «بيرو دي كوفيلهام» والسيد «أفونسو دي بافيا»، سندعوهما «كوفيلهام» و«بافيا» اختصارًا للمجاملات، إنهما ممن أثق بهم ثقة عمياء، فهما من يهود البرتغال كما تعرفون، يتحدثان العربية بطلاقة، ولا تستطيع تفريقهما عن العرب في اللغة والمظهر، ولذلك تم اختيارهما لهذه المهمة، إنهما يعرفانني كما أعرفهما، وأظن أنكما قد سمعتما عن السيد «كوفيلهام» من قبل، أليس كذلك؟

حاول النبيل «مانويل» قطع حديث المجاملات والبدء في سرد هدف اللقاء:

- نعم، بالتأكيد، أنا أعرف السيد «كوفيلهام»، ومَن يجهله؟

Twitter: @ketab_n

لقد قابلته عدة مرات في قصر الملك، إنه شخصية معروفة هناك، ولكن دعونا نبدأ اجتماعنا، فلا نريد أن نغادر هذا المكان بعد منتصف الليل، إنها ليلة باردة جدًّا.

قاطعه موسى بابتسامته المعهودة:

- ولكن يا سيدي، دعني أحضر لكم وللضيوف بعض النبيذ الطيب، فهما ما زالا يفركان كفيهما، ويبدو أن البرد قد تغلغل إلى عظامهما، وكأس من النبيذ القوي قد تجعلهما يشعران بالدفء قليلًا.

هز النبيل «مانويل» رأسه قليلًا، فقام موسى وأحضر النبيذ لضيوفه وجلس معهم وهو يرتشف كأسه بهدوء، ثم نظر إلى النبيل «مانويل» في انتظار أن يبدأ الاجتماع.

لم يلتفت «مانويل» إلى الكأس التي وضِعت على الطاولة بالقرب منه، فمد يده ليقلب ورقة كانت أمامه عليها خريطة العالم كما هو معروف في ذلك الوقت، ونظر في عيون الضيفين بحدة لعدة ثوانٍ قبل أن يقول:

- أيها السادة، إن كل ما سيدور بيننا من حديث يُعتبر سريًّا جدًّا، وأي تسريب للمعلومات خلف هذه الجدران قد يؤدي إلى إهدار دمنا جميعًا، فدعوني أشدد على سرِّية حديثنا وسرِّية المعلومات التي سنقولها لكم.

ثم أكمل حديثه بعد أن نظر إلى الخريطة مرَّة أخرى:

- أنتم تعلمون أن أوروبا انقطعت عن العالم بعد أن احتل العثمانيون القسطنطينية عام ١٤٥٣ بعد ميلاد إلهنا يسوع، فلم نعد نستطيع معرفة ما يدور خلف تلك الأرض، وتعلمون أيضًا أن

Twitter: @ketab_n

البنادقة قد عقدوا اتفاقيات مع العثمانيين تسمح لهم بالسيطرة على التجارة من الموانئ الإسلامية إلى أوروبا، فهم ينقلون شحنات البهارات من موانئ طرابلس وبيروت والإسكندرية إلى أوروبا ويبيعونها بأثمان باهظة، حارمين الآخرين من مشاركتهم هذه التجارة المربحة، وإن لم نستطع كسر هذا الاحتكار فسنموت ببطء، فأنتم تشاهدون كيف أن خزائننا فرغت والناس في بؤس شديد، وإن لم نفعل شيئًا سنجد أنفسنا نتسول المال من ملوك أوروبا. وما يجعلني أتميَّز غيظًا هو أننا ما زلنا نستخدم عملة أعدائنا المورروز حتى الآن، إنني لا أكاد أصدق هذا!

ثم توقف قليلًا ليلعب بريشة القبعة التي أمامه محاولًا تهدئة نفسه قبل أن يقول:

- لأننا وبكل بساطة لا نملك ما نسك به عملتنا!

قالها غاضبًا وكأن الذين يحدثهم هم المسؤولون عن كل ذلك.

- أرجو أن تعيراني انتباهكما، وتكتبا ما تريدان تذكره من حديثي، لأنه مهم جدًّا جدًا.

قدم موسى للضيفين محبرة وريشة وبعض الأوراق وكأنه كان متوقعًا أهمية تدوين ما سيقال.

واصل النبيل «مانويل» حديثه:

- نحن نعلم أن هناك خطوطًا ملاحية تجارية بين الهند التي هي مصدر البهارات وبين بلاد العرب، وهذه الخطوط لا يعمل عليها سواهم، فهم يحتكرون أسرارها وموانئها. لقد حصلنا على بعض المعلومات من مخبرينا الذين استطاعوا الوصول إلى عمق

Twitter: @ketab_n

بلاد فارس والهند، ولكنها تبقى معلومات غير مرتبة وغير واضحة.

عدل من جلسته وتنفس بعمق قبل أن يكمل:

- أيًّا كان ذلك، فمن الصعوبة بمكان عمل شيء حيال الوضع الحالي، فالوجود العثماني في القسطنطينية قد منعنا من الحصول على المعلومات التي نريدها، ومنعنا من الحركة في اتجاه تلك البقاع، فنحن لا نعلم ما يدور خلف ذلك الجدار الإسلامي الصلب.

ثم رفع سبابته في وجهيهما بعد أن توقف عن الحديث برهة:

- ولكن.. نظن أن هناك طريقًا آخر قد يوصلنا إلى الهند، لسنا متأكدين ولكننا نظن فقط، إن دوركما هو أن تتأكدا لنا من المعلومات التي لدينا.

إن كلمة السر التي أوصلها لكما موسى قبل الاجتماع والتي فتح لكما بها الحارس باب هذا المنزل حال وصولكما، هي الكلمة التي ستتعرفون بها على كل عملائنا في البلاد الإسلامية، فاجعلاها في رأسيكما ولا تكتباها أبدًا.

نعم، إن الشراع المقدس يتجه شرقًا، فخلال السنوات الماضية كنا نعمل بسرِّية تامة على جمع أكبر كمية من المعلومات عن تجارة البهارات بين الهند وبلاد العرب ومنها إلى أوروبا، ونعتقد أن هناك طريقًا بحريًّا يستطيع أن يلتف حول هذه التجارة، إنه طريق إفريقيا.

ثم طرق بإصبعه على القارة الإفريقية المرسومة على الخريطة.

Twitter: @ketab_n

تغيرت ملامح النبيل «مانويل»، وركز بصره على الخريطة التي أمامه مرَّة أخرى:

- لقد وصلت سفننا بسرِّية تامة إلى غرب إفريقيا، ونعتقد أن هناك طريقًا يدور حول تلك القارة إلى الهند، ولكننا لا نستطيع أن نرسل بحارتنا وسفننا إلى المجهول، فعندما يكونون هناك فهم بحاجة إلى معرفة الموانئ، ومصادر التموين، وحركة الرياح، ومنسوب المياه والتيارات، وغيرها من الأمور التي يجب أن تعرفها السفن قبل أن تتحرك إلى المجهول. إن ما نعاني منه حاليًّا هو حركات التمرد التي تحصل في السفن من قِبل البحارة، لأنهم لم يعتادوا على الإبحار لمسافات طويلة ولأيام عديدة، وحتى نوقف حركات التمرد هذه، علينا أن نوجد مواطئ قدم لنا على طول الساحل الإفريقي.

كان يتحدث بسرعة متوقعًا من مستمعيه أن يستوعبوا ما يقول:

- لقد طلبنا من قادة سفننا أن يضعوا صليبًا خشبيًّا أو صخريًّا في كل مكان يتوقفون فيه؛ حتى يشعر بحارتنا بأن اللّه معهم في كل مكان. لقد زرعوا مثل هذه الصلبان على طول الساحل الغربي لإفريقيا، ولكن المسافة قد طالت، والبحار أصبحت أكثر هياجًا، ولا نعلم متى ستتمكن سفننا من الاتجاه شرقًا.

أسند ظهره إلى كرسيه ورمش بعينيه عدة مرات قبل أن يكمل:

- منذ عدة سنوات رسم كاهن كاثوليكي من البندقية، اسمه

Twitter: @ketab_n

«مارو»، خريطة كبيرة للعالم بعرض أربع أذرع تقريبًا، وضع بها كل المعلومات التي حصل عليها من التجار الإيطاليين الذين وصلوا إلى تلك الديار، آخرهم كان تاجرًا بندقيًّا اجتاز كل تلك البلاد واستقر في الهند وعاش بها وتزوج وأنجب، وحين قرر أن يعود إلى بلاده مرَّة أخرى وصل إلى القاهرة وهناك تُوفيت زوجته وطفلاه بسبب الطاعون، وبقي عدة سنوات يعمل مترجمًا للسلطان قبل أن يجمع من المال ما يكفي لعودته. وحين فعل، ذهب إلى البابا بكل المعلومات التي لديه، فطلب البابا من المبجل «مارو» إضافتها إلى الخريطة التي كان يعمل عليها.

إن كل تلك المعلومات التي تم جمعها على مدى سنوات طوال وضعت في تلك الخريطة والتي سندعوها خريطة «المبجل مارو»، وقد دفعنا الكثير من الذهب للحصول عليها، وما يهمنا فيها هو وجود موانئ في شرق إفريقيا وفي جنوب بلاد العرب، ومن هذه الموانئ بالذات تتحرك السفن في اتجاه الهند وتعود إليها محملة بكل أنواع البضائع. إن الوصول إلى هذه الموانئ ومعرفة المزيد عنها سيسهل علينا إرسال السفن إلى الهند عن طريق إفريقيا.

ثم ضرب بيده على الطاولة حتى يلفت انتباه الجميع:

- إن دوركما أيها السيدان هو الوصول إلى الهند ومعرفة أنواع البهارات، وأسعارها، وطرق تجارتها، وحركات الرياح والتيارات المائية، وديانات أهل تلك البلاد، ثم أن تعرفا المزيد عن المحطات التي ينطلق منها التجار العرب. نريد أن نعرف هذه الموانئ، فهي قواعد انطلاقنا. إنه أمر مهم أن تقوما بذلك على

Twitter: @ketab_n

أتم وجه وتعودا بأدق المعلومات الممكنة، وفي حال أتممتما مهمتكما بنجاح فإن الملك يعدكما بعطايا كثيرة وألقاب عالية، وستكونان قد خدمتما ملككما خدمة كبيرة.

توقف النبيل «مانويل» قليلًا، وظن الجميع أنه قد انتهى من حديثه، فوجد موسى أن الفرصة قد سنحت له الآن لإرسال رسالة شفوية إلى النبيل «مانويل» لعلها تجد صدى في بلاط الملك، فقال بسرعة:

- أيها السادة إن لدينا نحن اليهود شبكة علاقات متميزة في أغلب دول العالم، فقد أرسلت إلى أصدقائنا في القسطنطينية والإسكندرية والقاهرة ودمشق وبغداد وبيروت ورودس علمًا بقدومكما، وكل صديق لنا في هذه الموانئ سيدلكما على صديق له في الموانئ الأخرى حتى لا تشعرا أنكما مقطوعان، وكل ما عليكما فعله هو أن تقولا كلمة السر: «الشراع المقدس»، فإذا سمعتما من يقول لكما: «إنه يتجه شرقًا» فاعلما أنه على علم بمهمتكما وسيقدم لكما كل الدعم الذي تطلبانه.

زم «مانويل» حاجبيه قبل أن يواصل حديثه وكأنه لم يستمع إلى رسالة موسى:

- إن لدينا حليفًا قويًا في مكان ما في إفريقيا، وهو ينتظر قدومنا إليه بفارغ الصبر، إنه القديس «جون» الذي يحكم مملكة كبيرة هناك، ولديه جيش قوي يستطيع أن يحطم به ممالك المحمديين، وكل ما علينا فعله هو أن نصل إليه ونوحد جيوشنا لقتالهم، وأكاد أشعر أنه يخاطبني كل يوم طالبًا مني القدوم لمساعدته.

Twitter: @ketab_n

نظر «مانويل» إلى الفراغ وكأنه فقد الإحساس بوجود أناس معه:

- هل تعلمون أننا حين نجد مملكة القديس «جون»، ونوحد قواتنا معه، سنسيطر على العالم وننشر المسيحية ونتخلص من كل الهراطقة؟

فجأة تذكر أن كل الذين معه في الغرفة هم هراطقة في نظر المسيحية، فعادت له تلك النظرة الخبيثة مرَّة أخرى:

- من الغريب أن مصالحنا تغلبت على خلافاتنا الدينية، أنا أعلم أنكم كلكم يهود، ولكن هذا لا يهم طالما أننا نعمل لصالح الملك.

ثم نظر إلى الصليب المعدني الذي يعلقه موسى في رقبته:

- أمام بريق المال يخف بريق الدين يا سيد موسى، إن هذا الصليب الذي تعلقه لن يفعل لك شيئًا كما تفعل الورقة التي تحملها في جيبك والتي تقول إنك محمي من الملك.

كان «كوفيلهام» يدون بسرعة ما يقوله «مانويل»، فلم ينتبه لتعليق «مانويل» الأخير، وبعد أن انتهى وجد أنها فرصة مناسبة للسؤال:

- ولكن يا سيدي، نحن ليست لدينا فكرة عن العالم بعد جزيرة رودس، فهل لديكم خريطة تبين المدن والموانئ التي يجب أن نذهب إليها؟

قام موسى من كرسيه، وتحرك في اتجاه رف وضعت عليه مجموعة من اللفائف، اختار واحدة منها وفك رباطها وفرشها على الطاولة، ثم قال:

Twitter: @ketab_n

- إن هذه الخريطة نسخة طبق الأصل من خريطة «المبجل مارو»، ولو لاحظتم هنا - ثم أشار بإصبعه إلى الزاوية السفلى من اليمين - قائمة بأسماء بعض المدن التي نريدكم أن تذهبوا إليها وتحددوا مكانها على ذات الخريطة بدقة، فـ«المبجل مارو» لم يضع مواقع هذه المدن على الخريطة بشكل واضح، هو وضعها كما سمعها من غيره، وقد تكون غير صحيحة.

حاول «كوفيلهام» قراءة الأسماء، ولكنه لم يتمكن من النطق بها لغرابتها، فتدخل موسى حينها مبتسمًا:

- لا تُجهد نفسك، كلها أسماء غريبة، لقد حاولت فك طلاسمها، ولم أعرف سوى قراءة: سفالا وهرمز وعدن، أما البقية فإنك ستحتاج لوقت حتى تعرف كيف تقرأها.

حرك موسى إصبعه وكأنه يبحث عن بعض النقاط في الخريطة، وحين وصل إلى الإسكندرية ثبت إصبعه عليها قائلًا:

- لست أرى جيدًا، هل هذه الإسكندرية؟

رد «كوفيلهام»:

- نعم، إنها هي.

ثم حرك موسى إصبعه مرَّة أخرى حتى وصل إلى مدخل الخليج:

- سترى هنا جزيرة صغيرة اسمها هرمز، هل تراها؟ لم يعد بصري يسعفني كما كان.

ركز «كوفيلهام» بصره حتى وجدها:

- نعم، وجدتها.

- اسمعني جيدًا يا «كوفيلهام»، إن علاقتنا بما خلف البحر

Twitter: @ketab_n

المتوسط تكاد تكون معدومة، ولم نجد من يستطيع أن يمد لكما يد المساعدة هناك، إنني على اتصال بحبر الإسكندرية وهو صديق عزيز مع أني لم أره في حياتي، وقد عملنا في التجارة كوكلاء بعضنا لبعض، لقد أخبرني أنه يعرف الوزير خواجة عطار، الوزير الهرمزي، وسيعطيكم رسالة موجهة له حال وصولكم إلى الإسكندرية، على الأقل سيكون الوزير مصدرًا موثوقًا للمعلومات، وقد يربطكم بشركائه في الهند أو في الموانئ الأخرى، إنكم بحاجة لمثل هذه العلاقة عندما تكونون وحدَكم في تلك البقاع.

ثم طوى موسى الخريطة وأعطاها لـ «كوفيلهام».

شعر «مانويل» أنه يجب أن يُنهي الاجتماع:

- اسمعاني أيها السيدان، ستأخذان هذه النسخة من الخريطة معكما، وتعاملانها كأنها كنز، وعليكما أن تحددا عليها مكان كل مدينة، وتجمعا كل المعلومات التي تستطيعان الحصول عليها، إن هدفنا هو الدوران حول إفريقيا والوصول إلى الهند للسيطرة على تجارة البهارات، وكل ما سيساعد على تحقيق هذا الهدف سيكون كنزًا معلوماتيًّا بالنسبة إلينا، لديكما سنتان فقط للعودة، وفي حال لم تعودا سنعتبركما هاربين، وستُصادر كل أملاككما لصالح الملك، وسنسلم عائلتيكما لمحاكم التفتيش.

أسند ذراعيه إلى الطاولة قبل أن يواصل:

- وحتى تعودا، سنعطي أقاربكما أوراقًا تحميهم من محاكم التفتيش حتى تطمئنا عليهم خلال مهمتكما، والآن اذهبا واستعدا للرحيل، فليس لدينا الكثير من الوقت.

Twitter: @ketab_n

بانت الصدمة على «كوفيلهام» و«بافيا»، فمعنى أن تسلم عائلتاهما إلى محاكم التفتيش هو التعذيب حتى الموت وبصورة مقززة لا يستطيعان حتى تخيلها، فتدفق الدم إلى وجهيهما رُعبًا مما قد يحدث، ولكن من الواضح أن الموقف ليس موقفًا للنقاش، فحاول «بافيا» أن يهدئ من نهاية اللقاء ليصبح وداعًا لطيفًا بدلًا من تهديد مقيت:

- سنفعل ما بوسعنا يا سيدي، إننا نتمنى أن يرضى الملك عنا، فكل ما نملك فداء له.

مرت هذه الكلمات على «مانويل» بسرعة ولم تحرك فيه شيئًا، فقد أشار إليهما بيده للمغادرة.

Twitter: @ketab_n

٢

ميناء الإسكندرية

(بعد عدة أشهر)

دخل حسين الكردي يسحب حصانه خلفه إلى ميناء الإسكندرية، ووقف أمام السفن التي كانت تفرغ حمولتها على الرصيف. دائمًا ما يجد لذة في مشاهدة البحر والسفن وحركة الناس، فهو يتردد على الميناء من حين إلى آخر، خصوصًا عندما يشغله شاغل. اقترب من حافة رصيف الميناء، وبدأ يمسد بيده رقبة الحصان الذي استجاب له فحرك ذيله وصهل بهدوء وقرب رأسه من كتف فارسه وكأنه يطالب بالمزيد.

كان حسين في أبهى ملابسه كعادته، يلبس عمامة صغيرة بدون ذؤابة، وسروالًا أسود عريضًا فضفاضًا مطرزًا من الجانبين بخيوط مذهبة، وصدرية مفتوحة تزينها خيوط عرضية مذهبة أيضًا على قميص أبيض، ويضع في وسطه خنجرًا لامعًا، ويعلق على كتفه سيفًا مملوكيًّا محدودبًا. كانت عادته أن يكون في أجمل ملابسه حين يغادر القلعة، فهو قائد مائة، ولم يصل إلى هذا المنصب بسهولة، وله الحق أن يفخر بنفسه.

جاء حسين من منطقة ما تقع على النهر، عندما كان طفلًا صغيرًا يتبع سيده الذي خطفه من قريته هناك. لم يكن يعرف إلى

Twitter: @ketab_n

أين هو ذاهب. مرت أيام طويلة من التعب والجوع وأكل أوراق الشجر وشرب الماء الآسن والنوم في العراء حتى وصل إلى مدينة كبيرة لم يرها ولم يحدثه أحد عنها من قبل، قيل له إن اسمها حلب، تعلق بثياب الرجل الذي خطفه وبكى؛ فلم يرَ هذا العدد من البشر الذين يتزاحمون على كل شيء؛ فقريته كانت فقيرة صغيرة مبنية من صخر الجبال، لم يكن بها سوى عدة منازل تتقاسم الطعام والخشب حين ترعد السماء وتبرق، كم كان يستمتع باللعب في الطين بعد المطر مع أصحابه، وبعد أن تتلوث ملابسهم وتتسخ يركضون إلى النهر البارد الجاري أسفل القرية ليغسلوا ملابسهم وأيديهم. تذكر والدته التي ما فتئت تأمره بعدم الذهاب إلى هناك وحيدًا، وفي آخر مرَّة خالف أمرها شعر بيد تمسك به وتكمم فمه، وبقي منظر القرية محفورًا في ذاكرته وهو يصرخ محاولًا التحرر من خاطفه طالبًا أن يعود إليها.

لم يعد يذكر أين هذه القرية وما اسمها، ولكنه عرف أنها في جبال كردستان كما قال له سيده، فأصبح اسمه حسين الكردي.

عاش في حلب عدة سنوات تعلم خلالها القرآن، وبعض الأحاديث، وفنون القتال، حتى اشتد عوده وقوي جسده، ثم أخذه سيده إلى القاهرة. بدت له كبيرة ومزدحمة ومزعجة، كان في الثانية عشرة من عمره عندما شاهدها، وما زالت تلك المناظر كغيرها عالقة في ذاكرته، لقد اجتاز طُرقًا رملية مغبرة، وأسواقًا مزدحمة، وقوافل من الجمال المحملة بكل أنواع البضائع، ثم سار فوق جسر حجري كبير يمر من تحته ماء متدفق، لقد كانت الأرض خضراء رائعة الجمال تلك التي تركها وراءه، ثم شاهد

Twitter: @ketab_n

تلًّا كبيرًا تعلوه قلعة حصينة، دخل إليها برفقة سيده ومجموعة كبيرة من الأطفال من مختلف الأعمار. كانت القلعة مليئة بالجنود الذين بدأوا يضحكون ويمزحون مع سيده الذي يشير إلى حسين والآخرين. لم يفهم حسين لماذا هو هنا. جاء رجل ضخم قبيح الشكل وأمرهم بتعرية أجسادهم، ثم فحصهم واحدًا واحدًا، طالبًا منهم فتح أفواههم. تذكر حسين كيف أدخل هذا الرجل إصبعه القذر في فمه ليتأكد من سلامة أسنانه، ثم ضغط على لسانه الصغير عدة مرات، ثم أمره بنفخ صدره قبل أن يضربه بقوة عليه. لم يفهم ما الذي يريده هذا الرجل منه، خاف أن يبكي، فالبكاء وسط الأقران مذلة، كتم صرخة كادت أن تخرج من جوفه، ما زال الرجل يقوم بالفحص وكأنه سيشتري دابة للذبح. انتهى الرجل بعد أن أمسك ذراع حسين وحركها في جميع الاتجاهات، ثم ضرب رأسه وأمره أن ينضم إلى مجموعة من المجموعتين.

أخرج الرجل القبيح كيسًا من جيبه وسلمه لسيده، فتح سيده الكيس وأخرج ما به من دنانير وعدَّها ثم صافح الرجل، عرف حسين أن ملكيته قد انتقلت إلى شخص آخر.

أخرجت حسين من شروده وتفكيره ضربةٌ مفاجئة على كتفه:

- كيف أنت يا حسين؟ أما زلت تتأمل البحر كعادتك؟

- سليمان! لم أكن أتوقع قدومك اليوم.

- فعلًا، كان من المفترض أن أغادر إلى القاهرة مع الأمير، ولكنه أجَّل السفر ليوم آخر، تعال معي، سنأكل أفضل سكرجة في الخان، فأنا جائع جدًّا.

Twitter: @ketab_n

قبل أن يدير حسين جسده للناحية الأخرى، لفت نظره أمر ما:

- انتظر قليلًا يا سليمان. هل ترى التُّجار البنادقة في تلك السفينة الراسية هناك؟ كم يعجبني لباسهم المميز، ولكني لست أعرف كيف يلبسون هذه السراويل الضيقة جدًّا أو كيف يتحملونها! انظر إلى خناجرهم الرفيعة، تكاد تكون كالإبرة! كم أود مرافقتهم في رحلة العودة، أريد أن أرى العالم يا سليمان، لم أشاهد البندقية من قبل، بل لم أشاهد أي مدينة خلف هذا البحر، هل تُصدق ذلك يا سليمان؟ مع حبي الشديد للبحر إلا أني أراه فقط بدون أن أجربه.

رد سليمان بتهكم كعادته:

- لست أعلم سر حبك للبحر يا حسين، إنه كالسيدة الجميلة، قد يكون الاقتراب منها خطرًا جدًّا، ولكن مع ذلك تُحركك غريزتك نحوها، هكذا البحر، نعرف خطورته ولكن نحب أن نجربه، أليس هذا غريبًا؟

فجأة وبدون مقدمات دخلت قافلة من الجِمال إلى الميناء، كان هديرها ورغاؤها يملأ الأرجاء، مئات منها محملة بالبهارات القادمة من الهند عن طريق السويس، يحرص تجار الكارمية على وصولها كاملة إلى الإسكندرية، فهم يحتكرون التجارة من عدن وحتى السويس، يكاد يكون البحر الأحمر ملكًا لهم، وهم شركاء السلطان في تجارته مما أضفى عليهم نوعًا من الخصوصية عن غيرهم من التجار، لهم مصطلحاتهم الخاصة وشبكة اتصالاتهم، ومن الصعوبة معرفة تفاصيل تجارتهم، ولكنهم يدفعون ضريبتهم

Twitter: @ketab_n

للميناء كما يفعل شركاؤهم البنادقة، وهذا ما يهم أمير الميناء الذي يتجاوز عن كل فوضى تصنعها هذه القوافل طوال بقائها في الميناء.

في الخان القريب جلس حسين وسليمان على طاولة تحت شجرة تين وارفة الظلال، كانا يفضلانها على بقية الطاولات في الخان. جاء النادل الذي كان يعرفهما حق المعرفة، رجل بدين به عاهة، فكتفه اليمنى منخفضة عن اليسرى بشكل واضح، يمشي بعرجة خفيفة، سبق أن عمل جنديًّا في الجيش، ولكنه تعرض لضربة قوية على كتفه خلال إحدى المعارك، فأصبح ميلان جسده عائقًا أمام عمله في الجيش الذي سُرح منه ليعمل في الخان، كانت علاقته بحسين وسليمان قديمة، يستمتعان بحديثه وهو يستمتع بإغاظتهما.

- مرحى مرحى بالسادة الأتابك، كم أنا مسرور بوجودكما هنا، أرجو أن تكون جيوبكما مليئة بالمال اليوم، لأني لم أتسلم بقشيشًا محترمًا منذ الصباح، هل أصبح الناس أكثر بخلًا هذه الأيام؟ أتمنى أن تثبتوا لي أنكم لستم كذلك.

قرب وجهه من وجه سليمان وكأنه يتفحصه:

- لست أرى كرمًا في هذا الوجه اليوم، لعل وجهك يا حسين يكون أفضل من صاحبك!

ضحك بصوت عالٍ. بعدها نظر إليه حسين بابتسامة:

- أتابك! أتابك مرَّة واحدة؟ هل تريد أن تقتلنا عندما توزع علينا هذه الألقاب يا جعفر؟ نحن ما زلنا أمراء مائة، ونتمنى أن نبقى هكذا فترة طويلة، وعليك أن تنسى لقب «الأتابك» هذا أرجوك، لقد قرفتنا به.

Twitter: @ketab_n

مسح جعفر الطاولة وهو يقول بهدوء ويشدد على كل كلمة ينطقها:

- ستكونان أمراء مائة ثم ألف ثم أتابك ثم يقتلكم أحد أو تقتلون أحدًا، هكذا حال الدنيا في القاهرة.

رد سليمان بضحك:

- ولكننا في الإسكندرية يا رجل، ألا تلاحظ أنك بدأت تتحدث كثيرًا منذ أن اعتزلت الجندية؟ أحضر طعامنا بسرعة قبل أن يسمعك أحدهم.

ثم نظر سليمان إلى بطن جعفر الضخم وكأنه يتفحصه:

- أعتقد أن كرشك أصبحت مخزنًا لحديثك، كم تضخمت منذ أن رأيتها آخر مرَّة! إنها أكبر من بطن أي أتابك أعرفه، اذهب الآن وأحضر لنا أفضل طعام عندك قبل أن أعيدك للجيش معنا.

ضحك جعفر وتحرك بطنه على إيقاع ضحكه:

- لو نصبتني أتابكًا في جيش سلطانك ما قبلت، إنكم تتلذذون بالتآمر على بعضكم. على فكرة، سألقب المعلم في القهوة بذلك حتى يقتله أحدهم ونتخلص من قرفه، فهو يطلب منا العمل طوال اليوم، وبعدها يأمرنا بتنظيف الخان حتى يلمع، كم أكره هذا الرجل، كنت أعتقد أني تركت التلميع بعد أن تركت الجيش، ولكن من الواضح أن تلميع الأشياء مهنة لا تحب أن أتركها، هناك كنا نلمع سلاحنا وخوذنا وخيولنا، وهنا نلمع المطبخ وأواني الطهي وصلعة صاحب الخان الكريهة التي لا أطيق رؤيتها فوق وجهه العفن.

نظر حوله ليتأكد من أن صاحب الخان ليس قريبًا:

Twitter: @ketab_n

- المهم، جهزوا بقشيشكم.

ثم غادر ليحضر لهم الطعام. نظر سليمان إلى حسين، وشاهد الشرود في نظراته:

- ما الذي تفكر فيه يا صديقي؟

كان حسين دائم التفكير كعادته، ولم يكن يفتح قلبه إلا لسليمان، صديقه القديم منذ أيام الطفولة، بدأ حديثه وكان سليمان على علم بما سيقول:

- أفكر في هذه الفوضى التي نعيشها يا سليمان، إن الصراعات الدائمة بين الخشداشية ورفقاء السلاح أصبحت لا تُطاق، وكل تلك الثورات التي تحصل في الصعيد وفي القلاع السلطانية ومع الأجلاب تجعل البلاد لا تكاد تستقر، ولو لم تكن تجارة البهارات هذه لكنا انتهينا.

نظر حسين إلى عصفور حط على غصن قريب منه، وانتظر حتى يسمع زقزقته قبل أن يكمل وهو ما زال ينظر إليه:

- إن وضع الدولة المالي منهار تقريبًا، ومع ذلك فالسلطان قايتباي يصرف الكثير من الأموال التي يأخذها غصبًا من التُّجار على تحصين القلاع وتجييش الجيوش بالسخرة، لماذا؟ هل تعرف أنه لم يدفع رواتب الجيش منذ ثلاثة أشهر، حتى الخاصكية بدأوا يتذمرون من تصرفاته.

أعاد بصره إلى سليمان وهو يتحدث:

- ثم، ما قصة احتكاره تجارة البهارات مع الهند هذه؟ لماذا يتدخل السلطان في كل شيء ولا يترك السوق لأهله؟ أخبرني أحد تجار الكارمية مؤخرًا أنهم قد يوقفون تجارتهم في الإسكندرية،

Twitter: @ketab_n

والسبب أن السلطان يعمل معهم شريكًا فترة ثم يزيد عليهم الضرائب فترة أخرى، لقد أصدر قرارًا مؤخرًا يمنع فيه تجار الكارمية من بيع بضائعهم في جدة أو في أي ميناء على البحر الأحمر، هل تصدق ذلك؟ كيف تمنع شركاءك من التجارة؟ وما الهدف من قرار كهذا؟

وضع جعفر أطباق الطعام أمامهما بسرعة قبل أن يسأل بصوت عالٍ:

- هل تريدون شيئًا آخر أيها السادة الأتابك؟

ثم أتبع ذلك بضحكة عالية اهتزت كرشه على إيقاعها. لم يلقيا له بالًا كعادتهما عندما يتحدثان.

ابتسم سليمان، فقد اعتاد على مثل هذا الحديث من حسين:

- رويدك رويدك، ما زلت تفكر في كل شيء في نفس الوقت، ألا تستطيع أن تضع لك أولويات يا حسين؟ ستُهلك نفسك وأنت ترى الجانب المظلم في كل شيء حولك!

غضب حسين من هذا التعليق:

- كم أود أن أكون صاحب قلب ميت مثلك يا سليمان، ولكني لست كذلك، إني أرى المصيبة قادمة ولا أستطيع السكوت عنها، إن كل شيء حولنا أصبح فوضويًّا بائسًا: التجارة، الحكم، الجيش. قل لي أنت باللّه عليك، ما رأيك في ما يحصل؟

وكأن حسين يريد أن يضع سليمان في مشكلته، كرر السؤال مرَّة أخرى:

- قل لي الآن، ما الذي يجعلك سعيدًا وأنت ترى كل هذه المشاكل حولك؟

Twitter: @ketab_n

شعر سليمان أنه لا بد أن يجاري حسين، فهذا آخر يوم له قبل أن يغادر مع سيده إلى القاهرة ولا يريد أن يغضب صديقه العزيز، فقرر مجاراته، فأظهر الجدية ثم التفت يمنة ويسرة حتى يتأكد من أنه ليس هناك من يتنصت عليهما، ثم تكلم بهمس:

- منذ أن جلس على كرسي السلطنة وصاحبك قايتباي في توتر مستمر، فهو يخاف من الفرنجة ويخاف من العثمانيين ويخاف من الصفويين في نفس الوقت، ولهذا تراه يحتكر كل تجارة ناجحة ثم يدمرها بجشعه حتى يستطيع أن يصرف على الجيش ثم يرسله إلى بلاد الشام لمحاربة الممالك التركمانية هناك، أو يرسل التجريدات إلى حدود العثمانيين ليناوشهم، حتى يقول لهم إن هذه المنطقة لي فلا تقربوها، ولو كان جادًّا في محاربة الفرنجة لأرسل أسطوله لمساعدة الأندلسيين الذين ما زالت وفودهم تنزل رحالها أمام قصره، ورسائلهم أصبحت تتكدس على مكتب وزيره.

غمس خبزة في طبق الطعام الذي أمامه وهو يقول:

- إنها خربانة يا صديقي!

لم يمد حسين يده إلى الطعام حتى هذه اللحظة، فكان مهمومًا بما يجول في عقله، ثم، وكأنه تذكر شيئًا:

- هل تصدق يا سليمان أن البرتغاليين يحاولون أن يصلوا إلى الهند بالدوران حول إفريقيا، أي من خلفنا، ولو نجحوا في ذلك فإنهم قد يدخلون مصر من نهر النيل!

قطب سليمان بين حاجبيه في دهشة:

- مَن أخبرك بذلك؟

Twitter: @ketab_n

- أحد التجار البنادقة الذي قدم إلى الإسكندرية مؤخرًا.

- هل هذا معقول؟

نظر حسين إلى البحر قبل أن يقول:

- إن ما يمنعهم هو بُعد المسافة من البرتغال إلى آخر نقطة في إفريقيا، فهي بعيدة جدًّا وكلما أرسلوا سفينة يحصل فيها تمرد فتعود أدراجها.

حرك سليمان يده بسرعة فوق الطعام لطرد الذباب قبل أن يغمس قطعة الخبز التي يمسكها في الطبق:

- إذا كانت المسافة بعيدة بين البرتغال وبين آخر نقطة في إفريقيا فلماذا الخوف إذن؟ سيموتون جوعًا وعطشًا قبل أن يصلوا إلى النهاية.

أبعد حسين عمامته عن مقدمة رأسه:

- ولكن ماذا لو نجحوا في مهمتهم؟ فقط تخيل ما الذي يمكن أن يحدث!

رد سليمان، وهو يمضغ الطعام بسرعة:

- لن ينجحوا، ولن يحدث شيء، حتى وإن نجحوا، سنحاربهم حينها كما حاربنا الكثير غيرهم، سنصنع سلسلة كبيرة ونضعها بين ضفتي نهر النيل لنمنع سفنهم من الإبحار فيه، ونقاتلهم في الجنوب قبل أن يصلوا إلى القاهرة، المسألة ليست صعبة كما تتوقع.

وضع حسين يده على جبهته محاولًا تهدئة نفسه:

- كيف ستحاربهم يا صديقي؟ ستكون حينها نهاية مصر ونهاية الدنيا!

Twitter: @ketab_n

توقف سليمان عن المضغ وكأنه يسمع شيئًا جديدًا شد انتباهه:

- نهاية الدنيا! كيف ذلك؟ ومَن أخبرك؟ وهل قرأت عن ذلك في الحديث أو القرآن؟ أرجوك لا تقل لي شيئًا لست متأكدًا منه، أنا أعرف أن تدينك يأتي ويذهب على حسب رغبتك وأهوائك، وبما أنك في حالة سيئة وتفكر كثيرًا فمعنى ذلك أنني يجب أن أكون على حذر مما تقوله.

ابتسم حسين، فهذا ما يحبه في صديقه سليمان، إنه يحتمله ويحتمل تقلب نفسيته وكثرة أسئلته. وضع يده على كتف سليمان:

- كُل يا صديقي، فلن تجد مثل هذا الطعام في القاهرة حيث أنت ذاهب غدًا.

فوجئا بدخول مجموعة من الجند إلى الخان، تحدث قائدهم مع جعفر قبل أن يصعدوا إلى الطابق العلوي.

سمع الجميع أصواتًا وصراخًا، فركض جعفر إلى الطابق العلوي ليستطلع الأمر، وبعد لحظات نزل الجميع وهم يحملون جرارًا كبيرة وملابس ثمينة ورزمًا مربوطة ثم غادروا الخان.

استدعى حسينُ جعفر وسأله:

- ما الذي حصل لديكم؟ ولماذا هذه الضجة؟ ومَن هؤلاء الجند الذين يحملون كل هذه البضاعة؟

لم يكن جعفر مبتسمًا كعادته هذه المرَّة:

- هؤلاء الأوغاد أرسلهم أمير الميناء لأخذ بضاعة تاجرين من المغرب لم يدفعا ما عليهما من ضريبة للميناء، لأنهما عندما

Twitter: @ketab_n

وصلا إلى هنا قالا إنهما سيدفعانها خلال يومين حين يتمكنان من تحويل بعض ما معهما من بضائع إلى مال، ولكنهما لسوء الحظ وقعا مريضين طوال الأيام الماضية ولم يغادرا، ولذلك أرسل أمير الميناء هؤلاء الجنود لمصادرة بضاعتهما، وهما - ياعيني - لم يستطيعا فعل شيء غير الصراخ لضعفهما الشديد.

سأله سليمان مستغربًا:

- ولكن كيف يعيشان ويدفعان أجر الطعام والشراب إن كانا في هذه الحالة من المرض؟

- إن أمرهما غريب يا سيدي، فحين وصلا على سفينة قادمة من رودس نزلا في هذا الخان، ودفعا لي أجرة الغرفة ليومين فقط، وسألني أحدهما عن مكان المعبد اليهودي في الإسكندرية، مع أنه لم يبدُ عليهما أنهما يهوديان، بل إن لكنتهما مغربية واسميهما يدلان على أنهما مسلمان، أليس هذا غريبًا بعض الشيء؟ على العموم أنا قلت ربما تكون لديهما رسالة يريدان إيصالها إلى الحَبر اليهودي، فهذا الحَبر مثل مهمندار السلطنة، الكثير من التُّجار يسألون عنه أو أنه يسأل عنهم.

لم يكن جعفر يريد السكوت، فقد كان بحكم عمله يعرف الكثير عن نزلاء الخان، فواصل حديثه:

- لقد حضر هذا الحبر بعد أيام قليلة إلى هنا ودفع لي أجرة أسبوع لهما بالإضافة إلى أجرة الطعام، وطلب مني أن أحضر طعامًا خاصًّا لهما، وأن أعتني بهما قدر استطاعتي.

ضرب جعفر بيده على رأسه وكأنه تذكر شيئًا:

Twitter: @ketab_n

- لقد طلبا مني أن أستدعيه بعد أن أخذ الجند بضاعتهما فلعله يستطيع أن يتحدث مع أمير الميناء ليعيدها إليهما، وعليَّ أن أفعل ذلك بسرعة، فهو يدفع كثيرًا هذه الأيام على غير عادته.

ثم صمت قليلًا قبل أن يدير جسده، وقال بصوت عالٍ:

- وعلى غير عادتكما أيضًا.

Twitter: @ketab_n

٣

ميناء العقير، شرق الجزيرة العربية

كانت ليلة جميلة مقمرة، اصطبغ فيها الماء باللون الفضي الذي يسكبه القمر مع إطلالته عندما يكون بدرًا، بدا كل شيء هادئًا، لم يكن هناك سوى صوت البحارة وهم ينادون على بعضهم أو يتحدثون بأصوات أقرب ما تكون إلى الهمس حتى لا يزعجوا النائمين منهم، وبدت النيران التي أشعلوها في سفنهم تخبو وتخفت، فالليل على وشك أن ينتصف ولم يكن البحر ليترك لهم قوة لمقاومة النوم.

رفع أحد البحارة رأسه على وقع سفينة قادمة من بعيد تحركها ثمانية مجاديف تضرب الماء بتناغم بديع، لم يكترث وألقى برأسه على وسادته ونام.

تحركت السفينة بهدوء وسط السفن الراسية حتى دخلت إلى الميناء، ومع سماع الصافرة ارتفعت المجاديف إلى الأعلى ثم سُحبت إلى الداخل بسرعة، قفز شخص من على سطحها إلى الرصيف وربطها، وبعد عدة دقائق نزلت مجموعة من الرجال منها وتحدثوا مع بعضهم ثم اختفوا في الطريق المؤدي إلى غابة أشجار النخيل القريبة من الميناء.

Twitter: @ketab_n

ومع بزوغ شمس اليوم الثالث على وصول تلك السفينة، بدأ مجلس السلطان مقرن بن زامل الجبري الواقع وسط مزرعة كبيرة في الأحساء يغص بالزوار والوفود، ففي الخارج تقف القوافل المحملة بالبضائع القادمة من الهند والصين والعراق وفارس واليمن، بضائع من كل الأنواع والأشكال، ورجال بمختلف اللغات واللهجات، حتى أضحى المدخل إلى مزرعة السلطان سوقًا يومية يقصدها الناس لرؤية عجائبها وغرائبها.

وأمام بوابة المزرعة تصطف مجموعة من العبيد بلباس موحد في صفين متقابلين واضعين أطراف سيوفهم على الأرض، وممسكين بمقابضها بكلتا اليدين، يراقبون الداخل والخارج، لم يكن منظرهم يوحي بالسرور، فأعينهم ترمق كل قادم وتمنع كل متسلل، وبسبب هذه العيون القاسية اجتمع الكثير من الفقراء أمام الباب لا يتجرأون على دخول المزرعة في انتظار أن يخرج إليهم من يتصدق عليهم ببعض المال.

وتحت ظل مجموعة متشابكة من الأشجار المثمرة صُفت الكثير من الوسائد وفُرشت الزرابي التي يجلس عليها السلطان وضيوفه، وعلى يمين المجلس مجرى ماء متدفق من عين تنبع غير بعيد عن المكان، ماؤها عذب فرات بارد، وفيها الكثير من الأسماك الصغيرة التي تحاول السباحة عكس اتجاه تيار الماء بدون كلل، لم يكن يُسمح لأحد بالاقتراب من مجرى الماء هذا، إذ إنه المكان المفضَّل للسلطان للسباحة عندما تشتد الحرارة.

وفي صدر المجلس يجلس السلطان مقرن كعادته مادًّا رجليه، فهو في الخمسين من عمره، تغلُب على وجهه سُمرة

Twitter: @ketab_n

بسيطة، له ضفيرتان طويلتان تصلان إلى أعلى صدره، وعلى رأسه غترة مطرزة يلف عليها قطعة مفتولة من القماش الملون فبدت وكأنها عمامة كبيرة، وله لحية كثة أطول من قبضة يده يخالطها البياض، ويلبس ثوبًا قطنيًّا له أكمام واسعة جدًّا، تكاد تصل أطرافها إلى الأرض عندما يقف.

يجلس أمام السلطان تاجر هندي من البانيان، يلبس عمامة تجار الهند التي يتدلى طرفها الخلفي إلى أسفل الظهر وتنفتح كالمروحة من الأعلى. بدا التاجر متوترًا وهو يعرض بضاعته على السلطان، فقد نثر أمامه كل ما يملك: جواهر من العقيق والألماس والياقوت، وخواتم نُقشت بشكل رائع، وسيوف هندية مذهبة، وخناجر مطعمة بالألماس، وأحذية مطرزة بالذهب معقوفة المقدمة، وغيرها من البضائع.

لقد تعود السلطان على أن تُعرض أمامه مثل هذه البضائع، وتعود أيضًا على ألّا يُظهر إعجابه بها إن كان يريد أن يحصل على سعر معقول، فهو يأخذها ثم يُقلِّبها بين يديه، قبل أن يمررها إلى وزيره غرير بن رحال، فإن أعجب السلطان شيء فإنه يترك أمر التفاوض لابن رحال للحصول على أفضل سعر من التجار، أو أن يبادلهم باللؤلؤ الذي يحتكر السلطان مغاصاته حول جزيرة البحرين وإلى الشرق من قطر حتى قبل الساحل العماني.

خلال مناسبة كهذه يجد زوار السلطان سعادة كبيرة في التفرج على هذه البضائع النفيسة التي تُعرض، والمحظوظ منهم هو الذي يجلس قريبًا منه وتسنح له الفرصة لسماع الحديث ولمس البضاعة وتقليبها، فمثل هذه البضائع لا تنتقل بسهولة بين الموانئ، ولكنها

Twitter: @ketab_n

تحتاج إلى كثير من الاحتياطات لنقلها، ولا يستطيع أن يقوم بذلك سوى التجار البانيان الهنود بشبكتهم الواسعة المعقدة من العلاقات مع زعماء المناطق والموانئ وحتى مع القراصنة الذين ينتشرون في البحر.

تكدست البضاعة التي وصلت إلى ابن رحال، فأمسك خاتمًا مطعمًا بالجواهر بيده ورفعه أمام التاجر:

- بكم هذا الخاتم يا بانيان؟

شعر البانيان، بحكم خبرته، بمشروع صفقة، ولكن كان يتوجب عليه الحذر في تحديد السعر، فهو لا يريد أن يظهر بمظهر التاجر الجشع، وفي نفس الوقت يريد أن يرفع هامش الربح قدر الإمكان:

- اعتبره هدية للسلطان من عبده التاجر الحقير الذي يقف أمامه ذليلًا يا سيدي.

ضحك الجميع من هذا التعبير الذي اعتادوا سماعه بصيغ مختلفة من التجار الهنود.

لم يكن غرير بن رحال بالرجل السهل الذي تنطلي عليه مثل هذه المجاملات، فقد جاء مع والده وهو في الخامسة من عمره إلى الأحساء قادمًا من نجد، ووجد والده وظيفة في القصر لتدريس القرآن واللغة العربية لأبناء السلطان أجود أخ السلطان مقرن. وكان ابن رحال ذكيًا لبقًا، فتربى في القصر بعد وفاة والده كأحد أبناء السلطان، حتى كبر واشتد عوده، وأصبح بمرور الوقت من جلساء السلطان مقرن ومستشاريه على فارق العمر بينهما.

Twitter: @ketab_n

كان ابن رحال وسيمًا، له نظرة حادة تكاد تكشف محدثه، يتكحل بشكل يومي مما يضفي على نظرته غموضًا ورهبة، وهو في بداية الثلاثينيات من عمره، طويل القامة، تنسدل ضفائر شعره السوداء إلى كتفه، عمل في التجارة وسافر إلى الهند كثيرًا، وهو دائم التنقل بين العقير وخليج سلوى وميناء جلفار، ولكنه لم يصل إلى سواحل عمان التي تسيطر عليها مملكة هرمز، مع رغبته العارمة في زيارتها عندما تسنح له الظروف بذلك.

ابتسم ابن رحال ابتسامة فيها الكثير من المعاني:

- هيا، قل لي بكم هذا الخاتم؟

- إنه بألف دينار أشرفي يا سيدي.

كعادة ابن رحال في أمر كهذا، قطب بين حاجبيه وأغمض عينيه نصف إغماضة وركزهما على محدثه:

- ماذا؟ ألف دينار أشرفي! هذا كثير يا رجل!

بدأ البانيان يتصبب عرقًا، فألصق كفيه بعضهما ببعض وقربهما من وجهه:

- أقسم بكل المقدسات التي أومن بها أن هذا هو سعره يا سيدي، وأنا على استعداد لأن أغمس إصبعي في الزيت الساخن تأكيدًا لصدقي.

كان السلطان يستمع إلى النقاش الدائر وإن كان يبدو عليه أنه مشغول بشيء آخر، فتساءل:

- ما قصة هذا الزيت الساخن؟ هل تعرف شيئًا عنه يا ابن رحال؟

Twitter: @ketab_n

ابتسم البانيان ومد يمناه بطريقة خجولة في اتجاه ابن رحال وهو ينظر إلى السلطان، وقال بأسلوب أقرب ما يكون للهمس:

- إنه يعرف يا سيدي.

كان ابن رحال يحب أن يحكي غريب القصص للسلطان الذي يستمتع بها، فنظر إلى السلطان قائلًا:

- لديهم عادة غريبة في الهند أيها السلطان، فعندما كنت في كاليكوت رأيتهم يحضرون رجلًا اتهموه في قضية، ووضعوا أمامه وعاء من الزيت المغلي، ثم أمروه بأن يغمس إصبعيه السبابة والوسطى فيه للحظات، وبعدها لفوا الإصبعين بقماش وختموه بالشمع ثم حبسوا الرجل لمدة ثلاثة أيام، لم أبقَ لمدة كافية لأعرف نتيجة ذلك بنفسي، ولكني أعرف أنهم بعد مرور هذه الأيام الثلاثة يجتمعون مرَّة أخرى ويفتحون الرباط المختوم، فإن كان الإصبعان قد التحمتا فهو كاذب، أما إن كانتا منفصلتين فهو صادق.

كان ابن رحال مادًّا يده اليمنى وقابضًا بقية أصابعه عدا السبابة والوسطى حتى يرى محدثه ما يقصد، ثم أكمل حديثه:

- ودعني أقل لك أيها السلطان إن صرخة الرجل التي سمعتها لا توحي بأن إصبعيه ستكونان سليمتين، فهي صرخة من فقدهما إلى الأبد.

ضحك السلطان بصوت عالٍ، ثم نظر إلى البانيان قائلًا:

- هل نحضر الزيت المغلي؟ أم أنك ستتراجع عن سعرك؟

قرب البانيان كفيه من وجهه وركع أمام السلطان وهو يقول:

Twitter: @ketab_n

- سأفعل ما تريد أيها السلطان، ولكن صدقني هذا هو السعر الذي يستحقه هذا الخاتم الثمين.

نظر ابن رحال إلى الخاتم يتأمله مرَّة أخرى، لقد كان من الذهب الخالص، بعرض إصبع صغيرة، تعلوه ماسة كبيرة لامعة يحرسها من الجوانب نصفا أسدين متحفزين صنعهما صائغ مبدع، وغطت بقية الخاتم فصوص صغيرة من الألماس زادت من وزن الخاتم وجعلت منه تحفة فنية رائعة.

في تلك الأثناء جاء أحد الحرس من الباب، وأسر في أذن الحارس الذي يقف خلف السلطان أمرًا، فركع هذا بدوره أمام السلطان وحدثه بما سمعه، حينها حرك السلطان رأسه علامة الموافقة، وطلب من البانيان المغادرة بإشارة من إصبعه، ثم تذكر أمرًا وقال:

- اشترِ منه الخاتم يا ابن رحال وأبقه معك، سنهديه إلى الخليفة في مصر.

وبإشارة من الحارس الذي كان يقف خلف السلطان قام كل مَن في المجلس عدا ابن رحال الذي بقي قريبًا من السلطان.

ثم وجه السلطان حديثه لحارسه الشخصي:

- أدخِلوا الرسول.

دخل الرسول الهرمزي ومشى إلى حيث مجلس السلطان، بدا واجم القسمات وكأنه جاء بخبر سيِّئ، وقف أمام السلطان ثم جلس وقد ثنى ساقيه أسفل جسده وخفض رأسه قليلًا، ثم مد ذراعه اليمنى ولمس بطرف إبهامه السجادة التي يجلس عليها السلطان ثم قبَّله:

Twitter: @ketab_n

- السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته أيها السلطان العظيم.

تعوَّد السلطان أن يزوره الكثيرون، ولكن أن يزوره رسول من مملكة هرمز فهذا لا بد أن يكون أمرًا مهمًّا. ومع أن السلطان يدفع ضريبة لمملكة هرمز إلا أنه في حقيقة الأمر يعمل منفردًا بدون الرجوع إلى ملك هرمز في أي شيء، فما الذي يريده هذا الرسول الآن؟

رد السلطان:

- وعليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته أيها الرسول، كيف كانت رحلتك إلى هنا؟

- كانت طيبة وسهلة أيها السلطان، ولكننا ما إن اقتربنا من البحرين حتى توقفت الرياح وسكنت، فاضطررنا لاستخدام المجاديف حتى نصل إلى العقير، وحمدًا للّه أننا حضرنا في سفينة عسكرية بها ثمانية مجاديف وإلا كنا بقينا هناك حتى تتحرك الرياح.

كعادة نبلاء هرمز، كان الرسول يلبس ملابس قطنية من الكتان الخفيف الذي تشتهر الهند بصناعته، قميص طويل يصل إلى منتصف الساق، وبنطال مزين بنقوش ذهبية عند الكاحلين، مع عمامة لُفت بطريقة غريبة بعض الشيء وعُلقت في مقدمتها سلاسل من الذهب والفضة، ويربط في وسطه نطاقًا من الحرير وضع فيه خنجرًا صغيرًا من الفضة الخالصة.

يعرف السلطان عن الهرامزة أنهم تجار مهرة، ولديهم أسطول بحري قوي، ويتحدث أغلبهم اللسان العربي، وقد ابتكروا لهجة خاصة حين يتحدثون بعضهم مع بعض هي عبارة عن خليط من

Twitter: @ketab_n

العربية والفارسية والهندية، ولكن اللغة العربية بقيت لغة القصر الرسمية، وهم بمجملهم على المذهب الشافعي وإن كان يعيش في المملكة بعض المسيحيين والهندوس والوثنيين ولكن بأعداد قليلة.

اندفع بعدها الخدم بتقديم المشروب والطيب للسلطان وضيفه، كانوا يقومون بذلك بطريقة آلية، فهم يعرفون متى يجب أن يفعلوا ما يسر السلطان قبل أن يتفوه به. وبعد أن فرغ الرسول من شرب منقوع البلح، اتكأ على وسادة كانت بقربه وكأنه شعر بشيء من الراحة بعد أن بل ريقه.

كان النهار قد انتصف، والحرارة ترتفع كعادتها في هذا الوقت من النهار، فشاهد السلطان قطرات العرق وهي تسيل على جانبي وجه الرسول الذي غلبه التوتر.

التقط السلطان مهفة من الخوص وُضعت بجانبه وبدأ يحركها أمام وجهه وأعطى أخرى للرسول الذي بدأ يحركها بسرعة أمام وجهه أيضًا.

قال السلطان لضيفه:

- عندما تتوقف الرياح أيها الرسول فإننا يجب أن نحركها بأنفسنا شأنها شأن أي شيء آخر.

يود السلطان أن يعرف سبب هذه الزيارة المفاجئة، ولكنه لم يُرد أن يفتح النقاش مع الرسول بطريقة فجة، وكعادة العرب يشرعون في طرح أسئلة عامة قبل الولوج في الحديث الحقيقي:

- كيف هو الجو عندكم في هرمز؟

Twitter: @ketab_n

- إنه حار ورطب جدًّا يا سيدي، فهو لا يختلف كثيرًا عن هنا، وإن كنا نعاني من ندرة المياه وجفاف الأرض، ولو لم تكن تجارتنا منتعشة لما أمكننا أن نعيش على الجزيرة، إن منازلنا من الطين المعجون بالقش ونحفر في أساسها بعض الشيء لتكون لدينا غرف تحت سطح الأرض منخفضة عن بقية المنزل، وهي الغرف التي تكون حرارتها مقبولة في الصيف، وفيها نقضي صيفنا حتى إذا تحسن الجو استخدمنا بقية المنزل.

- وكيف تتصرفون مع شح المياه؟

- لقد وضعنا سُفنًا كثيرة مهمتها فقط جلب المياه من جزيرة قريبة منا تسمى «جسم» ويسميها الفرس «قشم»، نضعه في خزانات تحت الأرض يحرسها جنودنا طوال اليوم، ويوزع على منازل المدينة كل على قدر حاجته، إن الماء لدينا ثمين وليس كما هو لديكم هنا، فأنا أسمع صوت تدفقه تحت الأرض منذ أن دخلت الأحساء.

- وكيف هي التجارة لديكم؟

- ما زالت شبه منتعشة كعادتها، فالتجار يحبون أن ينزلوا في هرمز لأسباب عدة، منها أن لدينا نظامًا قويًّا لحماية التجارة، ولدينا الكثير من المخازن التي بنيناها قريبًا من الميناء، ونتعامل بكل العملات التي يتعامل بها التجار في كل الموانئ المعروفة، ولدى تجارنا وكلاء في بلاد الزنج والهند والصين وبلاد فارس واليمن، فلا تكسد بضاعة ولا تفقد عملة قيمتها، فلدينا من يشتري كل شيء.

Twitter: @ketab_n

- وماذا عن أملاك هرمز في عمان؟

- إنها تدفع ضريبتها وترسل لنا التمور والفواكه المجففة، ويذهب إليها أغنياء هرمز لشراء البساتين، إنها كل شيء بالنسبة إلينا، ولكن الصراعات بين أمرائها تكاد تستهلكنا، فهم في صراع مستمر بعضهم مع بعض ولا يهدأون إلا صيفًا عندما يكون الجو حارًّا رطبًا لا يسمح بالحركة والقتال.

توقف وكأنه كان مترددًا فيما يريد أن يقول:

- إن حكام عمان يستخدمون رجالكم في بعض الأحيان لشن حملاتهم على بعض كما تعلم أيها السلطان.

تغير وجه السلطان وخفض عينيه وكأنه يريد أن يتذكر شيئًا:

- لقد سمعت بذلك وتحققت منه، إنهم رجالنا فعلًا، ولكنهم بعيدون عنا، ولا نعرف ما الذي يحصل هناك إلا بعد حدوثه بفترة طويلة، لقد أمرت بتغيير أمير جيش الجبور هناك منذ حوالي السنة، وظني به لا يشترك في الصراعات، أليس كذلك؟

رد الرسول بسرعة:

- بلى يا مولاي، إن المغريات هناك أكثر وأجمل من أن تقاوم، فالبساتين والخيرات تغري كل شخص مهما كان ولاؤه قويًّا، إنه المال يا سيدي.

شعر الملك أنه يجب أن يدخل في صلب الموضوع الآن حتى لا يضيع الوقت في حديث جانبي لا قيمة له:

- ما سبب زيارتك لنا أيها الرسول؟ أتمنى أن يكون خيرًا.

Twitter: @ketab_n

بدا وكأن الرسول كان ينتظر هذا السؤال منذ فترة طويلة، حنى رأسه قليلًا قبل أن يقول:

- إني في مهمة خاصة يا سيدي لا تحتمل التأجيل، ولهذا أنا هنا في مجلسك العامر.

Twitter: @ketab_n

٤

ميناء عدن، اليمن

رست سفينة تجارية قادمة من السويس في ميناء عدن فجرًا، ونزل منها بعض التجار بينهم تاجران مغربيان يحملان جرارًا كبيرة محملة بالعسل والبضائع الأخرى، لم يُودِّعهما أحد ممن كان معهما في السفينة، ومن الواضح أنهما لم يكوِّنا صداقات مع بقية التجار وعزلا نفسيهما عن الركاب طوال الرحلة.

ومع بزوغ الشمس استطاع «كوفيلهام» و«بافيا» اللذان ما زالا في زيهما المغربي مشاهدة الميناء، فهو يقع على مدخل البحر الأحمر، أو بحر القلزم كما يحب الناس تسميته هنا، في منطقة محصنة، وخور يتسع لمئات من السفن القادمة من أطراف الأرض، وخلف الميناء يظهر سور المدينة والبوابة الرئيسية، وخلف كل ذلك الجبال الصخرية الجرداء التي تحرس المدينة من الخلف، والميناء يبدو مرتبًا وحسن الإدارة، وهو محمي طبيعيًّا من الرياح الموسمية، فالسفن الصغيرة ترسو في جهة والكبيرة في جهة أخرى، والبضائع يتم حساب ضرائبها على الرصيف حال تفريغها بدون تعطيل.

تجمع الكثير من الحمالين حولهما لعرض خدماتهم، وبعد

Twitter: @ketab_n

مفاوضات شاقة استطاعا أن يستأجرا ثلاثة حمير لإيصال بضائعهم إلى نُزل يقع بعد البوابة الرئيسية محاذيًا السور كما قيل لهما.

لاحظا وجود أعداد هائلة من البشر وبأزياء مختلفة وسحنات متعددة، روم وعجم وعرب وزنج وصينيون، ولفت انتباههما كمية البهارات التي تباع في الميناء والتي تصل إليه على السفن القادمة من الشرق، وشاهدا مباني التخزين القريبة، فسألا عن الأسعار وعن موانئ التحميل والضرائب والعملة المستخدمة قبل أن يقررا الذهاب إلى النُّزل للاستراحة. كانت المعلومات التي جمعاها خلال ساعات لا تُقدر بثمن، فحرصا على تدوينها قبل نسيانها.

كانت عدن حارة، ما إن تشرق شمسها حتى تصبح قاسية يتفادى الناس لسعاتها، لكنهما فوجئا بانفتاح المدينة وتنوع سكانها وثراء أسواقها، ولم يلاحظا وجودًا عسكريًّا حولهما كما هو الحال في البرتغال، بل إن الذي كان يُسيِّرُ الميناء ويحل مشاكل التجار أناس لا يختلفون عن الآخرين في الزي واللباس عدا علامة على عمائمهم تميزهم عن غيرهم، وهم موكلون من قِبل الأمير، يطيع الناس قراراتهم بطيب نفس.

عرفا أن البهارات تأتي من الساحل الغربي للهند إلى عدة موانئ في المنطقة من ضمنها عدن، ومن هنا تتم إعادة بيعها إلى تجار آخرين لديهم سفن أكبر تذهب إلى جدة والسويس وبلاد الزنج؛ يُسمون تجار الكارمية أو المكارمة أو المكارم على حسب لهجات الناس ولغاتهم، وهؤلاء تخصصوا في تجارة الهيل، ولكنهم بدأوا يتاجرون في كل أنواع البهارات بعد ذلك، وقد أنشأوا إمبراطورية مالية كبيرة جدًّا، وأصبحوا على اتصال بالملوك

Twitter: @ketab_n

والأمراء في الكثير من الموانئ، حتى يقال إنهم شركاء السلطان المملوكي في التجارة، ومن هذه الموانئ تأخذها القوافل إلى داخل الصحاري أو الغابات حيث يتضاعف سعرها.

وسمعا أيضًا عن مملكة ثرية إلى الشرق من عدن تُسمى «هرمز»، بها الكثير من المخازن التي تخزن بها البضائع ومن ضمنها البهارات التي تصل إليها بكميات كبيرة. تذكرا ما قاله لهما موسى عن الوزير خواجة عطار، وتمنيا أن تكون هي ذات المملكة التي يقصدها موسى في الخريطة التي سلمها لهم، فالمعلومات التي حصلا عليها من موسى لم تكن دقيقة ولم تكن الخريطة واضحة وكل أملهما أن تكون المعلومات صحيحة فقط.

لم يكن الأمر سهل الفهم، فشبكة التجارة في هذه المنطقة تتحكم فيها عدة أمور، السلاطين المسيطرون على هذه الموانئ وعلاقاتهم التجارية والعائلية بعضهم مع بعض، ومنها الخدمات التي تقدمها هذه الموانئ للتجار لجذبهم إليها، فوجود التجار معناه دفع الضريبة وتدفق المال وانتعاش الميناء.

وكان مما لاحظاه أن هناك تسامحًا بين البشر في هذه المنطقة، فجميع الأديان تتواجد في هذه الموانئ: الإسلام والمسيحية والهندوسية واليهودية والوثنية، كلٌّ له مسجده وكنيسته ومعبده، والاحترام بين معتنقي الأديان المختلفة نوع من التقليد الذي لا يجوز كسره، والشراكة التجارية لا تقوم على الديانة، بل إن الشركاء يفضلون أن يكون الشريك من ديانة مختلفة ومن أرض مختلفة حتى يفتح أسواقًا جديدة.

لم يكن «كوفيلهام» و«بافيا» قد ولدا في بيئة متسامحة دينيًا،

Twitter: @ketab_n

ومشاهدة كل هذا التسامح والتعامل بين الناس في بيئة مفتوحة سبَّب لهما نوعًا من الصدمة التي لم يكونا مستعدين لها، فلم يستطيعا تحليل ما شاهداه أو إيجاد سبب منطقي لعدم غلبة دين على آخر، فكيف يستطيع أصحاب الديانات المختلفة التعايش والعمل معًا؟! ولماذا لا يفرض المسلمون إسلامهم على غيرهم كما تفعل محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال؟!

في النُّزل الذي سكنا فيه، والذي تطل نافذته على زقاق قذر لا يطرقه أحد، تأكدا من أن الغرفة مغلقة، وأن النافذة بعيدة عن أي أذن متطفلة أو عين فاحصة، وبعد أن اطمأنا إلى أنهما بأمان، فتح «كوفيلهام» إحدى الجرار المختومة وأخرج منها الرق الجلدي الذي أعطاه إياه موسى خلال اجتماعهم في لزبن، وضع علامة على موقع عدن في جنوب جزيرة العرب على مدخل بحر القلزم، كانت هناك أسماء موانئ أخرى كُتبت على يمين الرق يتوجب عليه البحث عنها وتدوين موقعها على الخريطة أيضًا، منها سفالا وممباسا وهرمز وكاليكوت، إذن لقد وصل إلى الميناء الأول وحدد مكانه على هذه الخريطة السرية، ثم دونا كل ما جمعاه من معلومات خلال وجودهما في الميناء.

ناما لبقية اليوم، ثم قررا الذهاب لتناول العشاء في مطعم قريب يُقدم أنواعًا مختلفة من الطعام ليرضي أذواق مرتاديه كما أخبرهما صاحب النُّزل الذي يجلس على كرسي خشبي في مدخله، فهناك الطعام الهندي والصيني والسواحيلي. كانت رائحة البهارات القوية تعبق في المكان، فكل مائدة يجلس حولها رجال بأزياء مختلفة ويتحدثون بلسان مختلف، أشكال متنوعة من البشر

Twitter: @ketab_n

واللغات، غدت تجربة تناول الطعام الأول لهما في عدن تجربة مميزة وفريدة، الجميع يأكل في نفس المكان، وصوت النادل يعلو على أصوات المتحدثين، وبعد أن ينتهي الناس من طعامهم، يحضر لهم النادل شرابًا أسود مرًّا يتناولونه بطيب خاطر وهم يتحدثون بعضهم مع بعض! لم يعرفا ما هو هذا الشراب الأسود، ولكن رائحته جميلة وتبعث على الراحة وتفتح الشهية.

بعد خروجهما من المطعم، مرا على مسجد كبير ليس بعيدًا عن الميناء، فدعاهما فضولهما لاستكشافه ومعرفة ما فيه، ففي البرتغال حُولت مساجد الموروز إلى كنائس وطُمست معالمها، أما هنا فهي حية بروادها، حاول «كوفيلهام» إقناع «بافيا» بالدخول، ولكن الأخير كان مترددًا، حتى جذبه «كوفيلهام» من ردائه محاولًا إنهاء حالة التردد هذه، خلعا نعليهما بالقرب من الباب واحتفظا بهما في أيديهما كما يفعل الناس. كان مسجدًا مليئًا بدروس الدين، كل حلقة لها شيخها، الجميع يجلس على حصير مصنوع من سعف النخل الملون، يهزون أجسادهم بشكل متناغم للأمام والخلف كما يفعل اليهود أيضًا وهم يتلون التوراة، بدت أصوات الناس كطنين النحل بالنسبة إليهما، ولكن كان هناك لحن يغلب على هذا الطنين، لحن موسيقي جعل «بافيا» يقف محاولًا الإنصات إليه بعناية، وحين أذن للصلاة قررا أن يغادرا المسجد بسرعة. وفي طريقهما للخروج لاحظا أن أغلب مَن هم خارج المسجد بجميع لغاتهم وأزيائهم توافدوا إليه بدون أن يدفعهم أحد إليه دفعًا كما يحصل أمام الكنائس في البرتغال، ففي البرتغال يقف الكاهن صباح الأحد أمام بوابة الكنيسة آمرًا كل مَن

Twitter: @ketab_n

يمر من أمامه بالدخول، وعندما يتكدس الناس في الكنيسة رغمًا عنهم فإنهم لا يستمعون لما يقوله الكاهن بل يشغلون أنفسهم في أحاديث جانبية، أو في إسكات أطفالهم الجائعين، أو في حك جلودهم التي لم يمسها الماء منذ عدة أشهر، يفعلون كل ذلك وعيونهم مركزة على الباب في انتظار أن يُفتح ويُسمح لهم بالمغادرة، أما هنا فإن الناس يغتسلون بالماء ويأتون إلى المسجد بكامل رغبتهم.

وفي المساء قررا أن ينفذا ما اتفقا عليه قبل الرحلة، فشرع «كوفيلهام» في الحديث بعد أن نظر إلى الخريطة لوهلة، لم يكن يود التطرق إلى المصاعب التي قد يواجهانها في الأيام القادمة، فمن الواضح بالنسبة إليه أنها ستكون أيامًا صعبة.

ها قد وصلنا إلى النقطة الأولى يا «بافيا»، وهي ستكون أيضًا النقطة التي سننفصل منها عن بعض، سيتوجب عليك من الآن أن تذهب وحيدًا للبحث عن مملكة القديس «جون» في إفريقيا، إنها ليست بعيدة من هنا، ولكن الطريق إليها محفوف بالمخاطر، ستجتاز البحر إلى الساحل الإفريقي، وحين تصل إلى ميناء زيلع ستكون قد وصلت إلى تخوم مملكة القديس «جون»، فاسأل بحذر، وقد يتوجب عليك أن تجتاز الكثير من الأراضي حتى تصل إليه، وعندما تكون بين يديه قدِّم له هذه الرسالة.

مد «بافيا» يده وأخذ رقًا جلديًا مربوطًا بشريط حريري مختومًا بالشمع الأحمر. نظر إليه بعناية ثم تساءل:

- وماذا لو لم أجد هذه المملكة؟ كيف يتوجب عليَّ أن أتصرف؟ أنت تعلم أن السفن البرتغالية أنزلت الكثير من الأدلاء

Twitter: @ketab_n

للبحث عن هذه المملكة على طول الساحل الإفريقي ولم يعد أحد منهم حتى الآن! من الواضح أن هذه الأرض خطرة جدًّا، أو أن هناك وحوشًا تفترس البشر، وإلا لماذا اختفى كل هؤلاء الأدلاء فجأة وبدون أي أثر؟!

بدا وجه «بافيا» طفوليًّا وهو يحتج بطريقته الخاصة على هذه المهمة، وقد تعود «كوفيلهام» على أن يستوعب هذه المخاوف ويتحدث بمنطق أُبوي معه:

- أعلم مخاوفك يا «بافيا»، ولكن تذكر أن علينا أن نعرف شيئًا عن هذه المملكة التي يبدو أن الجميع يُصدق بوجودها في البرتغال، على الأقل بالنسبة إلى النبيل «مانويل» الذي يكاد يحلم كل ليلة بالقديس «جون». وأنا مثلك لست على يقين من وجود هذا القديس أو مملكته، ولكن علينا أن نجد إجابات لأسئلته حتى وإن كنا لا نؤمن بوجودها.

قرب «كوفيلهام» وجهه أمام وجه «بافيا» قليلًا قبل أن يواصل:

- وعليك أن تتذكر عائلتينا أيضًا، إنهم في انتظار أن نعود إلى الديار ونضمن سلامتهم من محاكم التفتيش، ومن أولئك الذين يحتقروننا بسبب اختلاف ديننا. إن أكرمنا الملك كما وعدنا وأسبغ علينا الألقاب فسنكون في مأمن من غوائل الزمن، تذكر ذلك دائمًا يا صديقي.

أبعد «كوفيلهام» بصره عن محدثه للحظات، ولم يجد ما ينظر إليه في الغرفة سوى تلك النافذة الصغيرة التي تطل على الزقاق، ثم واصل حديثه:

Twitter: @ketab_n

- سيتوجب علينا أن نلتقي بعد عام من الآن في الإسكندرية، وفي نفس هذا الشهر من السنة، إنه أغسطس، عليك أن تتذكر هذا جيدًا.

رفع «بافيا» عينيه عن الكتاب ونظر إلى «كوفيلهام» بنوع من الحزن:

- وماذا ستفعل أنت الآن؟

سأسافر إلى ميناء مسقط ومنها إلى هرمز وبعدها إلى كاليكوت، هذه المدينة التي ذكرها التاجر البندقي «كونتي» للبابا، وأعتقد أنني سأبحث عن سفالا أيضًا.

كانت عينا «كوفيلهام» زائغتين وهو يتحدث، ثم، وكأنه تذكر شيئًا، قال:

- لقد أعطانا الحبر في الإسكندرية رسالة إلى وزير اسمه خواجة عطار في مملكة هرمز التي قيل إنها لا تبعد كثيرًا عن هنا، وقد يساعدني هذا الوزير في مهمتي هذه، إنه الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أطرق بابه في هذا الجانب من العالم، أتمنى أن يحسن استقبالي، لقد بدأت أشعر بغربة في هذه الديار.

أخرج زفيرًا عميقًا من صدره وكأنه أدرك حجم المهمة الملقاة على عاتقه قبل أن يقول:

- سفالا قد تكون مهمة أيضًا، قيل لي إنها على الساحل الإفريقي الشرقي، أين؟ لا أعلم! ولكن «مانويل» يريد معرفة المزيد عنها أيضًا.

نظر «كوفيلهام» إلى الجرة التي أخرج منها الخريطة قبل أن يكمل:

Twitter: @ketab_n

- الحمد للّه أننا تمكنا من أخذ بضاعتنا من أمير الميناء في الإسكندرية بعد أن صادرها، ولو لم يدفع الحبر قيمة الضريبة ويسترد بضاعتنا لكانت مهمتنا قد انتهت قبل أن تبدأ.

أشار «كوفيلهام» إلى البضاعة التي كانت معهما في الغرفة، ثم قال:

- ستأخذ معك نصف البضاعة التي أحضرناها معنا، وتذكر أنها هي رصيدك خلال رحلتك، عليك أن تبيع منها بقدر ما تحتاج إليه من مال، وأن تحسب حساب العودة، ولا مانع أن تتاجر بما لديك إن رأيت أنك ستحقق أرباحًا تكفيك.

لم يكن «بافيا» مسرورًا بهذا الحديث، فقد بدت عيناه بالرجفان وصوته بدا أقل حماسًا، وشعر أنه ذاهب إلى الموت بقدميه:

- إني خائف يا «كوفيلهام»، فقد لا نلتقي مرَّة أخرى، ولكن هل تعرف شيئًا عن القديس «جون» الذي يريدوننا أن نبحث عنه؟

ابتسم «كوفيلهام» ابتسامة خفيفة بالكاد ظهرت على وجهه لتخفي قلقه الداخلي:

- منذ سنوات طويلة جدًّا سرت إشاعة في أوروبا مفادها أن هناك ملكًا مسيحيًّا ثريًّا يسمى القديس «جون»، لديه أرض واسعة وذهب كثير وجيش قوي يحارب به المسلمين، وقيلت عنه أمور كثيرة وحيكت حوله الأساطير، ولكن لم يره أحد، ولا يعرف شخص مكان هذه المملكة الثرية، وأعتقد أن صاحبنا النبيل «مانويل» يحلم بذهب هذا القديس أكثر مما يحلم به.

Twitter: @ketab_n

ابتلع «بافيا» ريقه، فمن الواضح أن ما قاله «كوفيلهام» لم يخفف من توتره، ثم قال بصوته المتوتر:

- وهل نخاطر بحياتنا من أجل أسطورة، إننا قد لا نلتقي وقد لا نعود إلى ديارنا من أجل أسطورة يبحث عنها هذا المهووس!

وضع «كوفيلهام» يده على كتف صديقه:

- لا تقلق، سنلتقي، وتذكر أن مستقبلنا ومستقبل طائفتنا في البرتغال يتوقف على نجاحنا في مهمتنا، إن وضع اليهود في البرتغال مأساوي جدًّا؛ فالكثير منا يُحرق ويُعذب، ولو نجحنا فقد نُعامل كمواطنين أسوة بالنصارى. إنني كلما تذكرت الصليب المعدني المعلق على رقبة موسى أشعر بالحزن، فهذا الرجل الحكيم قريب من الملك ومع ذلك فهو يضع هذا الصليب حتى لا يعيره الناس بديانته. لقد رأيت بعيني ونحن نجهز لهذه الرحلة حفل حرق لخمسة رجال وسيدتين، اثنان منهم من يهود بيجه، أما البقية فهم مسلمون ممن يسكنون حي الحمة الذي نسميه الآن «الفمة»، كان منظرًا مرعبًا لا أود أن أراه مرَّة أخرى.

كانت عينا «كوفيلهام» تنظران بعيدًا وهو يتحدث إلى «بافيا»، يتخيل ذلك المجهول الذي هو مُقدم عليه، لم تكن المهمة سهلة ولن يكون الفشل فيها سهلًا أيضًا.

بدأ الرجلان يزاولان عملهما كتاجرين، يبيعان ما لديهما من بضاعة ويشتريان أخرى، ثم يبيعانها مرَّة أخرى. وكانا يكثران الأسئلة عن العملة وقيمتها، وعن الأماكن التي وصلت البضائع منها، وما مدة بقائها في البحر، وكم كان سعرها في موطنها،

Twitter: @ketab_n

ومَن أصحاب السفن، وكيف يتم تحديد قيمة شحن البضاعة، وعن مخاطر البحر وغيرها من الأمور التي يحتاجانها لتقريرهما.

وبعد بقائهما عدة أيام قررا أن يزورا حَبر يهود عدن الذي يسكن قرب المعبد في حي اليهود كما قال لهما صاحب النُّزل. سارا في الأزقة المؤدية إلى هناك، وتاها في الطريق عدة مرات، وسألا كل مَن يصادفهما. كانت أزقة عدن متشابكة ومعقدة ذكَّرتهما بالمدن العربية التي شاهداها في إسبانيا والبرتغال؛ فهي عبارة عن أزقة رسمتها خطوات الناس لتكون ممرًّا لهم ولبضائعهم ولحياتهم بعد ذلك.

اقتربا من الحي اليهودي، فركض إليهما طفل صغير يلبس طاقية ملونة، وله ضفيرتان صغيرتان بالكاد تظهران إلى أطراف أذنيه من تحت طاقيته المتسخة، يتزر بإزار من قماش ممزق حتى أسفل ركبتيه الصغيرتين، أما بقية جسده فقد بقي عاريًا:

- هل تريدان الحَبر؟

ابتسم «كوفيلهام» له:

- وكيف عرفت ذلك؟

- يأتي الكثير من التجار للسؤال عنه، فليس في الحي اليهودي ما يستحق المشاهدة سوى الحبر، فهو رجل مهم، وأريدكما أن تدفعا لي إن دللتكما عليه.

- لا بأس، سندفع لك.

سار بهما الطفل إلى مبنى حجري مطلي بالطين له باب صغير يعلوه رسم يكاد يكون باهتًا لـ«نجمة داود» لم ينتبها إليه. سبقهما الطفل إلى الدخول ثم طلب منهما أن يتبعاه، ترددا قليلًا قبل أن

Twitter: @ketab_n

يشاهد «بافيا» النجمة ويريها لـ«كوفيلهام» الذي اطمأن، وتبعا الطفل إلى الداخل.

كان المبنى مظلمًا، واحتاجا بعض الوقت حتى يستطيعا تمييز ما بداخله، سمعا نمنمات خفيفة، وشاهدا الحبر يقف مقابلًا الجدار يقرأ من لفائف يمسكها بيده، وعلى عاتقه قطعة قماش مخططة كبيرة تتدلى منها خيوط طويلة.

ذهب الصبي إلى الحبر وجره من ردائه ليجذب انتباهه:

- ما الذي تريده يا فتى؟ ألم أقل لك لا تزعجني وأنا أصلي؟! اذهب من هنا، هيا اذهب أيها الشقي!

من الواضح أن الفتى قد تعوَّد على غضب الحبر، فبقي واقفًا ولم يتحرك، وأشار بيده إلى الضيفين، ثم عاد إلى «كوفيلهام» ووقف أمامه فاتحًا كفه.

وضع «كوفيلهام» قطعة نقدية فيها، فقبَّلها الطفل ووضعها على جبينه في بادرة شكر قبل أن يضع القطعة أسفل طاقيته ويغادر.

وبعد أن انتهى الحبر من صلاته سلم عليهما ورحب بحرارة، وطلب منهما الجلوس معه في المعبد.

حاول «كوفيلهام» أن يجرب حظه مع الحبر فقال بدون أي مقدمات:

- «الشراع المقدس»!

قطب الحبر بين حاجبيه وكأنه كان ينتظر إكمالًا للجملة التي بدأها «كوفيلهام»:

Twitter: @ketab_n

- ما الذي حدث للشراع المقدس؟ وما هذا الشراع المقدس؟

عرف «كوفيلهام» أن هذا الحبر ليس لديه فكرة عن مهمتهما، فكان عليهما أن يبقيا على حذرهما ويأخذا منه ما يستطيعان من معلومات. كان الحبر بمثابة كنز من المعلومات، خصوصًا بعد أن عرف أنهما تاجران مغربيان يهوديان لا نية لهما سوى البحث عن المال والعودة إلى ديارهما مرَّة أخرى. ولكنه أيضًا بدأ بالشكوى من قلة ذات اليد، وطلب منهما التبرع للمعبد الذي على وشك أن ينهار لِقِدمه؛ فاليهود شأنهم شأن الآخرين، عندما يحصلون على المال يغادرون إلى بلدان أخرى، لقد ذهب كثير من التجار اليهود إلى الهند ومصر وفلسطين كما قال. ثم أضاف قبل أن ينهي شكواه:

- أعتقد أنه الجو، فالجو هنا حار خانق لا يستطيع أن يتحمله أحد.

حاول «كوفيلهام» أن يسبر غور حياة الحبر ليعرف كيف يعيش اليهود في هذه البقعة من الأرض، فسأله:

- هل يضايقكم أحد هنا أيها الحبر؟

نزع الحبر الرداء المخطط عن كتفه بعد أن شعر بحرارة الجو، وطواه بطريقة تقليدية تعوَّد عليها، ثم وضعه على رف بالقرب من لفائف كُوِّمت بطريقة عشوائية:

- لا، أبدًا، لا نشعر بالمضايقات من الآخرين، فكما ترى نحن جزء من الناس، نلبس كما يلبسون، ونأكل كما يأكلون، ولدينا بعض اليهود يعملون في قصر الأمير؛ فالأمير يثق بنا لحُسن تعليمنا، ولعلاقتنا الممتدة إلى أمم الأرض، ولكن ما نعاني منه

Twitter: @ketab_n

هو هجرة أبنائنا كما سبق أن أخبرتكما، فالجو حار خانق هنا في الصيف، لقد ودعتُ عائلة يهودية منذ حوالي الشهر كانت ذاهبة إلى الهند، ولو استمر الحال هكذا فإننا سنختفي من اليمن ولن يبقى سوى كبار السن من أمثالي الذين لا يستطيعون المغادرة.

شرح الحبر لـ«كوفيلهام» دور يهود اليمن في التجارة، وأخبره أن هناك بعض القبائل اليهودية التي تعيش معزولة في الجبال، وأنه لم يعد يستطيع أن يسافر إليهم كما كان يفعل من قبل، وأخبره أنه يحاول جهده لعدم حصول حالات زواج كثيرة مع المسلمين وهذه هي مهمته الأصعب.

- ولكن لماذا تمنع مثل هذا الزواج أيها الحبر؟

حرك الحبر كفه أمام وجه «كوفيلهام» وكأنه يرمي شيئًا عليه ليجذب انتباهه:

- لدينا فتيات جميلات يرغب فيهن كثير من الشبان المسلمين، ولو سمحنا بزواجهن من خارج ملتهن لضاعت اليهودية، فأنا أحاول جهدي أن أُبقي اليهود بدون هذا الاختلاط الذي قد يكون مضرًّا على المدى البعيد، ولكنه أمر صعب جدًّا، صدقني إنه أمر صعب؛ فحالات العشق في هذه البلاد كثيرة وكأن اليمانيين خُلقوا ليعشقوا.

لم يفهم «كوفيلهام» رأي الحبر، فأي مهمة هذه التي كرس الحبر نفسه من أجلها؟ وهل منع الناس من الزواج مهمة مقدسة؟!

قام من كرسيه وأشار إلى «بافيا» ثم ودعا الحبر وغادرا.

وبعد عدة أيام، والكثير من عمليات جمع المعلومات، وقف الرجلان في ميناء عدن ليودِّع أحدهما الآخر. كان على «بافيا» أن

Twitter: @ketab_n

يصعد أولًا إلى سفينة يقودها أفارقة للوصول إلى وجهته في الساحل الإفريقي، وبعد عدة أيام كان على «كوفيلهام» أن يصعد إلى سفينة أخرى يقودها عرب ستأخذه إلى مسقط.

احتضن «كوفيلهام» صديقه بقوة:

- عليك أن تتذكر أننا يجب أن نلتقي في الإسكندرية في شهر أغسطس بعد سنة من الآن، ولو حدث أي شيء عليك أن ترسل رسالة إلى صديقنا الحبر في الإسكندرية تخبره بوضعك وسأفعل الشيء ذاته، والآن غادر يا صديقي!

صعد «بافيا» إلى السفينة ملوحًا بيده لصديقه الذي ما زال على رصيف الميناء. وبعد لحظات دوت أصوات من داخل السفينة، وتدلت الحبال من فوق السارية فاتحة الشراع الذي امتلأ بالهواء وبدأت السفينة بالتحرك غربًا.

جلس «كوفيلهام» بعد أن ابتعدت سفينة صاحبه متأملًا في وضعه، مسح العرق من وجهه بذؤابة عمامته، وتذكَّر قريته الجبلية التي ولِد فيها على الحدود مع إسبانيا، ثم محاولاته الدؤوبة الحفاظ على ثروة أسرته المتمثلة في مزرعة تقع على سفح جبل يطل على واد أخضر معزول. لقد شاهد والده العجوز يبكي ويخبره بأن المزرعة قد صودرت بأمر الملك لأن اليهود والمسلمين ليس لهم الحق في تملك الأراضي. لم يفهم «كوفيلهام» سبب المصادرة، وهل عبادة الرب بطريقة مختلفة تسبب كل تلك الآلام؟! ولماذا يتدخل الملك بين الناس وربهم؟! قرر «كوفيلهام» أن يصل إلى مركز السُّلطة، فإن كانت السُّلطة هي سبب البلاءَ الذي نزل عليه وعلى عائلته فلماذا لا يكون قريبًا منها

Twitter: @ketab_n

ويستفيد من قوتها؟! علق صليبًا على رقبته وغادر إلى لزبن لأنها أقرب إليه من مدريد.

لقد نجح أخيرًا في أن يكون مترجمًا في قصر الملك البرتغالي، واستخدم مهارته في تعلم اللغات الأخرى ليقترب أكثر وأكثر؛ فتعلم العربية واللاتينية، إضافة إلى البرتغالية والقشتالية اللتين كان يتقنهما من قبل، ثم تعلم الفرنسية أيضًا.

تذكر سفارته إلى المغرب ممثلًا لملك البرتغال في مهمة لإنقاذ الأمير «فرناندو» أخي الملك الذي أُسر في معركة «طنجة»، وتذكر كيف عمل كجاسوس لملك البرتغال في بلاط ملك قشتالة لمعرفة المعارضين له، كم سفك الملك من دماء بعد أن سلمه قائمة بأسماء أولئك الذين يتآمرون عليه، وكانت هي اللحظة التي قرَّبه فيها وجعله ضمن حاشيته. مر شريط الذكريات بسرعة في مخيلته، ولم يُعده إلى الواقع سوى حرارة الشمس التي أحرقت شق وجهه الأيسر. نظر إلى السفينة التي غادر بها «بافيا»، كانت قد ابتعدت مخلفة خطًّا من الزبد خلفها.

Twitter: @ketab_n

٥
ميناء الإسكندرية

استلقى حسين الكردي على سريره في القلعة، كان بصره مثبتًا على سقف الغرفة وعقله في مكان آخر، هبت نسمة من النافذة، ولكنها لم تكن لتخرجه من تفكيره الذي أخذه بعيدًا، فكعادته كان يفكر في كل شيء في ذات الوقت، المعارك المتواصلة بين المماليك والعثمانيين، انهيار التجارة في الإسكندرية وتفشي الفقر والرشوة والسطو المسلح، حتى إن الطريق بين القاهرة والإسكندرية لم يعد آمنًا، والصراع المحتدم بين كبار المماليك وازدحام المدن بالهاربين من الريف، كل ذلك بسبب قرارات خاطئة يتخذها السلطان أو بطانته من أجل الحصول على المال وشراء الولاءات بأي وسيلة كانت.

ترك سريره متثاقلًا ونظر من النافذة، شاهد عشًّا فارغًا كانت يمامة قد بدأت في تشييده منذ عدة أيام، مد يده ودفع به من النافذة ليهوي على الأرض، لم يكن يحب أن تبني الطيور أعشاشها على نافذته، فهي كما يراها مزعجة قذرة وهشة.

تتنازع حسين عدة عواطف، فهو يكره الفساد والضعف وسوء الحكم، ويرى أنها أسباب رئيسية لما تمر به السلطنة من خور

Twitter: @ketab_n

وترهل وانقسام. تكاد هذه الأمور تشغل باله طوال الوقت حتى إنه لم يعد يرى كيف يمكن حلها أو التعامل معها، وفي نظره أن مجيء شخصية قوية إلى الحكم قد يغير كل ذلك، ولكنه بدأ ييأس من تحقيق ذلك في حياته.

إن الضعف بالنسبة إلى حسين معناه الموت، فهو يكرهه ويكره مَن يمثله، ولهذا يكون رد فعله قاسيًا تجاه الضعفاء بشكل عام، حتى اليمامة حين تبني عشها على نافذته يراها ضعيفة هشة لا تستحق الحياة.

لم يكن لحسين الكثير من الأصدقاء، فلم يعد هناك مَن يحتمله أو يحتمل شكواه من تردي الأوضاع وسوئها، لم يكن لديه سوى سليمان الذي عرف كيف يتعامل معه ويحتويه، وبدون وجود سليمان في حياته فإنه يشعر بالضياع والوحدة وأحيانًا بالغضب العنيف غير المبرر.

نظر إلى الطريق التجاري الذي يمر من أمام القلعة، كان لأيام خلت مليئًا بالقوافل القادمة من السويس والتي تحمل تجارة الهند والصين، أين هي الآن؟ لماذا غدا الطريق خاليًا كئيبًا؟ مَن السبب في كل ذلك؟ وإلى أين ستتجه السلطنة؟

تزاحمت الأفكار في رأسه بشكل متسارع وغير منظم، هناك أمور كثيرة تحتاج للإصلاح ولكنه ما زال ضابطًا صغيرًا في الجيش المملوكي، ليس عليه سوى تنفيذ الأوامر فقط بدون حتى أن يفكر بها.

- تبًّا لهذه الرُّتب التي نحملها، إنها فقط تقول لنا أين نحن

Twitter: @ketab_n

في سلم التراتبية العسكرية، وكم يتوجب علينا أن نستخدم عقولنا في كل رتبة منها.

تمتم بتلك الكلمات وكأنه يخاطب قضبان نافذته.

ذهب صديقه الحميم سليمان إلى البحر ضمن حملة كبيرة لمحاربة قراصنة رودس، سيشتاق إليه الآن، فرأسه مزدحم بالكثير من المخاوف التي يريد أن يبثها إليه، فهو الوحيد الذي يستمع إليه ويتحمل شكواه.

لم يتغير سليمان كثيرًا منذ أن تعرفا على بعضهما صغارًا، ما زال هو المتهكم ذاته، يضحك على الجميع ويجد النكتة في وسط المشكلة، كان الجميع يحبه لسعة صدره وكثرة ضحكه.

- أوووه يا سليمان، أين أنت الآن؟

تذكر حالهم في ثكنة المماليك البحرية، وكيف كان الأولاد الأكبر سنًّا يهينونهم ويضربونهم بدون مبرر، كان يتمنى لو كان أكبر سنًّا وأضخم جسمًا حتى يرد لهم الصاع صاعين، كم يكره أن يكون ضعيفًا. تذكر حين ضرب بعض هؤلاء سليمان ضربًا مبرحًا حتى بكى، لم يحتمل أن يرى صديقه يبكي وينتحب، أخرج من جيبه خنجرًا صغيرًا ووضعه في يد سليمان طالبًا منه أن يطعن أحد الأولاد الكبار الذين دأبوا على ضربهم، رفض سليمان فعل ذلك، فأخذ الخنجر منه وطعن الغلام في فخذه، كانت أول تجربة له في الدفاع عن نفسه، ولكنها كانت تجربة ناجحة، فقد عرف بقية الأولاد أن غضب حسين قاسٍ، فاجتنبوه خوفًا منه ومن رد فعله، ومنذ ذلك الحين وهو يمجد القوة ويكره الضعف.

لم يعد يطيق البقاء في هذا الغرفة الكئيبة، لبس ملابسه

Twitter: @ketab_n

وغادرها، ثم نزل السلالم إلى ساحة القلعة حيث كان بعض المماليك الجدد يتدربون على فنون القتال، نظر إليهم نظرة عطف، فكم قاسوا من الويلات للوصول إلى هنا، لا يود أن يتذكر قصته، تحرك في اتجاه الباب صارخًا على السائس لإحضار جواده.

سمع مَن يناديه باسمه، كان رئيس حرس القلعة الذي جاءه مهرولًا:

- إن الأمير يطلبك لتكون معه حالًا.

- لماذا؟ هل جد جديد؟

- أعتقد أنه ذاهب إلى القاهرة ويريدك معه، يبدو أنه قد حدث أمر في القصر هناك، من الواضح أن الأمر جدي، فهو قد أمر بتجهيز عدة السفر وطلب أن يكون معه كل القادة بلا استثناء، وقد أصر على وجودك شخصيًّا معه في هذه السفرة.

الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة يمر خلال مزارع جميلة، وعلى جانبيه أشجار مثمرة زرعها الناس بمرور الوقت لتكون وقفًا للمسافرين، فمنها ما يظلل ومنها ما يثمر، وعلى الطريق استراحات وخانات بناها أمراء المماليك وشيوخ الطرق الصوفية لتقديم الطعام والمبيت لكل مَن دخلها، كاد كل الطريق أن يصبح وقفًا لما فيه من الخانات والحمامات والمطابخ والأشجار التي تخدم كل مَن يسلكه.

سارت قافلة الغوري المؤلفة من عشرين جملًا محملة بالمتاع، بالإضافة إلى خمسين فارسًا بكامل سلاحهم وزينتهم، تتبعهم البغال التي تحمل أواني المطبخ، ثم مجموعة من فقراء

Twitter: @ketab_n

الصوفية الذين يتبعون الأمراء في حلهم وترحالهم مستفيدين من كرمهم خلال الرحلة.

كان قانصوه الغوري يسير في مقدمة فرسانه، ويسير خلفه ضباطه المقربون ومن ضمنهم حسين الذي حانت منه التفاتة إلى الأمير الغوري فاستطاع أن يشاهد شطرًا من وجهه الذي غطته لحية بيضاء أصبحت جزءًا من شخصيته، فهذا الرجل قد عركته التجارب وحنت ظهره السنوات وما زال قوي البنية وإن تعدى الستين من عمره، كان في بداية حياته أمير تجريدة إلى الشام، والحاجب على حلب في فترة سابقة قبل أن يعود إلى الإسكندرية ويعتزل العمل السياسي. لم يكن الأمير كثير الكلام، فهو يُبقي بصره مركزًا على الطريق، ويُصدر أوامره بهدوء وبصوت واثق إلى ضباطه ومعاونيه، ولكنْ هناك شيء في هذا الرجل يجعل حسين يحبه، لا يعلم ما هو، أهو الولاء الذي تدرب على أن يكون لسيده دائمًا؟ أهي المعاملة الأُبوية التي كان الغوري يعامله بها؟ هل السبب تلك الأموال التي يغدقها الغوري على الفقراء من حين إلى آخر؟ إنه في نظره أفضل من السلطان الذي يعبث بمقدرات السلطنة ويسيء إلى الشعب ويسرق أموال الأوقاف.

كم كان حسين يتمنى أن يدخل سيده الصراع للحصول على كرسي السلطنة حتى يُصلح بعض ما خرب من أمور، ولكن من الواضح أن الغوري يستمتع بالفرجة على الصراعات ولا يشارك فيها، لقد قرر ذلك منذ أن عاد من حلب وما زال مُصرًّا على رأيه.

وصل ركب الأمير الغوري إلى القاهرة واستقبلته فرقة من حملة المزامير والصنج والطبول معلنة عن قدومه، دخل القلعة

Twitter: @ketab_n

التي أغلقت أبوابها في وجه المتطفلين الذين يتبعون الموكب، وفي الساحة الرئيسية للقلعة نزل الجميع وأصلحوا من هندامهم قبل الدخول إلى مجلس السلطان.

لم يكن حسين مسرورًا بما يحصل، فكعادته كان دائم التفكير في الأحداث وتداعياتها، لم يكن يعرف سبب مجيء الأمير وحاشيته إلى القاهرة، ولم يتجرأ على السؤال، ومجيئه إلى هنا برفقة الأمير لم يبعث فيه الحبور، فهو يحب الإسكندرية وصوت الموج ورائحة البحر ومنظر السفن، والقاهرة ستحرمه من كل ذلك.

بقيت الفرقة الموسيقية تعزف في الخارج وكأنها تعلن أن هناك خبرًا سعيدًا سيُبث قريبًا. دخل الأمير الغوري يتبعه الوفد إلى مجلس السلطان، وقف له السلطان قايتباي وبقية رجال الدولة، ووقف في الخلف المماليك الخاصكية، فالأمير له مكانة كبيرة في القصر نظرًا للخدمات التي سبق أن قدمها، ولأنه كعادته زاهد في المناصب التي عُرضت عليه مما جعل السلطان والمحيطين به يثقون به ويودونه.

وخلال اللقاء صدر أمر السلطان بتعيين الأمير الغوري بوظيفة «الدوادار»، ووكل بمهام الاستدارية، وأصبح منذ تلك اللحظة وزير السلطان والناطق باسمه، ومنذ تلك اللحظة أيضًا علم حسين الكردي أن حياته لن تكون كما اعتادها في الإسكندرية، فأميره أصبح مسؤولًا كبيرًا في بلاط السلطان في القاهرة، وعليه أن يكون معه، وعلم أنه يجب أن يعتاد على هذه المدينة الصاخبة التي لم يحبها منذ أن جاء إليها غلامًا.

Twitter: @ketab_n

الصوفية الذين يتبعون الأمراء في حلهم وترحالهم مستفيدين من كرمهم خلال الرحلة.

كان قانصوه الغوري يسير في مقدمة فرسانه، ويسير خلفه ضباطه المقربون ومن ضمنهم حسين الذي حانت منه التفاتة إلى الأمير الغوري فاستطاع أن يشاهد شطرًا من وجهه الذي غطته لحية بيضاء أصبحت جزءًا من شخصيته، فهذا الرجل قد عركته التجارب وحنت ظهره السنوات وما زال قوي البنية وإن تعدى الستين من عمره، كان في بداية حياته أمير تجريدة إلى الشام، والحاجب على حلب في فترة سابقة قبل أن يعود إلى الإسكندرية ويعتزل العمل السياسي. لم يكن الأمير كثير الكلام، فهو يُبقي بصره مركزًا على الطريق، ويُصدر أوامره بهدوء وبصوت واثق إلى ضباطه ومعاونيه، ولكنْ هناك شيء في هذا الرجل يجعل حسين يحبه، لا يعلم ما هو، أهو الولاء الذي تدرب على أن يكون لسيده دائمًا؟ أهي المعاملة الأُبوية التي كان الغوري يعامله بها؟ هل السبب تلك الأموال التي يغدقها الغوري على الفقراء من حين إلى آخر؟ إنه في نظره أفضل من السلطان الذي يعبث بمقدرات السلطنة ويسيء إلى الشعب ويسرق أموال الأوقاف.

كم كان حسين يتمنى أن يدخل سيده الصراع للحصول على كرسي السلطنة حتى يُصلح بعض ما خرب من أمور، ولكن من الواضح أن الغوري يستمتع بالفرجة على الصراعات ولا يشارك فيها، لقد قرر ذلك منذ أن عاد من حلب وما زال مُصرًّا على رأيه.

وصل ركب الأمير الغوري إلى القاهرة واستقبلته فرقة من حملة المزامير والصنج والطبول معلنة عن قدومه، دخل القلعة

Twitter: @ketab_n

التي أغلقت أبوابها في وجه المتطفلين الذين يتبعون الموكب، وفي الساحة الرئيسية للقلعة نزل الجميع وأصلحوا من هندامهم قبل الدخول إلى مجلس السلطان.

لم يكن حسين مسرورًا بما يحصل، فكعادته كان دائم التفكير في الأحداث وتداعياتها، لم يكن يعرف سبب مجيء الأمير وحاشيته إلى القاهرة، ولم يتجرأ على السؤال، ومجيئه إلى هنا برفقة الأمير لم يبعث فيه الحبور، فهو يحب الإسكندرية وصوت الموج ورائحة البحر ومنظر السفن، والقاهرة ستحرمه من كل ذلك.

بقيت الفرقة الموسيقية تعزف في الخارج وكأنها تعلن أن هناك خبرًا سعيدًا سيُبث قريبًا. دخل الأمير الغوري يتبعه الوفد إلى مجلس السلطان، وقف له السلطان قايتباي وبقية رجال الدولة، ووقف في الخلف المماليك الخاصكية، فالأمير له مكانة كبيرة في القصر نظرًا للخدمات التي سبق أن قدمها، ولأنه كعادته زاهد في المناصب التي عُرضت عليه مما جعل السلطان والمحيطين به يثقون به ويودونه.

وخلال اللقاء صدر أمر السلطان بتعيين الأمير الغوري بوظيفة «الدوادار»، ووكل بمهام الاستدارية، وأصبح منذ تلك اللحظة وزير السلطان والناطق باسمه، ومنذ تلك اللحظة أيضًا علم حسين الكردي أن حياته لن تكون كما اعتادها في الإسكندرية، فأميره أصبح مسؤولًا كبيرًا في بلاط السلطان في القاهرة، وعليه أن يكون معه، وعلم أنه يجب أن يعتاد على هذه المدينة الصاخبة التي لم يحبها منذ أن جاء إليها غلامًا.

Twitter: @ketab_n

تلك الليلة، سمع أصواتًا وجلبة في ساحة القلعة، صهيل خيول وقرقعة سلاح، وأصواتًا، فتح عينيه وتساءل إن كانت هناك مؤامرة تُحاك مرَّة أخرى، ومَن سيكون الضحية هذه المرَّة؟!

طرق بابه أحد الخدم:

- الأمير يريدك في القاعة السلطانية الآن، بدون تأخير!

غسل وجهه بسرعة، ولبس عمامته، ورتب نفسه قدر الإمكان، وعلق سيفه على كتفه، وغادر مسرعًا إلى القاعة السلطانية، وحين اقترب منها شاهد كل أولئك الحرس والخاصكية والخشداشية والأمراء والأتابك المجتمعين، ولمح الأمير الغوري جالسًا في يمين القاعة التي احتل صدرها الخليفة العباسي المستمسك باللّه يعقوب والقضاة الأربعة بعمائمهم الكبيرة، فمشى بهدوء إلى الغوري وهز رأسه له عندما رآه ثم وقف خلفه.

شاهد أحد الأمراء في وسط القاعة يخطب في الجالسين قائلًا:

- ما الذي يتوجب علينا فعله إذن؟ أخبروني؟ إن البلاد في حالة غليان والخزانة خاوية، وجيوشنا التي تقاتل العثمانيين في الشام لم تحصل على رواتبها منذ عدة أشهر، وثورات الريف هجَّرت الفلاحين إلى المدينة فقط حتى تسرقهم عصابات المنسر، وغلماننا أصبحوا يُقتلون في طرقات القاهرة لأن الناس ترى فيهم نحن... نحن أمراء المماليك.

قاطعه أحد الأمراء الذي وقف فجأة:

- مَن السبب في كل ذلك؟ أليس السلطان الذي هرب وترك العرش فجأة؟

Twitter: @ketab_n

ثم أشار إلى العرش الخالي في صدر المجلس:

- هذا العرش أصبح شاغرًا الآن، وليس هناك من يريد أن يتسلم المسؤولية، وكثرة الكلام لن تؤدي بنا إلى أي مكان، دعونا نقرر مَن الذي يتوجب عليه أن يتسلم العرش الآن.

وفي الطرف الآخر من القاعة وقف آخر صارخًا بأعلى صوته:

- نعم، عينوا مَن تريدون حتى تقتلوه بعد ذلك كعادتكم عندما تريدون أن تستبدلوا سلطانًا بغيره، وكيف سيحكم هذا السلطان الجديد إن كنتم تتدخلون في كل قرار يتخذه، وتشهرون عليه سيوفكم إن مسكم شر ولو بسيط من قراراته؟!

ثم حرك يده أمام وجهه بسرعة وهو يتوجه نحو الباب:

- أنا ذاهب إلى الفيوم وسأترك لكم قرار تنصيب سلطانكم الدمية، فإن اتفقتم فأخبروني، لأن جو القاهرة أصبح ملوثًا لا أحتمله.

ثم نظر إليهم بازدراء وأكمل:

- وأظنه لا يحتملني أيضًا!

ضجت القاعة بالأصوات المرتفعة، وشدت القبضات على سيوفها، وشعر الجميع بأن مصيبة قد تقع في هذه القاعة. نظر حسين إلى سيده وحانت من الغوري التفاتة إليه، وعرف حسين لماذا كان سيده يبتعد عن السياسة كلما اقتربت منه.

تقدم أحد الأمراء فجأة من الأمير الغوري، ووضع يده على ظاهر كفه التي أسندها على مسند الكرسي الذي يجلس عليه، ثم رفعها عاليًا:

Twitter: @ketab_n

- دعونا نُعين الأمير الغوري سلطانًا على مصر أيها السادة، وأعتقد أنكم ستوافقونني على ذلك.

نظر هذا الأمير في عيني الغوري وكأنه يطالبه ألّا يعارض توصيته.

لم يكن الغوري يتوقع أمرًا كهذا، فهو في نظره ترشيح للموت لا أكثر، فقد حضر إلى هذا المكان لأن كل أمراء المماليك كانوا هنا، ولكنه لم يكن يأمل في أن يجلس على عرش السلطنة أو حتى يفكر في ذلك، ثم وبصوت مرتجف قال:

- ولكني لا أقبل بذلك!

ثم وقف على قدميه وقال بأعلى صوته:

- أنا لا أقبل بذلك أبدًا.

عاد للجلوس مرَّة أخرى وقد انتفخت أوداجه واحمر وجهه. حدث هرج ومرج، وتقدَّم الأمراء والأتابك إلى الغوري، وطالبوه بأن يقبل أن يكون سلطانًا، ثم أخرجوا سيوفهم ورفعوها فوق رأسه بقصد المبايعة.

لم يكن هؤلاء المماليك يحبون الغوري حتى يُعينوه سلطانًا عليهم، ولكنهم يرغبون في شخصية ضعيفة يحركون الأمور من ورائها، ويُحملونها وزر الأخطاء إن تفاقمت، ويسفكون دمها إن ثار العوام، وعندما يكون دم السلطان مطلبًا شعبيًّا.

طلب منهم الغوري إغماد سيوفهم قبل أن يقول:

- كلنا نعلم أن ما قاله أمير الفيوم حقيقة، أنتم تغيرون السلطان كما تغيرون ملابسكم، وأنا لا أرغب صادقًا في أن أكون سلطانًا، فاعفوني من هذه المهمة أرجوكم!

Twitter: @ketab_n

انطلق صراخ الجميع فجأة وبصوت واحد:

- لن نقبل بغيرك، وعليك أن تجلس على العرش، يحيا السلطان الغوري.

تحركت شفتا حسين وكأنه يحدث نفسه:

- أرجوك اقبل يا سيدي!

ثم نظر إلى سيده، وكأنه في انتظار القرار الذي قد يحدد مستقبله.

أخرج الأمير الغوري زفيرًا من صدره، ونظر إلى الأرض قبل أن يقول:

- حسنًا، ولكن إذا أردتم أن تخلعوني فما عليكم سوى أن تطلبوا مني ذلك بدون أن تقتلوني، وأريدكم أن تقسموا على ذلك أمامي الآن.

لم يكن حسين يتوقع أن يقبل الغوري بهذه المهمة، ولكن بعد أن قال ذلك، شعر كأنه على وشك أن يقع على الأرض، فهو يعرف أن منصب السلطان أصبح من أخطر المناصب في السلطنة، وهو كالمكان الذي تربط به الأضحية انتظارًا لتسمينها، ولكنه أيضًا المكان الذي يستطيع منه صاحبه إصلاح الأمور إن فهم كيف تدار الرؤوس، وكان يأمل أن يكون سيده الغوري قادرًا على إدارة الرؤوس وإصلاح ما أفسده أمراء المماليك من قبله. شعر أن قبضته الغاضبة على وشك أن تضرب بعض الرؤوس، فبحكم قربه من الأمير فإنه سيستطيع التأثير عليه لإصلاح الأخطاء التي سببها فساد مَن قبله.

Twitter: @ketab_n

هدأت الضوضاء في القاعة، وبويع الغوري سلطانًا، وبدأت الاحتفالات بتنصيبه، وانشغل السلطان الجديد باستقبال المهنئين.

خرج حسين من القلعة مفكرًا فيما حصل، فكم في مصر من العجائب، لقد تغير اسم سيده إلى «السلطان أبو النصر قانصوه الغوري، سلطان البحرين والبرين»، يا له من لقب كبير! لقب يحكم على حامله بالإعدام. ولكن الغوري على الأقل أخذ عهدًا من أمراء المماليك بأنهم لن يقتلوه غيلة كما حدث مع مَن قبله، فهل سيلتزمون بقَسمهم؟ ربما، لم يكن حسين واثقًا من ذلك.

لم يستطع سوى أن يخرج من القلعة تلك الليلة تاركًا سيده ليتعامل مع المستجدات، فهو الوحيد في نظره الذي يستطيع فعل شيء لإصلاح الأمور، وهناك الكثير من الخيوط والدسائس والأموال التي يجب أن يُحسن استغلالها واستخدامها حتى يتمكن من فرض سيطرته على هؤلاء البشر.

مشى في الطرقات المحيطة بالقلعة في ملابس عادية، وكأنه يريد أن يختلط بالناس ويسمع حديثهم بعد طول عزلة بين جدران قلعة حجرية صماء لا تردد حديثه ولا تسمع لشكواه. كانت آخر ليلة من رمضان، واستعداد الناس للعيد على أشده، وكأن هذا العيد أصبح ملكًا للفقراء، فهم يفرحون به محاولين نسيان بؤسهم وفقرهم والظلم المحيط بهم من كل جانب، أما الأثرياء فإنهم يصرخون على بعضهم بين جدران القلعة ثم يطعنون ظهور بعضهم بعد أن يخرجوا منها.

خرج صوت المؤذن رقيقًا ناعمًا من منارة المسجد الذي يسير حسين بمحاذاة جداره، فتردد صدى الصوت في الأزقة التي

Twitter: @ketab_n

امتلأت بروائح الشواء والحلوى، بدأ الناس في دخول المسجد مسلمين نعالهم لصبي بالباب ليحفظها من السرقة، فكل شيء يُسرق هذه الأيام حتى النعال الرخيصة.

لم يكن حسين متدينًا، فلم يكن يحضر سوى صلاة الجمعة مرافقًا للغوري في زيارة القصد منها إعلام الناس بأن الأمير غير تارك للصلاة، فليس هناك عذر للخروج عليه ومقاتلته. ولكن حسين أيضًا لم يكن مقاطعًا للصلاة وتاركًا لها بشكل تام، فقد كان يشعر بنفحات إيمانية من حين إلى آخر تدفعه للصلاة بشكل متقطع، ويفرح عندما يقوم الغوري بتوزيع المال على فقراء الصوفية، قلبه ليس قاسيًا، ولكنه بحاجة لبعض الترقيع كما أخبره شيخ صوفي يعترض طريقه كلما خرج من القلعة. لم يفهم حسين عن أي ترقيع يتحدث ذلك الشيخ، ولكنه تخيل قلبه كقطعة القماش المهترئة التي بحاجة لأن ترقع تمزقاتها كما يرقع الصوفية ثيابهم. خلع نعله أمام الباب وأعطاه للصبي ودخل.

وبعد أن أنهى الناس صلاتهم، وقف الإمام ممسكًا بعصا وبدأ يخطب في الحضور:

- أيها الناس، ويل للعرب من شر قد اقترب! ويل للعرب من شر قد اقترب!

كانت عينا الشيخ جاحظتين وعصاه المرفوعة تهتز مع اهتزاز جسده. التفت حسين إلى المصلين في انتظار أن يشرح له أحدهم شيئًا، ولكنهم كانوا ينظرون بعضهم في وجوه بعض ويهزون رؤوسهم.

خرج صوت من الصفوف الخلفية بشكل مسموع:

Twitter: @ketab_n

- ولكن ما الذي حدث؟ وأي شر هذا الذي اقترب يا مولانا؟

بقي الإمام يصرخ أمام المصلين، وحين شعر أنهم جاهزون لسماع القصة، أكمل بصوت يميل للهدوء قليلًا :

- ويل للعرب من شر قد اقترب! لقد شوهدت سفن الفرنجة في بحر الحبش، لقد كسروا سد ذي القرنين وهم الآن على أبواب مكة والمدينة.

Twitter: @ketab_n

٦
الأحساء، شرق الجزيرة العربية

اتكأ الرسول على وسادة كانت بقربه ونظر إلى عيني السلطان مقرن قبل أن يتحدث:

- سيدي السلطان، أظنك تعلم بما يحدث في مملكتنا من صراعات بين أفراد الأسرة الحاكمة، فلا يكاد يستقر ملك على كرسيه حتى يُقتل أو يُعزل، لقد تأثرت المملكة من جراء هذه الصراعات وفقدنا الكثير من المال والرجال.

أخرج هواء من صدره وانحنى ظهره قليلًا، فبدا أقل حجمًا من ذي قبل، نظر إلى أشجار النخيل التي أمامه قبل أن يقول:

- تعلم أيها السلطان، أن الملك توران شاه ملك هرمز قد تُوفِّي وخلَّف أربعة أبناء، هم: مقصود، وشهاب الدين، وشيرغل، وأويس. وقد دار بين هؤلاء صراع مرير على كرسي الحكم، حاولنا نحن الهرامزة عدم الإعلان عنه، فقد خلف مقصود أباه أولًا، ولكن شهاب الدين لم يدعه يتمتع بالحكم طويلًا إذ انتزع الحكم منه وجلس على الكرسي بضعة أشهر، ثم أطاح به شيرغل، ثم أطاح أويس بشيرغل، وما زال أويس جالسًا على كرسي الحكم حتى الآن.

Twitter: @ketab_n

أعاد الرسول نظره إلى أشجار النخيل مرَّة أخرى وكأنه يريد تذكر أمر ما، ثم أكمل:

- إن هذه الدائرة من العنف لا تكاد تنتهي، وقبل أن أحضر إليكم كنت في زيارة للشيخ سليمان بن سليمان النبهاني في عمان، وهو والد زوجة شيرغل، ولكنه لم يعدنا بشيء لأنه مشغول في صراع آخر، لقد شعر شيرغل أن سليمان قد خانه لأنه لم يسانده في صراعه هذا، وتوعد أن ينتقم منه عندما تسنح له الفرصة بذلك.

كان السلطان يتابع ما يقوله الرسول بعناية عندما قال:

- نعم، لقد سمعت بكل هذه الصراعات بين الأبناء، وكنت أعتقد أن الأوضاع قد استقرت بعد تولي أويس، ولكن قل لي كيف كان يعيش هؤلاء الأبناء صغارًا؟ مَن الذي قام على تربيتهم؟

- نشأوا جميعًا في قصر والدهم الملك توران شاه، ولكنه أخطأ في أنه وضع لكل واحد منهم مربيًا خاصًّا، فنقل هؤلاء المربون صراعهم إلى الأبناء الذين بدأت بوادر الخلاف بينهم وهم أطفال، فلا يكاد الأب يحل مشكلة بينهم حتى تبدأ أخرى، ولم يكن يعلم حينها أن المشكلة ليست في الأطفال ولكنها في المربين الذين أساء اختيارهم.

ابتسم السلطان ابتسامة هادئة قبل أن يعلق:

- توقعت هذا، فهذه مشكلة القصور كلها، ستجد هذه المشكلة في كل قصر وتحت كل سلطة، لقد عالجنا هذه المشكلة لدينا بوضع مُربٍّ واحد لكل الأبناء، ولكننا نحسن اختياره لأننا نعلم أنه هو الذي سيصنعهم ويُشكل عقولهم.

Twitter: @ketab_n

سكت السلطان قليلًا قبل أن يواصل:

- لا أعلم لماذا يكرر الملوك نفس الأخطاء!

ثم تابع:

- ومَن الذي أرسلك إليَّ إذن إن لم يكن الملك؟

عدل الرسول من جلسته قبل أن يجيب:

- أنا هنا بناء على طلب سيدي الوزير خواجة عطار، فقد أمرني بأن أحضر إليك طالبًا مساعدتك في إعادة شيرغل إلى العرش مرَّة أخرى.

طرد السلطان ذبابة حطت على جبهته قبل أن ينزل رأسه ويفكر في الأمر:

- ولماذا يريد الخواجة إعادة شيرغل إلى العرش؟ ولماذا هو بالذات من بين الأربعة المتخاصمين؟

بدا أن الرسول كان جاهزًا لهذا السؤال بالذات:

- إنه أعقل الأبناء وأحكمهم في نظر سيدي خواجة عطار، وفي حال عودته ستعود هرمز إلى سابق عهدها. إن سيدي الخواجة يراهن عليه لإعادة الاستقرار إلى المملكة، لأن الأوضاع الحالية تسير في اتجاه آخر، وأويس يرغب في الدخول في حرب معكم ليقوي نفوذه ويستحوذ على خيرات البحرين والأحساء، ولو حدث هذا فسنكون جميعًا خاسرين، نحن وأنتم، فأويس شاب أهوج لا يعرف حقيقة ما يفعل، وحوله مجموعة من الصبيان الذين يستمع إليهم في إدارة شؤون المملكة.

أطرق الأمير قليلًا:

Twitter: @ketab_n

- وكم ستبقى معنا في الأحساء؟

- بضعة أيام يا سيدي، وبعدها سأعود بقرارك للخواجة عطار الذي ينتظرني على أحر من الجمر.

يعرف السلطان مقرن أن أمرًا كهذا يتطلب معرفة بمواقف الممالك المحيطة بهرمز، فواصل أسئلته:

- وكيف هي علاقتكم بفارس مع هذه الصراعات عندكم؟

- إن فارس غير مستقرة بدورها، فهناك صراع محتدم دائر بين آغ غوينلو والصفويين، والبلد في حالة فوضى، ولا نعلم لمن ستؤول الأمور، وقد أخبرنا بعض التجار مؤخرًا بأن الصفويين قد انتصروا في الكثير من المعارك، وأعتقد أنهم سيبقون مشغولين بتنظيم حركتهم في الشمال لبعض الوقت، لا توجد لديهم جيوش في الجنوب كما علمنا، وقد حاولنا الاتصال بهم لنفس الغرض، ولكنهم لم يردوا علينا، إننا لم نتحمس لهم لأسباب كثيرة أيها السلطان، ولذلك لم نكرر طلبنا.

سكت الرسول وكأنه لا يريد الحديث. لم يعجب هذا السكوت السلطان وأراد أن يعرف الأسباب:

- ولكن لماذا أيها الرسول؟

- سيدي السلطان، إن الصفويين لديهم معتقدات غريبة عنا، فهم يجبرون الناس على اعتناق عقائدهم بالقوة، وقد وصل إلينا بعض اللاجئين والتجار الذين تحدثوا عن مذابح تحدث في بعض المناطق التي يسيطر عليها الغزلباشية، إنهم يجبرون الناس على أمور لا أستطيع الحديث عنها، وفي حال رفضوا فإنهم يقتلونهم ويكومون أجسادهم على نواصي الطرق والأزقة، وفي المساء

Twitter: @ketab_n

يجمعون القتلى ويضعون جثثهم في ميدان عام ثم يوقدون عليها النيران طوال الليل، وفي اليوم التالي يكررون ذات العمل.

سكت الرسول وكأنه يتخيل تلك المحرقة، ثم أضاف بصوت يشبه الهمس:

- إن التفكير في وجودهم قريبين منا يجعلنا نخاف على مستقبل مملكتنا.

كان السلطان يعرف ما الذي يتحدث عنه الرسول، فقد مرت الأحساء بمرحلة مماثلة ما زال كبار السن يتحدثون عنها حتى الآن بشيء من الخوف والوجل، ولكن السلطان لم يكن يعرف العلاقة بين القرامطة الذين حكموا الأحساء لسنوات طويلة وتسببوا في مذابح ما زال الناس يتحدثون عنها حتى الآن، والصفويين الذين يتحدث عنهم الرسول، فحاول أن يختصر الحديث حتى لا يتشتت بهم، وحتى لا يسيء فهم الرسول ولا يسيء الرسول فهمه:

- إنك تقول إن أويس قد أطاح بشيرغل، والخواجة عطار يريد أن يعيد شيرغل إلى العرش مرَّة أخرى، وإنكم اتصلتم بالعمانيين ولم يساعدوكم، واتصلتم بالصفويين ولم يردوا عليكم، ولذلك حضرتم إليَّ للقيام بهذه المهمة، أليس كذلك؟

- نعم أيها السلطان، هو كذلك، فكما ذكرت سابقًا فإن إعادة الملك شيرغل إلى العرش ستكون لمصلحة الطرفين، نحن وأنتم، فشيرغل قد تربى على يد الوزير خواجة عطار، ويستطيع الوزير من خلال سلطته التي يمنحها له الملك أن يحسن من أوضاع المملكة ويعيد تجارتها إلى سابق عهدها و...

Twitter: @ketab_n

قاطعه السلطان فجأة ليسأل:

- ولكن هل تعلم خطورة هذا الطلب؟

- أعلم يا سيدي، ولكن بقاء أويس ملكًا على هرمز سيكون أخطر علينا وعليكم.

ابتسم السلطان إعجابًا بردود الرسول؛ فقد ربط مصير هرمز بمصير سلطنة الجبور وفي ذلك ذكاء سياسي، أمسك السلطان بمهفته مرَّة أخرى وبدأ يحركها أمام وجهه، وعندما شاهد الخدم ذلك أحضروا طاسة مليئة بماء بارد وقطعة قماش مطوية أمامه، فبلل قطعة القماش بالماء ثم مسح بها وجهه، وطلب من الرسول أن يقوم بالشيء ذاته، فالجو قد أصبح حارًّا جدًّا وعليهم أن يقاوموه بالماء البارد.

- وأين الخواجة عطار الآن؟

- إنه يعمل وزيرًا لدى أويس، فالملك الجديد يحتاج له لإدارة شؤون المملكة مؤقتًا، لقد كان هو الحاكم الفعلي منذ أن تُوفِّي الملك الأب ولم يعد منذ أن تولى أويس، فأويس لا يتركه يتصرف كما يرغب، فهو قد بدأ يسحب البساط من تحت قدميه ويستدعيه للقصر عند الحاجة فقط. لقد شعر الخواجة أن أمور المملكة لم تعد بيده، بل إنها بيد أويس ومجموعة من جلسائه الذين سيدمرون كل ما بناه أجدادنا.

عرف السلطان أن الصراع ليس بين شيرغل وإخوته وإنما بين الخواجة عطار والملك الحالي، ولكنها في نظره فرصة يجب الاستفادة منها قدر الإمكان:

Twitter: @ketab_n

- ولكن ما موقف حكام عمان من هذا الصراع؟ ألا تخافون أن يستقلوا بموانئهم؟

رد الرسول بهدوء وهو يمسح وجهه بقطعة القماش:

- هذه ليست مشكلة كبيرة أيها السلطان، فبعض حكام الموانئ موالون للخواجة عطار، وبعضهم شبه مستقل أصلًا مثل سليمان النبهاني، وهم يعلمون أننا نستطيع أن نؤدبهم بعد أن نسترد قوتنا، ولو تحركت قواتكم المتواجدة في الداخل العماني قليلًا لرأيت هؤلاء الحكام يأتون صاغرين إلينا طالبين حمايتنا، إنها سُنة الحياة، فسكان الساحل تفتك بهم الرفاهية في حين يبقى سكان الصحراء والجبال أشد عودًا وأقوى شكيمة.

ابتسم السلطان من رد الرسول، فالسلطان ينتمي إلى عائلة بدوية قوية، وهذا الرد حرك مشاعره:

- حسنًا، تستطيع أن تذهب لترتاح الآن، سأعطيك قراري خلال بضعة أيام.

كان ابن رحال ما زال يعبث بالخاتم الذي يريد شراءه من التاجر الهندي، وقد كان مستغرقًا في التفكير وكأنه مصدوم مما سمع، فلم يكن يتوقع أن تطلب مملكة هرمز من سلطان الجبور هذا الطلب، هذه المملكة التي تملك أراضي كثيرة في الساحل الغربي من الخليج والتي يسيطر أسطولها على مدخل الخليج وعلى التجارة منه وإليه.

علم السلطان مقرن أن أمرًا مثل هذا يتطلب بعض التفكير، فقام من مكانه وسار في اتجاه مجرى الماء القريب المظلل

Twitter: @ketab_n

بأشجار النخيل والعنب. أخذه تفكيره بعيدًا، فهو السلطان مقرن بن زامل الجبري، زعيم قبيلة الجبور التي تسيطر على كل المناطق الممتدة من البصرة وحتى عمان، ومن ساحل الخليج حتى أقاصي نجد، ولديه قوة عسكرية هائلة يستطيع أن يُلقي بها الرعب في قلوب أعدائه، ويملك قوة بحرية لا يجاريها سوى أسطول مملكة هرمز التي يدفع لها ضريبة سنوية اتقاء شرها حتى لا تمنع سفنه التجارية الخارجة من الخليج أو الداخلة إليه، وكان طوال السنوات الماضية يتفادى أن تتوتر العلاقة بينه وبينهم، ولكنهم الآن على بابه يطلبون معونته، فكيف يجب أن يتصرف؟ وكيف سيستغل الأمر؟ وماذا لو فشل في إعادة شيرغل إلى عرشه؟

يعرف السلطان أيضًا أن هناك الكثير من الأعداء الذين يتربصون به، فهناك القبائل التي ما زالت تتمرد عليه في وسط نجد، وهناك راشد بن مغامس أمير البصرة الذي ما زال يتحين الفرصة للانقضاض على مملكة الجبور، وهناك أمراء الساحل العماني الموالون لملك هرمز ولا يريدون أن يروا جيش الجبور قريبًا منهم، فهم أعداؤه ويشكلون عقبة أمام طموحه في إيجاد مكان له على الساحل العماني للتجارة منه.

أحضر الخدم طبقًا مصنوعًا من خوص النخيل مليئًا بالتمر ووضعوه أمامه، تناول واحدة ووضعها في فمه ثم أخرج نواتها بسرعة وكأنه لم يتلذذ بطعمها.

بقي ابن رحال في مكانه وإن غير وضعية جلوسه ليقابل السلطان متوقعًا أن يستدعيه في أي لحظة، رفع السلطان ثوبه

Twitter: @ketab_n

ووضع قدميه في مجرى الماء الجاري في عادة لم يتركها منذ أن كان يافعًا، ثم أشار إلى ابن رحال ليحضر:

- اسمع يا ابن رحال، أريدك أن تفكر معي في هذا الأمر، لأننا لو نجحنا في إعادة شيرغل إلى كرسي الملك فإننا سنتوقف عن دفع الضريبة لهرمز، وقد يمتد نفوذنا إلى الساحل العماني، أما إذا فشلنا فستخنق هرمز تجارتنا بالكامل، وستمنع سفننا من الحركة، وسنخسر تجارتنا مع الهند ومع الساحل الإفريقي.

ثم نزع عمامته ووضعها بجانبه قبل أن يقول:

- وقد نخسر مملكتنا كلها. إن القرار خطير وقد يكلفنا الكثير.

لم يكن ابن رحال مستعدًّا لإبداء رأي في مسألة مهمة كهذه، فهو يريد أن يفكر ويقلب الأمر من جميع نواحيه قبل أن يفتح فمه مبديًا رأيه للسلطان، فعلًا إن الأمور معقدة كثيرًا وأي هزيمة، حتى وإن كانت صغيرة، قد تُغري القبائل التي تعيش حول الأحساء بالاستيلاء عليها، فزعماء القبائل وإن أعلنوا ولاءهم للسلطان مقرن إلا أنه ولاء مشروط بوجود قوة تحميه، وفي غياب هذه القوة أو ضعفها سيزول هذا الولاء ليتحول إلى عداء.

- نعم، إنه قرار خطير أيها السلطان، ولكن أمهلني بضعة أيام حتى أجمع من المعلومات ما يكفي لاتخاذ قرار مثل هذا، لدينا بعض التجار الذين يترددون على هرمز سنسمع منهم، وسنجمع أيضًا بعض المعلومات من التجار عن الأوضاع في فارس، فاحتمال تدخلهم وارد إن لم يكونوا مشغولين في معاركهم في الشمال كما قيل لنا.

Twitter: @ketab_n

لم يحرك السلطان بصره الذي ركزه على السمك الصغير، ولكن ابن رحال شعر أن السلطان اتخذ قراره وهو في انتظار أن يعلن عنه فقط.

- افعل ذلك يا ابن رحال، وأظنك سمعتني أقول للرسول إن ردي سيكون خلال أيام، فهو ينتظر أن يذهب به إلى الوزير خواجة عطار.

جاء أحد الخدم ليُعلم السلطان بأن رسول المملكة البهمنية في الهند يطلب الإذن بمقابلته.

- وأين هو الآن؟

- إنه في الخارج أيها السلطان.

- دعه يأتي إلى هنا.

ثم التفت السلطان إلى ابن رحال:

- ابق معنا يا ابن رحال.

دخل الرسول ووصل إلى حيث يجلس السلطان، وسلم بلغة عربية سليمة، ثم طلب منه السلطان الجلوس.

بدأ الرسول بالحديث حال جلوسه بقوله:

- لقد جئت ممثلًا لسيدي الوزير عماد الدين محمود وزير المملكة البهمنية في الهند، وهو يهديك السلام ويدعو لك بالتوفيق والنصر.

ثم أدخل الرسول يده إلى جيبه وأخرج أنبوبًا مذهبًا منقوشًا عليه آيات قرآنية بشكل بديع رائع وسلَّمه للسلطان.

فتح السلطان الأنبوب وأخرج منه ورقة مختومة، قرأها بعناية ثم سلَّمها لابن رحال وعيناه ما زالتا مركزتين على الرسول:

Twitter: @ketab_n

- أبلغ سلامي للوزير عماد الدين محمود، وقل له إننا مسرورون بالتعاون معه بأي طريقة يرغبها، أما الآن، فإني أريدك أن تحل ضيفًا عليَّ في قصري لترتاح قليلًا بعد سفرك المتعب وسنتحدث على العشاء.

نهض الرسول واقفًا أمام السلطان، ثم أشار لتابعه بالتقدم، تقدم أحد الخدم ووضع صندوقًا صغيرًا مزينًا بنقوش وآيات قرآنية أمام الرسول، فتح الرسول الصندوق بهدوء وأخرج منه خنجرًا وسلَّمه للسلطان قائلًا:

- سيدي الوزير عماد الدين محمود يطلب منك أن توصل هذه الهدية إلى خليفة المسلمين، وهو يعتبره أمانة عندكم حتى يتسلمه الخليفة منكم.

مد السلطان مقرن يده إلى الخنجر وقربه من وجهه متأملًا تفاصيله، لقد كان خنجرًا رائعًا بديعًا لم يرَ له نظيرًا من قبل؛ غمده من الفضة المنقوشة بالذهب الخالص، تزينه سبعة فصوص كبيرة من الياقوت الأحمر، أما مقبضه فقد كان آية في الجمال وحسن الصنع، مزينًا بالعقيق الملون والألماس، تربط طرفي الغمد سلسلة ذهبية على شكل أذرع صغيرة ممسكة ببعضها.

قلَّب السلطان الخنجر بين يديه لبعض الوقت قبل أن يقدمه لابن رحال ليراه. جرد ابن رحال النصل من غمده فشاهد ما لم يشاهده من قبل، فقد كان النصل عبارة عن نقوش رائعة الجمال متداخلة في بعضها مزينة بفصوص من الألماس اللامع.

أعاد ابن رحال الخنجر إلى السلطان الذي نظر إليه مرَّة أخرى قبل أن يعيده إلى صندوقه:

Twitter: @ketab_n

- سنوصل هذه الأمانة إلى الخليفة بحول اللّه، مع أنها أمانة ثقيلة أيها الرسول.

ابتسم الرسول قبل أن يقول:

- أيها السلطان العظيم، لقد أمر سيدي الوزير بصناعة هذا الخنجر من مجوهرات والدته وزوجته ومن بعض المجوهرات التي حصل عليها خلال جهاده، إنه سيذكر فضلكم ويدعو لكم إن استطعتم أن تقدموا له هذه الخدمة الجليلة، فنحن لا نملك الخبرة البحرية التي تساعدنا للوصول إلى الخليفة في القاهرة، فكان قرار الوزير هو أنكم أفضل من يفعل ذلك نيابة عنا بحكم معرفتكم بالمنطقة.

- سنفعل أيها الرسول، سنفعل بإذن اللّه.

ثم وجه السلطان حديثه لابن رحال طالبًا منه الاعتناء بالضيف وإكرامه.

غادر الرسول تاركًا المكان وهو يدعو بصوت عالٍ للسلطان.

مرت فترةٌ صمت فيها السلطان وكأنه يفكر في شيء ما، ثم تابع حديثه الذي قطعه وصول الرسول:

- أرسل رسالة إلى عمي زامل في سلوى، واطلب منه أن يجهز من السفن والرجال ما يستطيع، وافعل الشيء ذاته مع أمير جلفار، دعنا نرى مدى استعدادنا لأمر مثل هذا.

وضع السلطان يديه على ركبتيه بعد أن أزعجه وخز السمك الصغير لساقه، ولكنه كان يستمتع ظنًّا منه أن هذا مفيد للركبتين والساقين كما أخبره طبيبه الخاص.

Twitter: @ketab_n

حانت من السلطان نظرة إلى يد ابن رحال التي ما زالت ممسكة بالخاتم ثم دفع له الصندوق أيضًا:

- ادفع للبانيان قيمة الخاتم، إنه رائع، وضعه مع الخنجر في الصندوق واحتفظ بهما في مكان آمن، سنرسلهما للخليفة في القاهرة بعد أن ننتهي من هذه المهمة، أما الآن فعليك أن تجهز نفسك لقيادة الرجال إلى هرمز.

Twitter: @ketab_n

٧
الخليج

أبحرت السفينة بـ «كوفيلهام» من عدن إلى مسقط، هذه المدينة التي سمع عنها الكثير، فقد كانت كما رآها تطل على ساحل بحر أزرق نقي تكثر أمامه السفن الراسية، طليت منازلها باللون الأبيض الذي أضفى عليها نوعًا من الجمال النادر في المنطقة، فبيوتها تشبه بيوت المورسيكيين في القرى الجبلية للبرتغال إلى حد بعيد، وشاهد المسجد الكبير الذي يتوسطها وكأنه جوهرة العقد الذي لبسته الجبال الصخرية السوداء التي تحيط بها، كانت مدينة جميلة تختلط فيها أشجار النخيل بأبراج تهوية المنازل بمنارات المساجد في تشكيلة ملونة متناقضة مع اللون الداكن للجبال، وكأن المدينة سجادة أعجمية فرشت على أرض صخرية.

بقي عدة دقائق يتأمل المنظر الذي يراه للمرَّة الأولى، علم خلال وجوده هناك أن مسقط وبقية الموانئ على الساحل تدفع الضريبة لملك هرمز، وأن حاكمها هو صهر لملك هرمز السابق، فقرر أن يزور مملكة هرمز ويعرف المزيد عنها، خصوصًا أن معه رسالة موجهة إلى وزيرها من الحبر في الإسكندرية مما سيسهل مهمته هناك.

Twitter: @ketab_n

لم يكن حبر الإسكندرية قد قابل الوزير الهرمزي من قبل، ولكن الحبر يعمل مع تجار الكارمية الذين لديهم صلات وعلاقات في أغلب موانئ المنطقة، وهم من رشحوا له الخواجة عطار لغرض التجارة. يبدو أن الساسة وعلماء الدين تستهويهم التجارة دائمًا، ومع أنهم لا يتفقون عادة على الكثير من الأمور إلا أن المال يلعب دوره بشكل أفضل كما يبدو، ابتسم «كوفيلهام» وهو يفكر في كل ذلك.

لم تكن المسافة بين مسقط وهرمز بعيدة، فكانت السفن تجتاز البحر بين المدينتين بكثرة حتى إنه شاهد عدة سفن تسير في الاتجاه المعاكس، فعرف أنه خط بحري نشط لا تنقطع الحركة عليه طوال السنة. وعندما وصل «كوفيلهام» إلى هرمز رست سفينته إلى الغرب من الجزيرة، وعرف من الربان أن هرمز تبدو في الخريطة كقطرة ماء برأس مدبب في أعلاها، إلى الشرق من هذا الرأس المدبب الميناء الكبير الذي يستقبل السفن القادمة من الهند والصين، وفي الغرب ميناء أصغر يستقبل السفن القادمة من موانئ الخليج الأخرى، أما المدينة فهي ممتدة بين الميناءين بشكل يبدو وكأنها تربط بينهما، وفي جنوب الجزيرة تقع بساتين النخيل وخزانات المياه وبعض الهضاب الصخرية الجرداء.

شاهد في الميناء الكثير من السفن العسكرية ذات المجاديف، أصغرها ذات الثمانية وأكبرها ذات العشرين، ومنه تنطلق هذه السفن لبقية الموانئ على الساحل الغربي من الخليج أو لمراقبة حركة السفن الداخلة والخارجة منه وتلك التي تتفادى

Twitter: @ketab_n

دفع الضريبة المقررة عليها نظير الحماية، كما أخبره ربان السفينة التي أوصلته إلى هناك.

لفتت المدينة انتباهه، فهي نظيفة وحسنة التخطيط، تغطي أزقتها أقمشة كبيرة معلقة بين شرفات المنازل حتى تحمي المشاة من أشعة الشمس. كان الثراء ظاهرًا على تجارها وحوانيتها وأهلها، ويتفاخرون بعرض ما يملكون من تحف خارج منازلهم، سواء على مداخل الأبواب أو في الشرفات. وشعر وهو يمشي بأنه في سوق شرقية متنوعة، ولم يستطع أن يخفي إعجابه بما يشاهد.

وفي بعض الأحياء الثرية في المدينة يفرش الناس سجاجيد كبيرة أمام منازلهم حتى يمشي عليها الناس في بادرة لإظهار مكانتهم الاجتماعية، والسقاة يقفون على نواصي الطرق لسقي الناس منقوع البلح أو منقوع الأعشاب العطرية. وبها خانات وقفها التجار على إطعام الفقراء والمسافرين وإيوائهم. ولاحظ أن كل الطعام الذي كان يُباع في السوق مستورد من ساحل فارس أو من الهند أو من عمان، فالجزيرة ليس بها الكثير من الماء كما أخبره البعض، وماؤها يتم إحضاره من جزيرة أخرى قريبة تسمى «جسم»، وأرضها لا تصلح للزراعة؛ فهي شبه قاحلة سوى من بعض أشجار النخيل والسدر والأثل في جنوبها، والماء سلعة غالية في السوق يتفنن الناس في الحفاظ عليه وتخزينه وتطييبه بماء الورد.

قُسمت المدينة إلى أحياء تتخللها شوارع كبيرة تجتمع كلها في شارع كبير مطل على البحر يربط الميناءين، وهو الشارع الذي تكون فيه الاحتفالات والمناسبات ويطل عليه قصر الملك.

Twitter: @ketab_n

شوارع هرمز جميلة ومرصوفة ومرتبة، وخُصصت مناطق للباعة الجائلين الذين يحسنون شيَّ اللحوم والأسماك وخلطها بالبهارات التي تُطلق عبقها في الشوارع، وخُصصت مناطق أخرى لبيع الأطعمة بكل أنواعها. ولم يشاهد «كوفيلهام» خلال استكشافه للمدينة بؤساء وشحاذين، ويكفي أن يضع التجار قطعة من القماش على بضائعهم إن أرادوا مغادرة الحانوت أو الدكان بدون أن ينشغلوا بتأمينه، فليس هناك سرقات على الجزيرة أبدًا.

غير بعيد من الخان الذي سكنه «كوفيلهام» يقع قصر الخواجة عطار، ولو مد «كوفيلهام» بصره لشاهد الخواجة يجلس أمام شرفة منزله المطل على البحر.

كان الجو ربيعيًّا في ذلك اليوم، والرياح القادمة من الشمال تحرك الستائر الحريرية التي بالكاد تحجب أشعة الشمس، فالشرفة هي المكان المفضل للخواجة حيث يحب أن يضع كرسيه هناك مقابلًا للبحر، متأملًا تلك المساحة الزرقاء من الماء، وعندما يفعل ذلك يود أن يبقى وحيدًا، فقد تعودت ابنته حليمة ألَّا تضايقه في معزله، ولكنها قررت في ذلك اليوم أن تكسر عليه خلوته.

خلعت نعليها بهدوء قرب الباب، ومشت على أطراف أصابعها إلى حيث يجلس، قبلت يده وجلست على الأرض قرب قدميه.

نظر الخواجة إليها بعاطفة الأب المحب، فهي ابنته الوحيدة. لقد كبرت حليمة وأضحت فتاة رائعة الجمال في السابعة عشرة من عمرها، طويلة سمراء ذات جسد ممشوق وعينين تكادان تشعان سحرًا، أما شعرها فقد كان أسود طويلًا؛ ضُفِّر بعناية حتى إنه

Twitter: @ketab_n

سحب جلدة رأسها إلى الخلف فتوسعت عيناها وصعد طرفاهما إلى الأعلى مما أضفى عليها جمالًا فاتنًا، كانت تحب أن تضع ضفيرتها الطويلة السوداء على كتفها اليمنى من الأمام وتعبث بها بأطراف أصابعها.

تعود الخواجة أن ينظر إلى عيني فتاته وهو يخاطبها، فهما تذكرانه بعيني والدتها التي تُوفيت منذ عدة سنوات، كانت حليمة هي حياته وسعادته، وضع يده اليمنى على رأسها بطريقة لا شعورية داعيًا اللّه أن يحفظها ويحميها، ثم أعاد بصره إلى البحر.

رافقت عينا حليمة عيني والدها إلى البحر وسألته:

- ما الذي يدور في خَلدك يا أبي؟

أبقى الخواجة بصره مركزًا على البحر لفترة قبل أن ينظر إليها:

- لا أريد أن أزعجك يا ابنتي، لكنك تعرفين أوضاع مملكتنا التي ليست على ما يرام.

تغيرت ملامح وجهها فجأة:

- نعم، أعرف ذلك، فمنذ أن أطاح أويس بشيرغل وأنت على هذه الحال، وأنا أعرف مدى حبك لشيرغل، فقد ربيته بنفسك، ولكنه ليس الملك الآن، وأويس هو الملك الحالي، فدعنا نقبل بذلك، لن نستطيع فعل شيء آخر.

قام الخواجة من كرسيه ومشى في اتجاه حافة الشرفة واستند عليها مخرجًا نصف جسده منها وكأنه يحاول الهرب من واقعه، بقي على هذه الحال لدقائق، كانت حليمة قد وقفت بقربه وفعلت فعله، شعر أنه يجب أن يشارك ابنته فيما يفكر به:

Twitter: @ketab_n

- لقد أرسلت رسولًا إلى سلطان الجبور في الأحساء طالبًا منه التدخل عسكريًّا لصالح شيرغل، وأتوقع وصول الرسول في أي ساعة الآن.

تغير وجه الفتاة وكأنها أُصيبت بصدمة:

- أظنك تعلم ماذا يعني ذلك يا أبي! إن هؤلاء قد يسيطرون على مملكتنا أو قد يطلبون منَّا الكثير من المال، هل فكرت في ذلك؟ إنهم بدو أجلاف و . . .

قاطعها والدها بهدوء:

- فكرت في كل ذلك يا ابنتي، ولكن ليس هناك حل آخر، إذا بقي أويس على كرسيه فمعنى ذلك أن هرمز قد تفقد سيطرتها على التجارة في الخليج بسبب سوء تصرفه وكره الناس له، وستفقد أملاكها المنتشرة في البحر جراء ذلك، ولكننا قد نجد مع الجبور وسيلة للتعايش ترضي الطرفين.

عاد الخواجة إلى كرسيه، وتبعته حليمة وجلست قبالته، وكعادتها مع والدها أخذت إحدى قدميه ووضعتها في حجرها وبدأت تمسدها بيديها، كانت تعرف أنه يحب هذا الفعل ويشعر بحبها له ويتمنى ألّا يمضي الوقت بسرعة.

ابتسم الخواجة لابنته، فأسئلتها غدت أكثر صعوبة وذكاء من ذي قبل، ولا بد أن يجد جوابًا مقنعًا لها، واصل حديثه بهدوء:

- لقد خاطبت سلطان الجبور لأني لم أجد شخصًا آخر أخاطبه يا حليمة، الجميع يريد مالنا، ولكن لا يريدون مشاكلنا، وأعتقد أن علينا حلها بمفردنا.

Twitter: @ketab_n

توقف عن الحديث ونظر إلى السماء قبل أن يكمل:

- إننا نعيش في ثراء واضح، وتجارتنا مزدهرة، حتى الآن على الأقل، واستطعنا أن نتفادى أعداءنا ببعض المال الذي ندفعه لهم.

ثم ضرب بكفه على مسند الكرسي الذي يجلس عليه وكأن عقربًا لدغته:

- أوووف! إن ملوكنا الحمقى سيدمرون كل ذلك بخلافاتهم التي لا معنى لها.

أعاد بصره إلى ابنته:

- صحيح أن الجبور بدو أجلاف، ولكننا لم ندخل معهم في صراع حتى الآن، وعلاقتنا معهم جيدة وهم يدفعون ما عليهم من ضرائب لهرمز، ولكني أعلم أن كل هذا قد يتغير حال معرفتهم بوضعنا.

نظر إلى عيني ابنته بعطف:

- الغريب يا حليمة أن نصف الدماء التي تجري في عروقك هي دماء عربية؛ لا تختلف كثيرًا عن الدماء التي تجري في عروق سلطان الجبور، ففي مدينتنا هذه اختلطت الأعراق، فجاء العرب والفرس والهنود والبلوش، فتزاوجنا وأنشأنا شعبًا موحدًا ولاؤه للملك.. ولكني لا أعلم لأي ملك يجب أن يكون هذا الولاء الآن!

قال جملته الأخيرة وكأنه يحاول إنهاء الحديث. أزاحت حليمة قدم والدها من حجرها ووضعت القدم الأخرى، محاولة قدر استطاعتها التخفيف من همه:

Twitter: @ketab_n

- ولكنك لم تُجب عن سؤالي يا أبي، ما الذي تتوقع أن يطلبه الجبور منا؟

انتبه لسؤالها وكأنه يسمعه لأول مرَّة، هز رأسه وأحنى طرفي شفتيه للأسفل:

- لا أعلم يا ابنتي، لقد أرسلت للسلطان مقرن رسولًا يطلب منه التدخل، وسيعود إليَّ بطلباته قريبًا، لا أعلم ما الذي سيطلبه، ولكني أتمنى ألَّا يكون خارج حدود استطاعتنا.

قطع حديثهم صوت موكب الملك وهو متجه إلى قصره، أنزلت حليمة قدم والدها وجرت في اتجاه الشرفة.

استغرب خواجة عطار من فضول ابنته:

- ألم تملي من رؤية الموكب بعد؟!

لم تلتفت حليمة إلى والدها، بل أبقت نظرها على الموكب وقالت:

- نعم، لقد مللت من رؤية الموكب، لم يعد يثير فضولي كما كنت صغيرة، ولكني أحاول أن أعرف الكثير منه، فهو يقول لي مَن هو الوزير الجديد، ومَن هم ضيوف المملكة، ومَن الذي أصبح مقربًا من الملك، أمور كثيرة أستطيع أن أعرفها من الموكب.

حفظت حليمة شكل الموكب غيبًا، فلم يتغير منذ أن تولى الملك الجديد منذ عدة أشهر، وعادة ما يتقدم الموكب مرافق بزي أحمر قاتم يمتطي جملًا ويضرب على طبلتين كبيرتين، يتبعه ضارب آخر على أربعة طبول صغيرة، وبعده اثنان من المرافقين يرفع كل منهما علم مملكة هرمز، وبعدهما فارسان يمتطيان

Twitter: @ketab_n

فرسين مطهمين بطريقة يظهر فيها البذخ ويحمل كل منهما عصا مزينة بنقوش فضية ترمز إلى السلطة، ثم اثنان من ضاربي الصنجات، وأربعة من نافخي الأبواق، وبعدهم يأتي خدم الملك في ملابسهم غالية الثمن، وبعدهم الملك على فرس عربية رمادية اللون ذات سرج مذهب ولجام من نفس الطراز، وعلى رأس الفرس ريش طويل جميل.

يلبس الملك عباءة حمراء قاتمة تتخللها ألوان خضراء وذهبية، وتحتها قميص مطرز وسروال بذات اللون وفي وسطه نطاق من القماش الفضي يتوسطه خنجر مرصع بالجواهر، وعلى رأسه عمامة من الحرير الفارسي تتخللها خيوط ذهبية.

مر الموكب بكل إزعاجه من أمام المنازل المطلة على البحر وكأنه يعلن للجمهور مَن هو الملك الجديد، هزت حليمة رأسها وهي تشاهد مؤخرة الموكب ثم التفتت إلى والدها الذي بادرها بقوله:

- لست أعلم ما الذي يخبئه لنا القدر يا بنيتي، لست مطمئنًا.

جلست أمامه ووضعت يديها على ركبتيه:

- عهدتك متفائلًا يا أبي، هل أنت أيضًا خائف من الجبور مثلي؟

- إن وافق سلطان الجبور على مساعدتنا فهناك ثمن يجب أن ندفعه له، ولست أعلم ما الذي سيطلبه منا، ولكن بقاءنا تحت إمرة هذا الملك سيكون كارثة على الجميع!

قطع الخادم حديث الوزير بعد أن دخل مسرعًا:

Twitter: @ketab_n

- سيدي، هناك من يريد مقابلتك.

- مَن هو؟ هل عاد الرسول من الأحساء؟

رد الخادم بهدوء:

- لا يا سيدي، ولكن يبدو من هيئته أنه تاجر عربي قادم من بعيد، فلهجته لم أسمعها من قبل، وملابسه غريبة الشكل، ويقول إن معه رسالة مهمة لكم.

طلبت حليمة أن تبقى مع والدها في مجلسه حتى ترى هذا الغريب، فسمح لها والدها بذلك.

دخل «كوفيلهام» على الوزير بهيئته المغربية، وسلَّم عليه بكل احترام، وقد أحنى ظهره كثيرًا بشكل مبالغ فيه، ثم نظر إلى حليمةَ التي لفتت انتباهه بجمالها فانحنى لها أيضًا، ثم أعاد بصره للوزير بشكل سريع.

لاحظ الخواجة أسلوب «كوفيلهام» في السلام، فهي عادة لم يرها في عرب الجزيرة، فسأله عن بلده.

- سيدي الوزير، أنا تاجر من المغرب، مررت بالإسكندرية في طريقي إلى الهند، وقد أعطاني أحدهم رسالة لجنابكم، ثم مد كلتا يديه بالرسالة إلى الوزير بكل احترام محاولًا مقاومة نفسه من النظر إلى حليمة.

- اجلس أيها الضيف.

جلس «كوفيلهام» مركزًا بصره على الوزير في محاولة لدراسة رد فعله مع قراءة الرسالة.

خيم جو من الصمت على الجميع قبل أن يكسره الخواجة:

- هذه الرسالة من صديقي الذي لم أقابله، حبر الإسكندرية،

Twitter: @ketab_n

يطلب مني أن أساعدك في رحلتك إلى الهند، وألا أبخل عليك بشيء، من الواضح أن لك مقامًا كبيرًا عنده، هلَّا عرفتني بنفسك أكثر؟ وكيف هي الأوضاع لديكم في المغرب؟

عرف «كوفيلهام» أن الحبر في الإسكندرية يتاجر في البهارات مع الخواجة وإن لم يعلن عن ذلك له، لا يهم، على الأقل لن يشعر بالغربة الآن.

- إن مملكتنا في صراع مع البرتغاليين والإسبان يا سيدي، ولهذا نحن نتاجر مع الشرق عوضًا عن الغرب. إن سواحلنا تتعرض للكثير من الغزوات من الشمال، والناس في ضيق من هذه الحروب التي لا تنتهي.

ابتسم الوزير ابتسامة غريبة قبل أن يقول:

- لم يعد العالم آمنًا كما كان يا صديقي المغربي!

ثم التفت الخواجة إلى ابنته مشيرًا بيده إليها:

- هذه ابنتي حليمة، إنها لم تسافر خارج مملكتنا بعد، ولكنها تحب أن تعرف ما الذي يحدث في العالم.

ابتسم «كوفيلهام»، ووجدها فرصة للتأمل في جمال لم يعهده من قبل:

- سأكون مسرورًا بالإجابة عن أي سؤال، فقد سافرت كثيرًا ولديَّ الكثير من القصص لأرويها، ولكني أريد أن أعرف المزيد عن مملكتكم يا سيدي.

ابتسم الخواجة مرَّة أخرى وقال:

- يبدو أننا سنحكي الكثير من القصص لبعضنا، لا بأس، سأبدأ أنا.

Twitter: @ketab_n

كانت هرمز القديمة تقع على الساحل الفارسي، قرية صغيرة منسية حين نزل فيها شيخ يمني يسمى الشيخ محمد كوب، وقد بدأ هذا الشيخ في فتح آفاق التجارة أمام السكان المحليين، فشجعهم على التجارة مع الهند والصين شرقًا، ومع الساحل الإفريقي غربًا، مستغلًّا رياح المواسم التي تهب خلال الصيف من الغرب في اتجاه الشرق وتكون مناسبة للسفن المتجهة إلى الهند والصين، وفي الشتاء تهب من الشرق في اتجاه الغرب، وهي مناسبة لسفن الصين والهند للسفر غربًا إلى الخليج وإفريقيا.

كان الخواجة يشرح لـ«كوفيلهام» الاتجاهات محركًا يده في الهواء وكأن هناك خريطة كبيرة أمامه:

- ومع مرور السنوات والأيام انتعشت هذه القرية وتحولت إلى مدينة كبيرة ثرية، وشرع الشيخ محمد بسك عملته الخاصة التي أسماها «درهم»؛ فلُقب بالشيخ محمد درهم كوب.

وفي عام ١٣٠١ بتاريخ الفرنجة هجم المغول على هرمز ودمروا جزءًا منها، فقرر الملك في ذلك الوقت ترك المدينة والانتقال إلى جزيرة جيرون التي تبعد عن الساحل بضعة آلاف من الأذرع، وأنشأنا عليها مملكتنا هذه التي سميناها بنفس الاسم السابق.

وجدت حليمة فرصتها للسؤال:

- ما الذي تتاجر به أيها الضيف؟

- إني أتاجر بكل شيء يا سيدتي، ولكني وجدت أن أفضل تجارة هي في البهارات، فقد قيل لي في عدن إنني أستطيع أن أبيع الحمل منها في الإسكندرية بعشرة أضعاف سعره في كاليكوت، وأحيانًا بعشرين إن كانت أوضاع الملاحة سيئة.

Twitter: @ketab_n

رد الخواجة مقاطعًا بهدوء:

- لا تُصدق كل ما تسمع، فأغلب التجار لا يقولون الحقيقة، وهم يغارون بعضهم من بعض، ويعتبرون كل ما يعرفونه سرًّا يجب ألَّا يعرفه غيرهم، وإن توجب عليهم إفشاؤه فإنهم يحرفونه ويزورونه حتى يبدو مختلفًا عما هو عليه.

ثم سأل:

- وهل تعرف أحدًا في الهند؟ سأعطيك رسالة لبعض معارفي حتى يساعدوك في تجارتك، فمن الواضح أنك جديد عليها.

رد «كوفيلهام» رافعًا يده إلى جبهته ثم صدره:

- سأكون ممتنًّا لكرمك وفضلك أيها الوزير.

تغيرت ملامح الوزير فجأة قبل أن يسأل «كوفيلهام»:

- لقد وردتنا أنباء تقول إن البرتغاليين قد وصلوا إلى اليمن وساحل الهند، هل سمعت شيئًا عن ذلك؟

اندفع الدم في وجه «كوفيلهام» فجأة، فلم يكن يتوقع أن السفن البرتغالية قد وصلت إلى هنا، لقد ظل لفترة طويلة مُخفيًا هذا السر عن أقرب الناس إليه، ولكن من الواضح أن موانئ البحر لا تحفظ سرًّا:

- هل تقول إنهم وصلوا إلى الهند؟ كنت في عدن منذ حوالي أسبوعين ولم أسمع شيئًا عنهم! هل أنت واثق يا سيدي؟

رد الخواجة بنبرة حزينة:

- لقد سمعت أنهم أحرقوا السفينة «مريم» على ساحل الهند وكان بها حجاج عائدون إلى ديارهم، لقد كانت مأساة تحدَّث

Twitter: @ketab_n

عنها كل البحارة على هذه السواحل، ولكن الناس تنسى بسرعة في هذا الجانب من العالم.

لم يكن «كوفيلهام» حتى هذه اللحظة متأكدًا مما يسمع:

- هل أنت واثق من أن البرتغاليين وصلوا إلى هناك؟

- نعم، بالتأكيد، وهناك تفاؤل في الهند بهم، فهم يشترون البهارات بأثمانٍ أعلى مما يشتريها بقية التجار، وبعض ملوك الهند وافق على أن ينشئ لهم مراكز تجارية.

حاول «كوفيلهام» أن لا يبدي اهتمامًا كبيرًا بالموضوع:

- ولكن لماذا لم يتحدث الناس عنهم في الموانئ؟

ردت حليمة بقولها:

- عليك أن تعرف أن الكثير من السفن تأتي من أصقاع الأرض للتجارة في البهارات مرورًا بهذه المنطقة، فوجود سفن للتجار البرتغاليين لا يلفت الأنظار كثيرًا.

رد «كوفيلهام» بهمس:

- أتمنى أن يبقى الأمر كذلك.

Twitter: @ketab_n

٨
القاهرة

غمز حسين فرسه بعد أن خرج من بوابة القلعة في اتجاه جبل المقطم، جرى خببًا محاولًا الوصول إلى حافة سفح تعوَّد أن يجلس عليها مراقبًا القاهرة من بعيد، ربط الفرس وبدأ ينظر إلى المدينة التي لم يحبها ولم يعشقها ولكنه مجبر على العيش بها. تبقى هذه المدينة في عين حسين صاخبة مزعجة، لقد انغرست تجربته الأولى بها في عقله، ولم يستطع أن يتخلص منها حتى الآن، تلك التجربة التي جعلته يدرك كم هو مؤلم أن ترى نفسك وقد أصبحت ملكًا لشخص آخر بعد سماع رنين الدراهم وهي تنتقل من كف إلى أخرى.

بدأ ينظر إلى تفاصيل المدينة مصغيًا لكل شيء، صوت فرسه وهو يمضغ نبتة جافة، ثم صوت الرياح وهي تصطدم بحافة الجبل الذي يجلس عليه محدثة صفيرًا حزينًا، سمع صدى الأذان قادمًا من مسجد يقع على حافة الصحراء، أثار الأذان فيه الكثير من الذكريات التي طفت على رأسه، فغلب عليها ما حدث تلك الليلة التي سمع فيها الشيخ يصيح في المصلين: «ويل للعرب من شر قد اقترب!».

Twitter: @ketab_n

مرت أيام طويلة منذ أن سمع حسين خطاب الشيخ في تلك الليلة، فقد شغله عن العيد واحتفالاته الصاخبة، تذكر تعابير الشيخ وهو يتحدث عن المذبحة التي حصلت في عرض البحر، ثم صراخه الغريب الذي لم يسمع مثله من قبل: «ويل للعرب من شر قد اقترب!»، وانتظاره له لحين انتهائه من حديثه الصاخب الذي شوشه صراخ الناس وتكبيراتهم، لم يسمع شيئًا، كان ما يقوله الشيخ عبارة عن جمل متقطعة تضرب أذنه من حين إلى آخر، صراخ الناس وتكبيرهم وبكاؤهم جعل الذكرى مشوشة وغير واضحة يغلب عليها الصخب والفوضى.

مر شريط الذكريات مشوهًا، ولكن حسين تذكر كيف انتظر حينها حتى غادر الناس وبقي الشيخ وحيدًا. تقدم إليه ليستفسر عن الذي حدث. كانت عينا الشيخ ما زالتا مغرورقتين بالدموع، ووجهه شاحبًا، وصوته مبحوحًا، جفف عينيه بطرف كمه قبل أن يقول:

- منذ عدة أشهر غادرت ميناء جدة سفينة اسمها «مريم»، عليها ثلاثمائة نفس مسلمة، نساء وأطفال وشيوخ، بعد أن أنهوا مناسكهم في الأراضي المقدسة، وفي طريقهم إلى الهند هاجمتهم سفن البرتغال، أوقفوا السفينة وسرقوا كل ما بها من مؤن وأموال، حتى إنهم قطعوا أصابع النساء وسرقوا حليهن، ثم انتقوا من الفتيات والأطفال ما يحلو لهم، وبعدها قطعوا أيادي ربانها وبحارته قبل أن يرموهم في البحر، وكأن ذلك لم يكن كافيًا، فأدخلوا من بقي من النساء والشيوخ في بطن السفينة مقيدين كالخراف وأحرقوهم أحياء، وبقوا يتفرجون عليهم وهم

Twitter: @ketab_n

يغرقون في قبرهم المحترق، فلم يبقَ من كل هؤلاء أحد، لقد فعلوا ذلك مقابل ساحل الهند حيث يقف أحبابهم يشاهدون تلك المذبحة.

بدأ الشيخ يبكي بمرارة مرَّة أخرى، وبعد أن مسح دموعه بطرف عباءته كما فعل من قبل أكمل:

- إن هذه السفينة ليست الضحية الوحيدة لهم، فقد دمروا وأحرقوا الكثير من السفن على مدخل البحر الأحمر، إنهم يتلذذون بتقطيع أوصال الناس وحرقهم أحياء، لسنا نعلم من أي جحيم جاءنا هؤلاء الشياطين، ولكن يتوجب على سلاطيننا نسيان خلافاتهم وتوحيد جهودهم لصد هذا العدو الصائل.

طلب الشيخ أن يسند ظهره على عمود المسجد، فقد أنهكه الوقوف الطويل، نظر حسين إليه بعطف؛ فقد كان اهتمام الشيخ غير اهتمام أمراء المماليك، وغير اهتمام عوام الناس، إنه اهتمام مخالف لبقية الناس، ولكنه لصيق بهمومهم. شعر حسين أن الشيخ يتحدث بلسانه، فبدأ يصغي له باهتمام بالغ.

كانت ذاكرة حسين تأخذه إلى ذلك الحديث مع الشيخ ثم تعود به إلى حيث هو، بقي يسرد الذكريات في رأسه محاولًا استرجاع تفاصيلها، فتذكر بقية حديث الشيخ الذي قال:

- لقد وصلت سفن البرتغاليين إلى الهند، وسيطروا على الموانئ هناك، ومنعوا المسلمين من مزاولة التجارة، ولذلك توقفت قوافل البهارات عن الوصول، وشح المال في أيدي الناس، وانتشر الفقر، وأرى في هذا بداية أمر جلل قادم.

مسح عينيه بذؤابة عمامته مرَّة أخرى وقال بصوت باكٍ:

Twitter: @ketab_n

- وقد أرسل بعض ملوكهم يطلبون تدخلًا وحماية من الخليفة المستمسك بالله.

ثم أطرق قليلًا قبل أن يقول بصوت كله حزن:

- أعتقد أنهم لا يعلمون حالنا وحال خليفتنا المسكين الذي يتلاعب به أمراء المماليك، ولا يعلمون أن حكمه لا يتعدى غرف حريمه فقط.

ثم استجمع الشيخ قوته وأخذ نفسًا عميقًا:

- إننا في بلوى كبيرة لا يعلمها إلا الله، لم نعد نعرف كيف نكسب رزقنا، ولم نعد نعرف كيف نحج أو نسافر، كل الطرق خطرة، حتى أزقة القاهرة أصبحت مأوى للسفلة والقتلة وقطاع الطرق بدون أن يفعل حكامنا شيئًا؛ إن همهم الصراع على المال والاستحواذ على كنوز مصر لهم وحدهم.

لاحظ حسين في تلك الليلة أن الناس بدأوا في ترك المسجد خوفًا من أن تتم محاسبتهم على الاستماع لما يقوله هذا الشيخ الشجاع؛ ففي هذه الأيام ليست الجريمة هي قطع الطريق وسرقة الأموال، ولكنها في الحديث عن المال العام وعن فساد السلاطين والأمراء، فكم من شيخ وُجد مقتولًا بعد خطبته، وكم من مقهور اختفى من بيته، هل يجب أن يبقى القهر حبيس الصدر؟! من الواضح أن الأمراء يعرفون أن الناس يكرهونهم، ولكنهم لا يريدونهم أن يجهروا بذلك، وكأنهم يصرون على أن يبقى كل شيء حبيس النفوس أو تحت الأرض، وهل يغير هذا من الأمر شيئًا؟!

لقد شاهد حسين الكثير من الناس وهم يصفقون ويهتفون

Twitter: @ketab_n

لمواكب السلاطين، ولكنهم يبصقون بعد مرورهم، ويتبعون ذلك بسيل من اللعنات، هل يعلم السلاطين بذلك؟ عرف حسين أنهم يعلمون ولكنهم لا يأبهون!

شعر بأن صاعقة قوية قد ضربته بعد جلوسه مع الشيخ في ذلك اليوم، فهل حقًّا حصل هذا؟ ومتى؟ كيف وصل الفرنجة من خلفنا؟ وهل سيدخلون القاهرة من نهر النيل كما سمع من قبل؟ وهل هم يأجوج ومأجوج اللذان كان يسمع قصصهما في المساجد؟ وهل هذه من علامات يوم القيامة؟ سرت قشعريرة في جسده وشعر بها تسري إلى أعلى ظهره، يا ليت صديقي سليمان هنا ليسمع كل هذا، أين هو الآن؟ ما أحوج المرء لصديق يبثه مخاوفه عندما تضيق الدروب وتدلهم الخطوب!

ومع مغيب الشمس، اعتلى حسين فرسه وسار عائدًا في اتجاه القلعة التي وصلها فجرًا وهو يسمع صياح ديكتها وصوت الحرس وهم يعودون من ورديتهم. ذهب إلى غرفته وارتدى ملابسه الرسمية وسار في اتجاه الديوان السلطاني قبل ازدحامه بالناس. لم يطل انتظاره حتى سُمح له بالدخول على السلطان الذي ابتسم حين رآه كعادته، فهو بمنزلة ابنه، لم يقضِ حسين وقتًا طويلًا في المجاملات، فما كان بينه وبين السلطان الغوري يكفي للدخول في صلب الموضوع، فبدأ حديثه بقوله:

- إن القاهرة تضج بإشاعة تقول إن الفرنجة قد كسروا سد ذي القرنين، وإنهم على أبواب مكة والمدينة، وقد يدخلون القاهرة في أي وقت، فهل سمعت بذلك يا مولاي؟

- نعم، سمعت بذلك يا بني، وقد طلبت من ممثلنا في

Twitter: @ketab_n

السويس تحري الأمر وإرسال ما يمكن أن يحصل عليه من معلومات إلينا بأسرع وقت ممكن.

دخل أحد الخدم معلنًا أن الفطور قد جُهز:

- ضرب الغوري كتف حسين بيده داعيًا إياه إلى الطعام. لم يكن حسين يشعر بالجوع، ولكنه وجدها فرصة للحديث مع سيده بهدوء بعيدًا عن صخب الديوان وطلبات الضيوف.

جلس الغوري على وسادة قطنية أمام صحن نحاسي به أطباق متنوعة من الطعام، وأمر حسين بالجلوس قبالته. كانت سُفرة بسيطة غير مبالغ فيها، أغرت حسين بمد يده على طبق الفول الغارق بالزيت، كان يأمل أن يملك الغوري خطة لمجابهة البرتغاليين، ولكن السلطان بقي صامتًا كعادته وانشغل بالطعام وكأن حسين غير موجود.

قال حسين وهو ينظر إلى سفرة الطعام:

- مولاي السلطان، كنت منذ عدة أيام في المسجد الكبير القريب من القلعة وشاهدت كيف أن الحنق والغضب قد بلغا بالناس مبلغًا، وأنا أخاف أن تكون هذه بوادر ثورة ستنفجر قريبًا؛ فالناس لم تعد تحتمل كل هذه المصائب التي تنزل عليها من كل حدب، إن مسألة البرتغاليين أصبحت هي الشاغل الأهم في حديثهم، يجب أن نفعل شيئًا حيال ذلك، فبحكم أن الحرمين الشريفين تحت سلطانك فأنت مطالب بالدفاع عنهما، والناس ينتظرون منكم إثباتًا عمليًا على ذلك.

بقي الغوري يمضغ الطعام بهدوء، ثم شرب من قلة كانت عن يمينه قبل أن يأمر برفع الصحن وإحضار الغسول.

Twitter: @ketab_n

جاء أحد الخدم بإبريق طويل له فم كعنق النعامة وطبق معدني آخر له شكل الكرة من الأسفل، فوضعه أسفل يدي الغوري وسكب عليه الماء من الإبريق ثم ناوله قطعة قماش قطنية لتجفيف يده.

أشار الغوري لحسين بأن يتبعه، ثم ذهب إلى المجلس الذي كان به سابقًا وجلس صامتًا.

أصاب ذلك حسين بنوع من الحنق، ومع أنه تعوَّد على أسلوب الغوري في التفكير والحديث إلا أن الوضع لا يحتمل كل ذلك، ولا بد من عمل سريع لوقف البرتغاليين عند حدهم.

فجأة نطق الغوري:

- هل تستطيع أن تتصدى لهم يا حسين؟

لم يتوقع حسين مثل هذا السؤال، فوقعت عيناه على عيني سيده وكأنه يتساءل عن مدى جدية السؤال، فبلع ريقه وتغير لونه:

- أنت تعلم يا مولاي أنه ليس لدينا أسطول كبير يستطيع أن يمخر عباب البحر، فقد أهملنا الصناعة البحرية منذ فترة، وليس لدينا العمال المهرة لبناء السفن، لا أظن أن لدينا أي شيء لعمل أي شيء، لقد أهملنا الصناعة ومن الصعوبة إعادتها!

كانت إجابة حسين متوترة وغير منظمة، وكأنه لا يعرف ما يريد أن يقول، ثم توقف فجأة قبل أن يكمل:

- عندما تهمل أمرًا مُهمًّا لم تكن بحاجة إليه حينها، فستكون قد خسرته نهائيًّا حين تكون بأمس الحاجة إليه.

قال حسين هذه الجملة وكأنه نادم على إهمال الصناعة البحرية التي كانت لمصر.

Twitter: @ketab_n

سمع صوت زفير قوي خارجًا من صدر الغوري، فعرف أنه ضرب وترًا مؤلمًا في نفسه، فتحدث الغوري كعادته هادئًا مفكرًا في كل كلمة يقولها:

- منذ أن سمعت الإشاعة وأنا أفكر مثلك يا حسين، لقد أرسلت إلى السلطان العثماني أطلب منه إرسال مواد لصناعة السفن وقد وعد خيرًا، وأظنه سيفعل قريبًا، واتصلت أيضًا بالبنادقة ليمدوني بما يستطيعون من مواد بحرية، فإن نجح البرتغاليون فسيخسر البنادقة، وإن نجح البنادقة فسيخسر البرتغاليون، وأظن أن علينا أن نستفيد من خوفهم على تجارتهم.

كان الغوري يتحدث كسياسي عريق يعرف ما يريد بعكس حسين الذي يغلب عليه حماس الشباب.

واصل الغوري حديثه وهو ينفض عن ملابسه بقايا فتات الخبز الذي علق به:

- لقد أسأنا لعلاقتنا مع العثمانيين كثيرًا، وسنحتاجهم الآن لبناء أسطولنا البحري، إنها العادة المتكررة معنا، نتخاصم ونقتتل حتى إذا ظهر خطر يتهددنا جميعًا اتحدنا ضده، ثم إذا انتهى عدنا كما بدأنا، وأتمنى ألّا يحصل ذلك مع العثمانيين.

تغيرت نبرة صوت الغوري فجأة:

- اذهب الآن إلى السويس، وسأرسل لك كل ما يصلني من مساعدات، وعليك أن تشرع في بناء السفن، وأن تقود الأسطول لمواجهة البرتغاليين، لقد عينتك منذ هذه اللحظة باش العسكر البحرية.

ثم حرك يده بشكل تلقائي وكأنه يدفع الهواء بعيدًا:

Twitter: @ketab_n

- اذهب الآن، عليك مهمة صعبة لتنجزها في وقت قصير.

سافر حسين إلى السويس حتى يشرف بنفسه على الاستعدادات وبناء الأسطول، شعر أنه أمام مسؤولية ضخمة يتوجب عليه إنجازها بأفضل طريقة ممكنة.

أخذ العمل من حسين كل وقته، فكان يتواجد في دار الصناعة قبل طلوع الشمس ولا يترك الإشراف على العمل حتى غروبها. نجح حسين في بث روح الحماس في العاملين عندما قال لهم إنهم أمام تحدٍّ كبير ومهمة جهادية يجب ألَّا تفشل، فتحولت السويس خلال بضعة أشهر إلى خلية نحل لا تهدأ، وانتعش تجارها وأرباب العمل فيها، وتوسعت مساحتها بعد أن هاجر إليها الكثير من الصناع القادمين من القاهرة ومن المدن الأخرى، الجميع يعمل بدون كلل أو ملل، وقد أوفى السلطان الغوري بوعوده، فكان يرسل لهم كل ما يصل إليه من العثمانيين والبنادقة من أدوات، فكانت القوافل لا تتوقف حاملة الخشب والحديد والنحاس والبارود والقار والحبال وكل لوازم الصناعة البحرية، وفي أقل من سنة كانت السويس قد تحولت إلى دار للصناعة البحرية، وما إن انتهت السنة الأولى حتى بدأت السفن تنزل إلى البحر واحدة بعد الأخرى وسط هتافات البحارة والصناع.

وفي اليوم الموعود الذي يتوجب فيه على الأسطول الإبحار للدفاع عن شواطئ الإسلام، جلس حسين بالقرب من السلطان الغوري الذي حضر الاحتفال شخصيًّا، فهو يريد أن يظهر وكأنه المدافع عن ديار المسلمين. لقد استطاع الغوري أن يتلاعب

Twitter: @ketab_n

بمشاعر الناس، فهو من جهة يرسل جنوده لقتل معارضيه، ومن جهة أخرى يظهر بمظهر المتدين الحريص على دماء وأموال المسلمين ومصالحهم، ووجوده اليوم سيكرس هذا الأمر في أوساط شعبه. حضر معه أيضًا أمراء المماليك والأتابك وأمراء الألف بكامل زينتهم وأزيائهم العسكرية. لقد كان يومًا مشهودًا لم يتخلف فيه أحد عن الحضور، خصوصا قضاة المذاهب الأربعة والخليفة وسفراء الممالك الأخرى.

جلس الجميع تحت ظل خيمة كبيرة جدًّا نُصبت على ساحل البحر بالقرب من الميناء، عُلقت بداخلها فوانيس جميلة، ووقف حولها الخاصكية لحراسة السلطان وبقية الأمراء الحضور، واصطفت بجانبها كتائب الفرسان بأزيائهم المميزة.

اقترب حسين من السلطان الغوري ليشرح له حفل تدشين السفن الذي أشرف عليه شخصيًّا حتى يبهر الحضور، فابتسم الغوري وأبدى إعجابه بما يراه، فكانت هذه رسالة واضحة بنجاح حسين في مهمته، على الأقل في مرحلتها الأولى.

أعطى السلطان الإذن ببدء المهرجان، فبدأت الكتائب بالمرور أمام الخيمة بتنظيم بديع، تتقدمها كتيبة «المماليك السلطانية»، ثم كتيبة «الرماة» المكونة من الجنود الأتراك والأفارقة، ثم كتيبة «ولاد ناس» المكونة من أبناء الذوات الذين تطوعوا للدفاع عن المقدسات الإسلامية، تتبعهم القوة البحرية المكونة من جنود وبحارة معظمهم من المغاربة الأندلسيين بقيادة باش المغاربة، وكان آخر المارين من أمام الخيمة السلطانية قوة المهندسين والبنائين والنجارين.

Twitter: @ketab_n

بعد أن انتهى مرور ألف وخمسمائة شخص من أمام الخيمة بدأت السفن بالاستعراض أمام الحضور، فمرت الشواني والحراريق والطراريد التي تم تزيينها بالأعلام الملونة التي يبرز منها العلم المملوكي الأصفر ذو الهلالين.

كانت هذه المناسبة معجزة بالنسبة للكثيرين، فبناء هذا الأسطول يعلن أن البحرية المملوكية قد عادت لتلعب دورها في البحر بعد أن أهملته، وفكرة أن هذه السفن ستذهب إلى الهند قد أعادت الحماس للمسلمين، وكرست الغوري حاميًا لحمى الإسلام والمدافع عنه، فهو يحتاج لهذا بعد أن بدأ الناس يتحدثون عن كثرة قتلى أمراء المماليك المعارضين له. لقد أثبت الغوري أنه داهية لا يُشق له غبار، فبعد مرور سنة على حكمه كان قد أنهى أي تهديد لعرشه ولم يعد للقسم الذي التزم به الأمراء بعدم قتله أي قيمة، بل إنهم أصبحوا اليوم بحاجة لقسم مشابه منه.

امتلأ الساحل بالمتفرجين المتحمسين لرؤية هذا الأسطول، فهم لم يشاهدوا أسطولًا مصريًا أو إسلاميًا من قبل، فصدحت حناجرهم بالتكبير والأهازيج، وبدأ الناس بالرقص، وخلف كل ذلك بدأت سوق صغيرة في التكون، وبدأت رائحة الخبز والحلوى في الانتشار، ونسي الناس همومهم لبعض الوقت.

سُر السلطان كثيرًا بحجم الاستعدادات التي تم تجهيزها لمجابهة البرتغاليين، وبعد العرض وقف وصافح حسين بحرارة أضفت على هذا الحفل نوعًا من التلاحم المؤقت لمجابهة عدو يهدد وجود الأمة. لاحظ حسين تلك النظرة الأُبوية التي كان

Twitter: @ketab_n

يراها تشع من عيني الغوري منذ أن كان يافعًا، فعرف أن الغوري ما زال ينظر إليه كابنه، وأنه فخور بإنجازه.

- متى ستنطلق؟

- عندما تأذن لنا يا مولاي.

- إن المعلومات التي وصلتني تقول إن البرتغاليين قد قصفوا بعض المدن في شرق إفريقيا محاولين احتلالها، وقد استقروا في جزيرة على مدخل البحر الأحمر تُدعى «كمران»، وأنشأوا لهم قاعدة فيها، ولكنها جزيرة قاحلة قليلة الماء، لن يستطيعوا أن يبقوا فيها طويلًا، إنهم يحاولون إيجاد موطئ قدم لهم في مدخل البحر الأحمر للسيطرة عليه.

أعاد الغوري النظر إلى السفن التي كانت قد ابتعدت قليلًا:

- لقد وصل البرتغاليون إلى الهند يا حسين، وإن تمكنوا من السيطرة عليها فإنهم سيعطلون كل تجارة البهارات التي نعتمد عليها، والبنادقة يحضوننا على أن نمنعهم بأي وسيلة كانت، حتى إنهم طالبونا بأن نرسل وفودًا إلى سلاطين الهند نحذرهم من التعامل مع البرتغاليين، ولكن البرتغاليين يشترون البهارات بأضعاف ما يشتريه تجارنا، وهذا يغري سلاطين الهند بالتعامل معهم مباشرة، نحن في مواجهة عدو شرس لا يرحم يا حسين، فعليك ألّا ترحم أحدًا أيضًا، افعل ما بدا لك حتى تمنع هؤلاء من تدمير تجارتنا.

- سمعًا وطاعة أيها السلطان، لقد موّنّا سفننا وسنبحر إلى ميناء جدة غدًا، فالجميع على أهبة الاستعداد.

رفع السلطان يده ووجهها إلى صدر حسين قائلًا:

Twitter: @ketab_n

- إن الوضع في جدة لا يسرني أيضًا؛ إن أغلب الأمراء الذين أرسلوا إلى هناك كانوا فاسدين فأفسدوا التجار هناك، ستجد خرابًا يجب أن يُصلح، وفسادًا يجب أن ينتهي، ابدأ بمن هم في أعلى السلطة فهم مصدر البلاء، وعندما تصل إلى هناك أرسل لي من كان قبلك ولا تدعه يبقى هناك يومًا واحدًا بعد وصولك.

توقف الغوري قليلًا قبل أن يكمل:

- ستأخذ معك خطابًا بتعيينك أميرًا على جدة، فأنت سيفي في البحر الآن.

Twitter: @ketab_n

٩
الأحساء، شرق الجزيرة العربية

خرج ابن رحال من مجلس السلطان مقرن مشغولًا بما يتوجب عليه عمله حتى يضمن نجاح هذه الحملة التي قد تزيل حكم الجبور في حال فشلها، لم يكن الأمر سهلًا أبدًا، وثقة السلطان به جعلته لا يحتمل وجود خطأ واحد فيما هو مقدم عليه.

ركب فرسه وخرج من البوابة الرئيسية، تعرف عليه الناس فتعالت أصواتهم وصراخهم للفت انتباهه، فمنهم من يريد مالًا، ومنهم من يريد أن يبيعه شيئًا، لقد تعوَّد ابن رحال على كل ذلك، فكان يكتفي بابتسامة كبيرة يوجهها لهم أو يتجاهلهم عندما يكون مشغولًا بشيء ما، وصل إلى منزله وبدأ في كتابة الرسائل التي طلب السلطان مقرن منه أن يرسلها، فبدأ برسالة إلى الأمير زامل حاكم سلوى، يسأله فيها أن يجهز من الرجال والسفن ما يستطيع لأمر مهم، على أن يكون جميع الرجال المختارين ممن لديهم خبرة في ركوب البحر وخوض المعارك فيه، بالإضافة إلى سفن كبيرة لحمل الخيول. ثم كتب رسالة أخرى إلى أمير جلفار مكررًا له ذات الطلبات، ولكنه لم يجدد لكليهما موعدًا محددًا ولا عددًا

Twitter: @ketab_n

محددًا من الجنود، بل ترك الأمر لإمكانياتهم على أن يردوا عليه بأسرع وقت ممكن.

بعد أن أنهى كتابة الرسائل وختمها وسلَّمها للسعاة لإيصالها لأصحابها، نزع عنه ثيابه وغمس نفسه في بركة صغيرة مظللة بأشجار العنب، ثم غرف من الماء وسكبه على رأسه قبل أن يمد يده إلى مجرى الماء الذي يصب في البركة ويشرب منه، كم يود أن يبقى في هذا المكان لساعات، ولكن عليه أن يغفو قليلًا قبل زوال الشمس.

ما زال ابن رحال أعزب؛ فبعد وفاة والده عاش مع والدته سنوات طويلة معتنيًا بها، فهو وحيدها، ولم يفكر بالزواج، فشعر أن حياته يجب أن تكون مكرسة لها، ومع أن البيت كان به الكثير من الخدم إلا أنه لم يكن ليقبل أن يسبقه أحد منهم إليها، لقد تُوفيت والدته منذ حوالي العام، وأبقى غرفتها وملابسها وسريرها وحليها وجواهرها وعصاها كما كانت، وطلب من الخدم الاعتناء بالغرفة وكأنها بها، تعوَّد المرور على هذه الغرفة كل حين محاولًا شم رائحتها وتذكرها، لقد كانت بالنسبة إليه كل حياته وستبقى معه حتى مماته.

لف نفسه بإزار وبقي عاري الصدر، فالجو ما زال حارًّا، سار إلى غرفة والدته وفتح الباب، ثم نظر إلى حاجاتها وأغراضها، تذكر الخنجر الذي أعطاه إياه السلطان لحفظه، وضعه في صندوق يعود لوالدته ولم ينسَ أن يضع الخاتم الذي اشتراه السلطان من البانيان في نفس صندوق الخنجر، فكلاهما هدية للخليفة في القاهرة، السيف من الوزير البهمني والخاتم من

Twitter: @ketab_n

السلطان مقرن، فهذا آمن مكان استطاع أن يفكر فيه، تمنى لها الرحمة كما يفعل دائمًا وأغلق الباب مرَّة أخرى وذهب إلى غرفته ليرتاح قليلًا.

لم يستطع أن يغفو، فقد كانت فكرة الحملة تشغله عما سواها، قام من سريره وطلب من خادمه أن يستدعي الرسول الهرمزي إلى منزله للعشاء لعله يستطيع أن يحصل منه على المزيد من المعلومات التي قد تساعده في التخطيط للحملة.

وفي المساء وصل الرسول الهرمزي ومعه ثلاثة رجال آخرون، لاحظ ابن رحال أن الرسول كان يُجل أحدهم أكثر، ويقدمه على نفسه، ويفسح له الطريق، حتى إنه رفض أن يشرب منقوع البلح الذي قدمه له ابن رحال قبله، كان الرسول في انتظار أن يُنهي ابن رحال تعابير الترحيب التي أمطر ضيوفه بها قبل أن يتحدث قائلًا:

- سيدي ابن رحال، دعني أعرفك على الشاه شيرغل.

ثم أشار على ذات الرجل بشيء من التبجيل، لاحظ الرسول أن عيني ابن رحال اتسعتا وبدت علامات الاستغراب على وجهه، فهل يُعقل أن يكون ملك هرمز هنا بدون أن يتعرف عليه أحد!

تحدث شيرغل بهدوء محاولًا كسر هذه اللحظة الحرجة:

- نعم أنا شيرغل، لقد كنت ملك هرمز قبل أن ينقلب عليَّ أخي، وقد استطعت الهروب متنكرًا من هناك وجئت إلى بلادكم، وقد تتساءل عن سبب قدومي إلى الأحساء وعدم ذهابي إلى والد زوجتي في عُمان، والسبب أنه خذلني حين طلبت منه المساعدة،

Twitter: @ketab_n

ولم أجد مكانًا ألجأ إليه سوى هنا، أخفيت نفسي حتى لا يتعرض سلطان الجبور إلى ضغط من أخي الخائن الذي استولى على كرسي الحكم.

لم يكن ابن رحال يتوقع كل ذلك، فقد تفاجأ بوجود الملك السابق في مجلسه، ولم يكن ليسمح له بالمغادرة إلى أي مكان آخر، فهو يجب أن يبقى ضيفًا عزيزًا في منزله حتى يقرر السلطان مقرن ما الذي يجب فعله، فقال محاولًا إخفاء دهشته:

- سيدي الملك، إن وجودك معنا يشرفنا، وأعتقد أن رسولك قد أبلغك بما دار في مجلس السلطان مقرن اليوم، فالموضوع بالنسبة للسلطان مهم جدًّا، ومن الواجب أن أطلب منك أن تكون ضيفًا عليَّ في منزلي حتى أبلغ السلطان بوجودك، إن تشريفك منزلي شرف كبير لي، وأرجوك اعتبر هذا المسكن المتواضع بما فيه ملكًا لك.

ثم التفت إلى خادمه الذي ما زال واقفًا وأمارات التعجب بادية على محياه:

- اعملوا على راحة الملك، لبوا له كل طلباته فهو ضيفي العزيز، أحضروا العشاء الآن.

أحضر الخدم خروفًا مشويًا موضوعًا على أقراص الخبز ومنثور فوقه الزبيب والمكسرات. بدأ الجميع بالأكل، فانكسرت الحواجز وانطلق الحديث بينهم، وبدأ الملك السابق يسرد قصته مع إخوته كاملة:

- لقد استطاع أخي شاه أويس أن يستولي على الحكم بعد

Twitter: @ketab_n

أن استعان بمجموعة من المرتزقة الفرس الذين أحضرهم بدعوى تقوية بحريتنا، لم أكن أعتقد أنه يضمر شرًّا لي ولعرشي، وأمرت وزيري خواجة عطار بكتابة الصلاحيات التي له، وفي ليلة من الليالي وجدت مجموعة منهم تدخل إلى قصري وتقودني إلى السجن الذي بقيت فيه لعدة أشهر حتى استطاع الخواجة أن يرشو بعض الحرس ويهربني منه، ولم أجد مكانًا آمنًا أختبئ فيه أفضل من هذا المكان.

توقف الملك ثم قال وكأنه يحدث نفسه:

- حين يخرج الملك من ملكه تضيق عليه الدنيا وتغدو أصغر من ثقب إبرة!

ثم واصل حديثه مرَّة أخرى بنفس النبرة السابقة:

- لقد دبَّر لي الخواجة هذا الهروب مع بعض المقربين، ونحن الآن نسكن في مزرعة في الأحساء غير بعيدة عن هنا، وأتمنى أن يوافق السلطان مقرن على أن يساعدني للعودة إلى عرشي وقومي.

تنفس بعمق قبل أن يواصل:

- إن النفي بالنسبة للملوك هو حكم بطيء بالإعدام!

تساءل ابن رحال عن مصير الخواجة عطار بعد عملية التهريب هذه فيما لواكتشف الملك الحالي دوره.

رد الملك بقوله:

- لا تخف على الوزير خواجة عطار، فهو يعتني بالتفاصيل دائمًا، وعندما يقرر أمرًا تعرف أنه درسه من كل النواحي، لقد

Twitter: @ketab_n

كان وزيرًا لأبي وبعد وفاته استوزرته أنا وبقية إخوتي على العداوة الظاهرة بيننا، وهو الآن وزير لأخي.

توقف وكأنه لا يريد أن يتم جملته:

- لست أعرف إن كان يتوجب عليَّ أن أقول أخي أم عدوي أويس! على العموم، هو وزير له وإن كان أويس سحب الكثير من صلاحياته مؤخرًا، ولكن أي ملك يجلس على عرش هرمز لا بد أن يستوزره، فلا بديل عنه.

وضع ابن رحال لقمة في فمه وبدأ يمضغها وهو ينظر إلى الشاه المعزول، ثم سأله:

- وهل لك رغبة في مرافقتنا عندما يأمر السلطان بذلك؟ إن وجودك ضروري لطمأنة الناس بأن ملكهم قد عاد إليهم.

كان الملك على وشك أن يشرب الماء فأبعد الوعاء عن فمه وكأنه استشف بارقة أمل في عودته:

- نعم، بكل تأكيد، سأكون معكم وسنُعيد رسم العلاقة بين مملكتينا و...

قاطعه ابن رحال، فقد وجدها فرصة للحصول من الملك المعزول على بعض التنازلات:

- ولكن ما الذي سنحصل عليه من جراء مساعدتك أيها الملك؟ أنت تعرف أن المسألة برمتها خطرة وقد يموت الكثير من جنودنا، بل الأنكى من ذلك أن تفشل المهمة ويقوم أخوك بمنعنا من مزاولة التجارة مع الهند وإفريقيا. إن المسألة صعبة جدًّا!

شعر الملك المعزول أن التفاوض بشأن المهمة قد بدأ،

Twitter: @ketab_n

فطلب أن يغسل يديه، جاءه الخدم بإبريق ووعاء، فوضعوا الوعاء أسفل يديه وبدأوا بسكب الماء عليهما، وبعد أن انتهى قام مَن معه بنفس العمل، ثم عادوا للجلوس في الأماكن التي كانوا عليها.

تحدث الملك إلى الرجال الذين معه بصوت هادئ حينما كان ابن رحال يغسل يده. عرف ابن رحال أن الملك يشاورهم بشأن التفاوض، فانشغل بالغسل ليترك لهم مجال الحديث.

وبعد أن عاد إلى مكانه، بدأ الملك بالقول:

- أيها الوزير، لقد أكرمتنا غاية الإكرام بدعوتك هذه، وأتمنى أن أعيد لك أفضل منها بعد أن أعود إلى بلادي، أعرف أن القرار الذي سيتخذه السلطان مقرن قرار خطير، وقد يضر السلطنة، ولهذا سأقدم لكم عرضًا ممتازًا.

نظر إلى مرافقيه وكأنه يستمد منهم موافقتهم فيما سيقوله:

- إن سلطنة الجبور ما زالت تدفع لمملكة هرمز الضريبة السنوية المقررة، وأنا سأتنازل عن هذه الضريبة إن ساعدتموني على العودة إلى عرشي، وسأتنازل لكم عن الأملاك الملكية في البحرين أيضًا، ولكن سأُبقي على المزرعة التي ورثتها من والدي إن سمح لي السلطان بذلك.

اتكأ ابن رحال على وسائد وضعت فوق بعض عن يمينه وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يتحدث:

- مولاي الملك، إنني لست صاحب القرار كما تعلم، ولكني سأوصل كل طلباتك ورغباتك إلى السلطان وهو الذي سيقرر، سأقابله غدًا وأعود إليك بما يقوله، والآن دعوني أترككم

Twitter: @ketab_n

لتناموا وترتاحوا، إنكم ضيوفي الآن ويجب أن تبقوا معي في منزلي، وسأطلب من خدمي أن يحضروا متاعكم إلى هنا.

رد شيرغل بنوع من الخجل:

- ولكننا لا نريد أن نثقل عليك، سنبقى في مزرعتنا وسنزورك كل مساء لنتعشى ونسمر معك.

بقي ابن رحال على إصراره:

- أبدًا لن أوافق على ذلك، أنتم ضيوفي الآن ولن أترككم تغادرون منزلي.

وفي صباح اليوم التالي، كان ابن رحال في مجلس السلطان وقد بدا على وجهه أنه لم ينم كثيرًا، فسأله السلطان مازحًا معه كعادته:

- ما الذي سهَّرك يا ابن رحال؟ لست أعرف أن لك زوجة!

- يا ليت أن لي زوجة أيها السلطان، إن ما يؤرقني هو أكثر من ذلك وأعظم!

واصل ابن رحال حديثه:

- بعد أن خرجت من مجلسكم أمس وذهبت إلى منزلي، حاولت أن أعرف المزيد عن الأوضاع في هرمز، فدعوت الرسول إلى منزلي للعشاء، ولكن المفاجأة أنه أحضر معه ثلاثة رجال آخرين.

نظر ابن رحال في عين السلطان وكأنه يؤهله لما يريد قوله:

- أحد هؤلاء الرجال كان الملك شيرغل، إنه في منزلي الآن.

Twitter: @ketab_n

- ماذا؟ ماذا تقول؟ هل الملك هنا في الأحساء؟ وفي منزلك؟

وجه السلطان سؤاله لابن رحال وكأنه يوجه له تهمة:

- نعم أيها السلطان، لقد كان مع الرسول حين وصلت سفينتهم إلى ميناء العقير، وحتى لا يضع نفسه في حرج آثر أن يرسل رسوله إليك ليعرف إن كنت ترغب في مساعدته للعودة إلى عرشه.

غير ابن رحال من نبرته قليلًا:

- إنه يرغب في أن يقدم لنا عرضًا نظير هذه المساعدة.

- وما هذا العرض؟

- لقد عرض أن يتنازل عن الضريبة السنوية التي ندفعها لهرمز، وأن يتنازل عن كل أملاك هرمز في جزيرة البحرين عدا المزرعة الخاصة التي ورثها من والده.

أحضر الخدم طبقًا من الخوص مليئًا بالتمر والفواكه ووضعوه أمام السلطان الذي أشار لابن رحال بيده ليشاركه قبل أن يقول:

- إننا ندفع لهم حوالي عشرة آلاف دينار أشرفي سنويًّا يا ابن رحال، وهذا مبلغ كبير، وأملاك هرمز في البحرين كثيرة، ولكننا نريد أن يكون لنا جزء من موانئ عمان أيضًا، إن وجود ميناء لنا سينعش رجالنا في الداخل العماني، إنهم يشعرون أنهم مقطوعون عن العالم لعدم وجود ميناء لهم.

التقط ابن رحال ثمرة من الطبق، وبدأ يُقلِّبها بأصابعه قبل أن يجيب:

- من الواضح أنه ليس له سيطرة فعلية على سواحل عمان،

Twitter: @ketab_n

فهذه الموانئ تدفع ضريبتها لهم ولكن يحكمها أمراء مستقلون، لقد قال لنا إنه طلب مساعدة نسيبه سليمان النبهاني، ولكن النبهاني أهمل الطلب ولم يرد عليه، وهذا يوحي أن الأمور ليست بيد هرمز كما نتصورها، ورأيي أيها السلطان أن نكتفي بإلغاء الضريبة والتنازل عن الأملاك الهرمزية في البحرين، لأننا لا نريد أن يعدنا بشيء ليس له القدرة على تحقيقه.

مرر السلطان يده فوق طبق التمر بسرعة ليطرد الذباب عنه:

- قد تكون على حق يا ابن رحال، لقد تفككت هذه المملكة ولست أعلم إن كان هذا في صالحنا أم لا، إن وجود مملكة هرمز قوية يجعل الخليج أكثر أمنًا واستقرارًا حتى وإن كنا ندفع لهم ضريبة كبيرة، وغيابهم قد يجعل السيطرة على البحر أكثر صعوبة، فعندما تتفتت الممالك يبدأ الناس في الصراع على السلطة ولا يهمهم كم يخسرون في سبيل ذلك، عسى اللّه أن يحفظنا ويحفظ ديارنا.

يتحدث السلطان مقرن أحيانًا وكأنه عالم دين، فهو متدين جدًّا، ويكاد يكون متعصبًا للمذهب المالكي الذي تبناه جده من قبله، فالمنطقة تعج بالصراعات المذهبية التي تغذيها الصراعات السياسية، ولكن ما إن سيطر الجبريون على الأحساء ووسعوا سلطتهم إلى المناطق الأخرى حتى خف هذا الصراع وبدأ الناس في التحول إلى مذهب السلطة الحاكمة، فوجدها السلطان مقرن فرصة في نشر التعليم وفتح المدارس الدينية لتقليص نفوذ المذهب الشيعي المتجذر في بعض مناطق مملكته، فحصول الجبريين على السلطة لم يكن سهلًا، حيث تطلب ذلك كثيرًا من الدماء التي

Twitter: @ketab_n

سُفكت ضد بقايا دولة القرامطة في هجر وضد القبائل البدوية التي تجد في الأحساء واحة غنية في وسط بحر من الرمال محيط بها، لقد أصبحت حساسية السلطان مقرن تجاه النزاعات والتوترات حوله عالية، فهو يميل إلى إسكاتها بسرعة قبل أن تتفاقم وتخرج عن السيطرة.

لاحظ ابن رحال أن السلطان لم يكن يستمتع بالطعام والحديث كما كان يفعل سابقًا، فقد شغله هذا الأمر وأصبح هاجسه منذ زيارة الرسول الهرمزي له، فحاول أن يدفع السلطان لاتخاذ القرار:

- إذا كنت موافقًا على ذلك أيها السلطان فدعنا نكتب اتفاقية حتى يوقعها، لأننا نريد أن نجهز لهذه الحملة بأسرع وقت ممكن كما أمرتنا بذلك.

أخذ السلطان مروحة الخوص التي أمامه وبدأ في تحريكها أمام وجهه قبل أن يقول:

- اكتبها واعرضها عليَّ قبل أن يوقعها الملك، وأبقه معك في منزلك وتحت ناظريك حتى يأتيك أمري.

- لقد فعلت ذلك أيها السلطان، وأمرت خدمي بمراقبته لأننا نريده أن يكون معنا حال انطلاقنا إلى هناك.

- حسنًا فعلت، وهل أرسلت الرسائل لجلفار وسلوى؟

- نعم أيها السلطان، أتوقع ردهم خلال شهر من الآن.

- وكم ستحتاج لتحضير هذه الحملة؟

- حوالي السنة، فنحن نفتقر للسفن بشكل كبير، سنستورد

Twitter: @ketab_n

الأخشاب من الهند، والبنائين من البصرة لبنائها، وسيوفر أميرا سلوى وجلفار ما يستطيعان منها أيضًا، سيكون لنا أسطولنا الخاص خلال سنة من الآن بإذن اللّه.

رفع السلطان مقرن كفه إلى السماء داعيًا أن يحقق اللّه ذلك.

Twitter: @ketab_n

١٠
ميناء الإسكندرية

بعد مرور عام تقريبًا منذ مغادرة «كوفيلهام» ميناء الإسكندرية سمع الحبر طرقًا على باب منزله في وقت متأخر من الليل، لم يكن ليتجرأ ويفتح بدون التأكد من هوية الطارق، فاقترب ووضع أذنه على الباب:

- من؟

جاءه الصوت وكأنه همس من شقوق الباب الخشبي:

- «الشراع المقدس».

رد الحبر بنوع من الملل الواضح في نبرة صوته:

- وهل ما زال يتجه شرقًا؟ حسبته تمزق!

فتح الباب بهدوء ودلف منه «كوفيلهام» بسرعة ثم أعاد إغلاقه بإحكام.

كان المكان مظلمًا فاحتاج «كوفيلهام» لعدة ثوانٍ ليشاهد وجه الحبر الذي بقي في مكانه متأملًا الضيف الذي حل عليه فجأة:

- إنه أنت مرَّة أخرى يا «كوفيلهام»؟ كنت أتوقعكم.. ولكن أين صديقك «بافيا»؟

- لقد افترقنا في عدن منذ عام مضى، فذهب هو للبحث عن

Twitter: @ketab_n

مملكة القديس «جون»، وذهبت أنا للبحث عن مصادر البهارات في الهند، وكنت أعتقد أنه وصل قبلي بعد انتهاء مهمته.

حرك الحبر يده أمام وجهه وكأنه يطرد ذبابة:

- لا تراهن على ذلك يا صديقي، إن الأوضاع أصبحت أكثر خطورة مما كانت، ودعنا نصلي له حتى يصل بسلام، اجلس، اجلس.

أزاح بعض الوسائد التي كانت مرمية بطريقة عشوائية على الكراسي وأشار إلى إحداها:

- اجلس هنا، لدينا الكثير لنتحدث عنه.

ثم واصل الحبر حديثه:

- وهل تصدق أنت أيضًا بوجود مملكة القديس «جون»؟ إنها أكبر كذبة لا يصدقها إلا أكبر أغبياء الدنيا، ليس لهذه المملكة وهذا الملك وجود أبدًا، إنها كذبة يجري الكاثوليك خلفها وكأنهم قطيع خراف تسير خلف راعٍ لا تعلم إلى أين يأخذها.

رد «كوفيلهام»:

- لقد سألت عن هذه المملكة وأنا هناك، فلم يعرفها أحد، ولكن أحد قباطنة السفن التي أقلتني من عدن إلى مسقط قال لي إن هناك مسيحيين يعيشون في جبال الحبشة، وإنهم فقراء معزولون عن بقية الناس في صوامعهم يزورهم كاهن من مصر من حين إلى آخر ليعلمهم أمور دينهم، إن ما قاله عنهم لم يكن وصفًا لمملكة ثرية أبدًا، قال إن الكهنة يعيشون في كهوف على رؤوس الجبال ولا يختلطون بالناس كثيرًا، وقال أيضًا إنهم يتدثرون

Twitter: @ketab_n

بأردية قطنية يلبسونها لسنوات ولا يغيرونها حتى تهترئ، فهل هذه صفات قوم أثرياء؟

ثم حانت من الحبر التفاتة إلى شيء أسفل ذراع «كوفيلهام»:

- ما هذا الذي تحمله معك؟

أخرج «كوفيلهام» ملفًّا كبيرًا من تحت ذراعه وفتحه حتى يراه الحبر:

- إنه تقريري عن الرحلة، لقد دونت في هذا الملف كل المعلومات عن المدن، والبشر، والتجارة، وحركة الرياح، وصناعة السفن، والعملات، وغيرها من الأمور، إنه جهد سنة من المغامرة الخطرة، وأتمنى أن يُقدِّر الملك كل هذا ويعاملنا مثلما يعامل الكاثوليكيين في مملكته، كم كان هذا الملف عبئًا عليَّ خلال السفر، فقد كنت أخفيه من كل عين متطفلة فهو قد يخلصنا من الظ...

قام الحبر فجأة وكأنه لا يريد سماع بقية الحديث:

- سأحضر لك شيئًا تأكله.

وبعد أن سار بضع خطوات وهو يدير ظهره لضيفه، أكمل:

- وأرجو ألَّا تتفاءل كثيرًا يا صاحبي!

- ما الذي تقصده أيها الحبر؟

لم يرد الحبر على سؤال «كوفيلهام»، فقد اختفى في ردهات منزله المظلم، ثم عاد بطبق عليه شيء من الطعام وكوز ماء من الفخار:

- هيَّا كُل، إنه طعام لذيذ، كنت قد احتفظت به منذ يوم أمس

Twitter: @ketab_n

ليكون عشائي الليلة، لقد أصبح كل شيء غاليًا هنا، حتى الطعام، هل تُصدق ذلك؟ لم يكن يتوقع أحد أن يكون الطعام غاليًا إلى هذا الحد، ولكنها الفوضى يا صديقي، كل شيء أصبح فوضويًا في مصر، فالناس عندما يريدون مالنا يتهموننا بأننا جواسيس للمسيحيين، وعندما يريدون مال المسيحيين يتهمونهم بأنهم حفظة لأموال السلاطين الفاسدين، وعندما يريدون أموال السلاطين المسلمين يتهمونهم بأنهم كفرة مارقون، وهكذا نحن، كلٌّ ينتظر دوره ليكون ضحية لإشاعة ما.

كرر «كوفيلهام» سؤاله وكأنه لم يسمع ما قيل له:

- وما الذي تقصده أيها الحبر بقولك ألَّا أتفاءل؟

نفخ الحبر هواءً أخرجه من صدره بعد أن زم شفتيه:

- خلال غيابكما وصل إلى الإسكندرية بعض اليهود الهاربين من إسبانيا، ونقلوا لنا أخبارًا غير سارة عما يحدث هناك، فحين بدأت محاكم التفتيش بملاحقة اليهود والمسلمين في مدن الأندلس، هرب بعضهم إلى البرتغال معتقدين أنهم سيكونون بعيدين عن سطوتها، ولكن البرتغاليين سلموهم لمحاكم التفتيش في إسبانيا مرَّة أخرى، وهذه بدورها بدأت بحرقهم أحياء بعد أن مروا بمعتقلاتها، ولن تريد أن تسمع ما الذي يشاهدونه ويعانونه هناك.

بدأ يهز رأسه وجزءًا من جسده يمنة ويسرة وكأنه يتحسر، ثم أكمل وعيناه مُسمَّرتان إلى سقف منزله:

- والكثير ممن نجوا من المحارق ركبوا السفن وهم يحاولون إيجاد أي ملجأ لهم في موانئ البحر، لقد أخبرني أحد الناجين بأن

Twitter: @ketab_n

بحارًا فرنسيًّا رمى الركاب المسلمين واليهود من سفينته في وسط البحر بعد أن عرف أنهم لا يملكون ما يدفعونه له، ولكننا رتبنا أمرنا بعد ذلك وجعلنا مع كل يهودي هارب مبلغًا من المال يكفيه حتى يصل إلى ساحل شمال إفريقيا، وكثير ممن وصلوا مؤخرًا إلى ميناء الإسكندرية نقلوا لنا هذه الأخبار، لقد امتلأت موانئ تونس والمغرب والجزائر بالهاربين المسلمين واليهود على مدار السنوات الماضية، ومع كل واحد من هؤلاء قصة يريد أن يرويها، إنها مأساة كبرى.

كان الحبر يتحدث وهو محبط وكأنه يحمل همَّ الدنيا على كتفيه، شرب من كوز الماء ثم أكمل حديثه:

- لقد مات الملك جون الثاني وخلفه ابنه «أفونسو» الذي مات بعده بسرعة بعد أن سقط عن حصانه، ثم جلس على الكرسي أخو زوجة الملك، «مانويل المغرور»، الشخص الذي أرسلك إلى الهند يا صديقي.

لم يتمالك «كوفيلهام» نفسه، فتذكر عندما قابله في تلك الليلة العاصفة الباردة في لزبن، نعم، كم كان مغرورًا ووقحًا وهو ليس ملكًا بعد، فما الذي سيكون عليه الآن بعد أن وضع التاج على رأسه؟!

- هل أصبح «مانويل» ملكًا فعلًا؟

- نعم، نعم، فلا تتوقع أن يقوم هذا الحاقد المتعصب بأي عمل جيد تجاهنا نحن اليهود.

رجع «كوفيلهام» إلى نفسه:

- ولكن أليس في هذا خير لنا؟ إذا كان هو الذي أرسلني

Twitter: @ketab_n

وصديقي «بافيا» إلى هنا فلعله يحفظ لنا هذا الجميل إن عدنا له بكل المعلومات التي طلبها.

لم يكن الحبر متحمسًا للرد على تفاؤل «كوفيلهام»، فما شاهده وسمعه من مآسٍ كافٍ ليجعله ييأس من أي إصلاح، فضرب كفه على فخذه وكأنه يحاول أن يوقظ محدثه من سباته:

- اسمعني جيدًا يا «كوفيلهام»؛ لقد وعدك الأمير «مانويل» قبل أن يصبح الملك «مانويل»، أن يحافظ على عائلتك وعلى عائلة «بافيا».

توقف الحبر قليلًا وكأنه كان مترددًا فيما يريد قوله قبل أن يواصل:

- إنه لم يفعل ذلك، فقد تم حرق والد «بافيا» بتهمة الهرطقة بعد مغادرتكما بأقل من سنة، أما عائلتك فقد ساعدنا موسى على تهريبها إلى إيطاليا، وأرسل معها صندوقًا يحوي بعض كتبنا المقدسة من ضمنها «الهجاداه»!

احمر وجه «كوفيلهام» وضغط على أسنانه حتى بانت عضلة فكه:

- ولكن لماذا؟ أليس معهم كتاب ملكي يحميهم من محاكم التفتيش؟!

- نعم، ولكن من الواضح أن الملك قرر أنكم قد أمضيتم أكثر مما ينبغي في مهمتكم ولذلك قرر أن هذه الكتب قد انتهى وقتها، وأطلق يد محاكم التفتيش على كل شخص بغض النظر عن مهنته أو منصبه أو قربه من القصر، عدا شخصيات قليلة مقربة منه. إن موسى وطبيب الملك الخاص هما اليهوديان الوحيدان

Twitter: @ketab_n

اللذان نجوا حتى الآن، وبحكم طبيعة عملهما فهما يستطيعان عمل الكثير في تهريب الناس والحفاظ على كتبنا المقدسة.

كان الحبر في انتظار أن يمد «كوفيلهام» يده ليأكل، لكن توالي الأخبار السيئة قتلت شهيته.

رفع «كوفيلهام» الملف أمامه بكلتا يديه:

- وما الذي يجب أن أفعله بهذا الملف الآن؟ هل أحرقه؟

مد الحبر يده وأخذ الملف بسرعة وكأنه خائف عليه:

- لا، بالطبع لا، ولو فعلت سيكون موسى والطبيب «رودريكو» في خطر عظيم، لأنهما اللذان اختاراكما لهذه المهمة، يجب أن يصل الملف إلى الملك، ومَن يعلم، قد يساعد هذا الملف في إبقاء موسى و«رودريكو» في منصبيهما لبعض الوقت، تذكَّر أنهما سيقدمان الملف للملك على أنه إنجاز يهودي.

ثم كأن «كوفيلهام» تذكر شيئًا:

- ولكن هل عائلتي بخير؟ هل تأكدتم من وصولها سالمة؟

- نعم، إنها بخير في إيطاليا، هم ضيوف على الحبر الكبير في نابولي الآن، ولكن يجب ألَّا تفكر في الذهاب إليهم هذه الأيام، فالصراع على أشده بين العثمانيين وبين قراصنة رودس ولا نريد أن تقع أسيرًا في يد أي منهم.

بدأ الحبر يقلب في صفحات الكتاب ثم أعاد إغلاقه وسأل:

- وما الذي ستفعله مع صديقك «بافيا» الآن؟

- سأذهب للبحث عنه، فلن أستطيع تركه والتخلي عنه هكذا!

- ومن أين ستبدأ البحث؟

Twitter: @ketab_n

أعتقد أنني سأذهب من هنا إلى زيلع، ومنها سأجتاز إلى الداخل، فقد كان هذا هو خط سير «بافيا»، وسأحاول البحث عنه هناكِ لعلّني أجده!

ثم تذكر «كوفيلهام» شيئًا:

- سأكتب لك رسالة أريدك أن توصلها إلى عائلتي في نابولي، وسأغادر إلى السويس قريبًا.

بدأ الحبر يمسح صفحات الكتاب من غبار علق به، ثم قال وهو ما زال يفعل ذلك:

- وأنا من جانبي سأرسل هذا الملف إلى موسى حتى يوصله للملك، لقد قمت بجهد كبير يا صديقي في جمع كل هذه المعلومات.

قال جملته الأخيرة وهو يقلب صفحاته وينظفها بدون أن يرفع عينيه عنه.

بدأ «كوفيلهام» في مد يده إلى الطعام الذي أمامه مما جعل الحبر يشعر ببعض الراحة، وبعد أن وضع أول لقمة في فمه حاول أن يغير مجرى الحديث، فلن يكون طعم الطعام جيدًا والحديث يدور عن المحارق والمذابح:

- دعني أخبرك عن بعض ملاحظاتي أيها الحبر، لقد شاهدت كثيرًا من الأمور في تلك البلاد وقابلت الحبر الأكبر في عدن، وما لفت انتباهي هو ذلك التسامح الذي لم أره في البرتغال وإسبانيا، فالتجار هناك يفضلون أن يكون شركاؤهم من ديانات أخرى، والموانئ تسمح لمتبعي تلك الديانات ببناء معابدهم الخاصة بهم، ولاحظت أن الجميع له نفس التقاليد،

Twitter: @ketab_n

حتى نساء اليهود في اليمن منقبات، ونساء الهندوس يضعن الخمار على رؤوسهن ووجوههن في شوارع كاليكوت كالمسلمات تمامًا، إن هناك تشابهًا بينهم في كل شيء تقريبًا، وهم يتبايعون بكل العملات المعروفة، فلا يحتكرون عملة بعينها، وعندما يتحدثون لا يخافون من شيء ولا يلتفتون حولهم كما نفعل نحن في البرتغال، إنهم أحرار أيها الحبر، ليس لديهم محاكم تفتيش!

أعاد نطق كلماته الأخيرة وكأن لهذه الجملة طعمًا مختلفًا عن غيرها:

- ليس لديهم محاكم تفتيش!

ثم انطلق في الحديث مرَّة أخرى:

- إن الذي دلنا على المعبد اليهودي في عدن كان طفلًا يهوديًّا تظهر يهوديته من خصلات شعره التي تتدلى بجانبي رأسه الصغير، والحبر هناك كان يتحدث بحرية وكأنه يملك المدينة، إن الديانة عندهم لا يأتي ذكرها إلا في حالات الزواج أو الموت، عدا ذلك فإن الناس أحرار فيما يعتقدون، ومع هذه الحرية تجد الناس متدينين تدينًا طبيعيًّا، يحدثون ربهم مباشرة، وكأنهم عرفوا أن الرب خلقهم وهو ينظر إليهم ويتحدثون معه في كل شيء، وعندما يركبون السفينة في البحر يرفعون أكفهم أمام أفواههم ويتمتمون، فتعرف أنهم يطلبون شيئًا من ربهم مباشرة بدون وسيط، أليس هذا رائعًا أيها الحبر؟

لقد قابلت الكثير من المسلمين ودخلت منازلهم وأكلت من طعامهم ولم يسألوني ما ديانتي، وكأنهم يتركون ذلك ليكون بينك وبين ربك.

Twitter: @ketab_n

توقف «كوفيلهام» ونظر إلى أرضية الغرفة بعينين زائغتين قبل أن يمضي في كلامه:

- أحيانًا أتساءل إن كان ما فعلته صحيحًا أيها الحبر! لقد احترموني وأطعموني وسقوني وأنا أتجسس عليهم، وأعلم أن الملك «مانويل» سيرسل سفنه المحملة بالمدافع إليهم!

تغيرت نبرة صوته قليلًا:

- إننا نعمل على أن نسلب منهم حريتهم أيها الحبر!

ردد الحبر كلمات «كوفيلهام» الأخيرة بنوع من التهكم:

- نسلب منهم حريتهم!

ثم رفع الحبر صوته، وكأن كلمة الحرية قد حركت مشاعره:

- ولكن الحرية هذه ليست أمرًا مضمونًا، فهي لديك وتستطيع أن تستمتع بها إن لم يأتِ سلطان ليستردها منك أو لم تتدهور الأوضاع فتجد أن حريتك رهينة بأيدي السفهاء والرعاع كما يحصل لدينا في مصر الآن.

توقف قليلًا:

- نعم، هما جهتان متناقضتان تهددان الحرية، السلطان، والرعاع، أليس هذا غريبًا؟

لم يعرف «كوفيلهام» أي موضوع آخر ليناقشه مع الحبر، فمن الواضح أن الحبر محبط ولا يرى خيرًا في أي شيء، فسأل السؤال التقليدي الذي يسأله أي ضيف:

- حدثني عن الأوضاع في القاهرة أيها الحبر؟

- ليست على ما يُرام، وعدم الاستقرار الذي تعاني منه مصر

Twitter: @ketab_n

يجعلنا معرضين لهجوم الرعاع علينا من وقت إلى آخر، ولذلك نحن في حذر شديد هذه الأيام.

رفع الحبر كوز الماء إلى فمه وشرب منه قبل أن يواصل:

- لقد أنزل السلطان الغوري سفنه في البحر الأحمر، وساعده في ذلك العثمانيون والبنادقة، فقد نقل المسافرون الكثير من أخبار البرتغاليين، لقد تعطلت التجارة مع الهند بشكل كبير، فلم تعد البضائع تصل من هناك وخسر التجار مصادر رزقهم، ولو استمر الحال هكذا لفترة فسيكون الجميع في خطر، الجميع بدون استثناء و...

تذكر «كوفيلهام» ما قاله له الخواجة عطار أيضًا، فقاطع الحبر:

- ولكن كيف وصلوا وهم ينتظرون تقريرنا كما أخبرونا بذلك خلال الاجتماع في لزبن؟!

كاد الحبر أن يبصق حنقًا، ولكنه تمالك نفسه:

- وهل تعتقد أن هؤلاء سيعتمدون على تقريرك هذا حتى يصلوا إلى الهند؟ لقد أرسلوا آخرين غيركم وأخبروهم بنفس الكلام، إنهم حفنة من القتلة الذين يبحثون عن مصالحهم.

عدل من جلسته قبل أن يواصل:

- لقد كانوا يرسلون سفنهم طوال السنوات الماضية، ولكنها لم تكن في مهمات حربية، بل كانت استطلاعية؛ حتى يعرفوا قوة أعدائهم، ولكن إحدى هذه السفن تجاوزت الأوامر وأحرقت سفينة الحجاج «مريم» التي تحدث عنها الناس منذ أكثر من سنة!

Twitter: @ketab_n

وضع الحبر التقرير في حضنه قبل أن يضرب عليه بيده:

- إن تقريركم هذا سيحول سفنهم إلى سفن قتالية، فمن الواضح أنكم مهدتم الطريق لغزو عسكري كبير بكل هذه المعلومات، فشراعهم لن يكون مقدسًا بعد هذا التقرير بل سيكون شراعًا ملطخًا بالدم.

Twitter: @ketab_n

١١
البحر الأحمر

تحرك الأسطول المملوكي الذي يتكون من ثلاث عشرة سفينة من ميناء السويس، سفن مختلفة، شواني وحراريق وطرادات، على متنها حوالي ألف وخمسمائة جندي متجهة إلى جدة بقيادة أمير البحر الباشا حسين الكردي. لم يصدق حسين نفسه وهو واقف على ظهر سفينة القيادة يتأمل البحر أمامه، بحر أزرق واسع سعة الأفق، سمع خفق الريح في الأشرعة، وضرب الموج في جوانب السفينة، فكان كالموسيقى التي انتظر سماعها طويلًا، لقد نجح في بناء الأسطول الذي يقوده الآن، وشعر أنه يملك القوة التي تستطيع أن تُحدث التغيير الذي يطمح إليه.

نظر إلى الخلف ليشاهد السويس التي تودعه برقص نخيلها واهتزاز أشجارها، لقد أحب هذه المدينة التي حوَّلها إلى دار للصناعة، ثم أدار رأسه مرَّة أخرى إلى الأمام وتنفس هواء البحر وكأنه يشمه لأول مرَّة، ترك كل المؤامرات خلفه الآن، فهو الآمر الناهي في هذا الأسطول، وهو سيد نفسه، تذكر السلطان الغوري ونظرته الأُبوية إليه، سيتركه وحيدًا يجابه الكثير من الأعداء، كان بإمكان الغوري أن يعين شخصًا آخر أميرًا للبحر ولكنه آثر أن يعينه

Twitter: @ketab_n

هو، لأنه أقرب الناس وأكثرهم ولاء له، هكذا فكر حسين محاولًا أن يملأ عقله بهذا الشعور حتى يملك القوة على المضي قُدمًا في مهمته.

راقب جنوده وبحارته، فإذا هم مختلفون في كل شيء، في اللباس واللهجات والأحلام، لم يكن يرغب في أن يتركهم بدون عمل خلال الأيام الطويلة في البحر، فأمر بعمل جدول يومي قاسٍ لهم، يبدأ من بعد صلاة الفجر بتسلق الحبال والمصارعة وبعدها التدرب على قتال الالتحام بالسلاح ثم تنظيف السفن، وفي العصر يبدأ تلميع السلاح وشحذه وتنظيف المدافع والقذائف، كل شيء يجب أن يلمع ابتداء من المدفعية الثقيلة وحتى السيوف والخناجر، كلٌّ يجب أن يعمل بدون توقف. كان حسين متوترًا، يريد أن يُشكل من هؤلاء البحارة والجنود والفلاحين قوة عسكرية مقاتلة منضبطة، وهذا يتطلب الكثير من العمل والصبر والتدريب.

لم تمضِ سوى أيام حتى كان الأسطول راسيًا في ميناء جدة الذي غص بكل أهل المدينة الذين خرجوا ليشاهدوا هذا الأسطول الضخم القادم لحماية مدينتهم والأماكن المقدسة من هجمات البرتغاليين الذين بطشوا بالحُجاج وعطلوا التجارة مع الهند.

حضر وجهاء المدينة بعمائمهم الكبيرة وكان من بينهم شريف مكة، ووقفوا على رصيف الميناء لاستقبال الأسطول، واشترك في الاحتفال مشرفو حملات الحج بلباسهم التقليدي ممثلين لممالكهم، وهم في منزلة السفراء ويعاملون على هذا الأساس، الجميع كان في انتظار الحاكم الجديد الذي عينه السلطان الغوري على جدة.

Twitter: @ketab_n

نزل الأمير حسين من سفينة القيادة إلى زورق صغير أرسله شريف مكة ليوصله إلى الميناء، بدا الزورق مزينًا بكل شيء يمكن أن يُظهر الحفاوة التي يبديها أهل جدة لأمرائهم عادة، حتى المجدفين لبسوا زيًّا مميزًا وألوانًا مبهرجة ذكرت حسين بالمولد النبوي حيث يتداخل الصخب بأصوات الذكر والأذان في حواري القاهرة الضيقة، لم يكن لباس المجدفين مختلفًا كثيرًا عن لباس أتباع الطرق الصوفية في تلك الاحتفالات، هي ملابس ملونة تدل على الفرح وكفى.

كره حسين كل هذه البهرجة المبالغ فيها، وبررها على أنها خوف منه وتملق ممجوج غير مقبول، فأسر كل ذلك في نفسه لوقت آخر.

نزل من الزورق وصافح كبار مستقبليه واستمع لأهازيجهم وأشعارهم، ثم سار في اتجاه قصر الحكم المطل على البحر مبتعدًا عن الخيمة التي نُصبت على الميناء لاستقباله مما سبب إحباطًا لكل من تصارعوا على أماكنهم تحتها. لاحظ حسين حجم الثراء الذي تتمتع به مدينة جدة، فقد كان هناك الكثير من الأموال التي يصرفها الحُجاج، بالإضافة إلى الضرائب التي يفرضها الميناء على التجار القادمين من أصقاع الأرض، لقد كان ميناء مهمًّا في البحر الأحمر، تمر منه كل التجارة القادمة من الهند والصين والمتجهة إلى مصر والبحر الأبيض المتوسط ومنها إلى بلاد الروم، خصوصًا أن الخليج أصبح منطقة مغلقة بعد أن استولى الصفويون على بغداد، وانقطع الطريق التجاري الذي يمر من البصرة إلى بغداد ومنها إلى حلب.

Twitter: @ketab_n

فرح تجار جدة بقدوم حسين إليهم أو هكذا أظهروا، فلم تكن السياسة تهمهم بقدر اهتمامهم بانتعاش التجارة والاستفادة القصوى من الظروف التي جعلت مدينتهم ممرًّا مهمًّا للتجارة، فقد ظنوا أن حسين كسابقيه من الحكام الذين تعينهم القاهرة في جدة، يغلب عليهم الفساد وسوء الإدارة والعمل لصالح السلطان في القاهرة أو لمصالحهم الشخصية، أيًّا كان هذا الحاكم الجديد فهم على استعداد لإفساده في سبيل إبقاء مصالحهم كما هي بدون أن تُمس، ولم يبقَ لهم سوى معرفته عن قرب لاكتشاف نقاط ضعفه والتعامل معها بما يليق.

لم يكن ميناء جدة تاريخيًّا بعيدًا عن نظر القاهرة وسلطتها، فقد كان جزءًا من الخط الملاحي الذي تسيطر عليه مصر والممتد من عدن إلى السويس مرورًا بها، ويعرف أهلها أن الحاكم الذي يعينه سلطان مصر يجب أن يعمل لصالحه، فسايروا الأمر ووطنوا أنفسهم عليه، وتعاملوا معه كما هو بدون أي مقاومة.

استدعى حسين حال دخوله قصر الحكم أمين المالية وقائد العسكر وشاهبندر التجار، وطلب من الأول كشفًا بحجم الأموال الموجودة ومصادرها وأوجه صرفها، بدا على أمين المالية الانزعاج من هذا الطلب ولكنه وعد بتقديمه بأسرع وقت ممكن.

لم يكن حسين يرغب في الانتظار طويلًا:

- أريده غدًا أيها الأمين.

- ولكن يا سيدي الأمر بحاجة إلى أن أغلق الحسابات وأشرحها قبل أن أعرضها عليكم.

Twitter: @ketab_n

أغلق حسين عينيه نصف إغماضة فبدت وكأنها ترسل رسالة تهديد مبطنة إلى أمين المالية:

- أريدها غدًا، ولا تناقشني أكثر من ذلك.

وفي محاولة منه لإنهاء النقاش الذي بدا أن أمين المالية كان يحاول جره إليه، التفت إلى قائد العسكر الذي كان واقفًا في انتظار التعليمات، كان رجلًا مسنًّا معلقًا على كتفه سيفًا جميلًا من الواضح أنه لا يستطيع استخدامه لكبر سنه:

- كم من الجنود لديك؟

- ليس لدينا الكثير منهم يا سيدي، لديَّ في حدود مائتي عسكري يحرسون الميناء والطريق إلى مكة، ولكننا نفتقر للسلاح الذي نحتاجه لرد هجمات البدو الذين يقطعون طريق قوافل الحُجاج من حين إلى آخر.

لم ينظر حسين إلى الرجل وهو يتحدث:

- اجمع لي كل ما لديك من رجال، أريدهم أمام قصري خلال يومين، اذهب الآن.

- أما أنت يا شاهبندر التجار، فأريدك أن تقدم لي قائمة بأسماء التجار وثرواتهم وسفنهم وحجم التجارة السنوية وعائد الضرائب منها، أريد منك كل هذا في خلال ثلاثة أيام، وأظنك تملك كل هذه المعلومات، اذهب الآن.

بعد أن هدأت كل الاحتفالات التي عمت أرجاء المدينة لعدة أيام، شعر الناس أن الأمر ليس كما تعودوه وتوقعوه، فهذا الرجل لم يخرج للاحتفال، ولم يلب دعوة وجهاء المدينة، ولم يترك مقره منذ أن وطئت قدماه أرض جدة؛ كان من طينة مختلفة،

Twitter: @ketab_n

فطلباته كانت دقيقة وحاسمة وكأنه يعرف ما يريد ولكنه لا يشارك أحدًا في مخططاته.

كثر الحديث بين التجار في مقاهي جدة، ما بين مراهن على فساده أو على بطشه، لم يكن أحد يعرف من هو الباشا حسين الكردي وما الذي يريده، وانقسم الجداويون بين قائل إن تجار جدة قادرون على الإطاحة بكل رأس، وبين قائل إن هذا الرجل يختلف عمن جاءوا قبله، وغدا هذا الموضوع هو الحديث بين كل شخصين يتقابلان في مقهى أو شارع أو حانوت أو مسجد.

مرت الأيام الأولى بهدوء حتى صدر أمر تم تعميمه بمرور رجال البريد على أحياء جدة وتبليغه للحاضر ليعلم به الغائب.

«على كل الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والستين التطوع لبناء سور حول جدة ليحميها من غزو البرتغاليين مع فتح باب التبرع المادي لبنائه لأن الخزينة خاوية».

لم يأخذ أهل جدة الأمر على محمل الجد، فما زالوا يراهنون على أن الباشا كما كانوا ينادونه لن يصمد أمام مغريات التجارة والتجار، فقد أصيب حسين بصدمة بعد أن أخبره أمين المالية بأن المبلغ الذي تبرع به الجداويون قليل جدًّا، وأن المتطوعين لم يزيدوا على الخمسين شخصًا أغلبهم من الفقراء الذين يتوقعون عائدًا ماديًّا نظير جهدهم، أو على الأقل طعامًا نظير استخدامهم.

أصدر حسين أمرًا آخر يُلزم كل البالغين بالعمل في بناء السور، ثم أمرًا آخر بمصادرة أموال التجار والأغنياء لصالح بنائه وتحصين المدينة، فتحرك العساكر في الأحياء لتطبيق هذا القرار

Twitter: @ketab_n

الذي بدا غريبًا على الجميع، ولكنهم شعروا بجديته حين بدأ العساكر في جمع الشباب من الطرقات وتقييد أسمائهم للعمل.

ضج أهل المدينة واحتجوا، لكنه أمر الجند بجلد كل مَن يتخلف في الساحة الرئيسية في المدينة، ووضع مشرفين يحملون السياط لضرب كل من يتقاعس، وما هي سوى أيام حتى علم الناس أن الأمير حسين ما هو إلا لعنة نزلت عليهم فجأة ولا بد لهم من تحمله والتعامل معه، فحكام جدة لا يعمرون طويلًا عادة.

كان العمل على الجدار يبدأ من بعد صلاة الفجر وحتى الغروب، قُسم الناس إلى مجموعات مختلفة: واحدة تقوم على تقطيع الحجارة من الجبال، وأخرى تنقلها إلى الساحل، وتقوم مجموعة ثالثة بتكسير هذه الحجارة، والمجموعة الرابعة يتوجب عليها صفها. كان الجو حارًّا وخانقًا، ومات الكثيرون من جراء ضربات الشمس، ولم يكن الباشا حسين ليسمح بأي نوع من التقاعس أو التململ، وحين احتج البعض على طول ساعات العمل، وضع الحرس رؤوس المحتجين المقطوعة على أعمدة بالقرب من الجدار حتى يراها الجميع.

وما إن يخيم الليل ويذهب الجميع للنوم حتى يبقى حسين يفكر فيما يشغله من أمور، لم يكن يرغب في سفك الدماء ولكن هناك الكثير من الخطر الذي يخيم على البلاد، وهناك الثقة التي وضعها السلطان الغوري فيه شخصيًّا، وقد تكون هذه هي الفرصة الوحيدة التي يستطيع أن يثبت لسيده بها أنه يستحق هذه المهمة وهذا المنصب، ولكن ما الذي يتوجب عليه أن يفعل حين يقف هؤلاء في طريق تحقيق أهدافه؟

Twitter: @ketab_n

إنهم مجموعة من الخونة الذين قد لا يعرفون حجم جرمهم، فكيف يرفضون العمل على بناء سور جدة الذي يُفترض أن يحمي المدينة من هجمات البرتغال؟! وكيف يحتجون على طول ساعات العمل في حين أن غيرهم تقطع أوصاله ويحرق في سبيل الدفاع عن الإسلام؟!

بصق حسين على الأرض حنقًا من صغر عقول مثل هؤلاء وتفاهتها، وكأنه بذلك يجد عذرًا لنفسه في سفك دمائهم والتمثيل بأجسادهم.

مرت الأيام ثقيلة على الجميع، فالأثرياء شعروا أن هذا الرجل الغريب له رأس بعير يصعب كسره بالمال، فبدأوا في تهريب ما خف حمله من ثرواتهم إلى مدن أخرى، وبعضهم دفنها في حديقة منزله، وبعد أن وصلت هذه المعلومة إلى حسين استدعى بعضهم إلى قصر الحكم وخيَّرهم بين السوط وإظهار المال، فعُلقت أجساد أخرى أدماها السوط على الجدار حتى يراها المتقاعسون والذين يفكرون في تهريب أموالهم من المدينة.

اشتدت الوطأة على الناس في هذه المدينة الساحلية، وافتقر الكثير من تجارها، وتداعى بعض شرفائها للحديث مع الأمير حسين حتى يخفف عليهم هذا الظلم، واتفقوا على إظهار فقرهم وحاجتهم لمالهم وأوقاتهم أمامه بعدم لبس جميل الثياب كما كانوا يفعلون عادة، واختاروا وجيهًا من أشرافهم ليكون متحدثًا باسم المجموعة:

- إننا أيها الباشا قد أصابنا الكثير من الضر من جراء المراسيم التي أصدرتها، فالكثير منا قد افتقر بعد أن صودرت

Twitter: @ketab_n

أملاكه، وبعضنا أصبح يستجدي الناس في الطرقات والمساجد، وحالنا لا يخفى عليك، وعملنا في بناء السور يمنعنا من البحث عن الرزق، فهل لك أن تعفينا من العمل وتعيد إلينا بعض أموالنا المصادرة؟

أغمض حسين عينيه نصف إغماضة، وهي عادة عرفها الناس عندما يريد أن يُصدر قرارًا عادة ما يكون قاسيًا:

- وهل جئتم كلكم إلى هنا لهذا السبب؟ حتى تقولوا لي إنكم تريدون أموالكم، وإنكم لا تريدون أن تعملوا في بناء السور؟

ثم علا صراخه بصورة مفاجئة:

- هل هذا ما تريدون؟

ثم خفض نبرة صوته قبل أن يواصل:

- منذ عدة أيام مضت التقط الناس على الساحل الجنوبي بعض التجار اليمنيين الذين قُطعت أيديهم وأنوفهم من قِبل البرتغاليين، ثم رُبطوا في مركبهم الذي تم نهبه كاملًا، وأُرسل هذا المركب بما فيه من ضحايا إلى الساحل حتى يراه الناس.

ثم عاد لصراخه مرَّة أخرى:

- هل تريدون أن يفعل بكم البرتغاليون هكذا؟ هل تريدون أن تروا نساءكم وأطفالكم عبيدًا وأسرى لديهم؟ إنكم لا تفهمون الخطر المحيط بكم، إنكم مجموعة من التجار الجشعين الذين لا يرون سوى مصالحهم!

ثم التفت إلى قائد الحرس الذي يقف بالقرب منهم متحفزًا وكأنه يعرف مسبقًا ما الذي يجب عليه فعله وقال له:

- خذ هؤلاء واجلدهم أمام الناس بالقرب من الجدار،

Twitter: @ketab_n

ودعهم يعملوا ساعات إضافية حتى يعوضوا الوقت الذي أضاعوه في حديث تافه مثل هذا.

بدأ الوفد بالصراخ والعويل والبكاء، فبعد فقدان المال جاءت عبودية العمل، والآن جاءت مذلة الجلد العلني، أي بلاء هذا الذي حل بهم!

بدأ السور يكتمل محيطًا بالمدينة، ولم يكن له سوى بابين، أحدهما على البحر والآخر في اتجاه مكة، ووضع عليه ستة أبراج للحماية والمراقبة، محيط كل برج ست عشرة ذراعًا، وبعد أن رتب أمر الحراسات والدفاع عن المدينة عين نائبًا له عليها ثم قرر أن يبحر إلى عدن.

ومن على أحد أبراج الجدار راقب أحد الجنود سفن حسين وهي تبحر جنوبًا، بقي مركزًا نظره عليها وكأنه يريد أن يتأكد أنها لن تعود أدراجها، التفت حوله بسرعة، ثم بصق بقوة في اتجاهها.

Twitter: @ketab_n

١٢
الأحساء، شرق الجزيرة العربية

اعتاد شيرغل على الحياة في منزل ابن رحال، فكان يستمتع بالبركة التي يغمس جسده فيها من حين إلى آخر، ويتلذذ بقطف عناقيد العنب من الكرمة التي تظللها، وفي المساء حين تخف الحرارة يجلس مع ابن رحال والأصدقاء المقربين على مصطبة خارج المنزل يتسلون بالحديث والاستماع لقصص الضيوف والتجار، ولم يكن ابن رحال ليبخل عليهم بالقصص التي يسمعها أو يراها في مجلس السلطان، فمثل تلك القصص تبدو جميلة وغامضة وغريبة بالنسبة إليهم.

ومع مرور الوقت قويت الصداقة بين الرجلين، فقد كان شيرغل يتصرف بعفوية الطفل أمام ابن رحال الذي بدأ يلعب دور الناصح له، فتشكلت رابطة بينهما كرابطة الابن والأب أو بين الأخ الصغير والكبير، حتى إن ابن رحال أدخل شيرغل إلى غرفة والدته ليريه إياها، وأخبره كيف كان يحبها وأنه لم يتزوج حتى يعتني بها في كبرها، فشعر شيرغل أنه قد أصبح جزءًا من حياة ابن رحال وأن لا مجال لأن تنفصم عرى هذه الصداقة التي كان يرى أنها ستبقى للأبد.

Twitter: @ketab_n

وفي الشتاء ومع تحسن الجو وبعد أن هدأت الأرض مع نزول المطر قرر ابن رحال أن يأخذ شيرغل ومن معه للصيد، فجهز قافلة صغيرة من الخدم ولوازم التخييم وعددًا من الصقور والكلاب، وخرجوا إلى صحراء الأحساء التي كانت عامرة بالغزلان والطيور والأرانب. لم يكن شيرغل يعرف كيف يتعامل مع الصقور ولم يكن قد رآها من قبل، فبدأ يتعلم حرفة الصيد بها، وكم فرح عندما انقض صقره على طير كبير وأسقطه حتى جاء الخدم وخلصوا الطير من براثن الصقر، فرح شيرغل بهذا الصيد أيما فرح، حتى إنه وضع صيده على سرجه ممسكًا به طوال ذلك اليوم وكأنه طفل صغير لا يريد ترك لعبة حصل عليها.

ومساء، حين يجلس الجميع حول نار كبيرة يشوون فوقها صيدهم كان شيرغل يتأمل الطيور ببراقعها المزينة التي تضيف جمالًا وكبرياء عليها، إنها طيور فخورة، تختال بقوتها كما يراها، لها سمت خاص بها، خلقت لتحيا عزيزة وتموت عزيزة، لقد كانت تجربة حمل الصقر على ذراعه خلال ركوبه الخيل تحديًا كبيرًا، فلم يكن يستطيع أن يُبقي ذراعه مستقيمة طوال الوقت، لم يكن ينتبه إلا حين يرفرف الطير بجناحيه محتجًّا على ميلان وكره الآدمي.

بعد أن أمضى شيرغل سنة في الأحساء جعله ذلك يعرف أن العالم أوسع من تلك الجزيرة الصغيرة التي يحكمها أخوه الآن، وأن هناك كثيرًا من التجارب التي لا يعرفها سوى من يغادر منزله ليضرب في الأرض ويتعرف على الناس ويختلط بهم، ولكنه لم يكن يريد أن يعيش في مكان غير هرمز، وليس له عرش سوى

Twitter: @ketab_n

عرش هرمز، إنه عبارة عن صديق لابن رحال هنا لا أكثر، وهذا لا يرضيه أبدًا، فهو يطمح إلى أن يكون ملكًا مبجلًا يحكم الناس والبلاد كما فعل والده وجده من قبله.

وفي ذات مساء قبل أن يفتح الباب للضيوف، نظر ابن رحال إلى شيرغل بابتسامة ذات مغزى، فابتسم شيرغل بدوره قبل أن يقول:

- هذه الابتسامة لها عدة معانٍ يا صديقي، وأعتقد أن لديك شيئًا تقوله لي، هيا أرجوك لا تخفِ شيئًا عني.

ثم اقترب منه وكأنه طفل يتوقع هدية طال انتظارها.

زادت ابتسامة ابن رحال ونظر إلى طبق الفواكه الذي كان أمامهما واختار منه تينتين كبيرتين وأعطى إحداهما لشيرغل قائلًا:

- إن هذا التين يسحرني بطعمه الحلو، فلا أستطيع مقاومته عندما أراه، لا تأكله مباشرة، بل استخدم أصابعك لشقه إلى نصفين، ثم تمعن في الشكل واللون قبل أن تطعمه، عليك أن تستمتع بما بين يديك قبل أن تأكله، تذكر ذلك دائمًا.

لم يكن شيرغل على استعداد لهذا المزاح، فحاول أن ينهي هذه المناورة من ابن رحال لينقله إلى صلب الموضوع:

- هيا، قل لي ما الذي يجول في رأسك، فلم يعد لي صبر، إنني أكاد أبكي يوميًا من ضيق صدري وشوقي لبلدي.

- اصبر يا صديقي، عليك أن تستمتع بما في يديك دائمًا، وكلما استمتعت به زاد إعجابك به أكثر فأكثر، هكذا هي الدنيا، حاول أن تستمتع بالنعم التي حولك، لا تنسها أبدًا، فإن نسيتها فقد كفرت بها، وإن كفرت بها لم تعد ترى الدنيا جميلة.

Twitter: @ketab_n

وضع ابن رحال نصف التينة في فمه وتلذذ بطعمها قبل أن يقول:

- لقد وافق السلطان على تجهيز حملة تستعيد بها ملكك إن شاء اللّه.

مد شيرغل يده بسرعة ممسكًا ذراع ابن رحال بقوة وكأنه يخاف أن يفقده:

- هل هذا صحيح؟

- نعم، صحيح، سنغادر قريبًا إلى خليج سلوى ومنه إلى جلفار لجمع السفن والرجال وبعدها إلى مملكتك المفقودة يا صاحبي.

ثم قدم النصف الثاني من التينة لضيفه الذي أخذها وأبقاها في يده، فلم يستطع أن يمضغها لأنه بدأ يشعر بطعم الدمع المالح في فمه، فقد كاد أن ييأس من عودته إلى بلاده بعد كل هذا الوقت.

نظر شيرغل إلى التينة وكأنه تعلم درس ابن رحال وقال بصوت أقرب للهمس:

- أظنك كنت تعلم بقرار السلطان من قبل يا ابن رحال ولكنك أخفيته عني، أليس كذلك؟

- نعم، لقد قرر السلطان منذ حوالي السنة، ولكني لم أستطع أن أخبرك قبل أن يأمر السلطان بتنفيذ ما عزم عليه.

- لن أنسى كرمك معي ما حييت يا ابن رحال، فقد وجدت فيك أخًا لم أجده في أي من إخوتي الذين يسري ذات الدم في

Twitter: @ketab_n

عروقنا، أليس غريبًا أن يكون لي من إخوتي الذين هم من لحمي ودمي أعداء ويكون لي من غريب مثلك أخ وصديق؟!

رد ابن رحال بهدوء:

- إنهما المال والسلطة أيها الملك، تكاد كل الدماء التي تُسفك تكون ضحية لهما، إن علاقتك بإخوتك دمرها هذا الثنائي، وهما قد يدمران علاقتك بمن تحب مستقبلًا، إنهما المال والسلطة، لا تنسهما، هما سبب سعادتك إن تعاملت معهما بحذر، وسبب تعاستك إن تمكنا منك.

مضغ ابن رحال بقايا التينة قبل أن يواصل:

- تذكر أيضًا أن عليك أن تستمتع بما لديك دائمًا، عامل كل شيء لديك مثل التينة، استمتع بها بناظريك وبأنفك قبل أن تدخلها إلى جوفك، فإن فعلت ذلك فقد أنهيت متعتك بها، وعلاقتك بمن تحب يجب أن تكون كذلك، تمتع بكل شيء حولك بكل حواسك.

لم يكن ابن رحال يسمح للملك بالخروج من بستانه كثيرًا، فقد كانت حركته محسوبة ومرتبة خوفًا من أن يعلم الناس بوجوده، ولذلك شعر بنوع من الملل والضجر من تقييد حركته لأشهر طويلة، ولكن يعزيه أمله في العودة إلى عرشه مرَّة أخرى، وجلسات ابن رحال في المساء التي تجعله ينتظرها طوال اليوم.

أما وقد وافق السلطان علنًا على الحملة، فإن مسألة تقييد الحركة قد انحلت، وأصبح الناس على علم بوجود الملك الهرمزي السابق في منزل ابن رحال، وهذا خفف من السرية التي كان الجميع يفرضها على وجود الملك ومكان إقامته وحركته.

Twitter: @ketab_n

وخلال الأيام المتبقية زار ابن رحال وضيفه سوق الأحساء الكبيرة، كانت سوقًا منظمة أثارت إعجاب الضيف بحسن ترتيبها وتنظيمها، فقد كانت هناك ساحة كبيرة مظللة لوقوف الدواب والاعتناء بها وعلفها، وبالقرب منها حوانيت مظللة بسقف مرتفع تسمح بدوران الهواء فيها، وهناك أسعار مكتوبة على البضائع مثل اللحوم والخضراوات والفواكه، وهي ظاهرة لم يشاهدها شيرغل في هرمز، وعندما اقتربا من أحد الحوانيت لاحظ أن رؤوس الحيوانات غير المسلوخة قد صُفت بشكل منظم أمام لحومها بشكل ملفت للنظر، وعندما سأل شيرغل عن السبب قال له ابن رحال إن الغرض من ترك رأس الذبيحة واضحًا غير مسلوخ هو أن يعرف المشتري شكل الذبيحة التي سيشتري لحمها ونوعها.

وفي مكان مرتفع بعض الشيء يجلس المحتسب الذي من مهامه التأكد من عدم الغش ومن نظافة السوق وحسن إدارتها، وعليه أيضًا فض النزاعات التي قد تنشأ بين الباعة والمشترين. كانت السوق مقسمة لعدة أقسام وهناك محتسب مسؤول عن كل قسم منها.

ولكن ما ضايق الجميع هو كثرة الذباب في السوق، ذباب يكاد يغطي كل شيء، لم يكن ذلك يضايق ابن رحال الذي بدا متعودًا عليه، ولكنه كان يشكل أزمة حقيقية لشيرغل، وحين سأل عن السبب أخبره ابن رحال أن الأحساء واحة في وسط صحراء تحيط بها، وأنها مليئة بأشجار النخيل والفواكه ومختلف الثمار مما يجعلها واحة أيضًا للذباب، ثم مرر ابن رحال يده فوق كوم من التمر فانطلقت منه أسراب الذباب بصوتها المزعج، ابتعد

Twitter: @ketab_n

شيرغل عنها وكأنه صُدم من كثرتها، مما أثار ضحك ابن رحال عليه.

وشاهد شيرغل الكثير من الأطفال والنساء يقفون ببضائعهم على الطرقات لبيع نتاج مزارعهم، وهذه أيضًا ظاهرة جديدة عليه؛ فهرمز ليس بها زراعة، والناس يعملون إما في التجارة وإما في الجيش، وما فيها من بساتين صغيرة هي ملك للأثرياء فقط، ومصادر الرزق الأخرى تكاد تكون شحيحة إن لم تكن معدومة، ولكن هنا كل شيء موجود وما عليك سوى أن تصل ببضاعتك للسوق أو للطريق لتجد مشتريًا لها.

وفي اليوم الموعود، أُنيخت الكثير من الجمال المحملة بالمتاع والمؤن أمام منزل ابن رحال يرافقها فرسان مسلحون بدت عليهم قساوة الحياة، عشرون راحلة وخمسة عشر فارسًا، استطاع شيرغل عدها قبل أن يضع قدمه في الركاب ويستوي على ظهر فرسه بالقرب من ابن رحال.

شقت القافلة طريقها خلال الطرق الصغيرة بين مزارع الأحساء. كان الهواء رطبًا ثقيلًا، والشمس على وشك أن تخرج من مخبئها، وأشجار النخيل تمايلت على جانبي الطريق وكأنها تحنو على المارين تحتها، وأصوات خرير الماء المتدفق من الينابيع تختلط بأصوات الطيور والحشرات، منظر لم يألفه شيرغل من قبل؛ فليس في هرمز هذا الكم الهائل من الأشجار والثمار والماء الجاري الذي سيفتقده حال مغادرته هذه الواحة الجميلة.

سارت القافلة عدة ساعات وبعدها انقطعت الأشجار فجأة وبرزت لهم الصحراء بكل عنفوانها وصلفها وجبروتها وهدوئها،

Twitter: @ketab_n

صحراء ممتدة بلا نهاية، تكاد تنعدم بها الحياة سوى من سحلية مارة أو ثعبان يختبئ أو طائر يحلق بعيدًا أو غزال مختبئ خلف أكمة. التفت شيرغل إلى الخلف ليشاهد ما بقي من حياة قبل أن تحتضنه الصحراء بلونها الواحد، وهي عادة دأب عليها البشر حين يغادرون مدينة إلى أخرى، يعيدون النظر إلى المكان الذي يغادرونه وكأنهم يملأون أنظارهم منه للمرَّة الأخيرة، ثم ينظرون إلى الأمام وكأنهم يأملون في القادم. نظر إلى ابن رحال الذي كان يستاك بسواك أعطاه إياه أحد خدمه، شعر شيرغل أن عليه أن يقول شيئًا، فالأرض لا تُطوى بسرعة بصحبة الصمت، والحديث قد يكون هو وسيلة التسلية الوحيدة التي يستطيعون بها قطع هذه الفيافي، فقرر شيرغل أن يكسر حاجز الصمت هذا:

- غريبة! كيف انقطعت الحياة فجأة؟! فبعد أن كنا نسير وسط واحة خضراء إذا بنا في الصحراء، ألم تفكروا في مد مجار لبعض هذه الينابيع إلى الصحراء لزراعتها؟ لم أرَ ماء عذبًا زلالًا كما رأيته لديكم في الأحساء، ولو كانت هذه المياه لدينا في هرمز لكنا من أغنى الأمم، ولكننا نعاني من شُح الماء وندرته مع الأسف.

مسح شيرغل بيده على رقبة جواده قبل أن يكمل:

- لقد زرعت نخلات في محيط قصري محاولًا أن أضيف بعض الجمال إليه، فقد اعتنى والدي بالزراعة فيه، ولكن إخوتي أهملوا كل ذلك فأصبح محيط القصر قاحلًا الآن كما قيل لي.

أخرج ابن رحال عودًا صغيرًا من بقايا السواك من فمه قبل أن يتحدث:

Twitter: @ketab_n

- إن مساحة الواحة شاسعة جدًّا، وخيراتها تُصدر إلى كل مكان، حتى إلى مملكتك هرمز، إننا لا نعرف من أين ينبع الماء وإلى أين ينتهي، نراه يمر تحت منازلنا ومزارعنا ولكننا لا نراه بعد ذلك، أليس هذا غريبًا؟! هناك مَن يقول إنه يذهب إلى باطن الأرض، وهناك مَن يقول إنه يذهب إلى البحر. لقد حاول بعض رجالنا الشجعان النزول إلى مجاري المياه لمعرفة منتهاها، ولكنهم لم يعودوا قَطُّ، وقد سمعت مَن يقول إنها تذهب إلى الجن، وإن مَن ينزل إلى هذه الينابيع يذهب إليهم ليكون خادمًا لديهم طوال حياته.

سحب شيرغل لجام جواده ليكون قريبًا من ابن رحال حتى لا يبتعد عنه، فالحديث بدا ممتعًا بالنسبة إليه:

- أنا أيضًا سمعت عن مثل هذه الأمور، فقد قيل لي إن مزرعة والدي في البحرين يجري بها الماء بقوة ولا يعرف أحد من أين ينبع ولا أين ينتهي أيضًا، قد يكون للجن دور في ذلك، لا أعلم، لست أُصدق ولست أُكذب.

ثم أضاف:

- لقد سمعت عن الأحساء من قبل، واهتم آبائي بها كثيرًا، واشتروا فيها المزارع والقصور أيضًا، إن الهرامزة يتداولون مثلًا يقول: «هرمز تموت بموت هجر»، وأعتقد أن هذا القول يتحقق الآن.

ابتسم ابن رحال ولم يرد.

وبعد مسيرة ثلاثة أيام شم الجميع رائحة البحر القوية قبل أن يشاهدوه عن يسارهم، ففضل ابن رحال أن تخيم القافلة بالقرب

Twitter: @ketab_n

منه قبل وصولهم إلى سلوى؛ فهو يحب البحر ويستمتع بصوته ورائحته، ولم تكن الفرصة لتسنح له كثيرًا بمشاهدة البحر.

شاهدوا جدارًا قصيرًا من الصخور السوداء بارتفاع ثلاث أقدام على شكل حدوة حصان، يحيط بمساحة واسعة من البحر، يبدأ الجدار من الساحل ويمتد إلى داخل البحر لينتهي في الساحل مرَّة أخرى. مد ابن رحال يده ليشير إليه قائلًا لشيرغل:

- إننا ندعوها «المساكر»، فهي تحجز السمك خلال الجزر ليستطيع أصحابها جمعه بعد ذلك، دعنا ننزل لنمسك بعضًا منه، فهي فرصتنا للحصول عليه طازجًا.

نظر شيرغل حوله متوقعًا أن يكون هذا المسكر لأناس قد يغضبون حين يرونهم فيه، ولكن ابن رحال طمأنه قائلًا:

- إن أصحاب هذه المساكر لا يحضرون كثيرًا لتفقدها، وهي وقف للمسافرين على أن يأخذوا بقدر حاجتهم فقط.

كانت رائحة شواء السمك قد ملأت المخيم؛ فالمساكر كانت مليئة بصيدها، ولكن لم يتجرأ على النزول لصيد السمك سوى عدد قليل من الرجال الذي ألفوا البحر، أما البقية فقد آثروا البقاء برًّا وأكل القديد مع التمر وشيء من الأقط على أن يجربوا حظهم في أكل الحيتان كما كانوا يطلقون عليها.

وفي الليل وبعد العشاء، قام شيرغل ليتمشى ويخلو بنفسه، تبعه ابن رحال ببصره حتى شاهده يجلس بعيدًا بالقرب من الشاطيء ثم ينزع عمامته عن رأسه ويمسح بها وجهه.

عرف ابن رحال أن شيرغل يعاني داخليًّا من فقدان مملكته، فالمرء يحن إلى دياره إن تركها، وهذا الرجل ترك ديارًا ومُلكًا.

Twitter: @ketab_n

وفي اليوم التالي أقبلت القافلة على خليج أزرق جميل هادئ يغص بالسفن الصغيرة، ومن بعيد ظهرت التلال الرملية الحمراء حانية على مدينة وادعة على الساحل تحف بها أشجار النخيل والسدر فبدت وكأنها جنة في وسط بحر من الرمال، وشاهدوا خيمة كبيرة نُصبت ترحيبًا بهم، يقف أمامها الأمير زامل الجبري ومعه مجموعة كبيرة من وجهاء المدينة وأعيانها.

التفت ابن رحال إلى شيرغل وسأله:

- كيف أُعرِّفك أيها الملك؟

- أظنك الوحيد الذي يُطلق عليَّ هذا اللقب بعد أن سلبه مني أخي!

ابتسم ابن رحال:

- أنت في نظري ملك هرمز، وستكون ملكها الفعلي قريبًا، والآن كيف تريدني أن أُعرِّفك عليهم؟

- قل لهم إنني ضيف من هرمز فقط.

وفي داخل خيمة الضيافة جلس ابن رحال وضيفه الهرمزي في صدر المجلس، وخلال لحظات أُحضرت أطباق الطعام الكبيرة، وكل طبق يحمله أربعة رجال أشداء، عليه خراف مشوية، وأمام الضيوف وُضع طبق كبير عليه حوار مشوي يتقاطر الدهن من سنامه ليسيل على أقراص الخبز التي وُضعت تحته. بدأ الجميع في الأكل بنهم، وكانت أواني اللبن تدور عليهم. أمسك أحد الحضور برأس أحد الخراف وفتح فكيه ثم أخرج لسانه وجره بقوة حتى قطعه ووضعه أمام شيرغل طالبًا منه أن يأكله، نظر شيرغل إلى اللسان وكأنه عبء يريد التخلص منه، فمرره

Twitter: @ketab_n

بدوره إلى الذي يجلس بقربه، فتناوله هذا مسرورًا وبدأ يقطعه بأسنانه متلذذًا.

سأل شيرغل ابن رحال عن السبب الذي جعل ذلك الرجل يضع اللسان أمامه.

حاول ابن رحال أن يسيطر على ضحكة كادت أن تَخرج منه:

- إنهم يضعون اللسان أمام الضيف ترحيبًا به، وقد كان يتوجب عليك أكله.

نظر شيرغل إلى الشخص الجالس بقربه والذي ما زال يقطع اللسان بأسنانه، انفرجت أساريره، فهناك من قام بهذه المهمة الصعبة نيابة عنه.

تناوبت حشود من الرجال على أواني الطعام، تقوم جماعة وتجلس أخرى حتى انتهى الجميع وشبع الكثير.

وبعد الغداء جلس الأمير زامل الجبري مع ابن رحال وضيفه الهرمزي في مكان منعزل عن بقية الناس، وبدأ الأمير بطمأنة ابن رحال عن الاستعدادات:

- لقد جهزت لكم ما طلبتم يا ابن رحال، خمسون مركبًا من ذوات الثمانية مجاديف عليها ثمانمائة رجل، وكلهم ممن لديهم خبرة في ركوب البحر، ومعهم خمسة مراكب للخيول والتموين، هذا كل ما استطعت جمعه من التجار الذين أعرفهم.

لم يكن ابن رحال يتوقع هذا العدد من السفن والرجال، فهو يعلم أن الخليج يعاني من ندرة الخشب وقلة الأيدي العاملة الماهرة لصناعة السفن الكبيرة.

Twitter: @ketab_n

سأل ابن رحال بشيء من الاستغراب بعد أن ضم حاجبيه في وسط وجهه:

- وكيف استطعت أن تجمع كل هذا؟!

- منذ أن وصلني كتابك وأنا أبحث عمن يستطيع أن يمدنا بالسفن، فأرسلت إلى شركائنا في البصرة والزبارة طالبًا منهم بعض السفن والرجال ولكني لم أخبرهم لماذا، ولم يمانعوا فقد وعدتهم بالدفع لهم قريبًا.

- قمت بعمل عظيم أيها الأمير، إن هذا العدد من الرجال والسفن سيسهل علينا مهمتنا كثيرًا، والآن سنترك عندكم رحالنا وسنركب السفن إلى جلفار، وأتمنى أن يكون أميرها قد قام بواجبه أيضًا.

وفي مساء اليوم الثالث ومع المد كانت السفن تتحرك إلى خارج الخليج في اتجاه الشمال حتى تلتف حول شبه جزيرة قطر في طريقها إلى جلفار.

Twitter: @ketab_n

١٣
مدينة تورديسيلاس، إسبانيا
(١٤٩٤)

بدا القصر الكبير الذي اجتمع فيه ممثلو ملوك إسبانيا والبرتغال هادئًا من الخارج بعد جلبة وصول الوفود ومرافقيهم، فلم يبقَ سوى القليل من الحرس الذين يحملون الرماح التي تنتهي أطرافها ببلطة فولاذية ويعتمرون على رؤوسهم خوذًا مخروطية الشكل يحرسون الأبواب الداخلية والخارجية، أو يسيرون بخطوات منتظمة في الساحة الخارجية، لم يكن هدوء القصر من الخارج ينم عما يدور في داخله.

ففي داخل القصر كانت القاعة الرئيسية المكتظة بالناس تضج بأصوات الأحاديث الجانبية التي قطعها فجأة طرق الحاجب للأرضية الرخامية بطرف صولجانه معلنًا وصول ممثل البابا.

دخل الكاردينال حاملًا عصا طويلة، وعلى رأسه قبعة كبيرة عريضة المقدمة مرسوم في وسطها صليب، يتبعه قسيسان بلباسهما المميز، سار موكب الكاردينال بهدوء وبخطوات منتظمة إلى طاولة كبيرة في وسط القاعة، تقدم أحد الخدم وسحب كرسيًّا كبيرًا على رأس الطاولة بعيدًا عنها مفسحًا المجال ليجلس عليه الكاردينال الذي بقي واقفًا حتى ينتهي الخادم من مهمته، جلس

Twitter: @ketab_n

بعدها ملقيًا جسده عليه وكأنه كان ينتظر أن يفعل ذلك ليريح ظهره وركبتيه.

أخرج الكاردينال منديلًا من جيبه ومسح العرق من جبهته وجانبي وجهه قبل أن يركز بصره على الناس في القاعة، ثم مد ذراعه بطريقة لا شعورية أمامه منتظرًا أن يتقدم الناس لتقبيل يده كعادته في كل مناسبة.

تقدم مندوبو مملكتي إسبانيا والبرتغال وقبَّلا يده قبل أن يأذن لهما بالجلوس، وبعدها جاء المرافقون ووضعوا رزمًا من الخرائط أمام كل ممثل، ثم بادر أحد الخدم وفتح خريطة العالم المعروف أمام الكاردينال ووضع على أطرافها أثقالًا معدنية، وبعد انتهاء طقوس التحضير للاجتماع، خيم صمت غريب على القاعة وكان الجميع في انتظار أن يفتتح أحدهم هذا الاجتماع التاريخي.

تنحنح الكاردينال بصوت عالٍ قبل أن يقول:

- حسنًا أيها السادة، لقد تم التحضير لهذا الاجتماع منذ فترة طويلة ونريد أن ننتهي منه بأسرع وقت ممكن، فالجو حار اليوم ولا نريد أن نمضي بقية يومنا في هذه القاعة.

أكمل جملته ثم مسح وجهه مرَّة أخرى.

كان الكاردينال في الخمسين من عمره، ولكنه يبدو أكبر سنًّا بكثير، فقد كان سمينًا ويتنفس بصعوبة تكاد تكون أقرب للشخير نظرًا لضخامة جثته، فكل حركة بالنسبة إليه تتطلب جهدًا استثنائيًّا لم يكن يود بذله، ولذلك غدت حركته بطيئة جدًّا ومتناغمة مع صوته الأنثوي الناعم، فهو معروف ببطئه وقلة عمله وفساده، فلم يكن ليتبوأ منصبه إلا لأنه ابن أخي البابا إسكندر السادس؛ الذي

Twitter: @ketab_n

عين أغلب أقاربه في مناصب دينية استخدمها لتثبيت منصبه، وللتأثير على صناعة القرار في أوروبا، مما أكسبه وأكسب أقاربه الكثير من الأعداء سواء في القصور الملكية أو في الفاتيكان.

عُرف عن الكاردينال أيضًا حبه للمال والنساء، فقد أنجب عدة أبناء من خادماته ومحظياته ومن بعض نبيلات أوروبا، ولم يكن يُخفي ذلك، فقد كان الجميع بحاجة إلى خدماته، وهو بطبيعة الحال يأخذ ثمنًا نظير ذلك بأي صورة يراها مناسبة، وقد غدا الحديث عن فساد رجال الدين متعة الناس سواء في قصور الأغنياء أو في حانات الفقراء بعد أن يسكروا ولا يقدرون خطورة ما ينطقون به.

تحدث ممثلِ البرتغال قائلًا:

- إني أطلب الإذن بالحديث أولًا يا صاحب القداسة، فهل تأذن لي؟

هز الكاردينال رأسه علامة الموافقة، فواصل الممثل البرتغالي كلامه:

- كما تعرف قداستك، فقد طلبت مملكة البرتغال مناقشة الاتفاقية السابقة بيننا وبين مملكة إسبانيا لتوزيع مناطق النفوذ في العالم، إذ إننا نعتقد أن الاتفاقية السابقة كانت مجحفة في حقنا، خصوصًا بعد أن اكتشف السيد «كرستوفر كولمبوس» الأرض الجديدة والتي وضعت إسبانيا يدها عليها مؤخرًا، إن هذه الأرض الجديدة مليئة بالثروات التي ستجعل من إسبانيا دولة ثرية جدًّا، إنها أرض كبيرة واسعة لا تحدها حدود، وبها الكثير من الأنهار والجبال والغابات والذهب، وأن تستحوذ إسبانيا على كل ذلك

Twitter: @ketab_n

بمفردها ظلم وإجحاف لنا، ولا بد أن يكون لنا نصيب من هذه الخيرات.

سكت ممثل البرتغال وكأنه قال كل ما لديه وفي انتظار الحكم النهائي من الكاردينال الذي كان على علم بالخلاف بين الإمبراطوريتين.

لقد سمع الكاردينال شأنه شأن الآخرين عن هذه الأرض الجديدة، ولكنه يجهل شأنه شأن الجميع أيضًا حجمها ومدى ثرائها، هو يعرف أن السفن الإسبانية قد أحضرت عينات من السكان المحليين والأشجار والحيوانات من هناك، ولكن كيف سيتم تقسيم الأرض والبشر والثروات؟ كان يُقلب كل هذه الأفكار وهو يستمع إلى ممثل البرتغال.

شعر أن النقاش قد يطول، فتنهد تنهيدة طويلة، ثم خلع قبعته ومسح صلعته بالمنديل الذي يحمله دائمًا قبل أن يمد يده إلى عصا صغيرة وُضعت أمامه ليؤشر بها على مجموعة الجزر الخضراء التي تقع غرب القارة الإفريقية، ثم قال بصوته المميز:

- كنت أعتقد أن الخط الطولي الذي يمر من خلال هذه الجزر هو الفاصل بين نفوذ المملكتين، أليس كذلك؟

رد ممثل البرتغال بنوع من الحدة:

- إن بقاء الخط الطولي مارًّا بهذه الجزر غير عادل يا صاحب القداسة، فليس من العدل أن يبقى هذا الخط كما هو بعد أن استحوذت إسبانيا على كل الأراضي الجديدة في الغرب!

حاول ممثل إسبانيا الحفاظ على هدوئه حتى هذه اللحظة قبل أن يتدخل موجهًا كلامه لممثل البرتغال:

Twitter: @ketab_n

- إنكم تغيِّرون رأيكم في كل مرَّة يتم الإعلان فيها عن اكتشاف أراضٍ جديدة، لقد بدأتم تضايقون سفننا المتجهة غربًا أو القادمة من هناك، فبأي حق تفتشونها وتصادرون نسبة من حمولتها؟!

أسند ممثل البرتغال رأسه إلى كرسيه قبل أن يرد:

- نحن نمارس صلاحياتنا في موانئنا يا سيدي، إن ما وجده السيد «كولمبوس» في الأرض الجديدة من كنوز سيمنحكم الكثير من الثروة والقوة، وليس من العدل أن نُحرم نحن من كل ذلك، ولو أردنا أن نمنعه من المغادرة لاستطعنا، فهو قد مر بموانئنا قبل أن يغادر إلى هناك.

لم يتحمل ممثل إسبانيا حديث البرتغالي، فتوجه بحديثه للكاردينال قائلًا:

- سيدي صاحب القداسة، إننا نريد أن ننتهي من هذا الموضوع تمامًا، فنحن لم نعد نتمتع بحرية التجارة والملاحة، إن المضايقات التي تتعرض لها سفننا من قبل البرتغال تكاد لا تنتهي وهي تصيب بحارتنا بالإحباط.

حاول الكاردينال تهدئة الحديث:

- كنت أعتقد أن كل هذه التفاصيل قد تمت مناقشتها من قبل، وأننا هنا فقط لوضع النقاط على الحروف قبل التوقيع، أريد أن أعرف لماذا ذهب هذا المجنون الذي لا أذكر اسمه إلى هناك؟ وهل وجد البهارات التي كان يبحث عنها؟ إنني لم أشاهد البهارات التي صدع رؤوسنا بها، بل شاهدت مجموعة من الهنود

Twitter: @ketab_n

القذرين وبعض الحيوانات الغريبة، ولو أحضر كيسًا من البهارات لكان أفضل من كل هؤلاء.

ظهر احمرار خفيف على وجنتي الكاردينال، قبل أن يواصل بصوت هادئ أشبه بالهمس:

- إنني لا أثق بمن يصرف مال ملكه ليبحر إلى المجهول ثم يحضر بعض القاذورات من هناك.

ثم رفع صوته قليلًا ليسمع الجميع:

- ولا أفهم لماذا يذهب الناس في صناديق خشبية إلى البحر ويسمون ذلك اكتشافًا!

ثم أخرج زفيرًا قويًا قبل أن يواصل حديثه الذي لا معنى له:

- حسنًا دعونا نعد إلى مشكلتنا التي صنعها هذا الرجل، ما اسمه؟

رد الممثل الإسباني:

- «كرستوفر كولمبوس» يا سيدي.

ثم واصل الحديث من حيث انتهى الكاردينال:

- كلا، لم يجد البهارات التي ذهب للبحث عنها، لقد كان يعتقد أن هناك طريقًا آخر إلى الهند غير ذلك الذي يمر بأراضي المسلمين، ولكنه وقع على أرض أخرى جديدة ولم يصل إلى الهند.

- وكم استغرق إبحاره إلى هناك؟

- حوالي ٣٦ يومًا، لقد كانت أيامًا صعبة بالنسبة إليه.

شخر الكاردينال فجأة وكأن هناك من ضرب صدره:

Twitter: @ketab_n

- ماذا؟! ٣٦ يومًا في البحر، هذا جنون! وماذا وجد غير الأشجار والجبال والأنهار؟

- لم يجد شيئًا ذا قيمة يا سيدي، فلم يجد البهارات ولا الذهب كما كان يتوقع.

عرف ممثل البرتغال أن الإسباني كان يحاول أن يُخفي حجم الثروات التي اكتشفها «كرستوفر كولمبوس»، وأنه يحاول أن يؤثر على الكاردينال ليقنعه أن الأرض الجديدة ليس بها كنوز، فحاول أن يصحح معلومات الكاردينال:

- يا صاحب القداسة، إن ما يقوله الممثل الإسباني غير صحيح، فقد اكتشفوا الذهب بكميات كبيرة في تلك الأراضي، حتى إنه يقال إن هناك مدنًا لم تُكتشف بعد مغطاة بالذهب، إن سفنهم تأتي محملة بكل أنواع الثروات، لقد بدأوا يحضرون الفراء والذهب والفضة والهنود وغيرها، إنهم لا يقولون لنا حقيقة ما الذي اكتشفوه هناك.

سحب الممثل الإسباني نفسًا عميقًا قبل أن يقول:

- سيدي صاحب القداسة، إن لديَّ الصلاحيات الكاملة من الملكين الكاثوليكيين لأُنهي هذه القضية وأتخذ القرار الذي أرى أنه في صالح مملكة إسبانيا، ولكني أريده أن يكون قرارًا نهائيًّا وغير قابل للنقاش مرَّة أخرى.

التفت الكاردينال إلى الممثل البرتغالي وسأله:

- هل لديك نفس الصلاحيات يا سيدي أيضًا؟

أجاب بنوع من الحزم:

- نعم يا سيدي، فنحن أيضًا نريد أن ننتهي من هذا الأمر.

Twitter: @ketab_n

أسند الكاردينال ظهره إلى الكرسي وهو يحرك منديله أمام وجهه:

- إذن قل لنا ما الذي تريده حكومتك.

اتكأ ممثل البرتغال على الطاولة واضعًا مرفقيه عليها قبل أن يرفع بصره إلى الكاردينال:

- نريد أن ندفع الخط الطولي الذي يمر بالجزر الخضراء ٣٧٠ ليقع غربًا ١١٨٥ ميلًا.

ثم وقف على قدميه وأخذ عصا صغيرة أمامه ورسم بطرفها خطًّا وهميًّا على الخريطة معلنًا بصوته:

- هنا.

نقل الممثل الإسباني نظره إلى الخريطة، ثم وضع آلة القياس عليها محاولًا إيجاد المناطق التي يمر عليها هذا الخط بشكل تقريبي، وحين حددها، التفت إلى الكاردينال قائلًا:

- لم أفهم سبب الطلب البرتغالي، فالخط يمر في البحر، ولا أعتقد أن هناك شيئًا يستحق النقاش بخصوصه، فمن الواضح أن الخط حين يمتد جنوبًا يخرج من الخريطة التي أمامنا، فهل هناك شيء يعرفونه هم ولا نعرفه نحن؟

حينها بدأ الكاردينال يشعر بالضيق، فهناك عدم ثقة بين الطرفين، ومن الواضح أن الأمور لن تسير بسرعة كما يرغب، فقال بنوع من الملل:

- حسنًا أيها السادة، دعونا نأخذ استراحة لمدة ساعة، ناقشوا مع مستشاريكم ما تريدون أن تناقشوه، ولكن دعونا ننهي المسألة قبل حلول الظلام من أجل اللّٰه!

Twitter: @ketab_n

تفرقت الجموع، وذهب كل وفد إلى قاعة جانبية استعدادًا للجولة القادمة، كان الجو مشحونًا بالترقب، فهذه الاتفاقية على حسب التعهدات التي قدمها ملكا إسبانيا والبرتغال ستكون آخر اتفاقية بين الطرفين، ولن تقبل أي تعديل أو تغيير مستقبلًا، وسيحترمها ورثتهم من بعدهم، وعلى هذا الأساس فإن العالم سيُقسم بين القوتين الكبيرتين بشكل كامل.

شعر الجميع أن الخلاف بين إسبانيا والبرتغال قد أخذ أشكالًا مختلفة، وهذه الاتفاقية قد تحدد من هو الأقوى منهما، والقوة سيحددها حجم الثروات التي ستقع تحت سلطتيهما، إن العالم كما هو معروف سيُقسم بينهما، كل العالم، ثرواته وبشره وبحاره ومقدراته.

دخل الوفد البرتغالي إلى قاعته الخاصة، فتقدم أحد الخدم إلى رئيس الوفد وأخبره بأن السيد «ألفونسو دي البوكيرك» يرغب في مقابلته.

- وصل منذ متى؟

- منذ لحظات يا سيدي، وهو يطلب الإذن بالدخول.

- حسنًا، تستطيع الذهاب الآن.

ثم التفت إلى أقرب مساعديه وأكمل:

- يجب أن نُصر على موقفنا أيها السادة، لن نتزحزح عن مطالبنا، ويجب ألَّا نثق بالكاردينال كثيرًا، صحيح أننا قد سلمناه الكثير من المال ليقف معنا خلال عملية التفاوض هذه ولكنه أيضًا استلم مالًا من الإسبان، ولذلك فهو يحاول أن يكون محايدًا مع الجهتين، ثم يجب ألَّا ننسى أن البابا إسباني المولد أيضًا، وقد

Twitter: @ketab_n

ينحاز لهم أو أنه قد أوصل لهم معلومات لا نعرفها، من يدري ما الذي يحصل خلف الأبواب المغلقة، أوووف، كم أكره هذا الكاردينال، إنه يصيبني بالغثيان.

دخل «البوكيرك» إلى القاعة حاملًا ملفًّا بين يديه، وتقدم من الممثل وركع أمامه بكل خشوع.

وقف الممثل على قدميه ومد يده لمصافحته قائلًا:

- صديقي «البوكيرك»، كنت أنتظرك على أحر من الجمر، عندما أمرني الملك بأن أتولى مهمة مناقشة هذه الاتفاقية مع الإسبان فكرت فيك، ولكن قيل لي إنك في شمال إفريقيا لمقاتلة المورروز هناك.

أحنى «البوكيرك» رأسه مرَّة أخرى:

- أنا دائمًا في خدمة الملك وخدمتكم يا سيدي، فعندما قيل لي إنك في انتظاري في مدينة توردسيلاس جئت بسرعة.

- اجلس يا صديقي.

ثم أشار إلى كرسي قريب منه.

جلس «البوكيرك» واضعًا الملف على فخذيه ممسكًا إياه في نفس الوقت بكفيه وكأنه كنز ثمين لا يريد أن يفقده.

تحدث الممثل بحماس مسترسلًا في شرحه:

- أنت تعرف أننا سنعيد رسم سيطرتنا على العالم من خلال هذه الاتفاقية التي نناقشها مع الإسبان، فهم قد سيطروا على كل الأراضي الجديدة في الغرب التي اكتشفها «كولمبوس»، ومنذ سنوات عدة أيضًا ونحن نرسل السفن إلى الجنوب لاكتشاف طريق إلى الهند يمر حول إفريقيا، وما زلنا نطلق الإشاعات قائلين

Twitter: @ketab_n

إن المسافة إلى الجنوب الإفريقي أبعد مما يتصوره المرء، وإنه من المستحيل بلوغ أقصى نقطة هناك، وهذه الإشاعة قد انتشرت بشكل كبير، وأعتقد أن الناس قد اقتنعوا بها وروجوا لها كما ينبغي، ولكن الحقيقة تقول غير ذلك، فنحن نجحنا في إرسال السفن إلى الشرق بشكل سري.

خلع الممثل رداءه بعد أن شعر بشيء من الحرارة قبل أن يواصل:

- إننا بتصرفنا هذا نهدف إلى عدة أمور وهي: لا نريد أن يعرف الآخرون أننا حققنا نجاحات في اكتشاف طريق الهند عبر إفريقيا، ونريد أيضًا أن نحصل على جزء من الأراضي التي اكتشفها «كولمبوس» غربًا، ثم إننا لا نريد أن يشن الإسبان علينا حربًا لسلب المناطق التي اكتشفناها في غرب وجنوب إفريقيا.

كان «البوكيرك» متابعًا بدقة لما يقوله الممثل، فهو يرى أن مستقبله هو أن يكون جزءًا من مشروع الكشوفات هذه. نظر إلى عيني الممثل مباشرة في بادرة لم يكن يفعلها من قبل احترامًا له، لقد عاش «البوكيرك» طوال حياته في القصر الملكي، ولكنه كان يعاني من عقدة نقص دائمة، إذ إنه يرى أنه يستحق أن يُعامل كأمير، فوالده كان ابنًا غير شرعي في السلالة الملكية ولكن لم يتم الاعتراف به، وهو يريد أن يقترب من الدائرة التي حول الملك ولن يتسنى له ذلك إلا بقيادة حملة الاكتشافات التي رعاها الملك شخصيًا.

يعرف كل من تعامل مع «البوكيرك» دناءة نفسه وخستها وقسوتها، فبالإضافة إلى العُقد النفسية التي يحملها، فهو يملك

Twitter: @ketab_n

وجهًا لا يوحي بالاطمئنان، فله أنف دقيق يتوسط عينين حادتين جاحظتين ملتصقتين بعضهما ببعض، أشبه ما تكونان بعيني تمساح شبه نائم، ويلبس على كتفه عباءة ثقيلة لتخفي هزال جسده الذي يقف على ساقين نحيلتين تثيران الضحك لمن يراهما.

لقد أثبت «البوكيرك» ولاءه للقصر بما ارتكبه من مذابح في الشمال الإفريقي، وبحكم معرفته وخبرته الملاحية وقسوته، كان هو الشخصية التي تم اختيارها لتقود الحملة العسكرية إلى الهند بعد الحملات الاستكشافية الأولى.

حرك «البوكيرك» يده في لحيته كما كان يفعل دائمًا قبل أن يسأل:

- ولكن يا سيدي ما الهدف من دفع الخط الطولي الذي يمر بالجزر الخضراء إلى الغرب؟ لقد قيل لي إنك طلبت ذلك من الكاردينال خلال انتظاري الإذن بالدخول عليكم.

ابتسم الممثل قبل أن يقول:

- إن هناك أرضًا إلى الجنوب من الأرض التي اكتشفها «كولمبوس»، وسيمر عليها هذا الخط، ونريدها لنا، فليس من المعقول أن يأخذوا هم كل الأراضي هناك ولا نخرج نحن بشيء.

اعتقد «البوكيرك» أنه سمع ما يكفي، وحاول أن يشرح للممثل أهمية الملف الذي يحمله، فرفعه بيديه واضعًا إياه أمام الممثل وكأنه يسلمه رسالة:

- سيدي، هذا الملف يحتوي على معلومات قيمة جدًّا عن طريق الهند، فقد أرسلت حكومتنا جواسيس لدراسة الخط الملاحي والمناطق التي ستمر عليها سفننا المتجهة إلى الهند.

Twitter: @ketab_n

نجح أحد جواسيسنا ويُدعى «كوفيلهام» في كتابة هذا الملف بعد أن تنقل في تلك المناطق لمدة سنة تقريبًا قبل أن يوصله إلينا عن طريق حبر الإسكندرية، وأنا أرى أن نترك الصراع على الأراضي الجديدة مع إسبانيا ونذهب إلى الشرق، فهو أكثر ثراء مما كنا نعتقد، لقد وقعنا على كنز البهارات، وعرفنا مصدره، إنه كنز في انتظار أن نضع أيدينا عليه.

أمسك المندوب بالملف وقلَّب صفحاته واحدة تلو الأخرى، ثم نظر إلى الخرائط المرسومة فيه، فتغيرت ملامحه وبان عليه نوع من الفرح المكبوت.

Twitter: @ketab_n

١٤
ميناء عدن، اليمن

صرخ جندي من أعلى سور المدينة بأعلى صوته:

- لقد ظهر الأسطول المملوكي! لقد ظهر الأسطول المملوكي!

رد عليه أحد المتجمهرين خلف البوابة المغلقة للمدينة:

- هل أنت متأكد؟ وما العَلَم الذي ترفعه السفن؟

- لست أرى شيئًا واضحًا يا مولاي، ولكنها ليست إفرنجية بالتأكيد، فليس هناك صليب على شراعها.

وضع شخص يقف قرب الأمير يديه بجانبي فمه وصرخ في المتجمهرين:

- يأمركم الأمير بالانتظار، فلعلها تكون خدعة من هؤلاء البرتغاليين، لن تُفتح البوابة حتى نتأكد من هوية السفن.

مرت لحظات طويلة على الواقفين خلف البوابة فبدأوا بالتململ والحديث بعضهم مع بعض، وعلت أصواتهم واختلط ضجيجهم، ومن حين إلى آخر كانوا ينظرون إلى المقدمة حيث يقف الأمير مع حاشيته، فيرضون بالمزيد من الانتظار على مضض، فالأمير أيضًا ينتظر، ومع أنه كانت هناك مظلة فوق رأسه تقيه حرارة الشمس إلا أنه معهم.

Twitter: @ketab_n

كان الأمير مرجان الظافري راكبًا على فرس أشهب وحوله وزراؤه ومستشاروه، وخلفه مجموعة من الحرس المسلح بالرماح والسيوف والدروع، وخلفهم مجموعة من الجنود الزنج الشعث؛ عراة الصدور حفاة الأقدام، في أيديهم سيوف قصيرة، ويلفون على رؤوسهم المقاليع التي يستخدمونها لرمي أعدائهم بالحجارة، ويحملون دروعًا خشبية، وخلف كل ذلك معظم أهالي المدينة. كان الجميع في انتظار أن يعلن الجندي الذي في أعلى السور عن هوية السفن حتى يبدأ الاحتفال.

ومع ارتفاع الشمس وتشتت ما بقي من ضباب الصباح، صرخ الجندي الذي يقف في أعلى البوابة بأعلى صوته:

- إنها سفن مملوكية، لقد بانت أعلامها، إنها صفراء وعليها أهِلَّة واضحة.

لم يكد جندي المراقبة يُنهي جملته حتى هتف الناس وعلت أصواتهم بالتكبير والتهليل، وفُتحت البوابة محدثة صريرًا قويًّا، فهي لم تُغلق منذ سنوات طويلة، ولم يعتد الناس على رؤيتها مغلقة قَطُّ، ولكنهم الآن على حذر من سفن البرتغاليين التي بدأت تظهر في هذه المياه مؤخرًا.

خرج الناس مندفعين وكأنهم يخرجون من ثقب صغير، منتشرين على عرض الميناء، رافعين سعف النخيل والأعلام والخناجر، ملوحين بقطع القماش الملون. كانوا يرقصون وهم يسيرون في اتجاه البحر في احتفال لم تكن المدينة تشهده كثيرًا.

نزل زورق من إحدى السفن القادمة وعليه مجموعة من

Twitter: @ketab_n

البحارة متجهًا إلى الميناء حيث يقف الأمير. اقترب الزورق من حافة الميناء فتقدم أحد جنود الأمير منه وسأل عن قائد الأسطول، عرَّف حسين نفسه فرحب به ترحيبًا شديدًا وقاده إلى الأمير مرجان، فتصافح الرجلان وكأنهما أخَوانِ افترقا منذ سنوات طويلة والتقيا فجأة.

شعر الناس بسعادة لا تُوصف؛ فهذا الأسطول المملوكي قد جاء لمساندتهم وحمايتهم من سفن البرتغاليين الذين بدأوا يجوبون هذه البحار مؤخرًا، وتناقل الناس أخبارًا مروعة عن تنكيل بحارتها بالسفن والبشر الذين يقعون بين أيديهم.

كان الوضع غامضًا بعض الشيء؛ فالسفن البرتغالية يراها البعض سفنًا تجارية تدفع الكثير نظير حمولات البهارات، وبالنسبة إلى البعض الآخر هي سفن خطرة تقتل وتقطع طريق التجار، فلم تتشكل صورة واضحة في عقول الناس عنها حتى تلك اللحظة من الزمن، فالبعض صدق ما يُقال وتحصَّن خلف سور مدينته كما فعلت عدن، والبعض رحب بهم على أنهم تجار، وبقي هذا الجو قائمًا لفترة طويلة بعد حادثة السفينة «مريم»، ولكن بالتأكيد كانت هناك حوادث أثرت على التجارة خصوصًا في منطقة البحر الأحمر وبحر العرب.

امتلأ الجو بالفرح والسرور وأمل في عودة الحياة إلى سابق عهدها، فالسفن المملوكية كما هو واضح تحمل المدافع في جوفها، وعددها يكاد يعادل سفن البرتغاليين، وهذا كافٍ لأن يُلقي الرعب في قلوب هؤلاء النصارى ليجبرهم على الرحيل من هذه المياه.

Twitter: @ketab_n

سار الموكب في اتجاه قلعة الأمير الواقعة خلف السور، كان في انتظارهم عدد كبير من الرجال ممسكين بعدد من الجمال والخراف، وما إن ترجل الموكب أمام القلعة حتى بدأ الرجال بذبحها قريبًا من أقدام الضيوف في بادرة تدل على احترام الضيف وعلو منزلته. ابتسم الأمير وهو يشاهد دماء تلك البهائم تنساب ببطء شديد وكأنها عصية على الرمال التي من عادتها أن تبتلع كل شيء، بقيت خطوط الدماء تسيل باحثة عن طريقها وسط أقدام البشر حتى توقفت وتجلطت وتغيَّر لونها وكأنها استسلمت لقدرها. أمر الأمير وزيره بتوزيع اللحوم على فقراء الناس وضعفائهم ثم دخل القلعة برفقة ضيوفه.

وفي القلعة جلس الجميع على أرضية فُرشت بالسجاد ووُضعت حولها الوسائد وفُتحت نوافذها للهواء القادم من البحر محملًا ببرودة منعشة، وجاء الخدم بما يستطاب من الفاكهة والشراب، فوجدها الأمير فرصة للحديث مع حسين بعد أن خف الصخب وهدأت الضوضاء:

- لقد أخبرنا جنودنا على الساحل الغربي بقدومكم منذ أن وصلتم إلى مخا للتموين، ومنذ ذلك الحين ونحن في انتظاركم، لقد أسعدتمونا بحضوركم، ليست أوضاعنا على خير ما يرام منذ أن ظهر البرتغاليون على سواحلنا، فقد كسدت تجارتنا وأصبحنا سجناء سور عدن، خلف باب لم نعهده مقفلًا قَطُّ.

كان حسين قد عرف بالتفصيل ما تمر به اليمن من أزمات زادها ظهور البرتغاليين سوءًا، فاليمن يحكمها السلطان عامر الطاهري الذي يعاني من تمرد يقوده الإمام شرف الدين يحيى،

Twitter: @ketab_n

إلا أن السلطان عامر تمكن من هزيمة غريمه مؤخرًا بعد أن حاصر صنعاء ونفى الإمام إلى مدينة تعز ووضعه تحت الحراسة.

إن هذه الحرب الأهلية التي لم تهدأ استهلكت طاقات اليمن، وراح ضحيتها الكثير من البشر، وسببت شرخًا في السلطنة، إذ إن الدعوة التي قادها الإمام يحيى والتي تدعو إلى التمسك بمذهب الإمام زيد بن علي زين العابدين قد وجدت لها الكثير من الأتباع في شمال اليمن، مما رسم خطًّا فاصلًا غير مرسوم بين الشمال والجنوب.

وبسبب كل هذه الظروف، لم يكن حسين يتوقع الكثير من الأمير مرجان، أمير عدن الذي يدين بالولاء للسلطان عامر، ولكن يكفي أن يشعر الأسطول المملوكي بوجود قاعدة آمنة له على مدخل البحر الأحمر يستطيع أن يتمون منها ويعيد إصلاح سفنه عند الحاجة.

رد حسين على تعليق الأمير بابتسامة باهتة شبه رسمية أتبعها بقوله:

- السعادة لنا أيها الأمير، لقد كانت رحلة متعبة من جدة إلى هنا، فمدخل البحر الأحمر كما هو معروف خطر جدًّا، اضطررنا أن نتمون في مخا ونرتاح بضعة أيام قبل التحرك جنوبًا إلى عدن، لقد أسرتمونا بكرمكم ومساندتكم.

كان حسين حذرًا في الإعلان عن خططه، ولكن أسئلة الأمير كانت تجبره على أن يقول ما لم يرد قوله، وفي نهاية الأمر فالأمير مرجان حليف جيد ولا بد من الوثوق به والاعتماد عليه في هذه المرحلة.

Twitter: @ketab_n

- ولكن ما خططكم الآن أيها الباشا؟

مد حسين يده إلى كوب من الماء وُضع أمامه، وشرب منه، كانت للماء رائحة عطرة طيبة وطعم سكري، لم يعرف ما الذي أضيف له ولم يسأل.

عرف الأمير أن الباشا أحب طعم الماء الممزوج بماء الورد، فأمر بكوب آخر له، سُر الباشا بذلك وأكمل حديثه:

- لقد أمرني السلطان الغوري بمحاربة الأسطول البرتغالي في البحر وتدميره، ونحن في طريقنا إلى الهند، فقد طلب سلاطينها منه المساعدة للتخلص من الغزو البرتغالي لبلادهم، سنبقى معكم بضعة أيام للراحة والتموين وبعدها سنتحرك إلى هناك.

شرب الباشا من الماء مرَّة أخرى قبل أن يواصل حديثه:

- أريد منك أيها الأمير أن تمدني بدليل يعرف الطريق إلى الهند، فهذه هي المرَّة الأولى التي تبحر فيها سفننا إلى تلك المناطق، وليس لدينا معرفة بالطريق وخطورته.

رفع الأمير كلتا يديه أمامه وهو يقول:

- على الرحب والسعة أيها الباشا، أنت بين أهلك الآن، سنقدم لك كل ما تحتاجه لإنجاح حملتك هذه، فكما ترى، إن وجودك بيننا قد أشاع جوًّا من الفرح والسرور لم نكن نراه كثيرًا خلال الفترة الماضية، كل رغباتك ملباة أيها الباشا، عليك أن تأمر فقط.

واصل الأمير حديثه في محاولة لطمأنة حسين:

- إن سفننا تصل إلى الهند والصين، وبحارتنا مهرة، لدينا تجار حضارمة استقروا في جاوة ومدينة الزيتون في الصين وغيرها

Twitter: @ketab_n

من المدن هناك، لكن اتصالنا بهم قد انقطع مؤخرًا بعد أن توقف الخط الملاحي بسبب هؤلاء البرتغاليين. نحن أيها الباشا لا نملك غير التجارة في هذه المدينة، إن تعطلت متنا بموتها.

لم يفهم الباشا ما الذي يقصده الأمير بهذه المدن ومواقعها، فسأل:

- وأين تقع هذه المدن؟ هل هي قريبة من الهند؟

- لا، إنها بعيدة جدًّا، ستحتاج لستة أشهر لتصل إليها، فمدينة الزيتون تكاد تقع في نهاية العالم وليس بعدها شيء، يقال إن بعدها بلاد الواق الواق، ولكن الغريب أن هذه المدينة ليس بها زيتون وأهلها لا يعرفون الزيتون أصلًا.

استغرب حسين:

- ولماذا سُميت مدينة الزيتون إذن؟

أرخى الأمير شفتيه:

- أعتقد أن التجار العرب أسموها كذلك وبقي هذا الاسم معها، ولكن الصينيين يطلقون عليها اسمًا آخر هو «كوانزو».

طال الحديث بين الرجلين وتشعب إلى أمور أخرى، حتى جاء الطعام، ووزعت صواني اللحوم والخبز على الجميع، وانتشرت رائحة الشواء، وتجمهر الناس أمام القلعة، حيث وزعت عليهم الأطعمة ولم يبقَ في ذلك اليوم جائع.

فجأة وبدون مقدمات صرخ أحد البحارة المماليك بعد أن شبع من الطعام اللذيذ:

- أطال اللّٰه عُمر السلطان الغوري، ونصره على أعدائه.

خيم جو من الغضب في أوساط اليمنيين، فكيف يدعو هذا

Twitter: @ketab_n

البحار للسلطان المملوكي وهو يأكل من طعام السلطان اليمني!

حاول بعض الجنود اليمنيين إسكاته، وصرخ آخر قائلًا:

- اللهم أطل عُمر سلطان اليمن وأكثر له من فضلك، فهو صاحب الفضل علينا.

ارتفعت أصوات الجنود من الطرفين، وبدت بوادر أزمة استطاع الأمير مرجان أن يتجاوزها وبقي مبتسمًا وإن تمعر وجهه قليلًا، فجأة صرخ الباشا حسين بأعلى صوته تأييدًا للسلطان الغوري وداعيًا له بالنصر أيضًا، مما جعل الأمير مرجان يستغرب من تصرف حسين الذي لم يكن مقبولًا، فليس من العادة أن تأكل من طعام شخص وتدعو لآخر! ولماذا فعل الباشا حسين ذلك؟ وهل هي رسالة يريد أن يرسلها للأمير!

أسرها الأمير مرجان في قلبه، فهو لم يفهم سبب هذا التصرف وبدا كأنه مستعد لأي تفسير يقال له.

وبعد تناول الطعام دخل شخص يحمل إبريقًا كبيرًا له رائحة طيبة غريبة، وسكب شرابًا أسود اللون للجميع، رفع الضيوف أكوابهم إلى أنوفهم وشموا رائحة الشراب لمعرفة كنهه، فيما قام اليمنيون بارتشاف الشراب بهدوء مستمتعين بطعمه ورائحته وهم يتحدثون بعضهم مع بعض.

سأل حسين مضيفه عن هذا الشراب، فرد عليه:

- إنها القهوة، ألم تذقها من قبل؟ جربها.

قرب حسين كوبه إلى فمه وارتشف منه قليلًا، فتغير وجهه وزم شفتيه وقطب حاجبيه وكأنه طعِم شيئًا لا يستسيغه، وبان ذلك على وجهه بشكل جلي.

Twitter: @ketab_n

ضحك الأمير مرجان بصوت مسموع، وبدأ يحدث ضيفه عن خواص هذا الشراب، وكيف يحصلون عليه، وكيف يحضرونه، ثم أتبع كل ذلك بقوله:

- ستحبه أيها الباشا، عليك أن تعتاد عليه فقط.

وفي المساء وبعد مغيب الشمس غادر حسين الرفقة عائدًا إلى سفنه؛ فهو لم يقبل ضيافة الأمير في المبيت في القصر، وفضَّل أن يكون مع رجاله. لم تكن السفن الصغيرة التي تنقل التموين من البر إلى السفن لتهدأ طوال المساء، بقيت بوابة المدينة مفتوحة على غير عادتها، وبقيت الاحتفالات في الميناء حتى وقت متأخر من الليل، وبقي الأمير في مجلسه تلك الليلة محتفلًا مع الناس، فكانت وفود المهنئين تدخل عليه وتخرج حتى هدأ المكان وخلا المجلس، حينها تقدم أحد جلسائه إليه طالبًا الحديث معه على انفراد، سأله الأمير بعدما شاهد تعابير وجهه:

- وماذا لديك؟ لقد رأيتك صامتًا طوال اليوم وكأنك تفكر في أمر ما.

- نعم يا سيدي، ولهذا السبب كنت أنتظر أن يخلو المجلس حتى أقول لك ما يجول في عقلي.

ثم واصل وهو يلتفت خوفًا من أن يسمعه أحد:

- أيها الأمير، لقد سمحت للأسطول المملوكي بالنزول في ميناء عدن واحتفلت بوصوله، وأمرت بتموينه من الخزائن السلطانية، وأرسلت معه دليلًا ليدله على طريق الهند، ولكن يا سيدي دعني أذكِّرك بما فعله الباشا حسين في جدة، لقد استعبد أهلها، واستخدمهم في بناء سورها، وصادر أملاك تجارها.

Twitter: @ketab_n

صمت برهة وكأنه كان يريد أن يرى وقع ما قاله على الأمير:

- وأنا أخاف أن يسيطر على عدن أيضًا ويفعل بها ما فعل بجدة.

وعندما شعر أن الأمير منصت إليه، وكأن كلماته قد عملت عملها، أكمل:

- رأيي أيها الأمير أن تمون سفنهم بما يكفي للوصول إلى الهند فقط بدون أن تعطيهم أي التزامات أخرى، وأن تصرفهم عنا بأسرع وقت ممكن، فهم إن تمكنوا منا فسنكون خدمًا عندهم، وسيصادرون أموالنا، وأقل شيء قد يفعلونه معنا أن يطالبونا بدفع الضريبة للسلطان الغوري.

نظر الأمير إلى محدثه بنوع من الاستغراب، ثم ربط ما يقوله الرجل بما جرى على لسان حسين خلال العشاء.

- ولكن لماذا لم تنبهني إلى هذا الأمر قبل أن يصلوا إلى هنا؟

- كنت قد سمعتك تأمر بإكرامهم وحسن ضيافتهم، وأن تكون هناك احتفالات بقدومهم، فلم أحب أن أكدر ذلك بما كنت أفكر به، ولكن أعتقد أن الوقت لم يمضِ بعد وتستطيع بحكمتك أن تعالج الموضوع، ونحن نريدهم أن يغادروا الميناء بأسرع وقت ممكن فقط.

فجأة وكأن الأمير تذكَّر شيئًا:

- ولكن ماذا عن البرتغاليين إن ظهروا على شواطئنا فجأة، مَن سيحاربهم إن لم يستطع المماليك؟

Twitter: @ketab_n

ابتسم الرجل، وكأنه كان يريد أن يصل إلى هذه المرحلة من الحديث:

- لقد سمعت الباشا حسين يا سيدي، قال إن لديه أوامر بمحاربة البرتغاليين في البحر، وإنه ذاهب إلى الهند لإنجاز هذه المهمة.

توقف برهة، ثم واصل حديثه:

- دعه يقم بذلك، ولكن ليس على أراضينا، دعه يقاتلهم هناك، إن معاركه معهم ستضعفه وتضعفهم، وسنكون قد سلمنا بمينائنا وسفننا ومالنا، فلا الباشا حسين احتل أرضنا ولا البرتغاليون دمروا سفننا.

بعد أن قال جملته هذه، ركز نظره على الأمير محاولًا أن يعرف تأثير ما قاله عليه. أطرق الأمير قليلًا ولمعت عيناه وبدأت أصابعه تعبث بطرف السجادة قبل أن يقول:

- أظنك على حق، لا تفتحوا الميناء لسفنهم إن عادوا من هناك.

Twitter: @ketab_n

١٥
الخليج

لم تتحرك الرياح في ذلك اليوم، فاضطر البحارة لاستخدام مجاديفهم للخروج من خليج سلوى إلى البحر المفتوح حيث تكون الرياح أكثر نشاطًا هناك، ومع تحرك الرياح رُفعت المجاديف وأخذت السفن طريقها في اتجاه الشمال للدوران حول شبه جزيرة قطر للوصول إلى جلفار.

كان رسو الأسطول قصيرًا في جلفار، فقد كانت الأوامر واضحة بأن يبقى الرجال على سفنهم ولا يغادروها. تم تموين السفن خلال فترة وجيزة، وانضمت ثلاثون سفينة إلى الأسطول عليها ٦٠٠ رجل من هناك، وفي خلال يومين بدأت السفن تحركها في اتجاه الشمال إلى هرمز.

وقف شيرغل في مقدمة سفينة القيادة ممسكًا بسارية المركب وأنظاره في اتجاه مسار إبحارها. كان يملأ رئتيه بهواء البحر الذي افتقده لفترات طويلة، لم يكن أي من البحارة الذين معه في السفينة يعرف من هو هذا الرجل الذي يُكن له ابن رحال كل احترام، ولماذا هو أول مَن يُقدم له الطعام والماء، ولماذا يقوم أصحابه على خدمته طوال الوقت، ولكن كعادة البحارة، لم

Twitter: @ketab_n

يستفسروا علنًا عن هذا الرجل، فهذا ليس من شأنهم، وإن كانوا يتحدثون فيما بينهم بعد أن يخيم الظلام ولم يعد هناك من يتنصت على همسهم.

وبعد مرور يومين وحين شعر ابن رحال أنهم على وشك الوصول إلى الطرف الشرقي لجزيرة «جسم»، جلس مع شيرغل ليلًا وأشعل السراج وفرش ورقة بها خريطة للخليج ومواقع الجُزر ورسمٌ تقريبي لميناء هرمز، ثم قال ضاحكًا:

- من الآن فصاعدًا سأناديك بمولاي الملك، لأنك خلال ساعات ستكون كذلك.

رد شيرغل بابتسامة:

- كم أود سماع هذا اللقب الذي افتقدته منذ فترة طويلة، إنه لقبي الذي كدت أنساه لو لم تذكرني به من حين إلى آخر.

ثم أصبحت تعابير وجهه أكثر جدية بعد أن نظر إلى الخريطة المفروشة أمامه:

- دعني أُضف لك بعض المعلومات التي يجب أن تعرفها قبل أن نصل إلى هرمز.

عادة ما يحرس الميناءين ليلًا حوالي ألفين من الحرس، منهم خمسمائة جندي فارسي يحسنون استخدام الأقواس والسهام، وهؤلاء مهمتهم حماية الميناءين ليلًا ونهارًا. تُرابط في الميناء الشرقي حوالي أربعين سفينة من ذات المجاديف التي تستطيع التحرك في هدأة الرياح. أما الميناء الغربي فهو عبارة عن مرسى للسفن الأصغر حجمًا التي تجوب الخليج، أو تلك التي تغادر إلى أملاك هرمز في عمان من حينٍ إلى آخر.

Twitter: @ketab_n

رفع شيرغل بصره إلى عيني ابن رحال قبل أن يكمل:

- توجد منارة عالية في أقصى نقطة في شمال الجزيرة، وهي عبارة عن رأس ممتد في وسط البحر، يُشعل الجنود قمتها بالنار بعد أن تغيب الشمس وحتى طلوعها في اليوم التالي، وهي تضيء مساحة كبيرة حول الميناءين، كما أنها تدل السفن القادمة إلى مداخل الميناء، علينا أن نكون حذرين حتى لا تكشفنا أنوارها ليلًا. هناك أيضًا حوالي ثلاثة آلاف مقاتل موزعين حول الجزيرة، منهم مَن يحرس خزانات المياه في جنوب الجزيرة، ومنهم من يحرس قصر الملك، وبعضهم مرابطون على الساحل المقابل للبر الفارسي بالقرب من المنارة، وهؤلاء يدينون بالولاء للملك بغض النظر عمَّن هو الملك، أي أنهم سيحاربون حتى يشعروا أن الملك انهزم ثم سيهتفون للملك الجديد. إن المفاجأة هي أفضل سلاح لدينا، فعددنا أقل بكثير من عددهم، ولكن بُعدهم عن قصر الملك قد يعطينا أفضلية.

كان وجه شيرغل يلمع مع انعكاس ضوء المشعل عليه، فقد بان التوتر في حديثه، وتفصد العرق من جبينه، فهي بالنسبة إليه لحظات حاسمة قد تعيده إلى كرسي الحكم أو قد تحكم عليه بالموت بعد أن تسمل عيناه كعادة ملوك هرمز مع منافسيهم.

لاحظ ابن رحال ذلك في وجه شيرغل ونبرة صوته، فأمر باستدعاء قادته من السفن الأخرى، وما هي إلا لحظات حتى اقتربت السفن بعضها من بعض وقفز القادة إلى سفينة ابن رحال الذي كان ينتظرهم وهو يرتشف منقوع التمر الذي كان يحبه.

بعد أن جلس الجميع حول الخريطة المفروشة على سطح

Twitter: @ketab_n

السفينة نظر في أعينهم ليتأكد من متابعتهم لما سيقول، بدأ في الحديث:

- اسمعوني جيدًا، يجب أن تفهموا كل كلمة أقولها.

ثم نظر إلى وجوههم مرَّة أخرى:

- إن أمامنا ساعات حاسمة، سيكون الإنزال غدًا فجرًا، وحتى ذلك الحين أريد أن تقترب سفننا فيما بينها قدر الإمكان حتى يكون إنزالنا سريعًا وبشكل جماعي، ولا أريد أن أرى نارًا تُوقد بعد غروب شمس يوم غد.

سيظهر الهلال غدًا ليلًا، وعندما ينتصف في كبد السماء سننقسم إلى قسمين حال وصولنا إلى الشاطئ، تلك السفن التي جاءت من سلوى ستتجه إلى الميناء الشرقي، أما تلك التي جاءت من جلفار فستتجه إلى الميناء الغربي، وما إن تصل السفن إلى أهدافها حتى ينزل الرجال منها ويسيطروا على الميناء، وسأختار مجموعة من مائة شخص يكون هدفها الدخول إلى قصر الحكم، ونتوقع أن نجد مقاومة من حراس القصر، ولكن هذه المجموعة ستصمد في انتظار مساندة الآخرين لها بعد السيطرة على الموانئ.

أعاد النظر إلى وجوه قادته ليتأكد من حسن إنصاتهم، ثم واصل حديثه:

- إن المجموعة التي ستسيطر على الميناء الشرقي عليها أن تطفئ نار المنارة لتمنع أي سفن قادمة من الرسو، حتى ننهي سيطرتنا على كامل الجزيرة.

أمسك ابن رحال سيفه الذي كان بجانبه تأكيدًا لما يريد أن يقوله:

Twitter: @ketab_n

- كل من يقاومكم اقتلوه، عليكم أن تكونوا سريعين، فليس لدينا وقت كثير، إن المفاجأة هي سلاحنا الوحيد، والمفاجأة بدون سرعة ليست مفاجأة.

اتبع الجميع تعليمات ابن رحال حرفيًا، وفي اليوم التالي كانت السفن قد برزت من بعيد وكأنها أشواك سوداء خرجت من عمق البحر، لم يشاهدها أحد، ولم يتوقع أحد قدومها، وقبل الفجر تحركت بهدوء إلى هدفها حتى اقتربت من الميناء كأنها وحوش خرجت من الأعماق، حينها صرخ أحد الحرس الهرامزة:

- إنه غزو! إنه غزو! إلى السلاح!

ضربت السفن رصيف الميناء بقوة، ونزل منها الجنود وهم يصرخون ويكبرون. لم تكن المقاومة عنيفة كما توقعوها، فالجميع كان نائمًا بمن فيهم الحرس، ومَن حاول المقاومة اخترق جسده سهم جاء من الظلام. ركض رجال ابن رحال في كل اتجاه، وأطفأوا شعلة المنارة، فخيم الظلام على الميناءين فجأة، وانتقل القتال إلى البوابة الرئيسية أمام قصر الملك، وبدأ الناس يستيقظون من نومهم وكأنهم في حلم، شعور غريب ساور كل الهرامزة، هناك شيء سيئ يحصل لا يعرفون كنهه، وخرج بعضهم بملابس النوم إلى الشوارع يستطلعون الخبر، كانوا يسمعون أصوات صراخ تظهر وتختفي فجأة من مناطق متعددة من المدينة، وحين انتبهوا لمنارة الميناء المطفأة اعتقدوا أن المشكلة في الميناء فلم يهتموا كثيرًا لها، وعاد بعضهم إلى فراشه.

اشتد القتال بين المهاجمين والمدافعين أمام بوابة القصر، وكانت التعزيزات تأتي بسرعة إلى الطرفين، واتسعت المعركة،

Twitter: @ketab_n

وسمع الناس أصوات القتال وشاهدوا النيران التي أشعلها المهاجمون في البوابة الرئيسية للقصر، وبدأت الشائعات تنتشر كانتشار النار في كومة القش، فهناك من يقول إن الصفويين قد هاجموا المدينة، وبعضهم يقول إن أحد الإخوة يحاول القيام بانقلاب على أخيه، وكثرت الإشاعات في أوساط الناس، وبعضهم أغلق الباب على أهل بيته وأخرج سيفه وبقي منتظرًا حدوث أمر ما.

وفي الصباح ومع ظهور الشمس اتضح كل شيء، فقد كانت بوابة القصر مفتوحة ومحترقة، وأجساد القتلى تملأ الساحة الأمامية، والميناء أصبح خاويًا من السفن بعد أن ابتعد التجار بسفنهم عن الشاطئ خوفًا من حرقها أو الاستيلاء عليها، وبدأ الناس يستوعبون ما حصل خلال الليل، وبدأت الحياة تدب في المدينة مرَّة أخرى بشكل تدريجي؛ فإن ذهب الملك فهناك ملك آخر حل محله، لم يكترث الهرامزة كثيرًا فقد اعتادوا على ذلك.

وفي داخل القصر، جلس ابن رحال في المجلس الكبير وقد جُرحت ذراعه من ضربة خنجر سطحية والحكيم يعالج الجرح ببعض الأعشاب والمراهم، وحوله مجموعة من معاونيه وجنوده. أما شيرغل فقد جلس على عرشه فرحًا بعودته إليه مرَّة أخرى، وهو ذات العرش الذي كان لوالده؛ كرسي كبير مصنوع من الخشب، موضوع في وسط المجلس أو القاعة الكبرى كما يسمونها، منقوش على أعلى مسنده الآية القرآنية: «إِنِ الحُكمُ إلَّا للّه». وعلى ذراعي العرش وجها أسدين مكشرين عن أنيابهما، وبين فكيهما جواهر كبيرة من العقيق اللامع. جلس على ذات

Twitter: @ketab_n

العرش كل أبناء الملك المتوفَّى، وها هو شيرغل يعود إليه مرَّة أخرى.

بقي الملك جالسًا على عرشه، وبقي ابن رحال يدير المملكة من مكان جلوسه على الأرض، وكان هذا قدر هذه المملكة التي يديرها مَن لا يجلس على عرشها.

لم يتوقف ابن رحال عن إصدار الأوامر طوال الوقت، وبعد أن لف الحكيم جرحه وأنزل ذراعه بهدوء، نظر إلى الضمادة ثم سأل شيرغل:

- أين أويس الآن؟

رد شيرغل بلامبالاة:

- أظنه مختبئًا في القصر، فليس لديه مكان آخر يختبئ فيه، إن كان خارج القصر فهو في حماية الفرقة الفارسية التي أحضرها لحمايته، هل سمعتم عنها شيئًا؟ قد تُسبب لنا هذه الفرقة بعض المتاعب إن لم نُنهِ أمرها.

رد ابن رحال وهو ما زال ينظر إلى الضمادات في يده:

- لقد حاصرهم جنودنا واستسلموا ثم طلبوا أن نعيدهم إلى البر الفارسي، وأظننا قد انتهينا من أمرهم، ولم يكن أخوك معهم بالتأكيد.

ثم صرخ ابن رحال في الحرس:

- ابحثوا عن أويس الآن وبسرعة، أظنه في القصر، لا أريده أن يهرب.

ثم حمل سيفه وبدأ يبحث عنه بنفسه.

بدأ الجنود في تقليب أثاث القصر والبحث عن مخابئ سرية

Twitter: @ketab_n

فيه، وكانت طريقتهم أن يحرس الممر عدة رجال وتدخل مجموعة للبحث في كل غرفة وقاعة، يضربون بقبضات سيوفهم الأرضية والجدران لعلهم يقعون على بوابة سرية، حتى وصلوا إلى سلم يؤدي إلى غرفة علوية كان يستخدمها الملك كمجلس له في الصيف، وهناك وجدوا أويس مختبئًا خلف كومة من الأثاث المهمل وهو يرتجف من الخوف.

وبعد بضع دقائق كان أويس واقفًا أمام ابن رحال في المجلس الرئيسي في القصر، وعلى العرش شيرغل يشاهد ما يحصل وعلى وجهه ابتسامة الانتقام الكريهة.

لم يكن ابن رحال يرغب في أن يطيل عُمر هذه المسرحية، فخاطب أويس قائلًا:

- إننا لن نطبق عليك أحكام الملوك الهرامزة الخونة، فلن نسمل عينيك ثم نحبسك في زنزانة حتى تتعفن وتموت، ولكننا سنرسلك إلى الهند لتعيش هناك، وستأخذ معك بعضًا من خدمك، وسيرسل لك الملك شيرغل راتبًا شهريًّا حتى تعيش بكرامتك، على أن تتعهد بأنك لن تعود إلى هنا أبدًا.

سحب الحرس شاه أويس من ذراعه لتنفيذ الحكم، ثم التفت ابن رحال إلى الشاه الجديد في محاولة لمنعه من الاحتجاج قائلًا:

- أعتقد أن عليك أن تقيم حفلًا كبيرًا لإعادة تتويجك حتى يعرف القاصي والداني بعودتك، وأن تأخذ قسم الولاء ممن سيكونون حولك.

ثم ابتسم ابن رحال ابتسامة يفهمها شيرغل قبل أن يواصل:

- مع أني أعتقد أن قسم الولاء أصبح شكليًّا لا معنى له.

Twitter: @ketab_n

لم يكن شيرغل سعيدًا بالحكم السريع الذي أطلقه ابن رحال على أخيه، فقد كان في نظره حكمًا متسامحًا متساهلًا لا يتناسب مع خيانة أخيه له، ولكنه شعر أن ابن رحال لن يتركه ليناقش حكمه.

أنزل ابن رحال عمامته ومسح جبهته من العرق، ثم أمر أحد قواده بإحضار الخواجة عطار إليه بسرعة، فالخواجة سيكون هو الحاكم الفعلي للجزيرة، وعليه أن يعرف ما الذي حصل ومَن الذي له الفضل في إعادة شيرغل إلى عرشه.

سمع الخدم في منزل الخواجة عطار طرقًا على الباب، وعندما فتحوه شاهدوا مجموعة من حرس القصر وبرفقتهم فرسان عرب ملثمون ومسلحون، لم يكن الخادم الذي فتح الباب يعرف ما الذي حصل في قصر الملك، ولكن الأخبار التي وصلتهم من الشارع تقول إن هناك انقلابًا على أويس من أحد إخوته، وإن قتالًا شديدًا حدث في القصر لم تُعرف نتائجه بعد.

دخل الخادم وهو يرتجف من الخوف على خواجة عطار وكانت حليمة جالسة بقربه، وقال:

- سيدي، هناك مجموعة من الفرسان في الخارج، أظنهم من حرس الملك، ومعهم مجموعة من الفرسان العرب الأغراب الذين لم أشاهدهم من قبل.

ثم توقف الخادم عن الحديث حتى يبتلع ريقه وكأنه لا يريد أن يقول البقية:

- إنهم يطلبونك يا سيدي.

Twitter: @ketab_n

١٦

ميناء لزبن، البرتغال

(إبريل ١٥٠٦)

بدا الجو غائمًا ورطبًا ومليئًا بحبات المطر الخفيفة العالقة في الفضاء مترددة بين سقوطها وبقائها سابحة، ولكنها بالتأكيد ستجد طريقها إلى وجوه الناس وأجسادهم، فقد أصبح كل شيء رطبًا، ملابسهم وأحذيتهم الجلدية وقبعاتهم، حتى الأعلام التي وضعت للزينة أصبحت مبللة وثقيلة لا تقوى على الحركة وكأنها مريضة، وزاد الأمر سوءًا هبوب رياح الشمال من وقت إلى آخر محملة بالمطر الخفيف الذي يزيد من البلل، لم يعد الناس يجدون مكانًا جافًّا بعد أن تهب الرياح المحملة بقطرات الماء والتي تدخل تحت الخيام وبين طيات الملابس وكأنها في حالة عناد مع مَن يحاولون أن يحتموا منها.

اجتمع الناس لتوديع الأسطول الذي سيقوده «البوكيرك» ذلك اليوم، وبدأت الأجساد المبللة العابقة برائحة العفونة تتزاحم لترى الملك الذي سيحضر إلى الميناء لتوديع أسطوله الكبير المتجه إلى الهند، إنه أكبر أسطول عسكري يرسله الملك إلى الشرق، فقد ساهم في بنائه أكبر أثرياء أوروبا الذين استثمروا أموالهم لتعود إليهم بأضعاف أثمانها بعد أن تستولي البرتغال على مصادر

Twitter: @ketab_n

البهارات وتصبح المتصرف الوحيد في هذه السلعة الثمينة، إنه أسطول مهمته وضع علم الملك على كل الأراضي التي أصبحت ملكه بموجب اتفاقية «توردیسیلاس»، لقد كانت عملية بناء وتمويل هذا الأسطول سرية ومكلفة ولكنها انتهت الآن، والجميع يتطلع للحصول على حصته من كنوز الشرق اللاذعة.

كانت ست عشرة سفينة حربية من نوع «كرفال» تضرب جوانبها رصيف الميناء محدثة صوتًا مزعجًا وكأنها وحوش تتمرد على الأسر، وترغب في أن تُطلق من عقالها حتى تبحر للبحث عن ضحاياها، ولكن الحبال الغليظة التي تربطها بالرصيف تمنعها، ولم تفرق الطيور التي تحوم فوقها بينها وبين سفن الصيد، فكانت كعادتها تصيح بأعلى صوتها من على سواريها أو تحوم حولها في انتظار طعام لن يأتيها، بدت الرياح ساكنة في تلك اللحظة وإن كانت تهب من حين إلى آخر بشكل متقطع بعكس الأمواج التي تتحرك بتوتر تحت السفن فتحركها بشكل فوضوي وكأنها تعبث معها.

أثبتت هذه السفن قوتها وصلابتها في البحار المفتوحة، فهي عميقة الغاطس، يستوعب هيكلها عددًا أكبر من البحارة والمخازن والمدافع، أُدخلت عليها تعديلات بناء على طلب رحلات الاستكشاف السابقة، وأصبحت بعد بنائها وكأنها كاملة لا تحتاج إلى أي إضافات أو تعديلات، فخر للأمة البرتغالية التي صنعتها كما كان يقول عنها بحارتها، فقد بُنيت بأفضل الأخشاب، ووُضعت مدافعها على إطارات تمتص ارتدادها، وأصبحت تحمل كميات أكبر من الماء في جوفها وكميات هائلة من البارود

Twitter: @ketab_n

والقذائف المدمرة، هي سفن لم يُبنَ مثلها من قبل في الحجم والقوة وكثافة النيران.

وعلى الرصيف وُضع عرش خاص للملك وبجانبه مقاعد الأمراء والنبلاء والقادة، وأضيئت المشاعل حولها، واصطف الحرس بشكل استعراضي، وظهر الحواة لتسلية الناس قبل وصول الملك وحاشيته، ولكن بقيت تلك الرائحة الخانقة الثقيلة مسيطرة وزادتها رطوبة الجو قوة، ولم تفلح المباخر في إبعادها، وكأنها عدو يصعب هزيمته.

وبعد انتظار طويل بدأت العربات التي تقل الشخصيات المهمة في دخول رصيف الميناء، استطالت أعناق الناس لرؤيتهم ومعرفة نوعية لباسهم وعدد حاشيتهم، فالناس ترزح تحت فقر شديد، وكل شيء يوحي بالثروة يجذبها كما ينجذب الفراش إلى السراج. بدأ الحرس يضربون الناس بسياط صغيرة لإبعادهم عن الخيمة الملكية وكأنهم حشرات يجب ألّا تدنسها بقذارتها، فمن حين إلى آخر تلتفت الأعناق في اتجاه صوت ضربة أو صراخ، ولكن لكثرة ما سمعوا من ذلك توقفوا عن فضولهم وأصبح صوت قرع السياط وصراخ أحدهم جزءًا من المشهد لا يتخيلون أن تكون مناسبة يحضرها العوام بدونه، فالناس قد ألفت المذلة وأصبح ذلك جزءًا من حياتها تقبله بدون تفكير.

وعندما شاهد الناس عربة الملك التي تجرها أربعة خيول بيضاء قادمة من بعيد بدأوا بالهتاف له، وارتفعت أصواتهم بتمجيده، وازدادت ضربات السياط، واندفعت الجموع إلى الأمام دافعة الجنود إلى الخلف، وعندما عجزت السياط عن القيام

Twitter: @ketab_n

بدورها وضع الجنود رماحهم بشكل عرضي يقبضون عليها باليدين ويدفعون بها جموع الناس، فاختلط العرق برطوبة الجو مع أصوات اللعنات والسباب التي تخرج من الطرفين، حتى صدحت الأبواق معلنة وصول العربة الملكية فتوقف الجميع عن التدافع ومدوا أبصارهم لها بشكل تلقائي، نزل منها الملك ورفع يده اليمنى معلنًا عن وجوده، بعدها خيم صمت غريب وهدأت الأنفاس وكأن سحرًا قد مسهم، ولم يعد هناك سوى تلك الرائحة النتنة وصوت الهمهمات التي تخرج من وسط الجموع، فالملك في وعي الناس يمثل كل شيء ابتداء من دوره الديني المقدس وانتهاء بدوره في إنهاء حياة الناس بدون أسباب معروفة أو مقنعة، فهو يمثل إرادة اللّه في الأرض، ويجب قبوله بكل عيوبه وقسوته ودمويته.

بدأت فرقة عسكرية بعزف موسيقى الجنازات، فظهر من أقصى الرصيف مجموعة البحارة وهم يلبسون لباسًا صوفيًا خشنًا لم يكن سوى قطعة قماش مستطيلة الشكل، قُطعت في وسطها دائرة لإدخال الرأس ثم رُبطت بحبل غليظ حول الوسط لتثبيتها، وبقيت اليدان والساقان عاريتين، كان منظرًا محزنًا صُمم بعناية لإظهار إخلاص هؤلاء لقضيتهم وهدفهم، فقد كان كل بحار يحمل شمعة كبيرة بكلتا يديه يتقدمهم «البوكيرك» بلحيته الطويلة التي أقسم ألَّا يقصرها حتى يقتل المحمديين ويسيطر على تجارة البهارات كلها.

وصل الركب أمام الملك وتوقف، ركع الجميع على رُكبهم كما يجلس المصلي أمام المذبح، وأقسموا الولاء له بصوت عالٍ، ثم قام «البوكيرك» وخطب بعد أن استأذن الملك قائلًا:

Twitter: @ketab_n

- سيدي الملك، إن هؤلاء هم جنودك المخلصون، الذين تطوعوا للذهاب إلى أقصى الأرض لتخليص العالم من الهراطقة المحمديين، إن هدفنا هو نشر المسيحية على طول السواحل التي سنحتلها بسيوفنا ونرفع عليها صليبنا وسنحكمها باسمكم، لقد ذهبت قبلنا سفن استكشافية، ولكننا سنذهب لنحتل ونقتل ونرفع الصليب المقدس، وإني أطلب منكم يا سيدي أن تسمح لعبيدك بالإبحار حتى نقوم بواجبنا الذي أوكلتنا به.

تقدم «البوكيرك» بعد خطابه الذي صفق له الجمهور بحماس من الملك وركع أمامه واحتضن قدميه وهو يقبلهما باكيًا، فخيم جو روحاني على المكان، وبكى الناس لبكاء «البوكيرك»، وهتفوا بشعارات القدسية للملك وللمهمة التي أشرف عليها شخصيًّا، لقد دخلت البرتغال منذ تلك اللحظة عصر الفتوحات العسكرية.

حرص «البوكيرك» وهو يقوم بتمثيليته هذه على أن يبدو كأنه شخصية إنجيلية خرجت من الكتاب المقدس، فهو في لباس خشن مبلل قذر مليء بالوحل، يطلب الإذن بنشر المسيحية الخالصة في أوساط الهراطقة، في وضع مشابه لحواريي المسيح حين كانوا يستأذنونه في الهجرة إلى أصقاع الأرض لتبليغ الناس بما نزل عليه، لقد صمم «البوكيرك» هذا الاستعراض ليحقق نتيجة واحدة: إنه في مهمة مقدسة، يجب أن يدعمها الملك والشعب لأقصى حد.

نظر الملك بنوع من الرضا إلى تصرف «البوكيرك»، وأمره بالوقوف، فوقف على ركبتيه ضامًّا يديه إلى صدره، ودموعه التي اختلطت بماء المطر تبلل لحيته، حاول الملك أن يظهر امتنانه

Twitter: @ketab_n

بشكل علني لجهود «البوكيرك» وللحملة التي سيقودها، فقال بصوت عالٍ مسموع:

- لقد أمرت بصرف راتبك ورواتب ضباطك وبحارتك لمدة عام مقدمًا، وأمرت بألّا تعانوا في رحلتكم هذه من أي نقص في الطعام، وسيكون نصيب الفرد من الطعام في البحر كنصيبه على الأرض، إن أمامكم مهمة صعبة، وهي نشر المسيحية على أرض الإله، والتحالف مع القديس «جون» لهدم كل دين آخر.

بعد أن أنهى الملك خطابه، سقط «البوكيرك» على الأرض أمامه، مادًّا ذراعيه اللتين أمسكتا بقدمي الملك مرَّة أخرى، وأقسم بأنه لن يعود حتى يحقق النصر باسمه في الشرق، وإن ثمن فشله سيكون رقبته التي سيقدمها راضيًا لسيف الملك.

تقزز بعض النبلاء من تصرفات «البوكيرك» أمام الملك، فلم يعهدوا أحدًا قام بذلك قبله، وتمنوا ألّا تكون سابقة لإظهار الولاء، فقد شاهدوا سرور الملك بهذا التذلل المصطنع، وهي عادة لم يألفوها في الملوك قبله.

صدحت الأبواق من على السفن معلنة بدء المهمة العسكرية، فوقف «البوكيرك» على قدميه وأشار إلى بحارة السفينة بإشارة خاصة فسقط شراع سفينة القيادة «سان جبرائيل» وظهرت عليه صورة كبيرة جدًّا لصليب أحمر اللون، هبت الرياح فجأة فضربت الشراع ودفعت السفينة إلى الأمام ولكن الحبال الغليظة منعتها من الحركة، فأحدثت فيها هزة عنيفة أدت إلى سقوط أحد البحارة من أعلى السارية على سطح السفينة، فكأن تلك إشارة ربانية بقبول المهمة مع أول ضحاياها.

Twitter: @ketab_n

شعر «البوكيرك» بأنه يجب أن يستثمر هذه الحادثة لصالحه، فليس هذا أوان التشاؤم، بل إن الموت يجب أن يكون دليلًا على قدسية الحملة التي يقودها، فصرخ بأعلى صوته:

- إنه الشراع المقدس أيها الملك، إنه الشراع المقدس أيها الملك، سيتجه شرقًا حين تأمرنا بذلك، سيموت الرجال من أجل الصليب ومن أجل الملك، لقد خلقنا اللّه من أجل هذه المهمة، وسيأخذ أرواحنا من أجل هذه المهمة أيضًا، كلنا فداء للملك والصليب وهذا - ثم أشار إلى جثة الرجل - هو أول الشهداء من أجل هذه المهمة النبيلة.

رسم الملك ومرافقوه إشارة الصليب على صدورهم بشكل متزامن، وكانت تلك إشارة أيضًا للجميع بالصياح والصراخ والبكاء، فركع الناس على رُكبهم وخلعوا قبعاتهم وبدأوا يتلون الصلوات للملك وبحارته، واستخدم القساوسة هذا الشعور الإيماني الجارف لجمع التبرعات من الناس، ومروا في وسطهم بمباخرهم لتطهيرهم. شعر الجميع بأنهم جنود الرب الذين بعثهم لتخليص العالم من الشر ومن.. الهراطقة.

وبعد أن هدأت الضجة ولم تبقَ سوى تلك الرائحة العفنة العنيدة في الجو، قام الملك من كرسيه ومشى إلى عربته يتبعه «البوكيرك» الذي ركع مرَّة أخرى بجانبها في بادرة ولاء كريهة ممجوجة وكأنه يستمتع بإذلال نفسه.

ومع مغادرة الملك جمع «البوكيرك» بحارته وبدأ في التفتيش النهائي عليهم.

تقدم ضابط ووقف بكل إستعداد أمام «البوكيرك» الذي بدا

Twitter: @ketab_n

مضحكًا بلباسه الغريب بعد أن بلله المطر ونزل شعره بشكل عشوائي على وجهه، وبدأت قطرات المطر تجد طريقها في لحيته حتى طرفها المدبب ومنها إلى الأرض.

لقد تربى «البوكيرك» في القصر الملكي مع والده، وقد اختاره الملك لهذه المهمة لميزات اكتشفها فيه وأعجبته؛ فـ«البوكيرك» غريب الأطوار، ومؤمن أشد الإيمان بوجود القديس «جون» الذي ينتظر قدوم البرتغاليين، وهو يجتمع مع الملك في هذه العقيدة الغريبة، ويحب اللون الأسود حتى يكاد يُعرف به، فكل لباس يلبسه أسود اللون ابتداء من قبعته وحتى بنطاله وكأنه أعلن الحداد حتى تتطهر الأرض من الهراطقة ولا يبقى على وجه الأرض سوى الكاثوليكية التي يؤمن بها، ويحب أن يضع خنجرًا دقيقًا في وسطه يكاد لا يفارقه، وله لحية طويلة يكاد طرفها يمس مقبض خنجره.

بدأ نائبه بقراءة تقريره المعد سابقًا:

- سيدي القبطان، لقد مونا السفن بمواد غذائية ومياه تكفينا لمدة ثلاث سنوات، ولدينا ما يلزم من الجنود والعتاد والذخيرة، ولدينا أدلة أفارقة ومترجمون يستطيعون الحديث بالعربية، ولدينا أيضًا مجموعة من المجرمين المحكوم عليهم الذين سنستخدمهم في الاستكشاف خلال إبحارنا، لقد وضعت السفن التي سبقتنا الكثير من الصلبان على طول السواحل التي مرت عليها، لن يشعر رجالنا بالغربة هناك، فالرب سيكون معهم في كل مكان، لقد تم اختيار رجالنا بعناية فائقة، فكلٌّ منهم قد مر بتجربة الرحلات البحرية، ويملك جسدًا قويًا، ويستطيع استخدام السلاح ببراعة، إنهم نخبة البحارة المقاتلين.

Twitter: @ketab_n

نظر الضابط إلى البحارة الذين ما زالوا في لباسهم الاستعراضي القذر، لقد كانت وجوههم توحي بالصلابة والعنف، فكل شخص منهم يحمل ندبًا في وجهه أو رأسه، ولكن أجسادهم كانت قوية كما يبدو، وهم من النوع الذي يستطيع أن يقتل وهو يبتسم، أعاد الضابط نظره إلى الورقة المبللة التي يحملها، وأكمل:

- إن سفينة القيادة بها عشرون مدفعًا، كافية لأن تشعل النار في كل قلعة وأن تخمد كل مقاومة، إننا ننتظر منكم إشارة التحرك يا سيدي.

التفت «البوكيرك» خلفه فشاهد مساعده «ميكيل فيريرا» ممسكًا بالملف الذي أرسله «كوفيلهام»، والذي سيكون دليله في هذه الرحلة، فاطمأن إلى أن الحملة قد جهزت ولم يبقَ سوى أن يعطي أمره بالتحرك. أشار إلى نائبه بذلك، فصرخ الضابط بأعلى صوته:

- إلى سفنكم، خذوا مواقعكم!

نزلت الأشرعة بشكل ثقيل بطيء، فقد كانت مبللة هي أيضًا، ولكن هبات الهواء التي ما زالت تهب استطاعت تحريكها ومَلْئها، فنثرت ما بها من ماء على البحارة في الأسفل، ثم اشتدت وتقوست وكأنها استسلمت لرياح الشمال.

تحركت السفن خارجة من ميناء لزبن تدفعها رياح ثقيلة رطبة ترافقها أسراب من طيور البحر التي ما زالت تنتظر طعامها، فدخل «البوكيرك» إلى قمرته لتغيير ملابسه، وبعد دقائق خرج

Twitter: @ketab_n

لابسًا ملابسه السوداء المحببة إليه محركًا يده في لحيته صعودًا ونزولًا كعادته، وسأل عن سكرتيره «ميكيل» الذي حضر راكضًا إليه وهو ما زال ممسكًا بالملف.

كان «ميكيل» قصيرًا وله فكان عريضان وأنف مشوه بضربة قديمة، سبق أن عمل مع «البوكيرك» في شمال إفريقيا وحارب معه في عدة معارك، تم أسره لعدة سنوات تعلم خلالها اللغة العربية، وبعد أن حصل تبادل للأسرى عاد إلى بلاده فقيرًا معدمًا ناقمًا على الملك وكل الأثرياء والنبلاء، وكم كان سروره عظيمًا عندما علم أن «البوكيرك» سيقود إحدى هذه الحملات، فطلب أن يكون معه، ومن جهته رحب «البوكيرك» بشخص مثله ليكون ضمن طاقمه، فشخص مثل «ميكيل» لا يتورع عن القيام بكل عمل قذر، و«البوكيرك» يحب هذا النوع من الرجال.

- هل تصفحت الملف يا «ميكيل»؟

- لا يا سيدي، إنني لا أفعل شيئًا بدون إذنك.

بقي وجه «البوكيرك» متجهمًا كعادته، ولم يتوقف عن تحريك قبضة يده على طول لحيته:

- إنك تفعل كل شيء بدون إذن أحد يا «ميكيل»، اذهب الآن واقرأ الملف لأني بحاجة إلى رأيك حين نصل إلى تلك البلاد.

بقي «ميكيل» عدة أيام يقرأ الملف بحرص، ويحاول تذكر كل سطر وكل جملة فيه، وكان يتمتم بعد أن أقفل الملف قبل شروق شمس اليوم الرابع:

Twitter: @ketab_n

- اللعنة! أتمنى أن يكون ما كتبه هذا اليهودي صحيحًا، فإن كان كذلك فسيختلط الدم بالبهارات قريبًا، ولكن كيف سيكون طعم ذلك على لسان «البوكيرك»؟

ثم أطلق ضحكة عالية، وكأنه تخيل «البوكيرك» يتذوق هذه الخلطة العجيبة.

Twitter: @ketab_n

١٧
بحر العرب

أبحر حسين بأسطوله من عدن في اتجاه الشرق، أخبره الدليل اليمني بأن الرحلة إلى الهند ستستمر حوالي الشهر، لم يكن هذا كثيرًا بالنسبة إليه ولبحارته، ولكنه تمنى ألَّا يواجه البرتغاليين خلالها، فليس له قاعدة يستطيع أن يتمون منها أو يصلح سفنه فيها بعد أن غادر عدن، إذ إن الموانئ التي في طريقه لا تعرف عنه شيئًا وقد لا تستقبله، خصوصًا عندما ترى أن سفنه ليست تجارية، فهو في بحر غريب عنه وموانئ لا تعرفه، وأي مشكلة سيواجهها قد تحدد مصير حملته.

لم يود حسين أن يشاطر ضباطه وبحارته مخاوفه، فأبقى ذلك في نفسه، وبعد عدة أيام وحينما كان يتمشى على سطح سفينته شاهد الدليل اليمني واقفًا ونظره في اتجاه الشمال، وقف بالقرب منه، شعر الدليل بوقوف الباشا بجانبه فقال:

- إلى الشمال من هنا، يقع الخليج أيها الباشا، وقد وصلتنا أخبار بأن العثمانيين بدأوا في الوصول إلى هناك، ويقال إن فرقة من البندقجية أرسلهم شريف مكة لتدريب جنود صهره ابن جبر في الأحساء، واعتقادي الشخصي أن هؤلاء وصلوا لابن جبر عن

Twitter: @ketab_n

طريق البصرة، فهذا أسهل من اجتياز صحراء الجزيرة العربية. إن البندقية سلاح غريب أيها الباشا، فهي أسرع وأفتك من القوس والسهم وتصل إلى مسافات أبعد، ولكني لا أفهم لماذا سميت بندقية!

ابتسم الباشا، فقد كان يعرف الإجابة عن سؤال الدليل لأنه سأل نفس السؤال بعد أن شاهدها أول مرَّة:

- إنها في الأصل سلاح قديم، أول من استخدمه الفرس ثم استخدمه العباسيون بعد ذلك في جيوشهم، وقد كان عبارة عن عصا وبها قوس عرضي في المقدمة، يضع المقاتل خلف القوس كرة معدنية بحجم البندقة، وبعد أن يضغط بإصبعه على الزناد تخرج هذه البندقة بسرعة وقوة شديدتين إلى الخصم لتقتله أو تعجزه، إنه سلاح يرعب الأعداء بالتأكيد، وبعد أن جاء السلاح الآخر الذي يستخدم البارود والذي يوضع في كرة معدنية أصغر أسموه بندقية أيضًا، على أساس أنه ابن للسلاح الأول فسُمي باسمه.

رد الدليل بحسرة:

- لدينا في اليمن بعض البنادق التي أحضرها التجار ولكنها قليلة جدًّا وثمينة جدًّا، ولدينا مدافع اشتراها السلطان من الهند مع عدد من القذائف ولكنها بدأت تصدأ، لا نعرف كيف نحافظ عليها، نصحنا أحدهم بدهنها بزيت السمك من حين إلى آخر، وقد شاهدت بعض جند السلطان يفعلون ذلك ونحن نغادر الميناء، قد تكون هذه المدافع هي آخر سلاح لنا للدفاع عن عدن إن ظهر البرتغاليون فجأة.

Twitter: @ketab_n

أكمل الدليل بعد أن رفع بصره إلى السماء وكأنه يتكهن بحال الطقس:

- لو كنت قائدًا برتغاليًّا لحاولت احتلال ثلاثة موانئ؛ فهي التي تسيطر على مدخل الخليج وعلى البحر الأحمر.

- وما هي أيها الدليل؟

- هرمز، وقلهات، وعدن. وأصدقك القول أيها الباشا، إن يدي على قلبي في كل مرَّة أسمع فيها أن البرتغاليين قد ظهروا في مكان ما، لأنهم بالتأكيد سيعرفون ما نعرف، وسيأتون إلينا بكل بنادقهم ومدافعهم.

نظر حسين إلى الشمال، فلم يشاهد سوى التقاء البحر بالسماء، زرقة تكاد تتشابه في كل شيء.

أبقى الدليل نظره مركزًا على الأفق وكأنه يرى شيئًا لا يستطيع حسين أن يراه.

- أخبرني المزيد عن هذه البحيرة التي تتحدث عنها، فلم أسمع بها من قبل.

واصل الدليل حديثه:

- عندما تكون الرياح مواتية فإن السفينة الشراعية تقطع الخليج من جنوبه إلى شماله في أربعة أيام أو أقل قليلًا، وتقطعه من شرقه إلى غربه في يومين، إنه بحيرة صغيرة أيها الباشا.

أعاد حسين نظره إلى الأفق وكأنه بدأ يرى شيئًا، ثم سأل:

- وما أهم الموانئ في هذا الخليج الذي تتحدث عنه؟

- إنها كثيرة وتختلف عن بعضها حجمًا، أهمها هرمز التي تقع على مدخله الشرقي، وسيراف، ثم البصرة في أقصى

Twitter: @ketab_n

الشمال، ثم البحرين وميناء العقير على ساحله الغربي، ثم عمان وصحار ومسقط وقلهات على مدخله الغربي.

كان حسين قد أمسك أحد الحبال وهو ما زال ينظر في اتجاه الشمال وبقي متعلقًا به مخففًا الضغط عن قدمه التي شعر بتعب فيها.

- ومَن هم الملوك المسيطرون على هذه الموانئ؟

- أقوى الممالك مملكة هرمز، وهي جزيرة صغيرة تبعد عن الساحل الفارسي بضعة آلاف من الأذرع، وتبعد عنا مسيرة يومين من هنا، حكمها ملك قوي ولكنه مات مؤخرًا وما زال أبناؤه يتقاتلون على خلافته، لقد استطاعت هذه المملكة أن تحتل أغلب الموانئ التي تقع على الساحل الغربي والتي ما زال سلاطينها وأمراؤها يدفعون الضريبة لهرمز.

بصق الدليل في البحر قبل أن يكمل:

- إنها مملكة ثرية، وحسنة التنظيم، ولديهم مراكب عدة وبأحجام مختلفة تستخدم المجاديف، ولذا فهم لا ينتظرون الرياح لتحركهم، ويستطيعون إنزال العديد من جنودهم في أي ميناء يريدون وبسرعة، يقال إن عدد جنودهم يبلغ حوالي خمسة آلاف عسكري مسلحين تسليحًا جيدًا ويستطيعون أن يستخدموا مرتزقة من كل الأقاليم المجاورة، فهم يملكون المال لكل شيء حتى للحرب.

طرق الدليل على خشب السفينة لاشعوريًّا:

- إن الأمراء الذين يحكمون سواحل عمان أغلبهم من العائلة الملكية في هرمز أو من الذين تصاهروا معها، ولكنهم مع الزمن

Twitter: @ketab_n

بدأوا يعملون لصالحهم فقط، وإن ظلوا يدفعون الضريبة السنوية لملك هرمز بشكل منتظم.

سحب حسين ذؤابة عمامته من خلف رقبته ومسح بها وجهه من العرق قبل أن يسأل مرَّة أخرى:

- كنت ذكرت لي ابن جبر، فمَن هو؟

- إنه أقوى سلطان في غرب الخليج، وهو يعيش في هجر أو كما يسميها الناس الآن الأحساء، وينتقل إلى البحرين أحيانًا، ويملك مساحة شاسعة من الأرض تبدأ من صحراء البصرة وحتى ظفار، ومملكته تمتد إلى كل نجد، وهو متزوج من ابنة شريف الحجاز، وقد سمعنا أن جيشه به حوالي ثلاثين ألف مقاتل ما بين فرسان وهجانة ومشاة، ولكنه يفتقر إلى الأسطول البحري القوي، إنه سلطان ثري كما سمعت، وبعض جنوده يعيشون في الواحات في الداخل العماني، وسمعنا أنه يرسل جنوده لمن يحتاج من أمراء الساحل من حين إلى آخر.

توقف الدليل وكأنه يفكر في أمر ما ثم أكمل:

- يقال إن ابن جبر يطمح للحصول على ميناء في الساحل العماني، ولكنه لا يريد أن يتصادم مع ملك هرمز.

أراد حسين الحصول على معلومات إضافية من شاهد عيان، فسأل الدليل:

- وهل زرت أيًّا من هذه الموانئ التي ذكرتها؟

- نعم يا سيدي، لقد زرت هرمز وعمان والبحرين وبالطبع صحار.

توقف الدليل قليلًا قبل أن يكمل:

Twitter: @ketab_n

- إن السفن القادمة من الهند والصين يجب أن تتوقف في هرمز قبل أن تواصل سيرها إلى أي جهة أخرى، أما تلك القادمة من زنجبار وممباسا أو حتى من سفالا وغيرها من الموانئ البعيدة فيتوجب عليها أن تتمون في صحار، إن هذين الميناءين مألوفان لكل البحارة والمسافرين في هذه المنطقة، وأغلب السفن الداخلة إلى الخليج تريد الوصول إلى البصرة في نهاية الأمر، لأنها تستطيع أن تبيع حمولتها بأرباح معقولة هناك، ومن هذه المدينة، تنقل البضائع عن طريق النهر إلى بغداد ومنها إلى حلب حيث يحقق التجار أرباحًا أكبر هناك، ولكن هذا الطريق البحري قد توقف الآن بعد أن سيطر الصفويون على بغداد مؤخرًا.

صلب حسين جسده فجأة وكأنه أحس بألم في ظهره وأشار في اتجاه الشرق:

- إننا سنصل إلى الهند في خلال عشرين يومًا كما ذكرت، فهل تعرف في أي ميناء يجب أن نرسو؟

نظر الدليل بدوره إلى الشرق أيضًا قبل أن يقول:

- إن الهند كبيرة وساحلها يكاد يكون بلا نهاية، وبعض أمراء المناطق يكنون عداء للمسلمين، سنرسو في كاليكوت التي يحكمها ملك هندوسي يُدعى «الساموثيري»، وهو ملك يحب أن تكون مملكته مفتوحة للتجارة، وفي كاليكوت ستشاهد الكثير من العرب الذين يقيمون هناك بشكل دائم، وسترى تجارًا من الفرنجة والصين، إنها مملكة رائعة، كم أحب تلك البلاد، فكل شيء بها جميل ابتداء من مينائها وحتى جبالها وزروعها وأسواقها وبهاراتها.

شعر الدليل بقطرات العرق تنزل من جبهته، فمد إبهامه

Twitter: @ketab_n

وسحبها على طول جبهته ثم نفضها على أرضية السفينة فشكَّل العرق خطًّا منقطًا ثم أكمل حديثه:

- إن كل المدن التي تعيش على الساحل الممتد من الهند وحتى سفالا في شرق إفريقيا تعيش على تجارة البهارات كما تعرف، إنها مصدر رزق الكثير من البشر، وهي التجارة التي تحرك السفن في عرض البحر، وأظنكم تعتمدون على هذه التجارة في مصر أيضًا، أليس كذلك يا باشا؟

هز حسين رأسه، وتذكر ميناء الإسكندرية الذي كان يعج بالتجار والسفن وأحمال البهارات الجاهزة للتصدير إلى موانئ جنوا، ولكنه لم يرد أن يتحدث مع الدليل عن المشاكل التي تعاني منها السلطنة المصرية والصراعات بين أمراء المماليك.

- نعم أيها الدليل، إنها أكبر وأهم بضاعة تصل إلينا من الهند، وهي أيضًا أهم بضاعة نعيد تصديرها.

كانت الرياح مواتية طوال الأيام المتبقية، ومع أن الجو كان حارًّا رطبًا إلا أن الرياح لم تهدأ، فقد كانت كريمة وملأت الأشرعة وساقت السفن إلى وجهتها.

خلال تلك الفترة كان حسين يشرف بنفسه على تدريب جنوده ليكونوا مستعدين لكل احتمال قادم، فكان يأمرهم فجأة بالاستيقاظ لأن هناك سفنًا برتغالية قادمة ليكتشفوا أن هذا كان تدريبًا لمعرفة مدى استعدادهم.

كم كانوا يكرهون هذه المفاجآت والتدريب القاسي، ولكنهم أيضًا كانوا يعرفون أن هذا الثمن الذي يجب أن يدفعوه ليحققوا نصرًا على عدو شرس يجوب البحر معهم.

Twitter: @ketab_n

ومع مرور الأيام بانت من بعيد جبال خضراء جميلة، وسكن البحر بشكل غريب، وكثرت السفن، وازدادت رطوبة الجو بشكل خانق، حتى إذا اقتربت السفن من الميناء وصل زورق صغير به بضعة رجال إلى سفينة القيادة وتحدثوا مع الدليل قليلًا ثم غادروا.

سأل حسين الدليل عن هويتهم:

- إنهم من حرس الملك، وعادة ما يسألون عن هوية السفن القادمة، خصوصًا تلك التي لا يبدو عليها أنها تجارية، لقد أخبرتهم أنك رسول من قبل سلطان مصر لمقابلة الملك، وأنك باشا البحرية وحاكم جدة، وقد طلبوا منا أن نرمي المرساة وننتظر وسيعودون إلينا قريبًا.

لم يقابل حسين ملكًا هنديًّا من قبل، فقد كانت الهند في نظره مملكة غامضة تحيط بها الأساطير وتختلط فيها الحقيقة بالخيال، ولم يكن يعرف كيف سيتصرف في حضرته، ولكنه يملك كتابًا من السلطان الغوري بالإضافة إلى بعض الهدايا الجميلة، سيقدمها له، وسيطلب منه الدعم لمحاربة البرتغاليين. ثم تمتم بصوت شبه مسموع:

- أتمنى أن تسير الأمور كما يرام.

وبعد عدة ساعات وصل زورق مزين بالأعلام المذهبة والملونة وعلى متنه شخصية مهمة من القصر، توقف بالقرب من سفينة القيادة المصرية وصرخ أحد البحارة بأعلى صوته بلغة عربية واضحة:

- أين رسول سلطان مصر المعظم؟

استغرب حسين، فأطل من على متن سفينته وشاهد الزورق

Twitter: @ketab_n

ولفت انتباهه الرجل الجالس في وسطه والذي كان يلبس ملابس مذهبة وعمامة غريبة الشكل لم يرَ مثلها من قبل؛ فقد كانت مسطحة من الأمام ومكورة من الخلف.

فأجاب حسين:

- إنه أنا أيها السائل.

فرد السائل بنفس النبرة:

- إن «الساموثيري» في انتظار حضرتكم، ومعي على الزورق مولانا قاسم الحق المستشار الأكبر للـ«ساموثيري»، ونطلب تشريفكم معنا حتى نوصلك بأمان إلى القصر.

تدلى سلم من الحبال من على السفينة، فاستلمه بحارة الزورق وشدوه إليهم، نزل حسين متعلقًا بالحبال حتى وصل إلى الزورق، فانحنى له المستشار قاسم الحق وأجلسه على وسادة حريرية كانت بقربه، وكعادة حسين كان في أبهى زينته المملوكية يرافقه ثلاثة من ضباطه.

بدأ الزورق في الابتعاد عن السفينة، فالتفت حسين إلى المستشار قاسم الحق وسأله:

- هل تتحدث العربية؟

- نعم يا سيدي، لقد تعلمتها صغيرًا وعشت في مكة بضع سنوات أيضًا، لقد ذهبت للحج ثم قررت البقاء لتعلم الدين واللغة العربية، لقد كانت أيامًا جميلة.

لاحظ حسين أن نبرة المستشار قاسم الحق لم تكن هي النبرة التي سمعها عندما كان على متن سفينته:

- ومَن كان الذي يحدثنا من قبل؟

Twitter: @ketab_n

التفت المستشار قاسم إلى أحد الرجال الجالسين في الخلف، ثم أعاد بصره إلى حسين:

- إنه سي الطيب هناك، وهو قد جاء من تونس منذ عدة سنوات حتى يتاجر، ولكنه أحب البلاد وبقي فيها، فهو يعمل مساعدًا ومترجمًا في القصر، إنه يتقن عدة لغات بالإضافة إلى العربية، فهو يتحدث القشتالية والفارسية أيضًا.

ابتسم حسين لسي الطيب الذي كان في زي هندي مشابه لما يلبسه المستشار قاسم الحق وإن كان لون بشرته أكثر بياضًا من البقية:

- هل قدمت كل هذه المسافة من تونس لتعمل هنا؟

- نعم أيها الباشا، لقد بقيت في مصر عدة أشهر أستعلم عن تجارة البهارات قبل أن أقرر مزاولتها، كان هدفي أن أشتري البهارات من الإسكندرية وأعيد بيعها، ولكن البنادقة الخبثاء وقعوا اتفاقية مع سلطان مصر تسمح لهم دون غيرهم بشراء البهارات من الموانئ المصرية وبيعها في أوروبا، ولم يكن لي بُد من القدوم إلى هنا لشرائها من مصدرها.

أبعد سي الطيب بصره عن حسين ثم أصلح وضع عمامته قبل أن يواصل:

- إن والدي أندلسي من قرطبة، ووالدتي إسبانية، وتم إبعاد عائلتي إلى تونس وهناك وُلدت، ولكن والديَّ بقيا يتحدثان العربية والقشتالية في المنزل حتى أتقنت اللغتين، وعندما قدمت إلى هذه البلاد شابًّا قررت أن أقيم فيها، وتزوجت ابنة مولانا قاسم الحق وعشت هنا.

Twitter: @ketab_n

التفت حسين إلى المستشار قاسم فوجده يبتسم ابتسامة صغيرة لم يفهم معناها.

وصل الزورق إلى الميناء وكان في استقباله مجموعة كبيرة من الحرس والمستقبلين، وحال أن وطئت أقدامهم اليابسة تقدم شابان ووضعا عقدًا عريضًا من الورود على رقبة حسين وبقية الوفد، ثم قدموا لهم أوعية مذهبة بها ماء معطر فشربوا منها، وجاءت سيدة ورسمت على جباههم خطًّا طوليًّا باللون الأحمر تعبيرًا عن الاحتفاء والاحترام.

ثم شقت مجموعتان من الخدم طريقهما بين الزحام تحملان محفتين وعلى كل منهما كرسي صغير فوقه غطاء يقي من الشمس وحوله ستائر حريرية.

جلس حسين على أحدهما وجلس المستشار قاسم الحق على الآخر، ثم تحرك الموكب بهدوء في اتجاه القصر.

Twitter: @ketab_n

١٨
مملكة هرمز

عندما شاهدت حليمة الخوف باديًا على وجه أبيها قالت بصوت حازم:

- سأذهب معك إلى القصر.

هز الخواجة رأسه قبل أن يبلع ريقه معارضًا قرارها:

- لا، لن تذهبي معي، إننا لا نعرف مَن هؤلاء، وما الذي يحصل في القصر الآن!

ثم قطب حاجبيه ونظر إلى أرضية الغرفة وبدأ في الحديث بصوت عالٍ كأنه يتحدث لاشعوريًّا:

- ماذا لو عرف أويس عن تعاوني مع شيرغل؟ وهل هؤلاء العرب هم من جنود ابن جبر أم أنهم مرتزقة أيضًا؟ إن هرمز أصبحت مليئة بالمرتزقة الذين يحضرهم هؤلاء الأمراء المتخاصمون، وفوضى الليلة الماضية جعلتنا لا نعرف ما الذي حصل، كل ما شاهده الناس كان كثرة الجنود العرب على الجزيرة وكثرة القتلى أمام باب القصر المحترق، لم يقل لي أي من الخدم الذين أرسلتهم للاستطلاع أي معلومات غير هذه.

قاطعته حليمة بصوت حاد:

Twitter: @ketab_n

- سأذهب معك يا أبي، لن تمنعني من ذلك، أريد أن أكون معك مهما يحصل.

ثم رفعت قطعة القماش التي تضعها على كتفها وغطت بها رأسها ولفت طرفها على الجزء السفلي من وجهها كما تفعل دائمًا عندما تريد الخروج لتُظهر عدم تراجعها عن قرارها.

نظر إليها والدها بعطف، وشاهد عينيها المغرورقتين بالدموع تترجمان إصرارها، فلم يتمالك أن خفض رأسه وكأنه استسلم لقرارها، ثم سار ببطء إلى خارج المنزل، وسارت حليمة وراءه مشيرة إلى وصيفتها فرح بالبقاء في المنزل، فلم تكن فرح لتترك سيدتها لتغادر بدونها، ولكن نظرات حليمة هذه المرَّة غير قابلة للنقاش.

وأمام البوابة الرئيسية للمنزل شاهدت مجموعة من الجنود المسلحين ترافقهم ثلة من الجنود العرب، تأملت في وجوههم الصلبة، لم يكونوا ممن سيجيبون على أسئلتها فآثرت الصمت، أحضر لهم الخدم العربة، فركبتها مع أبيها وسارت بهما بهدوء في اتجاه قصر الملك.

نظرت إلى والدها بطرف عينيها لتشاهد بضع قطرات من الدمع حاول أن يخفيها عن أعين مرافقيه وكأنه يُساق إلى حتفه، تساءلت إن كان هذا سيكون آخر عهدها بوالدها، لقد رأته حزينًا منكسرًا ولكنها لم تره باكيًا من قبل، إن دموع الرجل تكون غالية بقيمة ما سيخسره.

ثم حانت منها التفاتة مرَّة أخرى إلى الجنود المرافقين، فإذا هم ثلاثة من الجنود الهرامزة لا تعرفهم، ولكنها عرفت أنهم من

Twitter: @ketab_n

الحرس الملكي من أزيائهم المميزة، أما البقية فقد كانوا ملثمين ومسلحين بسيوف وخناجر ورماح، وكانت بعض رؤوس الرماح بها بقية من دماء متجلطة، فعلمت أن هؤلاء قد خرجوا لتوهم من معركة شرسة ولم يتسن لهم الوقت لتنظيف أسلحتهم.

وصل الموكب إلى القصر، فشاهدت الجثث أمام المدخل الرئيسي، وآثار الحريق في الباب الخارجي، فأنزلت الستارة على نافذة العربة حتى لا ترى المزيدَ من الجثث، ثم لم تقاوم فضولها ففتحتها مرَّة أخرى، وحال اجتيازهم للحدائق ووصولهم إلى مدخل القصر ترجلوا، وقادهم أحد الحرس إلى الديوان الملكي حيث يجلس ابن رحال، لم تكن حليمة قد زارت قصر الملك من قبل، لم يكن المجلس كبيرًا كما كانت تتوقع؛ فُرش بسجادة أعجمية جميلة وكبيرة الحجم، وصُفت على أسفل جدرانه وسائد لجلوس الضيوف، وفي صدره عرش الملك وهو الكرسي الوحيد فيه، فلم يكن متوقعًا من الضيوف أن يجلسوا على كراسي في حضرة الملك.

كانت نوافذ المجلس مفتوحة على مصراعيها، والشمس لم ترتفع إلى كبد السماء بعد، فسلطت أشعتها مباشرة من خلال النوافذ إلى وسطه لتنيره بشكل قوي، وظهرت ذرات الغبار وهي تتراقص فيه وكأنها سعيدة بعودة المجلس إلى سابق عهده. كان ابن رحال جالسًا بعيدًا عن الشمس محاولًا تفادي أشعتها، وعندما دخلت حليمة بدا لها المكان خاليًا من الناس، فوقع بصرها على شيرغل الجالس على عرشه في صدر المجلس، ثم شاهدت ابن رحال جالسًا على الأرض في زاوية بعيدة عن الشمس وبالقرب منه أحد جنوده.

Twitter: @ketab_n

قام ابن رحال من مكانه وصافح الخواجة عطار بقوة، ثم نظر إلى حليمة التي ما زالت تضع نقابها، فانبهر بسحر عينيها ورقة أطرافها وجمال جسدها. بقيت حليمة تنظر إلى الملك محاولة السلام عليه قبل أن تفعل ذلك مع أي شخص آخر، فشاهدت والدها يتقدم إليه ثم يجلس على الأرض مادًّا إبهامه على السجادة التي عليها العرش ثم قبَّلها، قام شيرغل من مكانه واحتضن الخواجة بكل قوة، شعرت حليمة بأن الروح قد عادت لوجه والدها بعد أن جمده الخوف، وعرفت أن خطة والدها قد نجحت.

أمر ابن رحال بإخراج الجنود، ولم يبقَ معه في المجلس سوى الخواجة وابنته وشيرغل. قررت حليمة أن تزيل نقابها بعد أن شاهدت ترحيب ابن رحال بوالدها واطمئنانها إلى أن الجميع أصدقاء له، وما إن فعلت ذلك حتى سقط فك ابن رحال، وجحظت عيناه، وتسمر لبضع ثوانٍ قبل أن يعود إلى رشده ويسيطر على مشاعره؛ فقد كان جمال حليمة أخَّاذًا، لم يرَ ابن رحال له مثيلًا، فشعر بانتعاش روحه وخفقان قلبه بطريقة لم يعهدها من قبل.

جلس الجميع على الأرض ما عدا الملك الذي بقي على عرشه وكأنه لا يريد تركه للحظات، بدأ ابن رحال بالحديث عن الخطوة التالية، وما الذي قرره بخصوص الملك السابق، ظهرت الجدية على وجوه الحضور، إلا أن ابن رحال كان يختلس النظر من حين إلى آخر إلى حليمة، التي جلست خلف والدها متمترسة بكتفه اليسرى، متأملًا جمالها الباهر.

Twitter: @ketab_n

شعرت هي بدورها بنظرات ابن رحال التي تلاحقها، فوضعت نقابها على وجهها مرَّة أخرى والتصقت بكتف والدها أكثر. كانت تسترق النظر إليه عندما ترى أن نظره موجه إلى الآخرين، لم تُعجبها ضفائر شعره المنسدلة على كتفيه، ولا كحل عينيه؛ إذ لم تكن هذه من عادات الهرامزة في تصفيف شعورهم التي كانوا يعتنون بها ويدهنونها ويتركونها منسدلة، أما الكحل فقد كانت حليمة ترى أنه للنساء فقط ولم تعهده على الرجال قَطُّ. لم يكن هذا مهمًّا لديها الآن، لقد نجح والدها في إعادة شيرغل إلى العرش وستعود حياته كما كانت سابقًا.

ذكر ابن رحال قراره بخصوص الملك السابق، فوجدها شيرغل فرصة ليُبدي اعتراضه خصوصًا أن الخواجة قد يسانده في هذا الاعتراض:

- لست موافقًا على حكمك بترحيل أخي إلى الهند بدون أن تسمل عينيه، لقد خان ثقتي فيه، وعادتنا أن تُسمل عينا الخائن، وأنا أصر على ذلك يا ابن رحال.

لم يكن ابن رحال من النوع الذي يتراجع عن قراره، ولكن ليس هذا أوان الاختلاف كما كان يراه، فحاول أن يتحدث بلطف مع الملك الجديد:

- ولكنني اتخذت قراري وقلت له حُكمي، وسمل عينيه لن يُفيدك في شيء!

وجه شيرغل حديثه إلى الخواجة وكأنه يطلب منه أن يسانده في طلبه:

- أليست هذه هي عادتنا مع الخائنين أيها الوزير؟ اشرح

Twitter: @ketab_n

لابن رحال ذلك، على الملك أن يبطش بخصومه حتى تكون عذاباتهم درسًا لغيرهم.

أسند شيرغل ظهره إلى العرش وأكمل:

- إن سمل عينيه ثمن بخس لجُرمه، ولو كان الأمر إليَّ وحدي لجعلته عبرة، ولجعلت سمل عينيه أهون شيء يمر به.

شعرت حليمة أن والدها سيكون في موقف حرج فآثرت التدخل، قربت فمها من أذنه وأسرت له أمرًا.

صمت الجميع للحظات في انتظار معرفة ما الذي تريده هذه الفتاة من والدها، حتى إذا انتهت ابتسم الخواجة قائلًا:

- أنتِ قولي لهم ذلك، فأنا لا أستطيع أن أتذكره كله.

نظر الجميع إلى حليمة التي لم يكونوا يتوقعون أن تشارك في أمر مثل هذا، ولكن ابن رحال وجدها فرصة لتغيير مجرى الحديث بعد إصرار شيرغل على رأيه.

بدأت حليمة حديثها قائلة:

- العين لسان العقل وترجمانه، فهي أغلى ما في الوجه وأصدق ما ينطق، إن عيني شاه أويس ستبقيان ترجمانًا لعقله، وفقدهما لن يمنعه من التآمر إن شاء أن يفعل ذلك مرَّة أخرى، ولكن بقاءهما حيتين في وجهه ستمنعانه خجلًا وعارًا.

نطقت وكأنها تُغنِّي، ثم أكملت:

- إن حكم ابن رحال على قسوته يرفع من شأن الملك شيرغل، وسينظر الناس إلى الملك على أنه ذو قلب رحيم وصدر واسع، يسع الناس بأخطائهم وخياناتهم، فهو لم يحكم على أخيه

Twitter: @ketab_n

بالموت حيًّا، بل أحياه ميتًا، ففي مغادرته إلى الهند موت له ولشأنه، وحفظ لهرمز من شره.

صمتت بعدها وصمت الجميع وكأنها قالت شيئًا لم يسمعوه ولم يعهدوه من قبل.

ابتسم شيرغل وابتسم ابن رحال وانتفخ الخواجة زهوًا بابنته، ولم يناقش شيرغل قرار ابن رحال بعدها.

انبهر ابن رحال بما قالته حليمة، ففتاة صغيرة في عمرها تقول ما عجز عنه هو، منقذة أبيها من حرج واضح، ومطفئة نار الانتقام المتأججة في صدر الملك.

ثم اتفقوا أيضًا على أن تبقى قوة من جيش الجبور في هرمز لحين استقرار الأوضاع، وأن يعين الملك الجديد الخواجة عطار مستشارًا له، وقبل أن ينفض المجلس حاول ابن رحال أن يُذكر الجميع بالثمن الذي يجب أن يدفعه شيرغل نظير تدخل الجبور، فتحدث عن ذلك علانية قائلًا:

- لقد اتفقنا مع الملك على أن تتوقف هرمز عن مطالبتنا بالضريبة السنوية، وأن تتنازل عن كل أملاكها في جزيرة البحرين عدا المزرعة التي يملكها الملك نفسه.

بقي شيرغل يهز رأسه عندما كان ابن رحال يتحدث، إعلانًا منه بأن هذا الاتفاق صحيح بحضور الخواجة عطار الذي سيكون هو الحاكم الفعلي والمنفذ لهذا الاتفاق، ثم أخرج ابن رحال الوثيقة التي وقعها شيرغل في الأحساء عارضًا إياها على الخواجة حتى يؤكد موقفه، وطلب منه التوقيع عليها أيضًا بصفته مستشارًا للملك.

Twitter: @ketab_n

انفض المجلس بعد التوقيع على وثيقة التنازل، ولكن ابن رحال بقي أسير حليمة، فلم تكن صورتها ترغب في مغادرة مخيلته، فقد حفرت مكانها ونحتت صورتها وبقيت فيه، استولت على تفكيره ومشاعره، وكلما وضع رأسه للنوم ظهر له وجهها بعد أن أزاحت النقاب، لم يكن في حسابه أن يحدث له هذا، فهل هو الحب؟ لم يستطع النوم في ليلته تلك، فبالإضافة إلى ألم ذراعه كان هناك ألم قلبه وانشغال عقله، فكان يتقلب على فراشه تقلب المحموم، ثم ينتبه لنفسه وهو يتخيل حليمة وهي تتحدث وتبتسم وتقطب حاجبيها. وتساءل لماذا لم ينظر إليها أكثر مما فعل، لماذا لم يتأمل كل ذلك الجمال عندما كانت الفرصة سانحة له. وأصبحت نفسه تلومه على كل لحظة لم يكن يشاهدها فيها ويتأمل تعابير وجهها.

مرت الأيام على ابن رحال وهو مشغول بتنظيم المملكة ومساعدة الخواجة على تسيير الأمور فيها، فوجود ابن رحال على رأس قوة عسكرية أعطى لشيرغل ووزيره السلطة التي كانا يحتاجانها في إعادة الأمن إلى الجزيرة وتنظيم حياتها.

دوى صوت أذان الفجر في أذن ابن رحال، لم يكن قد نام ليلته تلك، لم يعرف السبب ولم يهتم لمعرفته، فعادة ما يهرب النوم من عينيه عندما يحتاجه، تذكر حليمة، لم يكن طيفها قد غادر مخيلته، يكاد يذكرها كلما أطبق جفنيه، خطرت على باله فكرة لم تكن في خاطره، ومع بزوغ الشمس استدعى أحد حرسه وطلب منه إعلام الخواجة عطار بأنه قادم لزيارته خلال ساعات لتناول الإفطار معه. ولم يدخر وقتًا، فقد دخل الحمَّام وشذب

Twitter: @ketab_n

لحيته وفك ضفائره تاركًا شعره مسرحًا على كتفيه؛ فقد لاحظ أن تضفير الشعر ليس من عادة الهرامزة، ثم لبس أجمل ما وجد من لباس وتعطَّر ثم غادر.

كان يأمل طوال الطريق أن تكون حليمة في استقباله، فهو لم يعد يطيق فراقها لساعات، إنها معه في كل مكان، حتى إن حياته أصبحت أجمل منذ أن نزعت نقابها، فكل الدم الذي شاهده، والموت الذي عاينه منذ أن وطئت قدماه هرمز غدا صغيرًا وصغيرًا جدًّا أمام لحاظ عيونها ونصل لحاظها، فهل هي بشر أم جان؟ وهل يستطيع أن يعيش بعيدًا عنها بعد أن غزت عيناها قلبه وسلبت بحسن منطقها عقله؟

وفي مجلس الخواجة عطار حيث حلَّ ضيفًا، دخلت حليمة عليهم لتُقدم منقوع البلح وأطباق الفواكه الجافة، لم تكن منقبة هذه المرَّة، نظر إليها ابن رحال ليملأ عينيه منها ويشبع ذاكرته بصورتها، فقد تكون هذه المرَّة الأخيرة التي يراها فيها.

فجأة وبدون مقدمات وبعد أن غادرت حليمة المجلس قال ابن رحال:

- أريد أن أبارك لكم عودة الملك شيرغل إلى العرش أيها الوزير، ولم يكن هذا ليتم لولا تخطيطكم البارع والمتقن في تهريبه من سجنه.

كان التوتر باديًا على ابن رحال، فلم يكن يعلم إن كانت حليمة متزوجة أو مخطوبة لأحد ما، ولم يكن متأكدًا إن كان الخواجة سيوافق على أن يزوجها منه، ولكنها كانت في نظره

Twitter: @ketab_n

مغامرة، فإما أن يحصل على حليمة الآن أو أن ينساها طوال حياته مع ما يترتب على ذلك من عذاب وتأنيب ضمير إن تردد.

لم يستمع ابن رحال لما قاله الخواجة الذي كان يتحدث شاكرًا لابن رحال شجاعته وحسن قيادته، وعندما صمت الخواجة لبرهة قدم ابن رحال طلبه وهو غير متأكد إن كانت هي الفرصة المناسبة أم لا:

- أيها الوزير إني أريد أن أتشرف بقُربكم وأخطب ابنتكم حليمة لتكون زوجة لي.

ثم ركز عينيه على شفتي الخواجة محاولًا استباق رده الذي سيعني له الكثير.

لم يكن الخواجة يتوقع أن يحدث هذا، لقد فرح بزيارة ابن رحال لمنزله، فهذا سيعطيه نوعًا من النفوذ في العهد الجديد هو بحاجة إليه بعد أن فقده خلال العهد السابق، فطلب أن يمهله بعض الوقت ليستشير حليمة.

وبعد مغادرة ابن رحال استدعى الخواجة ابنته حليمة وقال لها:

- لقد طلبك مني ابن رحال زوجة له، فما رأيك؟

فوجئت حليمة بالطلب، فلم تكن تتوقع أن يخطبها ابن رحال لنفسه، نعم كانت معجبة به ولكن إعجابها لم يكن يتعدى دوره في إعادة الأمور إلى مجاريها في الجزيرة، لم تكن حليمة تعرف كيف تجيب والدها، ولكنها بالتأكيد لم تفكر في ابن رحال كزوج لها.

- لم أفكر بذلك يا أبي، لم أفكر قَطُّ في تركك وفي ترك الجزيرة، لا، لست أريد الزواج منه، فأنا لا أعرفه.

Twitter: @ketab_n

وضع الخواجة يده على كتف حليمة محاولًا تهدئتها، فقد رأى في إجابتها تسرعًا لم يكن يريده:

- فكري في الأمر بروية يا حليمة، أعطي نفسك مهلة للتفكير، لا تتعجلي في اتخاذ قراراتك.

لم يكن الخواجة ليقول ذلك لو لم يكن يعرف أن هذا الزواج سيحقق مصلحته في إدارة هرمز، فهو يعلم أن الملك شيرغل ضعيف الشخصية وليس هناك سواه لإدارة المملكة، فقد ارتبط اسمه بهرمز منذ عهد الملك الوالد، ولكنه أيضًا بحاجة إلى قوة عسكرية تحمي أملاك المملكة المنتشرة على طول الساحل الغربي للخليج، ومصاهرته لزعيم كابن رحال ستُقوي من مكانته وتُكرس سلطته على هرمز وخارجها.

وقف الخواجة واضعًا يده على رأس ابنته كعادته معها وكرر قوله:

- فكري في الأمر يا بُنيتي.

ثم غادر مجلسه تاركًا حليمة وحدَها.

دخلت خادمتها فرح عليها، وجلست أمامها متأملة وجهها الشاحب:

- لقد سمعت ما قاله لك والدك، صِفيه لي يا حليمة، فأنا أكثر مَن يعرفك في هذه الدنيا، لعلّي أساعدك على اتخاذ قرارك.

زفرت حليمة بقوة، ونظرت إلى الفراغ وكأنها تفكر قبل أن تقول:

- لست أدري يا فرح، لقد خطر على بالي مغادرتي لوالدي، ثم تركي لهذه الجزيرة التي أحبها، وهجري لهذا المنزل الذي

Twitter: @ketab_n

عشت فيه كل حياتي، إنه أمر صعب أن يترك الإنسان كل ما يحب خلفه ويذهب إلى مكان آخر لا يعرف أحدًا فيه ولا ينتمي إليه!

كررت فرح سؤالها:

- ليس هذا ما عنيت يا حليمة، صِفي لي ابن رحال كما رأيتِه.

- لقد رأيته في صورتين، فأي صورة تريدين؟

- أريد الأخيرة، فهو لم يأتِ إلى هنا إلا بالصورة التي كان يحب أن تريه بها.

- إنه في منتصف الثلاثينيات من عمره، يميل لونه إلى السمرة قليلًا، وله شارب كثيف ولحية بدأ في تشذيبها مؤخرًا، لم يتكحل هذه المرَّة، فبدا أكثر قبولًا، وفك ضفائر شعره التي لم أحبها، لقد شعرت أنه أنظف وأجمل مما كان عليه في المرَّة الأولى.

- وكيف هو حديثه معك ومع والدك؟

- لم يغير أسلوب حديثه مع والدي سواء في المرَّة الأولى أو الثانية، فقد كان مؤدبًا وودودًا، ينظر إلى عينَي مَن يحدثه، ويرد بهدوء وكأنه يفكر فيما يقوله، ولم يكن يتعجل في الحديث.

- اسمعيني يا حليمة، إن قرار زواجك من ابن رحال أو عدمه يقع عليك وحدَك، وليس لي أو لوالدك إلا النصيحة، اسمعيني جيدًا.

لقد جاء ابن رحال برجال مسلحين إلى الجزيرة وأعاد الحكم للملك شيرغل، وهو الآمر الناهي في الجزيرة طوال بقائه فيها،

Twitter: @ketab_n

ومع ذلك لم نسمع أنه أساء الأدب مع الملك أو مع والدك، بل إنه جاء إلى منزلكم بكل أدب طالبًا يدك، وكان بإمكانه أن يهدد ويزبد ويرغي ويطالب بحق يدعيه في كل شيء، ولكنه لم يفعل، فكري بكل ذلك يا حليمة.

لم تعرف فرح شخصًا أقرب إليها من حليمة، فهي في الثلاثين من عمرها، اشتراها الخواجة من نخَّاس هندي وهي لم تتعدَ السنوات العشر، ورباها في منزله كابنته، منذ طفولتها وهي تتمنى الزواج من تاجر وتنجب منه أطفالًا، وأن يكون لها منزلها الخاص، وذكرياتها عن مسقط رأسها وعائلتها كالحلم البعيد الذي يحاول أن يختفي من ذاكرتها ولكنها تستدعيه من حين إلى آخر حتى لا تفقده نهائيًّا، لها وجه متوسط الجمال وإن كانت أكثر سمنة من حليمة قليلًا.

بقيت حليمة تفكر في الأمر عدة أيام، يتقلب رأيها بين الرفض والقبول، رفض تقوده عاطفتها وحبها لوالدها وخوفها عليه من أن يبقى وحيدًا بعد مغادرتها، وقبول يقوده عقلها وتفكيرها ورأي والدها.

اتخذت حليمة قرارها، فقد علمت أنها إن بقيت تفكر فإنها ستبقى تفكر إلى ما لا نهاية، ولن يُنهي السباق بين عاطفتها وعقلها سوى قرارها.

دخلت على والدها في مكانه المعتاد بالقرب من الشرفة التي تطل على البحر، جلست بالقرب من قدميه ثم أخذتهما في حجرها وبدأت في تمسيدهما والابتسامة على وجهها، نظر إليها بعطف وحب كعادته معها دائمًا قبل أن يقول:

Twitter: @ketab_n

- جميل أن أراكِ مبتسمة يا حليمة، لقد تركتك وحدَك عدة أيام حتى لا أؤثر على قرارك، فما الذي يجعلك تبتسمين اليوم؟

أنزلت بصرها خجلًا.

ضحك الخواجة قبل أن يرد بخبث:

- ولكنني كنت أعتقد أنك تكرهين الجبور لأنهم بدو أجلاف كما كنت تقولين لي.

نظرت حليمة إلى قدم والدها وهي تمسدها وكأنها تحدثها محاولة تفادي نظراته:

- كنت مخطئة، أنا موافقة على الزواج إن كنت ترى ذلك.

- وما الذي تريدينني أن أقوله له الآن؟

- أتمنى أن توافق يا أبي، فلن نجد أفضل منه!

عرف الخواجة أن عقل حليمة هو الذي يتحدث وليس قلبها؛ فهي لم تعشق ابن رحال بعد، وقد شعر أن موافقتها كانت بدافع سياسي ومصلحي له ولمملكة هرمز، ولكن لا بأس، فقد خبر ابن رحال خلال الأيام الماضية وعرف أن حليمة ستعشقه بعد أن تتعرف عليه، فمثل ابن رحال لا يُرد له طلب.

مد يده إلى رأسها ومسح عليه قبل أن يقول بنبرة حزينة هادئة:

- معنى ذلك أنك ستتخلين عني وتتركينني وحيدًا هنا وتذهبين معه، وسيكون بيني وبينك البحر.

دمعت عينا حليمة وشاهدها أبوها وهي تسحب يدها من فوق قدمه لتمسح دمعة وجدت طريقها إلى أسفل خدها، ثم واصلت بصوت متهدج:

Twitter: @ketab_n

- كم أتمنى أن يعيش معنا ابن رحال في هرمز، ولكنني أعتقد أن ذلك مستحيل، ستكون المسافة بيننا قصيرة يا أبي، أليس كذلك؟ يومان على ما أعتقد، تستطيع أن تحضر إلينا أو أن نحضر إليك في المناسبات، وإن كنت تريدني أن أبقى معك فسأبقى معك بكل سرور.

مد الخواجة يده مرَّة أخرى إلى ذقنها ورفعه حتى يرى وجهها وعينيها المغرورقتين بالدموع:

- إن سعادتك هي سعادتي يا حليمة، على بركة اللّه، سأعلم ابن رحال بموافقتي على الزواج.

وقفت حليمة على قدميها واحتضنت والدها بقوة وكأنها تعلمه عن مدى سعادتها بقراره، ثم ركضت إلى خارج المجلس حيث كانت فرح تنتظرها، فاحتضنتها بقوة.

لم تترك فرح حضن سيدتها حتى أخذت منها وعدًا بأنها ستكون معها أينما تذهب.

- وهل أستطيع أن أفارقك ليوم واحد يا فرح؟ أنت مجنونة إن كنت تفكرين أنني أستطيع العيش بدونك.

أخذت فرح يد سيدتها وقبّلتها وبللتها بدموعها قبل أن تتركها بتردد.

أقيمت الاحتفالات في القصر الملكي، وحضرها أعيان هرمز وتُجارها، وأُنيرت الطرق، وذُبحت الذبائح، فكان حفل الزواج بديلًا عن حفل تنصيب الملك الجديد شيرغل الذي جلس بجانب ابن رحال لتلقي التهاني والتبريكات.

اصطف المهنئون في صف طويل أمام الباب الخارجي للقصر

Twitter: @ketab_n

وحتى الديوان، كان الناس في أبهى زينتهم، وتوزعت حلقات الرقص في الساحة الواقعة بين المدينة والميناء، واحتفل جنود ابن رحال بالرقصة النجدية التي كان الناس يلتفون حولها محاولين معرفة شكل الرجال الذين استطاعوا قلب نظام الحكم في مملكتهم، وبالقرب منهم حلقة للرقص الهرمزي، ومع حلول الليل هدأت الموسيقى وانتقل الناس إلى ساحل البحر في حلقات أصغر، مستمتعين بنسيمه، ومع حلول الظلام، هبطت بومة على جدار القصر ثم نعقت عدة مرات قبل أن تطير مرَّة أخرى، فيما كانت حليمة وابن رحال يعيشان أحلى لحظات عمرهما متناسيين أن الشمس لا تمل من الشروق على مصائب العالم.

Twitter: @ketab_n

١٩

موزمبيق، شرق إفريقيا

لم تكن رحلة «البوكيرك» سهلة قَطُّ، فقد جابه العواصف والتيارات العنيفة في أثناء دورانه حول رأس إفريقيا الجنوبي، وتمرد عليه بعض البحارة الذين هالهم بُعد المسافة عن بلادهم، فهم لم يعتادوا على أن تمخر سفنهم هذا البحر الغامض غير المطمئن، وقد سمعوا الكثير عن الوحوش التي تخرج من أعماقه وتخطف البحارة وتنزل بهم إلى أعماق سحيقة بلا رجعة، وعن تلك الحيوانات التي لديها أذرع عديدة تعصر ضحاياها بقوة حتى تجعلهم لقمة سائغة لها. إن غموض البحر وبُعد المسافة والجهل بالمستقبل جعل هؤلاء البحارة يتحينون أي فرصة للتمرد على قائدهم.

لم يُظهر «البوكيرك» أي بادرة للتراجع عن قراره في مواصلة السير، فقد أصبحت رقبته رهينة بنجاح هذه المهمة. قمَعهم بشدة، فأمر بقطع رقبة قائد التمرد، ثم كبل البقية بالحديد على ظهر السفينة تحت الشمس لعدة أيام، حتى أنهكهم الجوع والعطش، ومنع البحارة من مساعدة زملائهم، بل وأمرهم بالبصق عليهم كلما مروا بقربهم، ولم يسمح بفك وثاقهم إلا بعد أن مات

Twitter: @ketab_n

أحدهم وأصبح الباقون على شفير الموت، ولكنها كانت وسيلته الوحيدة لضمان عدم حدوث تمرد آخر.

بعد أن دار أسطول «البوكيرك» حول الرأس الجنوبي للقارة الإفريقية وبدأت سفنه تسير محاذية للساحل الشرقي لإفريقيا هدأ البحر، وبدأت الغابات بالظهور مرَّة أخرى، ثم ظهرت الجبال الخضراء خلفها، وتوقع البحارة وجود موانئ قريبة، ولكنها كانت سواحل طويلة مهجورة لا أثر للحياة عليها، بقيت عيونهم مُسمَّرة حيث تلتقي الخضرة بالماء، ولكن الساحل بقي خاليًا من البشر ومن كل حياة لعدة أيام.

وبعد مرور أسبوع ظهرت أمامهم مدينة صغيرة حالمة على جزيرة قريبة من الساحل الإفريقي، تقف أمامها عدة سفن خشبية مختلفة الأشكال، كان الشاطئ رمليًّا جميلًا هادئًا يوحي بالسكينة، يجلس عليه مجموعة من الصيادين الذين انشغلوا بتنظيف شباكهم وتجفيف صيدهم، وخلفهم تقع السوق المليئة بالفواكه والخضراوات، وخلف كل ذلك تقع المدينة التي بُنيت من الحجارة. بدت المدينة مرتبة وحسنة التصميم؛ فأمام كل منزل حديقة صغيرة مزروعة بالورود وبعض أشجار الفواكه، وجميعها تطل على شوارع متشابكة تؤدي إلى الشاطئ.

أمر «البوكيرك» بإنزال الأشرعة الكبيرة، للتخفيف من سرعة السفن، وما إن أصبحت السفن مقابل المدينة حتى أمر بإنزال المرساة، ثم طلب من مساعده «ميكيل» أن يبحث عن اسم هذه المدينة في الملف الذي أرسله «كوفيلهام».

بدأ القرويون بالتجمع على الساحل لرؤية هذه السفن

Twitter: @ketab_n

الضخمة، وفجأة وبدون مقدمات بدأ الجميع بالرقص والغناء والتلويح بأغصان الأشجار، لم يفهم «البوكيرك» وبحارته السبب، فأصدر أمره بالاستعداد للقتال وتجهيز المدافع، ثم سأل «ميكيل» إن كان قد وجد شيئًا عنها.

- لم أجد شيئًا يا سيدي، فليس هناك ذكر لهذه المدينة في هذا الملف اللعين!

- حسنًا، ضع علامة على مكانها في الخريطة وسنسأل عن اسمها لاحقًا.

ومن خلف الجموع برزت مظلة قماشية يحيط بها مجموعة من الرجال، شقوا طريقهم إلى ساحل البحر، ثم ركبوا زورقًا صغيرًا وجدفوا في اتجاه سفينة «البوكيرك»، راقب الجميع هذا الزورق وركابه حتى وصل إلى السفينة، فأنزل البحارة سلمًا من الحبال لهم، وفي خلال دقائق كان سلطان المدينة وحاشيته وجهًا لوجه مع البرتغاليين.

استدعى «البوكيرك» معاونه «ميكيل» الذي يتقن العربية للحديث مع السلطان الذي بدا ودودًا بابتسامته ومرحبًا بضيوفه:

- السلام عليكم ورحمة اللّه، أهلًا وسهلًا بكم في بلادنا، بلاد «موسى بن بيك»، أنا أحد أحفاده وسلطان هذه البلاد.

ثم مد السلطان يده بسبحة طويلة ملونة إلى «البوكيرك»:

- هذه سبحتي الخاصة هدية لك، عسى أن تساعدك على أن تسبح اللّه بعد كل صلاة.

أخذ «البوكيرك» السبحة وسأل السلطان عن اسم مدينته مرَّة أخرى:

Twitter: @ketab_n

- إنها «موسى بن بيك» أيها القائد، «موسى بن بيك».

كررها مرَّة أخرى حتى يستوعب «البوكيرك» الاسم.

قال «ميكيل» بحماس:

- لقد دونته يا سيدي، اسمها «موسى أم بيك».

ثم أشار السلطان إلى أحد أفراد حاشيته، فتقدم هذا ببعض الهدايا من الفواكه والخضراوات والخزف الصيني وبعض المجوهرات مع عدة سجاجيد صغيرة للصلاة وقطع من القماش وأنواع مختلفة من البهارات وسلمها إلى «البوكيرك».

فتح «البوكيرك» الأكياس التي تحتوي على البهارات وشمها ثم غمس إصبعه فيها وتذوقها قبل أن يسأل:

- من أين تأتون بهذه البهارات؟

رد السلطان بابتسامة أقرب ما تكون إلى الضحك:

- إنها من الهند بالطبع، هي مصدر البهارات الوحيد الذي نعرفه.

- وهل تبحرون من هنا إلى الهند مباشرة لتحضروا هذه البهارات؟

رد السلطان وهو يشير إلى السفن الواقفة مقابل مدينته:

- إن هذه السفن لا تستطيع أن تبحر مباشرة إلى هناك بالطبع، ولكنها تبحر من هنا إلى زنجبار، ومن هناك إلى مقديشو، ومنها إلى عدن، وعندما تكون في عدن فقد وصلت إلى الهند، لأن المسافة بينهما قريبة جدًّا.

شاهد السلطان فرح «البوكيرك» بالبهارات واعتقد أن هذا نابع من حبه لها:

Twitter: @ketab_n

- لدينا الكثير منها أيها القائد، أستطيع أن أمدك بما تشاء، تصلنا السفن من حين إلى آخر محملة بها، ونحن نبيعها إلى القبائل في الداخل الإفريقي، فهذه القبائل تعشق طعم البهارات ويتبادلونها معنا بالذهب والفراء والأعشاب والأحجار الكريمة التي يحصلون عليها، وأحيانًا يبيعوننا بعض العبيد الذين يقعون أسرى لديهم من القبائل الأخرى، سأهديكم بعضًا منهم إن شئتم أيضًا، إنكم إخواننا وسنساعدكم قدر استطاعتنا.

عرف «البوكيرك» أن هناك لبسًا قد حصل، وأن السلطان يعتقد أنهم مسلمون، خصوصًا أنهم أنزلوا الأشرعة الكبيرة التي بها صور الصليب قبل رسوهم أمام الساحل، فحاول أن يجاري السلطان، فهذا اللبس قد يكون في صالحهم لتموين سفنهم وإصلاح أعطابها بعد العواصف والتيارات التي عانوا منها في الجنوب، فطلب من «ميكيل» أن يترجم فقط بدون أن يشرح للسلطان أي شيء.

تقدم أحد ضباط «البوكيرك» ببعض الهدايا التي أحضروها معهم من البرتغال والتي لاقت إعجاب السلطان، ثم بأمر من «ميكيل» اصطف البحارة في صفين بأسلحتهم ودروعهم التي لمَّعوها وجهزوها لمثل هذه المناسبات، فمر عليهم السلطان مبهورًا بما يرى، خصوصًا البنادق التي لم يفهم كيف تعمل، فأمر «البوكيرك» أحد جنوده بحشوها وإطلاق الرصاص منها حتى يرى السلطان ذلك.

قلب البحار بندقيته الطويلة ووضع بها حشوة من البارود ودحرج بها رصاصة دائرية الشكل وأتبعها بحشوة قطنية، ثم

Twitter: @ketab_n

أخرج سيخًا معدنيًّا وضغط كل ذلك بقوة، وجه البندقية بعد ذلك في اتجاه البحر، وشاهد طيرًا يقف على أحد الزوارق القريبة فأطلق الرصاص، كان صوت البندقية عاليًا كاد أن يسقط السلطان أرضًا من قوته، ولكن ما أدهشه هو أن الطائر اختفى فجأة ولم يبقَ منه سوى ريشه الذي بقي يتراقص في المكان لبعض الوقت قبل أن يسقط.

عدل السلطان من عمامته الخضراء التي تتخللها خيوط ذهبية، ثم نفض ثوبه الأبيض وعدل من صدريته المطرزة قبل أن يضع يديه على أذنيه شاكيًا من طنينهما.

ظهرت ابتسامة على وجه «البوكيرك»، فقد عرف أن رسالته وصلت، ولكنه أحب أن يواصل التمثيلية إلى النهاية مع هذا السلطان المسكين.

- إننا نريد أن نمون سفننا بالماء والطعام لأننا في طريقنا إلى الهند، ونريد منكم أن ترسلوا معنا بحارة ليدلونا على الطريق إلى هناك، فهذه البحار غريبة علينا.

بدأ السلطان يعود إلى توازنه بعد صوت البندقية وإن بقي الطنين في أذنيه، فأدخل إصبعه في إحداهما وحركه بقوة قبل أن يقول:

- بالتأكيد ستحصلون على كل ما تريدون، ولكن عليكم أولا أن تنزلوا ضيوفًا عليَّ في قصري، وسنُصلي الجمعة غدًا في المسجد الكبير ثم تنطلقون إن شئتم إلى وجهتكم بحفظ اللّه، ولكن كيف أتيتم من هذا الاتجاه؟ كنت أعتقد أن جنود الخليفة سيأتون من الشرق مع مجرى النيل الذي يمر بالقاهرة!

Twitter: @ketab_n

بقي «البوكيرك» هو المتحدث الوحيد خلال هذا الحوار الغريب الذي لم يكن «ميكيل» يبتسم خلاله، بل أبقى وجهه كما هو وكأنه ممثل بارع.

- لقد أرسلنا الخليفة إلى الغرب لمحاربة الكفار، ونحن في طريقنا إلى الهند للتجارة وإحضار كمية من البهارات له، فهو يحب البهارات كما تعرف.

هز السلطان رأسه متعجبًا:

- لم أكن أعرف أن الخليفة يحب البهارات! فكنا أرسلنا له كل ما عندنا، فنحن نتاجر بها!

سأل «البوكيرك» فجأة:

- وكم تبعد الهند من هنا؟

التفت السلطان إلى مرافقيه مستغربًا السؤال، فكل البحارة يعرفون أن الزمن يختلف باختلاف المواسم وقوة الرياح وحجم الشراع ووزن المركب، ولكن من الواجب أن يرد على جنود الخليفة بأفضل طريقة:

- الزمن يعتمد على أمور كثيرة يعرفها البحارة يا سيدي!

وجد «البوكيرك» أنها فرصة للحصول على دليل يعرف هذه البحار:

- ولكننا نحتاج إلى دليل، هل بالإمكان أن ترسلوا معنا أحدًا؟

- بالطبع، نحن كلنا في خدمة خليفة المسلمين وجنوده، ستحصلون على ما تريدون بعد صلاة الجمعة وتناول الغداء، والآن دعونا نغادر وسنكون في انتظار تشريفكم لنا.

ثم رفع يده مُسلمًا عليهم:

Twitter: @ketab_n

- السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

لم يرد أحد عليه، فأغمض عينيه عدة مرات مندهشًا، ثم لوح بيده ونزل إلى الزورق مغادرًا إلى جزيرته، آمرًا جميع رعاياه بعدم إزعاج ضيوف الخليفة وإعطائهم ما يرغبون من تموين.

خيم المساء على جزيرة «موسى بن بيك» الحالمة، واشتعلت النيران على الساحل وجاوبتها نيران السفن، فقد بقي الأهالي طوال المساء والليل على الساحل يحتفلون بسفن خليفة المسلمين، ويمعنون النظر فيها، ولكن ما لم يعرفوا تفسيره هو تلك الكوات الكثيرة التي تبرز منها فوهات سوداء غريبة، ولماذا لم ينزل بحارتها إلى مدينتهم بعد!

سكن الأهالي بعد أن خيم الليل، ولم يكن يُسمع سوى أصوات حديث الناس وسرورهم بقوة خليفة المسلمين الذي لم ينسَ رعاياه حتى وهم في أقصى جنوب إفريقيا، ورأوا في وصول أسطول الخليفة بداية تواصل بين «موسى بن بيك» والقاهرة التي يسمعون عنها في الأساطير والأحاجي، وبدأت النساء في إلباس أبنائهن أفضل اللباس حتى يراهم القائد ويأخذهم معه لإكمال الدراسة في الأزهر ليعودوا علماء، وكم من أم كانت تحلم برؤية ابنها يلبس عمامة الأزهر تلك الليلة.

وغير بعيد عن المدينة، قرر ثلاثة صبية استغلال فرصة وجود سفن الخليفة للانضمام إلى بحارته، فهم يعيشون في جزيرة صغيرة بعيدة عن كل شيء، وليس هناك ما يطمحون إليه سوى أن يكونوا مزارعين أو بحارة، ولكن فكرة أنهم قد يكونون من جنود الخليفة أو بحارته أسرَتهم، وأحيت فيهم روح المغامرة.

Twitter: @ketab_n

تحرك زورقهم الصغير بهدوء في حلكة الليل من الساحل إلى سفن البرتغاليين، فهم لا يريدون أن يعرف السلطان أو أهلوهم بخطتهم، كانت حركة المجداف هادئة جدًّا حتى إن الزورق يكاد يتحرك بمفرده، وقبل وصولهم إلى أقرب سفينة توقف التجديف وتُرك الزورق ليتحرك بفعل اندفاعه، وما إن اقترب من السفينة حتى تعلق أحدهم بحبل كان يتدلى وتسلقه إلى أعلى، وبعد أن أطل برأسه شاهد البحارة راكعين على أرضية السفينة وأمامهم قسيس ممسكًا بصليب معدني كبير وهو يتلو عليهم صلاة المساء.

نزل الصبي بهدوء إلى الزورق حيث كان أصدقاؤه ينتظرونه، وبإشارة منه أمرهم بالعودة، فتحرك الزورق عائدًا إلى الشاطئ.

وفي صباح اليوم التالي كانت هوية السفن قد اتضحت للجميع، ووصل خبرها إلى السلطان الذي أمر رعيته بعدم التعاون معهم والانتظار لحين استجلاء الأمر، فلعلهم يغادرون بدون ضجة.

وفي صباح ذات اليوم أيضًا، شاهد بحارة «البوكيرك» الشاطئ خاليًا من كل شيء، حتى السوق بدت مهجورة وكأن أمرًا قد حدث. لم يفهم «البوكيرك» ما الذي قد حصل، فأمر بعض بحارته بالنزول إلى الجزيرة وأسر مَن يستطيعون من سكانها ليستجوبوهم ويعرفوا منهم السبب.

نزلت عدة زوارق من السفن واتجهت إلى جهة بعيدة من الميناء حتى لا تلفت الأنظار، توغل ركابها قليلًا في الغابة واتجهوا في اتجاه المدينة حتى يطوقوها ويفاجئوا أهلها، ومع انتصاف الشمس في السماءِ والناس هاجعون في منازلهم أو تحت

Twitter: @ketab_n

ظل الشجر هجم البرتغاليون عليهم وأسروا خمسة رجال وأربع نساء وأربعة أطفال من مختلف الأعمار واقتادوهم إلى السفن.

حاول السلطان التفاوض معهم، ولكنهم طلبوا أن تموَن السفن بالماء والطعام قبل أن يطلقوا سراح الأسرى، فأمر السلطان بتزويدهم بما طلبوا. وفي المساء أنزلت زوارق البرتغاليين النساء والأطفال وأكبر الرجال سنًّا على الجزيرة وأبقوا معهم أربعة رجال، وعندما طلب موفد السلطان إطلاق سراح جميع الأسرى كما هو الاتفاق، طلب «البوكيرك» أن يرسل له السلطان دليلًا ليدله على طريق الهند، فأخبره السلطان أن من الصعوبة القيام بذلك نظرًا لخوف البحارة من الذهاب معه، فأمهله «البوكيرك» حتى صباح اليوم التالي ليرد عليه، وطلب منه أن يستمع إلى صوت الموسيقى ليلًا.

لم يفهم السلطان ما الذي يقصده «البوكيرك» بذلك، ولكن مع هدأة المساء وبعد صلاة المساء التي حضرها «البوكيرك» اقتيد الأسرى مكبلين إلى ظهر السفينة، وأمر «البوكيرك» بتقييد أحدهم على فوهة مدفع موجه في اتجاه المدينة، أما الآخرون فقد رُبطوا بوضعية الصلب على سطح السفينة، ثم بدأ أحد البحارة بسكب زيت الخنزير المغلي على بطونهم وأعضائهم التناسلية، ومع صراخ الضحايا كان البحارة يشربون ويمرحون وهم يعزفون الموسيقى. استمرت حفلة التعذيب طوال الليل، وفي صباح اليوم التالي تجمَّع الناس على الساحل لمعرفة ما الذي كان يحصل، وبعد أن لاحظ «البوكيرك» كثرة المتفرجين أمر بإطلاق النار من المدفع الذي رُبط على فوهته أحد الأسرى، وبعد أن خف

Twitter: @ketab_n

الدخان شاهد الناس ذراعي الضحية وساقيه معلقة في بقايا الحبال ولم يعرفوا كيف اختفى الجسد.

وقبل بزوغ شمس اليوم التالي تحرك زورق صغير من الساحل في اتجاه سفينة «البوكيرك»، وعندما وصلها تسلق رجل إلى ظهرها، وعرف نفسه للـ«بوكيرك»:

- أنا «ماليما كاناكوا»، وقد طلب مني السلطان أن أدلكم على طريق الهند.

- لست أحفل باسمك أو بما يسميك الناس، عليك أن تدلنا على طريق الهند فقط.

حُمل الأسرى المعذبون إلى أسفل السفينة، وأمر «البوكيرك» السفن بإطلاق حممها على المدينة، وفي خلال دقائق تحولت المدينة الحالمة الوديعة إلى ركام من الحجارة والأشلاء والنيران. استمر إطلاق النار حتى تأكد بأن المدينة قد دُمرت تمامًا ثم أمر سفنه بالتوجه شرقًا.

ومن بعيد بدأ مَن بقي من الأحياء بالخروج من تحت الأنقاض ونفض الغبار، وتردد صوت العويل والبكاء في أرجاء المدينة المدمَّرة وبقي صوت الموج يردد صدى الموت.

Twitter: @ketab_n

٢٠
كاليكوت، ساحل الهند الشرقي

سار الموكب في اتجاه قصر «الساموثيري»، وشاهد حسين الاكتظاظ الذي عليه المدينة، واستطاع أن يميز اللغة العربية وسط خليط من اللغات التي يتحدث بها أهل السوق، فرفع ستارته قليلًا حتى يستطيع أن يخاطب المستشار قاسم الحق:

- هل يتحدث الناس هنا العربية بكثرة؟

- لدينا الكثير من التجار العرب في هذه المدينة، وبعضنا أتقنها على أساس أنها لغة التجارة، وستسمع مَن يتحدث بها طالما أنت في السوق، وقد تسمعها أيضًا في قصر «الساموثيري»؛ فالحرس الخاص له أغلبهم من حضرموت، ومن عدن بالتحديد حيث كنت قبل أن تصل إلى هنا، ونطلق عليهم الحضارمة، لدينا الكثير ممن يتحدث العربية في القصر، لا تخف لن تشعر بغربة.

انبهر حسين بتنوع الألوان وسطوعها في ملابس الناس وأزيائهم ومنازلهم، وفي ألوان البهارات المعروضة في السوق وأمام الحوانيت، فكأن كل شيء هنا ملون، حتى شعر الناس وذقونهم وعمائمهم. فجأة شاهد عن يمينه رجلًا يبصق خليطًا

Twitter: @ketab_n

أحمر من فمه على الأرض، وبعد بضع خطوات شاهد مجموعة من الرجال يفعلون الشيء ذاته، لم يفهم! هل هو مرض ألَمَّ بهؤلاء الناس؟!

وعندما بدأ حسين في رفع ستارته مرَّة أخرى، كان المستشار قاسم يبتسم أكثر من السابق:

- أعلم ما الذي ستسألني عنه الآن، فقد كنت أشاهد الذي تشاهده أيضًا، إنك تريد أن تعرف لماذا يبصق الناس كثيرًا هنا، أليس كذلك؟

- نعم، هو كذلك.

استند المستشار قاسم وكأنه يريد أن يُعيد قولًا سبق أن كرره من قبل:

- إن الناس هنا يحبون مضغ التنبول، وهو عبارة عن ورق شجرة التنبول تُوضع فيه بعض المواد المطيبة والملونة، ثم يمضغونها، وبعد أن تمتلئ أفواههم برغوة تلك المادة الحمراء يبصقونها. قد يكون هذا المنظر في بلادكم غير مقبول، ولكنه أمر طبيعي هنا، حتى العروس والعريس يفعلون ذلك في ليلة عرسهم.

تبع ذلك بابتسامة كعادته. لم يفهم حسين ذلك:

- ولكن لماذا يمضغونها إن كانوا سيبصقونها بعد ذلك؟ لماذا لا يبلعون ما في أفواههم كما يفعل الناس عندما يمضغون شيئًا؟

لم يكن المستشار قاسم قريبًا منه ليسمعه، فقد افترقت المحفتان بعضهما عن بعض بسبب الزحام.

Twitter: @ketab_n

أعاد حسين النظر إلى المستشار قاسم وكأنه شعر أن هناك الكثير من الأمور التي يجب أن يعرفها ويعتاد عليها. ثم هاله أن يشاهد بقرة تأكل من أحد الدكاكين بدون أن يمنعها أحد، وأخرى باركة على الأرض معطلة الطريق بدون أن يزعجها أحد أيضًا، لم يشأ أن يكرر استفساراته فأشار بإصبعه في اتجاه البقرتين عندما رأى أن محفة قاسم الحق قد اقتربت منه مرَّة أخرى وأنه يستطيع أن يراه.

بقي قاسم الحق محافظًا على ابتسامته:

- إنه بقر مُقدس؛ فالهندوس هنا يقدسون البقر، ولذلك لا يتم إزعاجه، حتى نحن، المسلمين، نحاول أن نُظهر احترامنا لهذا الحيوان ولا نسيء إليه.

واصل قاسم حديثه:

- يعتقد القادمون من خارج الهند أن الهنود يعبدون البقر، ولكنني لا أراهم يعبدونه، إنهم يقدسونه على أساس أنه مصدر الحياة بالنسبة إلى الفلاحين والفقراء، فهم يعاملونه كفرد من العائلة يجب احترامه، لقد حاولت أن أقرأ بعض كتب الهندوس، فوجدت أنها تنصح الناس بعدم أكل اللحوم حتى يحصل الإنسان على السعادة في الدنيا، ولكن مع الوقت أصبحت لديهم من المحرمات.

أعاد قاسم نظره إلى البقر المنتشر في السوق قبل أن يواصل:

- إن كل ما ينتجه البقر يُعتبر مقدسًا لدى الهندوس، ابتداء من الحليب وحتى الفضلات، على العموم هي خمسة أشياء، ولكن دعني أخبرك أن الصبغ الأحمر الذي يوضع على الجباه

Twitter: @ketab_n

مصنوع من فضلات البقرة، ثم أشار قاسم إلى جبهة حسين من بعيد وكأنه يذكره بما تم وضعه على جبهته حال وصوله.

مد حسين إصبعه بطريقة لاشعورية إلى الصبغ الذي وُضع على جبهته، ثم شم إصبعه عدة مرات ليتأكد من رائحته.

كان قاسم يراقب حركة حسين وهو غارق في الضحك. وبعد أن توقف قال:

- إننا لا نفعل ذلك مع ضيوف «الساموثيري»، لا تقلق.

ثم عاد لابتسامته المعهودة.

وصل الموكب إلى القصر الذي تحرس بوابته الخارجية مجموعة من الجنود الذين يحملون فؤوسًا صغيرة حادة، وبعضهم كان يحمل هراوات معدنية غريبة لم يشاهدها حسين من قبل.

اقترب الموكب من السلالم المؤدية إلى مدخل القصر، توقف المرافقون، وأُنزلت المحفتان على الأرض، ونزل من فوقهما المستشار قاسم وحسين، ثم سار الجميع في ممرات رخامية بيضاء تحيط بها أعمدة عالية منقوش عليها صور الآلهة الهندوسية بماء الذهب، كانت أشعة الشمس التي تدخل من النوافذ الكبيرة تنعكس على برك مائية صغيرة تعكس بدورها الضوء على السقف مما جعل القصر يشع بياضًا ونورًا.

وصل الوفد إلى باب كبير مذهب يقف أمامه مجموعة من الحرس المسلح بالسيوف والدروع، وعندما شاهدوا المستشار قاسم فتحوا البوابة على مصراعيها وهم يقولون:

- السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته يا مولانا.

Twitter: @ketab_n

رد المستشار السلام، ثم تحدث بالعربية مع أحدهم وقال موجهًا كلامه إلى حسين:

- هذا الضابط حضرمي، إنه قائد حرس «الساموثيري»، وهو يأكل التنبول أيضًا.

ضحك الضابط وفتح فمه المصبوغ باللون الأحمر ليريه للمستشار قبل أن يسمح لهم بالدخول.

شاهد الجميع «الساموثيري» جالسًا على سرير مذهب ومبطن بالحرير، متكئًا على جنبه الأيمن وقدماه مرفوعتان على السرير بجانبه، يلبس سوارًا مذهبًا على شكل ثعبان يلتف حول ساعده، وفي فم الثعبان المفتوح جوهرة كبيرة خضراء اللون، وكانت هناك أساور مشابهة على كاحليه وسوار آخر أجمل وأكبر على رأسه، أما لباسه فقد كان إزارًا حريريًّا أبيض يستر نصفه السفلي به خيوط من الذهب الواضح، وبقي صدره عاريًا إلا من عقد من اللؤلؤ الأبيض حول رقبته، وكان أيضًا يمضغ التنبول كعادة الهنود دائمًا، وخلفه يقف حارس ضخم يحمل سيفًا عريضًا ودرعًا مذهبًا وكأنه كان جاهزًا لأي أمر يصدره الملك.

أخذت حسين رهبة من هذا المنظر الغريب، وقرر أن يراقب المستشار قاسم حتى يرى ما يفعل ويقلده، خصوصًا أن قاسم مسلم ولن يقوم بما يُغضب اللّه.

تقدم المستشار من «الساموثيري» وانحنى أمامه بهدوء ثم جلس على ركبتيه، فقرر حسين أن يفعل الأمر ذاته. ابتسم «الساموثيري» لهم ابتسامة ودودة، ثم أدار وجهه جانبًا وبصق

Twitter: @ketab_n

خليطًا أحمر اللون في وعاء مزين بالزمرد والياقوت يحمله أحد الخدم.

- مرحبًا بأصدقائنا المصريين.

بدأ قاسم بترجمة رد الباشا:

- الشرف لنا أيها الملك، لقد أحسنت لقاءنا وضيافتنا، إن سلطان مصر يرغب في أن يمد يد الصداقة إليكم ويساعدكم على محاربة البرتغاليين الذين بدأوا يحتلون أراضيكم.

بصق «الساموثيري» في الوعاء قبل أن يرد:

- إنهم لم يحتلوا أراضينا حتى الآن على الأقل، لقد جاءت لهم عدة سفن واتفقوا مع بعض ملوك الهند على إنشاء محطات تجارية في موانئهم، لقد جاءوا كتجار مع أن سفنهم تحمل المدافع ولكنهم لم يستخدموها ضد الهنود.

ثم توقف للحظات قبل أن يكمل:

- لقد سمعت عن حادثة السفينة «مريم» التي أغرقوها بحُجاجها، ولكني أعتقد أنها حادثة عرضية لم تتكرر، وقد أخبرني بعض الملوك الهنود أن البرتغاليين قالوا إن السفينة هي التي رفضت التوقف للتفتيش، وإن ركابها حملوا السلاح للقتال.

عرف حسين أن حديثه عن موضوع السفينة «مريم» لن يؤدي إلى نتيجة، خصوصًا أن «الساموثيري» يقارن حديثه بحديث البرتغاليين الذين تربطهم مع بعض ملوك الهند مصالح مشتركة، فقرر أن يكون الحديث عن الخطر البرتغالي بشكل عام.

- إنني أيها الملك مبعوث من السلطان الغوري، سلطان

Twitter: @ketab_n

مصر والشام، لمحاربة البرتغاليين؛ فهم قد عطلوا حركة الملاحة بين الهند وبلاد العرب، ولم يعد تجارنا يستطيعون شراء البهارات من أرضكم، وإذا استمر الحال هكذا فسنكون كلنا خاسرين.

رد «الساموثيري»:

- إننا نرحب بكل من يأتي إلى بلادنا لشراء البهارات، لقد تحالف البرتغاليون مع بعض الملوك الهنود على طول هذا الساحل، وأنا لا أستطيع أن أتدخل في قرار الملوك الآخرين، فإن هم وجدوا أن تحالفهم مع البرتغاليين قد عاد عليهم بالفائدة فلن أستطيع فعل شيء، إنهم يشترون البهارات بكميات كبيرة ويذهبون بها إلى بلادهم، وأظن أن الخاسر الوحيد من وجودهم هو أنتم.

لاحظ حسين أن «الساموثيري» يتحدث بصفة تاجر أكثر منه بصفة ملك وسياسي، فحاول أن يشرح مدى الخطر المحدق بالجميع:

- ولكن يا سيدي، إن علاقتنا بهؤلاء بعيدة وعميقة، ونحن نعرفهم ونعرف تصرفاتهم، إنهم يحضرون في البداية بصفة تجار، حتى يعرفوا البلاد ويعرفوا نقاط ضعفها، وينشئوا المراكز التي يقولون إنها تجارية، ويتبع كل ذلك سفن مليئة بالرجال والسلاح ليحتلوا المكان ويبقوا فيه.

بصق «الساموثيري» فسمع الجميع دوي البصقة في الوعاء:

- إنها تجربتكم وليست تجربتنا، نحن نرحب بكل مَن يأتي إلى بلادنا تاجرًا، ولا نستطيع أن نعرف الغيب.

وجد المستشار قاسم أنها فرصة ليحذر «الساموثيري»:

Twitter: @ketab_n

- إن صهري، سي الطيب، قد عاش مع الفرنجة سنوات طويلة وهو يُتقن لسانهم، فأرجو من سيدي الملك أن يستمع إليه.

كان سي الطيب راكعًا على ركبتيه في الخلف:

- سيدي الملك، أنا عشت في بلادهم صغيرًا؛ فوالدي عربي مسلم ووالدتي إسبانية، لقد عقدنا معهم عدة اتفاقيات تحفظ ديننا وأملاكنا وعاداتنا فوافقوا عليها عندما كان السلاح بأيدينا، وبعد أن ألقيناه تغير كل ذلك؛ فمنعونا من الصلاة في مساجدنا، وصادروا أراضينا، ومنعونا من الدفاع عن أنفسنا، وبعدها أخذوا الأطفال من آبائهم ليربوهم تربية كاثوليكية، وبعد أن فعلوا كل ذلك طردونا من بلادنا إلى شمال إفريقيا.

أنزل سي الطيب رأسه وكأنه يتجرع كأس ذكريات مر قبل أن يواصل:

- أنت تعلم أيها الملك أن سفينة الحجاج «مريم» قد تم إحراقها بمَن فيها بعد أن أخذوا ما يرغبون من الفتيات والأطفال، لقد كان البرتغاليون يشربون الخمر وهم يتفرجون على السفينة وهي تحترق بمَن فيها، إن مَن يفعل ذلك وهو يقول إنه جاء للتجارة، سيفعل أسوأ من ذلك حين يحضر للحرب، سيفعلون الأمور نفسها مع بقية ممالك الهند، فهم يزحفون رويدًا رويدًا حتى يأخذوا كل شيء.

شعر قاسم الحق وحسين أنهما أثرا في «الساموثيري»، ولكنه بقي يفكر ويبصق في ذلك الوعاء بدون أن يتخذ قرارًا واضحًا، ثم قال:

- حسنًا، ستبقون ضيوفًا عندي وتمونون سفنكم وتشترون ما

Twitter: @ketab_n

تريدون من بهارات وبعدها تغادرون، شأنكم شأن أي تجار آخرين، فأنا لا أريد أن تنقلوا معارككم إلى مملكتي.

عرف حسين أنه لن يستطيع أن يستخدم كاليكوت قاعدة له، فمن الواضح أن «الساموثيري» لا يريد أن يكون طرفًا في الصراع مع البرتغاليين.

وبعد خروجهم من القاعة الملكية أمسك قاسم الحق بيد حسين:

- اسمع أيها الباشا، عليك أن تغادر إلى مدينة ديو بأسرع وقت ممكن، بعد أن تمون سفنك طبعًا، ستجد عند ملكها، مالك عزيز، المساعدة التي تريدها، فهو محارب متحمس ويسهل استفزازه وإقناعه بخطر البرتغاليين.

كانت نظرات قاسم جدية هذه المرَّة، فلم يبتسم بعد كل جملة يقولها كعادته السابقة. ثم أضاف:

- إنه ملك مدينة ديو ونواحيها، سأرسل معك صهري سي الطيب ليعرفك عليه، فعلاقتي معه قديمة.

بعد عدة أيام كانت سفن حسين تتجه شمالًا.

Twitter: @ketab_n

٢١
الخليج

يوم مغادرة العروسين كان ميناء هرمز في أبهى حلة، فقد نُصبت الأعلام واختلطت أصوات الموسيقى بعضها ببعض ووُزعت المياه والحلوى على الناس، وأبدع الحواة في إبراز مهاراتهم أمام الجمهور، ونسي الناس قتلى المعركة التي حصلت منذ شهر، فلم يعد يهم مَن كان القتيل ولماذا، المهم مَن هو الملك الآن.

ومن بعيد دوى صوت طبل قوي، كان يقترب رويدًا رويدًا، طبل بنغمة خاصة يكاد يخلع القلوب من قوته: بوم.. بوم.. بوم، فعلم الناس أن موكب الملك قد حضر، موكب طويل من الجِمال المزينة بالقماش المذهب، تسبقه مجموعة من الفرسان التي تحمل الرماح في تشكيل بديع، تجمع الناس في خطين طويلين مفسحين المجال لطريق صنعوه بأجسادهم حتى يمر من خلاله الموكب، تطاولت أعناقهم لرؤية ابن رحال وزوجته الجديدة حليمة، فظهر لهم ابن رحال على فرس مزين برفقة الخواجة، يسيران خلف الملك ببضع خطوات، أما حليمة فلم يستطيعوا أن يميزوها، فقد كانت ضمن مجموعة من النساء في آخر الموكب محجوبات خلف ستائر هودج جميل.

Twitter: @ketab_n

وصل الموكب إلى الميناء، وأُنيخت الجمال، ونزل الملك وابن رحال من على صهوات الجياد، وفي الخلف نزلت حليمة وفرح من الهودج، وبدأت حفلة التوديع، وسُمع نحيب النساء في الخلف، واحتضن المودعون بعضهم بعضًا، حتى إن المتفرجين لم يعرفوا من كثرة الباكين مَن هم المغادرون ومَن هم الباقون.

أبحرت السفن مبتعدة عن ميناء هرمز، فنظرت حليمة إلى الخلف لتُلقي نظرة الوداع على جزيرتها، فلم تتمالك نفسها وهي تشاهد جموع الناس يلوحون لها، ركزت بصرها على والدها الذي يلوح بيده لها، بدت نظراته تحمل الكثير، لم تستطع أن تترجمها، ولكنها عرفت أنه يتألم لفقدها كما تتألم هي لفقده، احتضنت فرح وبدأت في البكاء.

في موقف كهذا تختلط مشاعر الفرح بالحزن، وتختلط دموع ألم الفراق بدموع الأمل، وقد ينتقل المرء من البكاء إلى الضحك في ثوانٍ قليلة، وهذا ما حصل مع حليمة، فقد كانت تبكي ثم تضحك وتحتضن فرح، إنه شعور غريب نادر.

وحال وصول العروسين إلى البحرين، انبهرت حليمة بكثرة الأشجار وتدفق المياه بينها، واستمعت لزقزقة العصافير فشعرت أنها في جنة، فكل شيء ينبت هنا، بعكس هرمز شحيحة الماء وقليلة البساتين، إنها تستطيع أن تستمتع بالماء الجاري، وتأكل من عناقيد العنب المتدلية، وتقطف الفواكه من أشجارها حال نضجها، وتمرح مع صديقاتها حول مجرى الماء، هنا تستطيع أن تقوم بالكثير من الأمور التي طالما حلمت بها.

- يا إلهي، كم هي جميلة هذه المزرعة يا ابن رحال، لم

Twitter: @ketab_n

أكن أتوقع أن تكون البحرين بهذا الجمال، كنت أسمع عنها، ولكنها بحق جنة في وسط البحر!

- نعم، إنها جميلة جدًّا، لقد أصر الملك شيرغل على أن نمضي فيها بعض الوقت، فهي المزرعة التي ورثها عن والده، والتي رغب في الاحتفاظ بها بعد أن تنازل عن كل أملاك هرمز في البحرين، وأظنك سترتاحين هنا أكثر من العيش في الأحساء.

دخلا المنزل ووجدا العديد من الهدايا التي أرسلها السلطان مقرن وحاشيته ووجهاء الأحساء والبحرين حتى لم يبقَ مكان لم تُوضع فيه هدية، فامتلأ البيت بكل جميل من تحف وطعام ومال.

كانت حليمة تمر على كل هذه الصناديق محاولة معرفة ما بداخلها ومَن أرسلها، صناديق معدنية مزينة بنقوش جميلة، ورزم من البهارات المعبأة في أكياس كبيرة، وسلال من الفواكه المجففة والتمور، وقطع من الحرير، وأوانٍ من الخزف الصيني، وبعض المجوهرات الثمينة، وغيرها، حتى الإسطبل امتلأ بكرام الخيل التي وصلت إليهما من المهنئين.

أمسك ابن رحال بمعصم حليمة وجذبها إليه محاولًا أن يلفت انتباهها إلى ما سوف يقوله:

- عليَّ أن أسافر خلال اليومين القادمين إلى الأحساء للسلام على السلطان وشكره على كل هذه الهدايا الجميلة التي أرسلها، وأخبره بما حدث في هرمز.

قالت حليمة بنوع من الحماس:

- وهل تريدني أن أذهب معك إليه؟

ابتسم ابن رحال لسؤالها:

Twitter: @ketab_n

- إن الأمور ليست بهذه الطريقة هنا يا حليمة؛ فالنساء لدينا لا يجلسن مع الرجال كما تفعلون في هرمز.

استغربت من رد زوجها:

- ولكن لماذا؟

لم يجد ابن رحال جوابًا مقنعًا لها، أو أنه ليس مستعدًّا لجولة نقاش طويلة معها، فهي ذات شخصية قوية معتدة برأيها، وإقناعها لن يكون سهلًا؛ فقد تربت طوال حياتها على نمط من الحياة لن يكون من السهولة تغييره. حاول ابن رحال تغيير مجرى الحديث:

- لديَّ أمانة للسلطان احتفظت بها في منزلي في الأحساء وعليَّ أن أسلمها له أيضًا.

لم تهتم حليمة كثيرًا بما يقوله ابن رحال، فما يهم بالنسبة إليها الآن أن يعود بسرعة من رحلته هذه، فهي لا تستطيع أن تبقى بعيدة عنه لعدة أيام:

- ستكون أيامًا طويلة يا زوجي العزيز!

ابتسم ابن رحال ونظر إلى وجهها محاولًا الاستزادة من جمالها:

- لن أتأخر، تعلمين مدى شوقي إليك ولكنه أمر لا بد منه.

وبعد عدة أيام دخل ابن رحال إلى مجلس السلطان مقرن بكامل زينته، وكان يتوقع أن يعلق السلطان على أناقته وزواجه، وعندما شاهده السلطان ابتسم بخبث وقال بصوت عالٍ:

- أهلًا بالعريس، كنت أعتقد أني أرسلتك للمساعدة على

Twitter: @ketab_n

إعادة صاحبك شيرغل للحكم، ولكنك تحولت إلى لص فخطفت ابنتهم وجئت بها إلى هنا.

تقدم ابن رحال إلى السلطان وقبَّل رأسه راسمًا ابتسامة خبيثة أيضًا على وجهه:

- لم أخطفها أيها السلطان، ولكنها هي التي خطفتني، فقررت ألَّا أعود إلا معها.

أشار السلطان إلى وسادة بقربه:

- اجلس يا ابن رحال، لقد اشتقت إليك، ولكن لا بأس، لقد نجحت في مهمتك وعدت وحدَك بالغنيمة.

أبقى ابن رحال ابتسامته على وجهه وكأنه كان يحب أن يرى تأثير ذلك على السلطان:

- إن غنيمتي لي أيها السلطان ولن أشاركها مع أحد.

ضحك السلطان بصوت عالٍ قبل أن يقول:

- بارك اللّه في غنيمتك، والآن اشرح لي التفاصيل.

بدأ ابن رحال في شرح كل ما مر به في هرمز حتى وصل إلى الاتفاق النهائي الذي تم في مجلس الملك شيرغل بحضور وزيره الخواجة عطار وحليمة، والذي وقَّع فيه الخواجة أيضًا على وثيقة تنازل هرمز عن ممتلكاتها في البحرين وإبقاء مزرعته الخاصة فقط وإعفاء سلطان الجبور من دفع الضريبة السنوية.

وبعد أن أنهى ابن رحال كل ما مر به أكمل قائلًا:

- لقد طلب مني شيرغل أن أبقى في مزرعته في البحرين لبعض الوقت، وأنا أستأذنك لأن أبقى هناك لمدة من الزمن قبل

Twitter: @ketab_n

أن أعود إلى الأحساء، فالمقام في البحرين أفضل لزوجتي من هنا كما تعرف.

- أعرف يا ابن رحال، لا بأس بذلك، فالبحرين يأتيها الكثير من التجار من مختلف الموانئ ولن تشعر أنها مقطوعة وحدها كما قد تشعر هنا، لا بأس، عِش معها هناك لبعض الوقت حتى تعتاد على الوضع ثم أحضرها إلى هنا.

أسند السلطان ظهره على وسادة خلفه قبل أن يقول:

- لقد كنت أحمل همًّا كبيرًا، ولكن الحمد للّه، كم أنا سعيد اليوم، وأتمنى أن يُحسن هذا الملك إدارة مملكته بدلًا من الدخول في صراعات ليس لها نتائج سوى تدمير حكمه وتشتيته.

حاول ابن رحال أن يُذكر السلطان بالخنجر والخاتم اللذين أبقاهما أمانة لديه، فهما في نظره عبء ثقيل لا بد من إعادته:

- مولاي السلطان، هل تذكر الخنجر الذي أحضره لك رسول المملكة البهمنية في الهند، والخاتم الثمين الذي اشتريته من البانيان، وقد طلبت مني الاحتفاظ بهما؟ إنهما ما زالا في منزلي هنا، وبما أنني سأعيش في البحرين فقد يكون من الأفضل لو أبقيتهما لديك، فلست آمن عليهما وأنا بعيد عن المنزل.

- نعم، أذكرهما بالطبع، كنت قد نويت أن أرسلهما إلى الخليفة في القاهرة ولكني انشغلت، أبقهما معك، فلست آمن عليهما في منزلي، فأنا كثير السفر وقصري مليء بالخدم، ذكِّرني حين يأتي موسم الحج، سنعطيهما لمن نثق به حتى يوصلهما إلى حاكم جدة ليوصلهما بدوره إلى الخليفة في القاهرة، فخنجر مثل هذا يتطلب حماية كبيرة، فهو يمثل الكثير والكثير جدًّا لسلطان

Twitter: @ketab_n

المملكة البهمنية ولنا أيضًا، وقد أطلقت وعدًا ويجب أن يتحقق ولو على رقبتي يا ابن رحال، سيصل هذا الخنجر للخليفة بإذن اللّه، اجعل الخاتم في صندوق الخنجر.

واصل السلطان حديثه وهو يحرك الهواء بالمهفة أمامه:

- سأذهب خلال الأيام القادمة إلى الخرج لتأديب بعض القبائل التي تمردت هناك، وسيكون ابن عمي ناصر هو القائم بمهام السلطنة، لقد طلبت منه أن يبقى قريبًا منك في البحرين حتى عودتي، وعليك أن تساعده في مهمته هذه يا ابن رحال، إنه شاب أهوج، وأنا أعرف عيوبه، ولكن عليك أن تعقله وتدربه على شؤون السلطنة فلعله يتعلم.

تغيرت ملامح ابن رحال فجأة، وكأنه أُصيب بألم في خاصرته، وتوقف عن الحديث، وحاول أن يخفي ذلك قدر استطاعته.

بعد عدة أيام عاد ابن رحال إلى منزله في البحرين واستقبلته حليمة متوقعة أن يكون مبتسمًا كعادته ولكنه عاد حزينًا محبطًا.

استغربت من حزنه، فهي لم تره هكذا من قبل، فسألته عن السبب، فقال:

- أخبرني السلطان بأنه ذاهب إلى الخرج لمحاربة بعض القبائل المتمردة هناك، وأنه سيعين مكانه الأمير ناصر وسيكون مقره هنا في البحرين.

زفر بقوة قبل أن يقول:

- كم أكره هذا الرجل! كنت أحاول أن أتفاداه طوال حياتي، وكنت دائمًا ألتمس الأعذار لعدم الجلوس معه.

Twitter: @ketab_n

استغربت حليمة من تعليق زوجها، الذي واصل حديثه بدون أن ينظر إليها:

- إنه شخص حقير، ليس لديه مروءة، يُظهر غير ما يُبطن، فهو الشخص المتدين الشجاع في حضرة السلطان وهو السكير المارق في غيابه، وعندما يغيب السلطان يخرج أسوأ ما في الرجل، ولا أعرف كيف سأتحمله طوال فترة غياب السلطان!

خلع عمامته بغضب ووضعها على الأرض:

- سمعت الكثير عن تهديدٍ واغتصابٍ لنساء وقعن في حبائله، هو كالثعبان، لا يلدغ إلا حين يضمن أن الضحية قد أصبحت تحت رحمته!

وضعت حليمة يدها على كتف زوجها في محاولة لطمأنته:

- أما وأن السلطان سيغيب، فإن عليك أن تجاري هذا الرجل حتى يعود، فمَن يعلم ما الذي يستطيع أن يفعله! إنه يمثل السلطان الآن، وليس لديك مَن تشتكيه له، فسايره فلعلنا نجد مخرجًا.

رد غاضبًا:

- ألم يجد السلطان شخصًا غيره؟ وهل يجب أن يُعين هذا الحقير بدلًا منه؟!

مسحت بيدها على كتفه محاولة أن تهون عليه:

- إنه الحاكم الآن، ليس لك سوى أن تنحني حتى تمر هذه العاصفة.

أمسك ابن رحال بيد حليمة وقبَّلها:

- لست أعرف كيف سأفعل ذلك، ولكني سأحاول.

Twitter: @ketab_n

ثم أخرج من طيات ملابسه صندوق الخنجر الذي أعطاه إياه السلطان مقرن، ووضعه بين يديها بهدوء، ثم ضغط عليهما وكأنه يطلب منها أن تُحكِم الغلق عليه.

- هذا الصندوق أثمن من كل ما في المنزل.

فتحت الصندوق وشاهدت الخنجر، أمسكته بيدها وقلَّبته، وانبهرت بجمال جواهره ودقة صنعه، ثم أعادته إلى مكانه، ثم أخذت الخاتم ووضعته في إحدى أصابعها متأملة روعته قبل أن تعيده إلى الصندوق أيضًا، ثم واصل ابن رحال قوله:

- هذا الخنجر ليس هدية لي، إنه هدية أحد سلاطين الهنود للخليفة في القاهرة، وقد حملني إياه السلطان مقرن أمانة في عنقي، ولهذا فإن عليك أن تضعيه في مكان خاص محفوظ لا يعرفه سوى أنا وأنت.

بانت على وجه حليمة سيماء الجدية:

- وأين تريدني أن أخبئه؟

أشار ابن رحال إلى الصناديق المتناثرة في المنزل قبل أن يقول:

- ضعيه في أحد هذه الصناديق الكبيرة، وضعي الصندوق في غرفتنا حتى لا يصل إليه أحد، هل فهمت أهمية هذا الخنجر يا حليمة؟ إنه خنجر مهم جدًّا للسلطان، فقد قال إنه أمانة في رقبته كما هو أمانة في رقبتي الآن.

ردت بهدوء:

- لا تقلق، سأجد صندوقًا به قفل وأضع الخنجر فيه

Twitter: @ketab_n

وسيكون الصندوق في غرفتنا التي لن يدخلها غيرنا، ولكن لماذا أعطاك إياه ولم يحتفظ به عنده؟!

- أراد مني أن أحفظه حتى يعود من حملته، فهو كثير السفر كما تعلمين.

بدأ ابن رحال يتردد على مجلس الأمير ناصر الذي وصل إلى البحرين منذ عدة أيام يدفعه وعده للسلطان بمساعدة الأمير في أداء مهمته، لم تكن علاقتهما طيبة في بداية الأمر، ولكن الأمير كان يحتفي به احتفاء كبيرًا، ويُجلسه معه في صدر المجلس، ويأخذ رأيه في كثير من الأمور. شعر ابن رحال أن هناك أمرًا قد طرأ، فلم تكن هذه عادة الأمير معه أو مع غيره، فما الذي تغير؟

وفي المساء وبعد أن يخلو المجلس من الزوار والضيوف يضع الأمير أمامه لوح الشطرنج ليتبارى معه أمام مجموعة مختارة من الحضور الذين كانوا يهللون لكل حركة يقوم بها الأمير. ومع مرور الوقت تكوَّن نوع من الألفة بين الأمير وابن رحال الذي شعر أن هناك تغيرًا طرأ على شخصية الأمير ناصر وتصرفاته، فسُر بذلك وبسط له الوجه، ونشأت علاقة غريبة بين الاثنين لم يفهم ابن رحال كُنهها، ولكنه مسرور بها.

وفي يوم ما، وبعد أن غادر ابن رحال المجلس، وذهب الضيوف، لم يبقَ مع الأمير سوى أحد عبيده، طلب شرابًا مُسكرًا، ارتشف منه بضع رشفات، ثم نظر بعيون جاحظة إليه قائلًا:

- هل فعلت شيئًا يا جوهر؟ إنني ما زلت أنتظر أن تقوم بدورك.

Twitter: @ketab_n

- كان جوهر عبدًا مقربًا من الأمير، ووالده كان أيضًا عبدًا لدى والد الأمير، فنشأ لا يعرف سوى الولاء الأعمى له، وقد دربه على أن يقوم بكل الأعمال القذرة؛ فهو متآمر وقاتل محترف عندما يتطلب الأمر، ولم يكن جوهر يستطيع أن يخفي تعابيره التي توحي بدوره في الحياة، فهو فارع الطول، ذو بنية قوية، وكان جسده كتلة عضلية قاسية، من أصول حبشية، وجهه يميل للوسامة لولا عيناه الصفراوان اللتان توحيان بتفكير صاحبهما، وكان لا يُكن احترامًا ولا تقديرًا لأحد سوى لسيده، فهو وحش في انتظار أن ينقض على فريسته فقط.

- لقد وعدتني بجائزة كبيرة إن نجحت الخطة يا سيدي، لقد بدأ الطعام ينضج، عليك أن تنتظر وتصبر قليلًا فقط.

ثم مد جوهر يده إلى كأس الخمر التي أمامه وكرعها كلها مرَّة واحدة قبل أن يواصل:

- إنها رائعة الجمال يا سيدي، رائعة بمعنى الكلمة، وهي تستحق كل هذا العناء والانتظار، وهذه المجاملة المملة للرجل الذي تكرهه.

فتحرك ناصر فجأة وكأن عقربًا لدغته:

- هل رأيتها؟ قل لي، هل رأيتها؟ صفها لي.

زادت ابتسامة جوهر بصعوبة وكأنه يحرك عضلات وجهه مبتسمًا لأول مرَّة:

- لا، لم أرها، فهي تخرج منقبة من المنزل، ولكني رأيت جسدها الممشوق وجمال أطرافها وخصلات من شعرها الذي يخرج من أسفل خمارها، لقد حاولت جهدي لأرى المزيد ولم

Twitter: @ketab_n

أفلح، قيل لي عن جمالها الكثير، حتى إنها لو نامت على ظهرها لأمكنك أن تدحرج تفاحة من تحتها، إنها ليست كنساء الأرض، وهي ليست كبقية النساء اللواتي حصلت عليهن من قبل، إنها فريدة عصرها ودُرة جنسها يا مولاي.

تنفس جوهر بعمق وهو ينظر بعيدًا وكأنه يتخيلها، ثم عاد إلى رشده قائلًا:

- لكني لم أتوقف هنا يا مولاي، فقد بدأت علاقتي بخادمتها فرح تتحسن بعض الشيء بعد أن كانت ترفض أن تحدثني، لقد قلت لها إنني أحاول أن أشتري حريتي منك، وإنك تطلب الكثير من المال نظير ذلك، وهي تزودني بكل مال تقع يدها عليه في بيت ابن رحال معتقدة أنها بذلك تساعدني على جمع المبلغ المطلوب.

توقف جوهر قليلًا ثم تحولت عيناه إلى الاحمرار قليلًا كعادته عندما يكرع الخمر:

- وعدتها بالزواج والذهاب معها إلى هرمز أو الهند للعيش هناك، ولن نستطيع فعل ذلك قبل أن نجمع ما يكفي من المال.

ثم ضحك ضحكة عالية غريبة وكأنها تخرج من جوفه:

- لقد بدأ المال ينهال عليَّ حتى أجمعه للمستقبل، إنها امرأة غبية، استطعت أن أملكها ببضع كلمات حب تعلمتها منك.

فسأله الأمير وهو يقفز في مكانه وكأنه طفل يريد أن يصل إلى لعبته:

- قل لي يا جوهر، هل حصلت على خادمتها أم لم يحدث بعد؟

Twitter: @ketab_n

- ليس بعد أيها الأمير، ولكن لا تقلق، هي ليست بعيدة عني.

ضحك الاثنان وكأنهما سمعا نكتة مضحكة فجأة، ثم أكمل جوهر:

- ستقع في يدي كالغزال المنهك قريبًا، وحين أفترس فرح ستكون حليمة هي فريستك القادمة.

بدأ الأمير ناصر في فتل شاربه، وفقد تركيز عينيه وكأنه يرى بعيدًا جدًّا، فقال بصوت يشبه فحيح الأفعى:

- لن أستطيع افتراسها وراعيها حولها، يجب أن يختفي الراعي لتصبح الفريسة أكثر هشاشة وأحلى طعمًا!

Twitter: @ketab_n

٢٢
ساحل عمان

كانت عينا «البوكيرك» على الساحل الصخري الذي بدأ يتجه شمالًا، فشاهد مدينة على الساحل تحف بها أشجار النخيل والفاكهة وتظهر منارة مسجدها الذي يزاحم الأشجار وكأنه يعلن عن وجوده في وسطها بشكل واضح، ومن شمالها مصب عريض لسيل الماء القادم من الجبال غير أنه كان جافًّا، لم يكن هناك أحد على الساحل، فجميع السفن الموجودة صغيرة الحجم، وكل شيء بدا متوقفًا بدون حركة.

استدعى بعض ضباطه ليساعدوه في رصد الساحل ومعرفة ما يحصل، فلفت أحدهم نظره إلى وجود أربعة مدافع صغيرة على الجدار الذي يفصل القرية عن الساحل، وشاهدوا أيضًا صخورًا كبيرة لدعم الجدار الطيني الذي يحمي المدينة، ركز نظره على الجدار وشاهد مجموعات من المقاتلين يحملون رماحًا وأقواسًا متحصنين خلفه، عرف أن المدينة قد استعدت له وجهزت نفسها لقتاله.

نزل زورق من سفينة «البوكيرك» عليه معاونه «ميكيل» وجدف في اتجاه المدينة، وصل إلى الساحل، وسار إلى البوابة الكبيرة

Twitter: @ketab_n

المغلقة التي فتحت فجأة وظهر من خلفها رجل متزر بإزار قصير إلى ركبتيه، عاري الصدر، ممسك برمح طويل ودرع خشبي صغير الحجم، فوقفا أمام بعضهما للحظات قبل أن ينطق «ميكيل» قائلًا:

- إنني مبعوث من قِبل سيدي «البوكيرك» ممثل ملك البرتغال، ونحن نطالبكم بالاستسلام الفوري ودفع الضريبة واستقبال ممثل الملك وتقديم الولاء له، وفي حال رفضكم فإننا سندمر مدينتكم ونقتل كل سكانها.

لم ترمش عينا الجندي العماني وبقي مركزًا بصره على «ميكيل» حتى انتهى من كلامه، ثم رمش عدة مرات قبل أن يلوي جسده عائدًا من حيث جاء، وقبل أن يختفي خلف البوابة سأله «ميكيل» عن اسم المدينة، وبدون أن يلتفت رد عليه:

- إنها قريات.

ثم دخل وأغلق البوابة خلفه.

كان كل البحارة على السفن البرتغالية مركزين نظرهم على ما يحدث. عاد «ميكيل» فسأله «البوكيرك» عما دار بينه وبين الرجل الذي خرج من البوابة، فقال:

- ليس كثيرًا يا سيدي، استمع لما قلت له ثم عاد من حيث خرج.

- اللعنة! هل هذا كل شيء؟ ألم يقل شيئًا آخر؟!

- أعتقد أنهم مستعدون للدفاع عن المدينة يا سيدي، لم يخرج هذا الجندي للتفاوض، ولست أعلم إن كان فهم رسالتي أم لا، ولكنه قال لي إن اسم هذه المدينة هو قريات. لقد انتشر

Twitter: @ketab_n

خبر وصولنا إلى هذه السواحل وأتمنى ألَّا تكون كل المدن التي على الساحل في انتظارنا ومدافعها مصوبة نحونا!

بدأ «البوكيرك» في العبث بلحيته كعادته حين يفكر في أمر ما، وبقي يحرك أصابعه خلالها وعيناه تلمعان بنظرة يعرفها من حوله، وكأنه ذئب قد شم رائحة الدم:

- استعدوا لقصف المدينة، سأقود الإنزال بنفسي.

وبإشارة من يده بدأت المدافع بقصف المدينة، سقطت القذائف الأولى قبل الجدار الطيني بقليل، ولكن القذائف التي تلتها كانت دقيقة، فتسببت في تناثر الجدار وجثث المدافعين عنه، ومع كل طلقة مدفع يصرخ البحارة البرتغاليون فرحين بإنجازهم، حتى بدأوا يتراهنون على صيد أهداف محددة.

لم تكن قذائف المدافع العمانية التي وُضعت على سور المدينة تصل إلى السفن البرتغالية، فهي تُحدث طرطشة على بُعد عشرات الأمتار منها فقط، حيث كانت صغيرة وغير فعَّالة. فرح بحارة «البوكيرك» الذين شعروا أنهم أمام عدو ضعيف سيستمتعون بسفك دمه بسهولة.

بقي «البوكيرك» ينظر بعينيه التمساحيتين إلى المدينة التي تُدمر بشكل سريع، وعندما لاحظ أن السكان بدأوا في الفرار إلى الجبال الواقعة خلف المدينة أمر بإنزال الزوارق.

أنزلت كل سفينة زورقين كبيرين. امتلأت الزوارق خلال لحظات بالمقاتلين الذين لبسوا دروع الحديد من رؤوسهم وحتى سيقانهم، وحملوا البنادق الطويلة التي لم يرَ المدافعون مثلها، والرماح الطويلة التي تنتهي ببلطات فولاذية لامعة.

Twitter: @ketab_n

بدأ المجدفون في التسابق إلى الساحل، وما إن أصبحت كل الزوارق قريبة من الساحل حتى أصدر «البوكيرك» أوامره قائلًا:

- اقتلوا كل الرجال، وأبقوا على الأطفال والنساء والشيوخ لأني أريد أن أعاملهم بطريقة مختلفة، وعليكم بنهب المدينة وحرقها، ولا أريد أن أرى هذا المسجد في مكانه.

ثم صرخ بأعلى صوته:

- هل أنتم مستعدون للدفاع عن ملككم؟

رد الجميع بصوت واحد:

- نعم، نحن فداء للملك، عاش الملك.

وصل «البوكيرك» بقواته إلى الساحل فرماه مَن بقي من المدافعين ببعض الرماح والسهام التي لم تكن لتفعل شيئًا في دروع المهاجمين.

وبدأت حفلة الموت، فلم تكن الرماح التي يستخدمها المدافعون لتُجاري البنادق التي يحملها رجال «البوكيرك»، فالقليل من المدافعين يحملون السيوف، والغالبية منهم لديهم رماح وسهام ويفتقرون لكل شيء عدا ذلك.

كثرت الجثث، ونُهبت كل المنازل ومن ثَمَّ أُحرقت، وأُشعلت النيران في المسجد بعد أن قُصف عدة مرات بالقذائف من السفن، وتم شحن المنهوبات في السفن الصغيرة التي كانت في الميناء. لم تكن المعركة متكافئة فانتهت بسرعة، وحين كان «البوكيرك» على وشك العودة إلى سفينته، أحضر له الجنود مجموعة من النساء والأطفال والشيوخ الذين لم يستطيعوا الهرب من المعركة، فأمر بقتل النساء والأطفال ذبحًا وطعنًا بالسكاكين،

Twitter: @ketab_n

وبعد أن انتهى من كل ذلك، نظر إلى الشيوخ الذين أُجبروا على مشاهدة هذه المجزرة قائلًا:

- لقد رأيتم ما الذي فعلته بمدينتكم وأهلكم، والآن سأُرسلكم إلى هرمز حتى تخبروهم بكل ما شاهدتموه.

أمر جنوده بقطع أنوف وآذان الشيوخ ووضعهم في مركب زُوِّد بالماء فقط حتى يصل بهم إلى هرمز. ترك قريات خلفه خرابًا تتصاعد منها أعمدة الدخان وقد أُحرقت مراكبها وتم القضاء على كل شيء حي فيها.

واصل «البوكيرك» طريقه على طول الساحل العماني حتى وصل إلى مسقط التي أعجبته فأمر بإنزال المرساة في انتظار أن يعرف طريقة لتدميرها بأقل خسائر ممكنة.

بدأ كعادته بالنظر إلى المدينة كما ينظر الوحش إلى فريسته، لم يتوقف في أثناء ذلك عن تحريك أصابعه خلال لحيته، وعلى غير المتوقع، شاهد زورقًا يتقدم نحو سفينته قادمًا من الشاطئ وعليه عدة أشخاص، أمر بحارته بتجهيز البنادق وتوجيهها نحو الزورق، توقف الزورق بالقرب من السفينة وصرخ أحد الركاب قائلًا:

- أنا مبعوث من قِبل حاكم مسقط، وقد علمنا بما حدث لمدينة قريات، ولا نرغب في تكرار المذبحة، ونحن على استعداد للاستماع إلى طلباتكم.

رد «البوكيرك» عليه من على سطح سفينته:

- أريد كتابًا من حاكم المدينة يعلن فيه خضوعه وطاعته

Twitter: @ketab_n

لملك البرتغال، على أن يصلني الكتاب غدًا صباحًا مختومًا، هل هذا واضح؟

رفع المبعوث يده مسلمًا قبل أن يقول:

- سأوصل طلباتكم إلى سيدي الحاكم.

ثم عاد الزورق بهدوء إلى الساحل.

شعر «البوكيرك» أن المذبحة التي ارتكبها في القريات قد آتت أكلها، وأن الرسائل التي أراد إرسالها قد وصلت كما أرادها وبكل قوة.

أمر معاونه «ميكيل» بقيادة فرقة استطلاع إلى الساحل لمعرفة التحصينات ونقاط الضعف في سور المدينة، ومع غروب الشمس عادت الوحدة إلى سفينتها، ووقف «ميكيل» أمام «البوكيرك» قارئًا تقريره:

- سيدي، إن المدينة يحيط بها سور خشبي من جذوع النخل ارتفاعه حوالي عشرين ذراعًا، مسنود بالصخور، وخلفه أسوار خشبية أخرى بحيث يصل عرض السور إلى عشر أذرع، كما أن مدخل الميناء عبارة عن خور ضحل لا يمكن الدخول إليه إلا ليلًا بعد أن يرتفع منسوب الماء، وهو أيضًا محصن بحائطين مبنيين بين جبلين يمكن للمدافعين عن المدينة إغلاقه بالصخور عند الحاجة.

بعد أن أنهى تقريره، همهم «البوكيرك»:

- دعونا ننتظر حتى صباح الغد، ولن أغادر المدينة حتى أتأكد أنها أعلنت ولاءها للملك أو سأدمرها بشكل كامل.

وفي صباح اليوم التالي عاد المبعوث ليُخبر «البوكيرك» أن الحاكم وافق على كتابة الرسالة وعلى عقد الصلح بدون شروط

Twitter: @ketab_n

مسبقة، فاستبقاه «البوكيرك» لحين عقد اجتماع مع ضباطه، ثم خرج عليه بشروط جديدة وهي:

- أن تقوم المدينة بدفع جزية لملك البرتغال تعادل الجزية التي تدفعها لملك هرمز، وأن على الحاكم أن يقوم بتجهيز الأسطول البرتغالي وبناء الميناء الخاص به وتزويده بالماء والطعام بصورة مستمرة، وإذا وافق على ذلك فإن مسقط ستكون تحت حماية ملك البرتغال، وفي حال عدم الموافقة فإننا سنقوم بتدمير المدينة وقتل سكانها.

أمر «البوكيرك» مساعده «ميكيل» بمرافقة مبعوث حاكم مسقط لإيصال الشروط إلى الحاكم مباشرة. وفي المساء عاد «ميكيل» ترافقه عدة سفن محملة بالماء والطعام، وأخبر «البوكيرك» بأن الورقة سيتم توقيعها غدًا.

وفي الصباح عادت المدينة إلى صمتها، فلم تأتِ سفن ولم يخرج أحد منها قَطُّ، وشُوهدت البوابة الرئيسية مغلقة. استغرب «البوكيرك» من تغير الموقف، وأراد أن يعرف السبب الذي دعا حاكم المدينة لاتخاذ هذه الإجراءات العدائية.

وفي المساء رصد أحد البحارة البرتغاليين زورقًا صغيرًا كان يحاول التسلل ليلًا من ميناء مسقط، فأمر «البوكيرك» إحدى سفنه بملاحقته وإحضار ركابه إليه، وبعد تعذيبهم اعترفوا بأن المدينة تستعد للمعركة بعد أن حضر بعض جنود ابن جبر للدفاع عنها.

طلب «البوكيرك» من «ميكيل» أن يستفسر منهم عن ابن جبر هذا، وبعد الكثير من التعذيب وسوء الترجمة بدأ «ميكيل» في الشرح:

Twitter: @ketab_n

- إنهم يقولون إن ابن جبر هذا سلطان الخليج ونجد وبلاد العرب، اسمه السلطان «مقرن بن زامل»، وإن الجنود الذين جاءوا للمساعدة يتمركزون في الداخل العماني، وهم يدينون بالولاء له، وقد أقنعوا حاكم مسقط بعدم تسليم المدينة لنا.

رد «البوكيرك» بسرعة:

- اسألهم عن عدد جنود ابن جبر ونوع الأسلحة التي يملكونها.

بدأ صراخ المعذبين يعلو من جديد ثم عاد «ميكيل» لسيده بالشرح:

- إنهم يقولون إن جنود ابن جبر عدة آلاف، وأسلحتهم عبارة عن سيوف ورماح ونبال، وإنهم سيقاتلون بشراسة للدفاع عن مسقط.

ضرب «البوكيرك» يده على فخذه وأمر جنوده بالاستعداد لتدمير المدينة.

وفي الليل أمر سرية من مقاتليه بالتسلل إلى الساحل لمعرفة حجم الاستعدادات، فما إن نزلت إلى الساحل حتى جوبهت بالسهام والحراب مما تسبب في مقتل بعض عناصرها وجرح آخرين وانسحابهم إلى سفنهم.

ومع أول بوادر الصباح، فتحت مدافع السفن جحيمها على المدينة لعدة ساعات حتى أحدثت عدة ثغرات في السور، وانتشرت جثث قتلى المدافعين على الساحل، وبعدها نزلت زوارق الإنزال واتجهت إلى النقاط التي حددها لها «البوكيرك»،

Twitter: @ketab_n

وعندما اقتربت من الساحل جوبهت بعاصفة من النبال والصخور والرماح التي انهالت عليها من كل جانب، ولكن «البوكيرك» ورجاله كانوا مدرعين بالكامل ويحملون رماحًا طويلة جدًّا ذات نصال حادة، ومعهم البنادق التي تطلق من مسافات قريبة وتسبب فتكًا شديدًا بضحاياها.

استخدم العمانيون ورجال ابن جبر كل وسائل الدفاع، ورموا المهاجمين بالحجارة من فوق أسطح المنازل، ولكن كل أسلحتهم البدائية لم تؤثر في الجنود المدرعين الذين يستخدمون أسلحة حديثة.

ومع مرور الوقت، ضعفت المقاومة تدريجيًّا، وبدأ الجنود البرتغاليون في أسر النساء والأطفال الذين بقوا في منازلهم، وأصدر «البوكيرك» أمرًا بقتل كل الأسرى وعدم الإبقاء على أحد، فكان الجنود يمسكون بالصغار أمام أمهاتهم ويضربونهم بالسيوف ليقطعوهم إلى نصفين أو يطعنونهم بالرماح. وبعد قتل الأطفال بدأت حفلة قتل النساء والشيوخ، فامتلأت المدينة بالجثث المقطعة وسالت الدماء في أزقتها.

أمر بعدها جنوده بالخروج خارج المدينة لملاحقة الهاربين، ووضع الحواجز التي تحميهم من أي هجوم مضاد يقوم به الأهالي، فشاهدوا العديد من النساء والأطفال يحاولون صعود الجبال المحيطة بالمدينة بحثًا عن الأمان، فلاحقهم الجنود ومثَّلوا بهم قبل قتلهم، ثم أحضروا كل ما وجدوه معهم من جواهر وطعام إلى «البوكيرك» الذي أمرهم بتفتيش المنازل وهدمها بحثًا عن الذهب المدفون بها.

Twitter: @ketab_n

وكأن مسًّا من الجنون قد أصاب البرتغاليين الذين قاموا بهدم المدينة وحرقها بعد أن تم نهب الطعام من السوق والمحلات المجاورة، ثم نُقل الماء العذب إلى السفن، ولم تُترك المدينة إلا وقد أصبحت خرابًا ينعق فوقها غراب البين.

عاد «البوكيرك» إلى سفينته ودخل قمرته، ثم أخرج ورقة وغمس الريشة في المحبرة وكتب:

- «مسقط مدينة كبيرة، ونفوسها كثيرة، وبها آبار مياه كثيرة ونخيل وأشجار، والمدينة يحكمها والٍ ومندوب عن حكومة هرمز، أما المنطقة التي تحيط بها من الداخل فيحكمها بنو جبر، وسلطة هؤلاء تمتد من مسقط إلى منطقة ظفار حيث حدود مملكة عدن، كما أن سلطة بني جبر تمتد إلى البحرين وساحل القطيف، حيث يحكمون هناك باسم مملكة هرمز».

أعتقد أن هذا يكفي.

أطفأ الشمعة وأوى إلى فراشه سعيدًا بنصره.

وفي اليوم التالي تحرك الأسطول على طول الساحل الذي بدأ يتجه إلى الشمال، ترافقه سلسلة الجبال السوداء التي تمتد على طول الشاطئ، حتى دخل خليجًا صغيرًا تحيط به الجبال كحدوة الحصان، بدا له الخليج مغريًا، فقد كان هناك كثير من سفن الصيد، وماؤه العميق سمح لسفنه بالإبحار فيه بحرية، حتى توقف أمام قرية صغيرة بُنيت من الحجارة ومن القصب.

شاهد سكانها تلك السفن الضخمة فتركوا ما كانوا يفعلونه وتقدموا للساحل ليشاهدوها عن قرب، ولكنهم حين لمحوا الصليب الأحمر بدأوا في الركض بعيدًا واختفوا، وبعد مدة من

Twitter: @ketab_n

الزمن ظهر بعض الخيالة والهجانة الذين كانوا يغنون أغاني حماسية ويلوحون بأسلحتهم حتى يراها البرتغاليون.

لم ينتظر «البوكيرك» كثيرًا، فأمر سفنه بقصف القرية، وفي غضون ساعات تحولت إلى ركام وهرب من استطاع من سكانها إلى الجبال، وبعد أن حل المساء أمر جنوده بالنزول وتفقد القرية ونهب ما فيها، وجلس هو على الشاطئ في انتظار تقارير قادته.

جاءه «ميكيل» بشيخ أسير كبير في السن يحمل كتابًا محفوظًا بعناية في لفافة من القماش.

- سيدي لقد وجدت هذا الشيخ في أحد المنازل، وقد طلب من الجنود أن يتحدث إليك بعد أن هموا بقتله لأن لديه هدية لك.

نظر «البوكيرك» إلى الشيخ باحتقار متسائلًا عن الذي لديه، رد الشيخ بقوله:

- إن هذا الكتاب الذي أحمله هو أثمن ما لديَّ، وقد قررت أن أهديه إليك.

أخذ «ميكيل» الكتاب من الشيخ وسلمه إلى «البوكيرك» الذي بدأ في تصفحه ولم يفهم منه شيئًا:

- ما هذا؟ هيا اسأله ما هذا الكتاب؟

رد الشيخ بهدوء:

- إنه كتاب عن الإسكندر المقدوني، وعندما شاهدتك رأيت فيك ذات الرجل، فكلاكما بطل استطاع أن يغزو بلادًا بعيدة عنه.

- وما اسم مدينتكم هذه؟

- اسمها خور فكان.

نظر الرجل إلى مدينته المدمَّرة بكل أسى وكرر:

Twitter: @ketab_n

- كان اسمها خور فكان!

سأل «البوكيرك» مساعده:

- هل يقول إن اسمها كورفكام؟

- نعم يا سيدي، ولكن الغريب أنني لم أجد لها ذكرًا في ملف اليهودي!

ثم تذكَّر «البوكيرك» ما قاله الشيخ:

- هل يقول إنني مثل الإسكندر المقدوني فعلًا؟ أعطوه طعامًا وماء وأطلقوا سراحه.

ثم أعاد نظره إلى الكتاب قبل أن يكمل:

- عليك أن تترجمه لي يا «ميكيل».

Twitter: @ketab_n

٢٣
ساحل الهند الغربي

وصلت سفن حسين إلى ميناء ديو الواقع في شبه جزيرة ناتئة في شمال الساحل الغربي للهند، بدا الميناء وكأنه ثكنة عسكرية؛ فالتحصينات على أشدها، والعسكر يجوبون الجدار الممتد على طول الميناء، والأعلام الملونة التي تتحرك بأنماط مختلفة من فوق الأبراج توحي بأن المعلومات تُنقل أولًا بأول من خلال طريقة حركتها، والسفن العسكرية تجوب الخلجان المحيطة بالميناء وتستجوب السفن القادمة خوفًا من دخول جواسيس للبرتغاليين إلى المدينة.

شاهد حسين كل تلك الحركة من فوق سطح سفينته، وعرف أنه قد وصل إلى مدينة قد أعلنت الحرب على البرتغاليين، وأنها على استعداد لكل طارئ، سُر بذلك فقد كان بحاجة إلى قاعدة عسكرية أكثر منها إلى قاعدة تجارية.

اقترب سي الطيب من حسين بعد أن شاهد اهتمامه بكل ما يراه، فأراد أن يعطيه نبذة عن الملك الذي سيقابله في هذه المدينة. أبقوا أبصارهم مركزة على المدينة ومينائها وهم يتحدثون، فقد كان لسي الطيب وجهة نظر في الهند بحكم تجربته فيها وأراد أن ينقلها إلى حسين، فبدأ يقول:

Twitter: @ketab_n

- مالك عزيز من الملوك القلائل الذين أعلنوا الحرب على الغزاة ولم يقبلوا بوجودهم على أرض الهند، فقد تصادم معهم عدة مرات خلال استكشافهم لهذا الساحل، ولكنهم تركوه بعد أن وجدوا ترحيبًا من ملوك آخرين إلى الجنوب من هنا حيث الأرض أكثر خصوبة، والتجارة أكثر ربحًا.

بقي بصر حسين مُسمَّرًا على الأعلام التي تتحرك من فوق الأبراج وكأنه يريد قراءة الرسائل التي تحملها، مبديًا إعجابه بالجنود المهرة الذين يعملون على نقل المعلومات بتلك الطريقة. واصل سي الطيب حديثه وهو يشير إلى الأعلام بيده:

- أعتقد أن هذه الأعلام تنقل خبر وصولك أيها الباشا، وهو خبر سعيد بالنسبة لمالك عزيز ولكل سكان هذه المدينة، فهم يشعرون أنهم وحدهم في مواجهة البرتغاليين، فمنذ أن أرسلوا رسائلهم إلى السلطان الغوري في مصر وإلى سلطان الجبور في شرق الجزيرة العربية وهم في انتظار أن تصلهم نجدة من هناك. لم يسبق لي أن زرت هذه المدينة، ولكن مولانا قاسم له علاقات طيبة بمالك عزيز، ولهذا السبب طلب منك أن تحل ضيفًا عليه، وهو على ثقة بأنكما ستكوِّنان حلفًا قويًّا يستطيع أن يصد الغزو البرتغالي.

توقف سي الطيب لبرهة وكأنه يريد أن يقول شيئًا مهمًّا:

- هذه البلاد غريبة كغرابة أهلها، فليس كل ما تراه هو ما تراه، إنها بلاد ساحرة، تكاد تسحر عينيك كما تسحر عقلك.

لم يفهم حسين ما الذي يود سي الطيب قوله، فسأله أن يوضح أكثر، فقال:

Twitter: @ketab_n

- أقصد أيها الباشا أن بلاد الهند شاسعة كبيرة تختلط فيها الديانات بالعادات، والقبلية بالملكية، والولاء بالعداء، فيصعب على الغريب فك طلاسم ما يحدث، كل شيء له وجهان هنا، إنهم يفكرون بخلاف ما نفكر به، وحساباتهم تكاد تختلف عن حساباتنا، فمن تراه صديقًا لك قد يتحول إلى عدوك في لمح البصر، والعكس صحيح، إن الولاء هنا كالماء، لا يهم من أين منبعه ما دام يروي العطش.

ثم طرق بقبضته على خشب السفينة، وهي عادة يمارسها البحارة بدون أن يعلموا لماذا:

- كن على حذر من كل شيء أيها الباشا!

لم يفهم حسين ما الذي يود سي الطيب قوله غير أنه يجب أن يكون على حذر، ألم يكن هذا دأبه دائمًا؟ لم يلتفت لما يقوله سي الطيب بعد ذلك، ما يهم الآن أن هناك حليفًا قويًّا ومدينة لها سور وجنودًا مسلحين مستعدين للقتال.

نزل حسين مع سي الطيب وسارا برفقة وفد ضخم كان في انتظارهم إلى قصر مالك عزيز الذي يقع على ربوة تطل على الميناء، كان قصرًا جميلًا مزينًا بالرخام الأبيض وحوله الكثير من الأشجار والحدائق ومجاري الماء النقي. انبهر حسين ومَن معه بجمال المكان وحسن تصميمه، ثم أكمل الوفد طريقه إلى داخل القصر، فلاحظ حسين كمية الثراء التي عليها مالك عزيز ومدينته، فلم يسره ذلك؛ فالثراء في نظره ضعف كبير خلال الصراع، فمن ناحية هو يجعل الشعب أكثر رفاهية وأبعد عن حمل السلاح والدفاع والرباط، ومن ناحية أخرى يجعل الحاكم

Twitter: @ketab_n

في موقف ضعيف لأنه لا يريد أن يخسر كل تلك الثروات والقصور والزينة التي يستمتع بها، ولكن هل سيختلف الوضع مع مالك عزيز؟

تذكر حسين مدينة جدة وأثرياءها، ولكنه الآن هنا، لن يستطيع فعل شيء، فهذا ما لديه وعليه أن يتعامل معه.

سار الوفد من ممر إلى آخر، ومن قاعة إلى أخرى، حتى توقفوا أمام بوابة كبيرة يحرسها جنود بأبهى حلة، يحملون أسلحة لم يرها حسين من قبل، عبارة عن مقابض تخرج منها عدة نصال حادة مرنة تشبه السوط، وأذرع حديدية كمخالب الحيوانات المفترسة يضعها الجند على أيديهم ويستخدمونها لضرب العدو وتمزيق جسده أو تحطيم رأسه.

فُتح الباب بسرعة فظهرت من خلفه قاعة رخامية رائعة، يجلس في وسطها مالك عزيز وحوله الوزراء والأمراء وقادة الجند في استعراض للقوة والثراء.

لم يستطع حسين أن يخفي استغرابه بعد أن وقع بصره على مالك عزيز، فقد كان أبيض البشرة، مع احمرار ظاهر في وجنتيه وأنفه، ينسدل شعره الذهبي إلى كتفيه، وله عينان تشبهان زرقة البحر، وقف مالك عزيز على قدميه عندما رأى حسين واحتضنه وقبَّله، لم يعتد حسين أن يُقبِّله أحد منذ أن وصل إلى الهند؛ فالهنود لم يكونوا يُقبِّلون بعضهم بعضًا، كانت حركات مالك عزيز قوية حتى تلك التي تعبر عن احترامه ومحبته، لم يكن هنديًّا بالتأكيد، فليست هذه عادة الهنود كما حدَّث نفسه بذلك.

جلس حسين مع مالك عزيز فترة طويلة ناقشا خلالها كل ما

Twitter: @ketab_n

يهمهما، العثمانيين والصفويين والمماليك والبرتغاليين وحتى تجارة البهارات وغيرها من الأمور التي يريدان أن يتبادلا أخبارها.

وبعد أن أخذ منهم الحديث عدة ساعات طلب مالك عزيز من حسين أن يذهب ليرتاح على أن يأتي لزيارته مساء بعد صلاة المغرب لتناول العشاء لأنه يريد أن يُعرفه على مجموعة من الرجال الذين سيساعدونه في مهمته.

غادر حسين متجهًا إلى جناحه في القصر فأمسك بيد سي الطيب وسأله عن مالك عزيز، فهو يريد أن يعرف عنه أكثر الآن، ولا سيما أن لونه لا يشبه لون الهنود ولا حركاته تشبه حركاتهم، فهو غريب، ولكنه ملك عليهم في ذات الوقت.

رد سي الطيب ويده ما زالت في يد حسين:

- لست أعرف عنه الكثير، ولكن مولانا قاسم أخبرني أنه كان عبدًا روسيًا تم أسره في إحدى المعارك، ثم انتقلت ملكيته من شخص إلى آخر حتى انتهى به المطاف مملوكًا لدى أحد ملوك الهند المتنفذين، ونظرًا لولائه الشديد الذي أبداه لسيده وشجاعته في المعارك فقد جعله سيده قائدًا للجيش، وبعد وفاة هذا الملك استطاع مالك عزيز أن يستولي على الحكم ويُبعد جميع المنافسين ويستقل بالمدينة التي يحكمها وهي نفس المدينة التي يجلس على عرشها الآن.

هز حسين رأسه مستغربًا من وجود المماليك حتى في الهند، فقد كان يعتقد أنهم ظاهرة مصرية فقط.

وفي المساء حضر حسين إلى القاعة التي يجلس بها مالك

Twitter: @ketab_n

عزيز الذي رحب به ترحيبًا حارًّا وعرَّفه على مظفر شاه حاكم كجرات قائلًا:

- إن مظفر شاه صديق قديم وحليف جديد، وقد اتفقنا على قتال البرتغاليين منذ أن ظهروا على سواحل الهند.

استمتع حسين بتلك الليلة، فقد شعر أنه في أيد أمينة، فمالك عزيز ومظفر شاه لديهما إمكانيات عسكرية كبيرة، ما جعله يشعر أن مهمته ليست بالخطر الذي كان يتوقعه، وأن قواتهم قادرة على هزيمة الأسطول البرتغالي فيما لو أحسنوا استخدام المصادر التي تحت أيديهم.

وخلال تلك الليلة وفيما هم جالسون في القاعة بعد تناول الطعام، دخل أحد الحرس وأسرَّ في أذن مالك عزيز، فهز رأسه وتحدث مع الحارس قليلًا قبل أن يقول لضيوفه:

- لقد جاءنا رسول من «الساموثيري» يريد مقابلتي على انفراد، وقد طلبت منه الدخول لتستمعوا لما يريد قوله.

لم يفهم حسين ما الذي يحصل، فقد كان لدى «الساموثيري» منذ بضعة أيام ولم يوافق على مساندة الأسطول المملوكي، بل إنه طلب منه المغادرة بأسرع وقت ممكن، فما الذي تغير؟! وهل يريد أن يقنع مالك عزيز بطرده كما فعل هو؟!

تحركت الأفكار في رأس حسين بسرعة ولكنه لم يصل إلى نتيجة مقنعة. دخل الرسول الذي يلبس مثل البانيان. نظر إليه حسين نظرة استغراب، فليست هذه عادة الرسل في اللباس، لقد جاء متخفيًا في زي تاجر إذن! ولكن لماذا؟!

Twitter: @ketab_n

تقدم الرسول إلى مالك عزيز، ثم نظر إلى كل من حسين ومظفر شاه وكأنه لم يتوقع وجودهما، فقال له مالك عزيز:

- إنهما من حلفائي أيها الرسول، وسرك سيكون مصونًا بينهم، قل ما تريد.

تردد الرسول قبل أن يقول:

- سيدي الملك، أنت تعلم أن مولاي «الساموثيري» يكره البرتغاليين، ولكنه في موقف ضعيف، فمملكته تقوم على التجارة ولا يستطيع أن يُغلقها في وجه أي أحد، ولو قرر أن يقاتلهم فإنه سيكون وحدَه وسط الممالك الهندية المتحالفة معهم، فهو يعلم أن مستقبل مملكته يقوم على التجارة الحرة، وأن البرتغاليين وإن لم يستخدموا العنف حتى الآن فإنهم سيستخدمونه مستقبلًا، لأنهم محتلون، والمحتل لا يعرف أن يتصرف سوى أن يكون محتلًّا.

واصل الرسول حديثه:

- إن سيدي سيُشارك معكم في المعركة من بعيد، بدون أن يعلم البرتغاليون بذلك، وسيرسل لكم مؤونة ومالًا ورجالًا، ولكن طلبه الوحيد هو ألَّا يتم الإعلان عن ذلك، وسيُنكر أي ارتباط بكم فيما لو حدث شيء.

نظر الرجال بعضهم إلى بعض، قبل أن يرد مالك عزيز:

- نحن نشكر «الساموثيري» على حكمته ودعمه، وسنكون ممنونين لذلك، وأرجو أن تبلغه تحياتنا ودعاءنا له.

ركع الرسول ضامًّا كفيه أمام وجهه ثم استدار مغادرًا، وقبل أن يخرج من القاعة توقف واستدار إلى الجالسين مرَّة أخرى ليقول لهم:

Twitter: @ketab_n

- لقد طلب مني مولانا قاسم الحق أن أخبركم بأن الحاكم البرتغالي في الهند قد علم بوصول الباشا حسين إلى ديو، وأنه طلب من ابنه «لورنزو» قيادة الأسطول البرتغالي لمجابهته، وأعتقد أن الأسطول في طريقه إليكم، ويُستحسن أن تستعدوا أنتم بدوركم.

سأله مالك عزيز:

- ومتى سيصل أسطولهم إلى هنا في اعتقادك؟

- سترون سفنهم في الأفق خلال ثلاثة أيام من الآن على ما أعتقد.

عرف حسين لماذا نصحه المستشار قاسم بالمغادرة إلى ديو، فالمدينة قد أعلنت الحرب على البرتغاليين بعكس بقية المدن الهندية التي إما ما زالت مترددة وإما أنها تحالفت معهم، ووجود حسين في ديو سيعطيه الدعم المادي والمعنوي في حربه ضدهم، ووجود المستشار قاسم في بلاط «الساموثيري» سيعطيه أفضلية الإنذار المبكر حالما قرر البرتغاليون القيام بأي عمل عسكري ضده.

اتفق المجتمعون في ذلك المجلس على أن يكون حسين باشا هو قائد الأسطول الذي سيجابه الأسطول البرتغالي المتجه إليهم، فطلبوا منه وضع خطة لمواجهته.

وقبل موعد وصول البرتغاليين، أرسل حسين أغلب أسطوله إلى البحر لإخفائه عن الأعين، وأبقى سفينتين ترفعان العلم المملوكي تابعتين له على مدخل الميناء، بالإضافة إلى سفن هندية أخرى طلب منها أن ترفع العلم المملوكي تكون محاذية لسفينتيه،

Twitter: @ketab_n

ثم طلب من الأبراج التي على السور أن تضع أكوامًا من الأخشاب على قممها في انتظار الإشارة منه.

وبعد ثلاثة أيام، وكما حدد الرسول، وصل الأسطول البرتغالي إلى ميناء ديو، وعندما اقترب من الميناء فتح مدافعه على السفن التي كانت على المدخل ظنًا منه أنها هي كل الأسطول المملوكي. بدأت السفن تتفجر وتحترق بفعل القذائف البرتغالية، وتناثرت شظاياها في كل مكان، وما إن اقتربت سفن البرتغاليين ودخلت إلى خليج ديو، حتى أمر حسين بإشعال أكوام الأخشاب التي وُضعت أعلى السور، فشاهدت سفن الأسطول المملوكي التي أُرسلت إلى عرض البحر الإشارة فتقدمت إلى الميناء بهدوء، وحاصرت الأسطول البرتغالي ومنعته من الخروج من الخليج، عرف «لورنزو» أنه أصبح محاصرًا، فأمر سفينتين من سفنه بكسر الحصار بأي وسيلة كانت، فاندفعت السفينتان في اتجاه الأسطول المملوكي، فتصدى لهما بحارة الأسطول المملوكي بقوة واستطاعوا الوصول إلى تلك السفن، وحصل اشتباك بالسيوف والخناجر، وفي هذه الأثناء تحركت السفن الهندية الصغيرة التي كانت مختفية خلف السفن الكبيرة للمساندة، وحين شاهد «لورنزو» ذلك قرر أن يدخل إلى الميناء ويستولي عليه مهما كان الثمن بعد أن فقد الأمل في الخروج منه.

تبعته سفينة حسين ودفعته في اتجاه منطقة ضحلة، غرزت سفينة «لورنزو» في الرمال ومالت إلى جانبها وفقدت القدرة على الحركة، فأحاطت بها السفن المملوكية والهندية وبدأت بقصفها بالمدفعية، فأصابت قذيفة ساق «لورنزو» فبدأ يصرخ من الألم،

Twitter: @ketab_n

ثم أصابته قذيفة أخرى وقطّعته أوصالًا، وبعدها اندفع المماليك والهنود إلى السفن البرتغالية وأعملوا فيهم السيف، ولم ينجُ سوى تسعة عشر رجلًا رموا أنفسهم في البحر وأنقذتهم السفن الأخرى.

بعد أن علم المسلمون بمقتل «لورنزو» سمحوا لبقية السفن البرتغالية بمغادرة الميناء بسلام، ومع نهاية المعركة التي اعتقد المسلمون أنها ستكون نهاية الوجود البرتغالي في البحر عم الفرح كل المناطق التي تبنت المقاومة، وانتشر خبر هذا الانتصار الباهر في كل موانئ البحر، وأصبح حسين باشا هو البطل المخلِّص، ورفع الناس الأعلام المملوكية في كل أرجاء الهند تمجيدًا للأبطال الذين نجحوا في إزالة خطر الغزو. أما بالنسبة إلى البرتغاليين فقد أصابهم اليأس والقنوط، وتحصَّنوا في مراكزهم التجارية وقواعدهم البحرية في انتظار أن يحدث شيء، فقد انهزموا بعيدًا عن ديارهم، ولم يبقَ لهم سوى القليل من السفن التي نجت من التدمير، وبدأوا يفكرون جديًّا في المغادرة عندما تصلهم الأوامر من البرتغال بذلك.

Twitter: @ketab_n

٢٤
جزيرة البحرين

وقف جوهر خارج المزرعة التي يعيش فيها ابن رحال وزوجته حليمة، تحدث مع الحارس ودس شيئًا في يده قبل أن يسمح له بالدخول، مشى في ظلمة الليل في اتجاه المنزل الذي يقبع في ركن هادئ من المزرعة، لم تكن هناك سوى شعلة أمام الباب الرئيسي للمنزل تضيء ما حولها، وبقيت جوانبه الأخرى غارقة في ظلام شبه دامس، ملأت أصوات الضفادع وحشرات الليل أسماع جوهر، شعر بنوع من الضجيج الذي لم يكن معتادًا عليه، وكأن الحشرات قد قررت أن تزعجه في ليلته هذه، وصل قريبًا من المنزل واتجه إلى اليسار ومشى محاذيًا له بضع خطوات ثم توقف.

ظهر ظلٌّ من خلف المنزل وتحرك في اتجاهه، ثم سمع صافرة صغيرة لفتت انتباهه، نظر حوله ليتأكد من أن لا أحد يتبعه ومشى في اتجاه الصافرة، كانت فرح هناك في انتظاره.

سألها بهمس:

- هل أحضرت معك شيئًا؟

- نعم.

Twitter: @ketab_n

ثم رفعت صرة صغيرة إلى وجهه قائلة:

- إن هذا أغلى ما استطعت جمعه لك.

- هل الخنجر الذي حدثتني عنه في الصرة؟

- نعم، إنه أغلى ما في المنزل، اذهب الآن.

شاهدت فرح لمعان أسنان جوهر في ظلمة الليل بعد أن ابتسم:

- لا، لن أذهب، سأدخل معك إلى غرفتك.

- ماذا؟! هل أنت مجنون؟!

- اسمعيني يا فرح، لقد أعطيتني كل ثمين وقعت يدك عليه، سأكون حرًّا قريبًا وسنتزوج، فلماذا لا أدخل إلى غرفتك؟ لم أعد أطيق الابتعاد عنك!

- لا، لا، إنك مجنون، لن يحصل شيء قبل أن تكون حرًّا ونتزوج!

أمسكها من يدها بقوة وسحبها في اتجاه الباب الذي خرجت منه، لم تستطع الصراخ، ثم أغلق الباب بهدوء.

بقي صوت الحشرات في الخارج كما هو، وبقيت الشعلة تحرق الحشرات التي تنجذب إليها محدثة صوتًا كصوت الهمس، وكثرت الحشرات المحترقة أسفلها.

وفي صباح اليوم التالي، دخل الأمير ناصر إلى قصره، وتفاجأ بقلة عدد التجار الذين يترددون عادة على مجلسه، فسأل جوهر الذي كان واقفًا بقربه:

- أين الضيوف؟ لماذا قل عددهم ولم يعودوا يحضرون كما كانوا يفعلون؟!

Twitter: @ketab_n

أشار جوهر إلى تاجر هندي جالس غير بعيد وطلب منه أن يتحدث عن سبب قلة التجار الهنود في مجلس الأمير، ركع البانيان قليلًا قبل أن يقول:

- إن الأوضاع لم تعد كما كانت أيها الأمير، فالطرق البحرية أصبحت خطرة جدًّا، والبرتغاليون بدأوا يكشرون عن أنيابهم، فقبل خروجنا من الهند، علينا أن نذهب إلى مراكزهم التجارية لنأخذ منهم إذن الخروج وندفع ضريبة البضاعة التي نريد إخراجها معنا، لقد كان إذن الخروج هذا يحمينا من السفن البرتغالية التي كانت تقطع علينا الطريق من حين إلى آخر، أما الآن فإنهم يطلبون رشاوى حتى وإن عرضنا عليهم أذونات الخروج وإيصالات دفع الضرائب، لقد أصبح من الأفضل ألَّا نتاجر لأن ما ندفعه من ضريبة ورشاوى للبرتغاليين أكثر مما نربحه، لقد اختلفت الأوضاع أيها الأمير، لم يعد الخط التجاري بيننا وبينكم سالكًا.

- ولكن لماذا لا تحاربونهم وتنتهون منهم؟

- إن ملوك الهند مختلفون كثيرًا فيما بينهم، والكل يريد كسب ود البرتغاليين؛ لأنهم يعتقدون أنهم أقوياء وأنهم سيحمون التجارة ولكن هذا لم يحصل، لم يتجرأ على الوقوف في وجوههم سوى القليل من ملوكنا، وهؤلاء منعوهم من فتح مكاتب تجارية، وأذكر منهم ملكًا من ملوك الهند يُسمى مالك عزيز، وهو في صراع معهم الآن.

أكمل التاجر الهندي:

Twitter: @ketab_n

- لقد وصل إلى ساحل الهند أسطول من مصر يقوده حسين باشا، وهو أسطول قوي، وعلمت أنه رسا في ميناء ديو قبل أن أحضر إلى هنا، ويعلم اللّه ما الذي حدث الآن، إن الوضع يتفاقم يومًا بعد يوم، فالبرتغاليون قد بدأوا يتحولون من تجار إلى مقاتلين، وخلافات ملوكنا أصبحت أكثر من ذي قبل وأكثر حدة!

أشار الأمير ناصر بإصبعه إشارة سريعة متوترة، ففهم الضيوف الموجودون على قِلتهم أنه يطلب منهم المغادرة، وبعد خلو المجلس أمر جوهر أن يبعث برسالة عاجلة إلى السلطان مقرن يطلب منه فيها أن يسمح له بإرسال أسطول ورجال لمحاربة البرتغاليين الذين عطَّلوا التجارة من وإلى الهند، ويخبره فيها بأن الوضع لو بقي هكذا فإن تجارة سلطنة الجبور ستكون في خطر.

لم يفهم جوهر السبب من وراء إرسال هذه الرسالة، فلم يكن الأمير ناصر من هذا النوع من الرجال، فتوقفت يده عن الكتابة وهو ينظر إلى الأمير ناصر محاولًا التأكد من مقصده.

- اكتبها يا جوهر ولا تتردد، فهذه المشكلة هي وسيلتنا الوحيدة لإرسال الراعي بعيدًا عن القطيع!

ثم ضحك ضحكة مجلجلة، وبعد أن هدأت ضحكته أكمل إملاء الرسالة على جوهر:

- وتعلم أيها السلطان العظيم أنني مصاب بألم في أسفل ظهري لا أستطيع معه الحركة وركوب الخيل، وسأرسل ابن رحال ليقود الأسطول بدلًا مني، فهو خير مَن يفعل ذلك.

Twitter: @ketab_n

بعد أن خطَّ جوهر بيده هذه الجملة نظر بخبث إلى سيده، وأدرك هدف الأمير ناصر من الرسالة، فهز رأسه مستغربًا من دهائه.

شاهده الأمير ناصر وأعاد له الابتسامة:

- وهل كنت تتوقع مني أن أغادر إلى الهند بعد أن أصبحت جليمة على وشك الوقوع في حبائلي، هيا، اختم الرسالة وأرسلها إلى السلطان.

وبعد عشرين يومًا تقريبًا وصلت رسالة من السلطان مقرن إلى الأمير ناصر بالموافقة على اقتراحه بإرسال ابن رحال للانضمام للأسطول المملوكي لمحاربة البرتغاليين، وأن عليه أن يمده بما يستطيع من مال ورجال وعدة حرب بدون أي تأخير.

وفي أحد الأيام وبينما كان ابن رحال جالسًا أمام الأمير ناصر وبينهما لوح الشطرنج، بدأت بيادق الأمير ناصر تتساقط الواحدة تلو الأخرى أمام بيادق ابن رحال الذي بدا مهتمًّا باللعبة ومركزًا ومفكرًا في كل حركة بخلاف الأمير الذي كان فكره بعيدًا.

لمس الأمير طرف شاربه قبل أن يقول:

- لقد فُزت يا ابن رحال، ومع أنك لم تقتل الملك بعد إلا أنك قتلت أغلب جنودي. لديَّ خبر لك!

ثم مد يده إلى جانبه وتناول رد السلطان وسلمه إليه.

قرأ ابن رحال الرسالة، وعرف من رد السلطان أن الأمير ناصر هو من اقترحه ليقود الحملة إلى الهند، لم يكن هناك أحد غيره يستطيع أن يخاطب السلطان في أمر كهذا.

Twitter: @ketab_n

انهارت حليمة ولم تقوَ على الوقوف بعد أن قرأ عليها ابن رحال رسالة السلطان مقرن، فبدأت في البكاء بشدة حتى كادت دموعها تبلل كتف ابن رحال، ولكنه لم يُعلمها بأن الأمير ناصر هو مَن اقترح اسمه للذهاب إلى الهند، فقد أبقى ذلك في طيات نفسه.

- اسمعي يا حليمة، أريدك أن تغادري إلى والدك في هرمز حال سفري، ولا تبقي بعدي طويلًا، فلن أكون مطمئنًا وأنت هنا وحدك!

أجابت حليمة بصوتها المتهدج:

- حسنًا، ولكني سعيدة هنا، وسأكون في انتظار عودتك، و...

قاطعها:

- لا، لن تبقي هنا، بل ستغادرين بعد سفري مباشرة، هل فهمت؟

- حسنًا، حسنًا، لا تغضب، أعدك بذلك، سأغادر بعدك مباشرة، ولكني لست أفهم سبب إصرارك واستعجالك!

- سأقول لك السبب لاحقًا، أما الآن فتجهزي للسفر فقط.

انهار حلمها بحياة سعيدة هادئة مع زوجها الذي تحبه، وبمرور الأيام وطنت نفسها على الفراق، فكانت تعطي بعض الأموال لخادمتها فرح لتوزعها على الفقراء طالبة منهم أن يدعوا بعودة زوجها سالمًا، وهذه بدورها كانت تُعطي الأموال لجوهر أملًا في جمع ما يكفي من المال لسفرهما بعيدًا.

Twitter: @ketab_n

وفي يوم المغادرة امتلأ الميناء بالحشود الغفيرة من الناس، نساء وأطفال وشيوخ، يودعون المجاهدين، لم تكن سفن ابن رحال تملك المدافع كما هي حال سفن البرتغاليين، وكانت صغيرة نسبيًّا ومن ذوات الشراعين، وقد أرسل السلطان مقرن معه مائتين من البندقجية العثمانيين الذين أرسلهم له شريف مكة لمساعدته في القتال.

تنقبت حليمة وخادمتها فرح، وذهبتا إلى الميناء لوداع ابن رحال وإن كان من بعيد، فحليمة لم تكن تطيق البقاء في المنزل وحبيبها يغادر بدون أن تراه، فاختلطتا بالنسوة حتى ترياه بدون أن يراهما، فهو لن يقبل بوجودها في هذا المكان أبدًا.

انشغل ابن رحال لبعض الوقت في التأكد من استكمال تموين الأسطول بالماء والغذاء والسلاح، وامتلأ الميناء بالمودعين والباكين، أعداد كبيرة من البشر تبكي وتتحرك وتحمل وتمسح الدموع، كان ابن رحال يظهر حينًا ويختفي حينًا آخر وسط الناس وعيون حليمة لا تكل من البحث عنه، وكلما ظهر من بين الجموع ابتسمت ومسحت عينيها حتى تراه بشكل أفضل، وحين يختفي تترك لعينيها حرية البكاء. كانت فرح تشاركها في ذلك وتساعدها في البحث عن ابن رحال عندما يختفي.

بدأت السفن بترك الميناء واحدة تلو الأخرى، حتى غادرت كل السفن ولم يبقَ سوى الأبناء والأحباب والزوجات الذين آثروا البقاء لملاحقة آخر نظرة وآخر رائحة وآخر إشارة من الحبيب الذي غادر. استظلت حليمة وفرح تحت شجرة نخيل غير بعيدة عن كل ذلك، وبقي أيضًا الأمير ناصر الذي ما فتئ يلوح للأسطول بيده

Twitter: @ketab_n

مبديًا حزنًا مبالغًا فيه، وبجانبه جوهر الذي بقي يحرك بصره في كل اتجاه وكأنه يبحث عن شيء ما.

وأخيرًا وقع بصر جوهر على فرح التي كانت واقفة تحت ظل شجرة نخيل قريبة من الميناء، وعرف أن حليمة هي التي تقف بالقرب منها.

همس في أذن الأمير ناصر قائلًا:

- ها قد غادر الراعي وترك لك القطيع.

ثم أشار إلى المرأتين حتى يراهما الأمير:

- عندي لك مفاجأة يا مولاي، سأعرضها عليك بعد أن نكون وحدَنا في المجلس.

- وما هي المفاجأة؟ قل لي هيا.

- سأقول لك يا مولاي لا تقلق، وأنا أنتظر منك هدية نظيرها.

سكت الأمير ناصر بعد أن طلب جوهر منه هدية، فقرر تأجيل الحديث في الموضوع؛ فهذا العبد بدأ يتحدث كثيرًا عن الحرية والمال، كما حدَّث الأمير ناصر نفسه.

أبقت حليمة ناظريها على سفن ابن رحال وهي تختفي في خط الأفق البعيد، كان قلبها يتقطع لفراقه، فهي وحيدة في أرض لا تعرف أحدًا فيها، انهمرت دموعها ومدت يدها بدون أن تشعر إلى يد فرح التي بقيت تبكي بدورها، فتقاطعت أصابعهما وضغطت كفاهما على بعض وكأنهما يقسمان قسمًا غير منطوق ببقائهما معًا. شعور غريب انتابهما، شعور بالعزلة والضعف

Twitter: @ketab_n

والانكسار والهشاشة، إنها الدنيا حين تُعطيك ظهرها وتُعلن عن مخاصمتك ثم يصبح كل شيء في حياتك على غير ما عهدته، حتى الألوان تختفي وتندمج في لون رمادي كئيب فيصبح العالم مرعبًا مزبدًا مظلمًا لا خير فيه وكأن الأمل قد نُزع منه نزعًا مؤلمًا.

لم يكن الأمير ناصر يستطيع رؤية اهتزاز المرأتين وبكائهما من بعيد، فتفكيره في حليمة أعماه عن الشعور بألم الفراق وبما يشعر به الناس عندما تُنتزع منهم فلذات أكبادهم وقرناء أرواحهم.

لم يُبعد ناصر بصره عن حليمة وهو يقول لجوهر:

- اذهب إليها وقل لها إنني سأزورها الليلة، قل لها أي شيء، ولكن يجب أن أراها الليلة.

نظر جوهر إلى سيده بنوع من الاستغراب؛ فلم يكن متأكدًا من أن سيده يعي ما يقول:

- ولكنها لن توافق يا سيدي، فهي حزينة لفقدان زوجها وعليك أن تصبر قليلًا حتى تسلو عنه و...

قاطعه ناصر بغضب:

- اللعنة عليك! ولكن إلى متى؟ إنني أريدها بأسرع وقت ممكن، أنا مستعجل، وتعرف أنني حين أرغب في امرأة فإنني أحصل عليها، ولن تكون حليمة استثناءً، هل تسمعني؟

يعلم جوهر أن حريته ومستقبله يعتمدان على دوره في إرضاء سيده بأي وسيلة كانت، وقد تكون حليمة هي آخر امرأة سيعمل على تقديمها لسيده لأنه بعد أن يحصل على حريته والمال الذي وعده به فسيتركه إلى بلاد أخرى.

Twitter: @ketab_n

- أمهلني بعض الوقت يا مولاي، سأعمل ما بوسعي لكي تحصل عليها، ستساعدك مفاجأتي على أن تصل إلى ما ترغب بهدوء وبدون ضجيج، عليك أن تصبر فقط.

ثم نظر إلى سيده بطرف عينيه الخبيثتين قبل أن يقول:

- ولكن لا تنسَ ما وعدتني به يا سيدي، الحرية والمال.

نظر الأمير ناصر إلى الأفق وكأنه يريد أن يتأكد من اختفاء سفن ابن رحال، ثم أعاد بصره إلى المكان الذي تقف فيه حليمة، ما زالت هناك، فلم تعد ساقاها تحملانها وهي تشاهد حبيبها مغادرًا، فجلست على صخرة صغيرة وبقيت فرح واقفة بالقرب منها.

- دعنا نذهب إليها ونتحدث معها، فهي أضعف ما تكون الآن.

شاهدت فرح الأمير ناصر يقترب منهما، مدت يدها وحركت كتف سيدتها التي نظرت إليها ثم نظرت إلى حيث أشارت لها فرح.

جففت دموعها بطرف خمارها ثم رفعته ليغطي وجهها كله، فلم يعد يظهر من وجهها سوى خيال بسيط للناظر. اقترب الأمير ناصر وجوهر منهما، حاولت النهوض ولكنها لم تستطع، فضغطت فرح على كتفها لتبقيها جالسة في مكانها، فليس هذا وقت المجاملات التي لا معنى لها.

أبقت فرح بصرها على الرجلين فيما ازداد تنفس حليمة حتى كادت فرح تسمعه. سلم الأمير عليهما:

- السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

Twitter: @ketab_n

ردت فرح بصوت مسموع، وتحركت شفتا حليمة بصوت يشبه الهمس على تحيته.

تعود الأمير ناصر على أن ينتقل بين شخصيتين متناقضتين بسرعة، فهو من طينة البشر المتقلبين الذين يحسنون التمثيل على الآخرين، فتحدث بلسان غير لسانه، وسمت غير سمته قائلًا:

- لا تحزني يا حليمة، لقد غادرَنا ابن رحال ليدافع عن الإسلام ويحارب البرتغاليين، وسيعود إلينا سالمًا غانمًا منتصرًا بإذن اللّه.

تذكرت حليمة ما قاله لها زوجها عنه، فانكمشت في نفسها وتقلصت معدتها وانتابها شعور بالخوف والتوتر، وبدأ قلبها يحدثها بدوره في إرسال زوجها إلى الهند، ولكن ما حيلتها في أمر كهذا! كم كانت تود لو يتركها حتى تبكي حبيبها، ولكن هذا الرجل كان كالمرض الذي يأتي بدون سابق إنذار، وعليها أن تتعامل معه، فهو الآمر الناهي في غياب السلطان مقرن، ولا تعلم ما الذي يمكن أن يفعله في غياب زوجها.

كانت عينا ناصر تتحركان في جسد حليمة وكأنهما تبحثان عن ثغرة يستطيع منها التسلل إليها، ولكن حليمة تكورت على نفسها وأخفت ما يمكن أن يظهر من جسدها بعد أن شعرت بلسعات عينيه وجرأتهما.

بقي الأمير واقفًا لبعض الوقت أمام المرأتين بدون أن يتحدث، فقد كان خائفًا من أن يقول شيئًا يفسد خطط جوهر، ثم قرر أن يواصل:

Twitter: @ketab_n

- أرجو من اللّه أن يعيد إليك زوجك سالمًا، فهو الوحيد القادر على قيادة أسطول كبير مثل هذا.

ثم سكت لوهلة قبل أن يواصل بنوع من التردد:

- عليَّ أن أذهب إلى قصر الحكم حتى أنهي بعض الأمور هناك، فلا أحد يستطيع فعل شيء بدوني.

قال جملته تلك وكأنه يريد أن يُذكِّرها بمنصبه ومكانته ونفوذه، ولكن حليمة لم تكن تسمع ما يقول، فبصرها مركز على خط الأفق الذي أخفى حبيبها، كم تكره خط الأفق هذا، إنه المكان الذي ينقطع فيه البصر ويختفي عنده الأحباب، كم تمنت لو أنها تستطيع أن ترمي الأمير فيه فيختفي إلى غير رجعة.

غادر ناصر يتبعه جوهر، فشعرت حليمة بثقل روحه حين سحبت نفسًا طويلًا ثم أطلقته بهدوء وكأنها لم تكن تتنفس خلال وجوده.

مدت يدها لفرح لتساعدها على النهوض، لم تكن حليمة قد جلست طويلًا ولكنها شعرت بتصلب في ركبتيها وألم في أعلى ساقيها وجفاف في حلقها، فبقيت ممسكة بذراع فرح لفترة قبل أن تقول:

- دعينا نعُد إلى المنزل، فأنا متعبة جدًّا، وعلينا أن نغادر إلى هرمز غدًا، إنها سفرة طويلة مجهدة.

دخلت إلى غرفتها، نظرت إلى الصندوق الذي وضعت فيه خنجر السلطان مقرن وبعض مقتنياتهم الثمينة وملابسهم، قررت أن تأخذه معها في سفرتها، فهي لن تترك هذا الصندوق يغيب عن

Twitter: @ketab_n

ناظريها، ترددت قليلًا ثم عادت إلى الصندوق وفتحته، تناولت منه ثوبًا من ثياب زوجها وشمته، ثم أخذته معها على السرير وبدأت تتلمس رائحته وهي تبكي، تذكرت أنها لم تشاهد الخنجر، ولكن أين سيختفي؟ لا بد أنه تحت طيات تلك الملابس، تدثرت باللحاف ونامت قليلًا، وحلمت حلمًا غريبًا: «كانت تسير في طريق وكأنها تائهة، وعلى ذراعها طائر جميل ملون يُغرد طوال الوقت، تأملت تفاصيله، ثم بدأ هذا الطائر يتحول أمامها إلى طائر كاسر ذي عينين مخيفتين ومنقار حاد طويل، ثم تضخَّم هذا الطائر كثيرًا حتى أصبحت لا تقوى ذراعها على حمله، وعندما فرد هذا الطائر الكبير جناحيه لم يعد أمام حليمة سوى أن تبصق عليه، فجأة عاد هذا الطائر إلى ما كان عليه، طائرًا ملونًا جميلًا يُغرد بصوت بديع، حاولت أن تمسكه بيدها الأخرى فطار واختفى في السماء، استيقظت لتجد جسدها غارقًا في العرق. صوتت على فرح التي جاءت مهرولة، فحكت لها الحلم».

- هل تستطيعين تفسيره لي يا فرح؟

- يبدو غريبًا يا سيدتي، أضغاث أحلام لا أكثر.

- ليس كذلك يا فرح، إنني أحفظ كل تفاصيله وكأنني أراه، حتى إن عيني الطائر كانتا تتحدثان إليَّ بلغة كدت أفهمها، كل شيء في هذا الطائر بدا مألوفًا، هناك أمر ما في هذا الحلم يا فرح!

احتضنتها فرح بقوة، وقالت:

- إنك تمرين بظروف صعبة، فمغادرة ابن رحال ليست سهلة عليك، سيكون كل شيء على ما يرام يا سيدتي.

Twitter: @ketab_n

ثم دفعت كتفي حليمة بعيدًا عنها حتى تستطيع أن تراها:

- اسمعي يا سيدتي حليمة، يجب أن تكوني أكثر قوة، أنت لست صغيرة الآن، لا تدعي الحزن يستولي عليك، لن أحتمل رؤيتك حزينة طوال الوقت، يجب أن نساعد أنفسنا لنحتمل بقية الأيام القادمة، لن تستطيع أي واحدة منا أن تقوم بذلك وحدها، أرجوك يا سيدتي كوني معي.

ثم أمسكت فرح بطرف اللحاف ورفعته إلى وجه حليمة لتمسح دموعًا انحدرت على وجنتيها:

- قومي الآن، هيا تحركي فوراءنا سفر طويل إلى هرمز.

نزلت حليمة من السرير تتبعها فرح وهي ممسكة بذراعها، وقبل أن تفتح باب الغرفة التفتت إلى الصندوق الذي كان يضع فيه ابن رحال أثمن مقتنياته وملابسه وسألت:

- لقد فتحت الصندوق ولكنني لم أشاهد الخنجر الذي أوصاني عليه ابن رحال، لا بد أن أتأكد من وجوده أسفل الملابس حتى أطمئن.

تدفق الدم بقوة إلى وجه فرح، وبلعت ريقها عدة مرات بسرعة:

- ولماذا تفكرين في الخنجر الآن؟ انسي موضوعه لبعض الوقت!

- ولكنه خنجر مهم، إنه للسلطان مقرن كما تعلمين.

ردت فرح بسرعة وبطريقة متلعثمة:

- وأين سيختفي؟ لا بد أنه في الصندوق ولكنك لم تبحثي عنه جيدًا، انسي موضوعه الآن، وسأبحث أنا عنه لاحقًا!

Twitter: @ketab_n

كم كانت فرح تود لو أن الأرض تنشق وتبتلعها، وشعرت بهول الخطأ الذي ارتكبته في حق نفسها وحق سيدتها.

ثم سمع الجميع صوتًا من الخارج يقول:

- أنزلوا رحالكم، لقد شاهد البحارة سفن البرتغاليين تجوب الخليج، وهم يرفضون الإبحار، لن نستطيع السفر إلى هرمز هذه الأيام.

Twitter: @ketab_n

٢٥
مملكة هرمز

كان الهواء منعشًا على شاطئ هرمز، ففي شهر سبتمبر يعتدل الجو وتذهب الرطوبة ويحبذ سكان هرمز الجلوس على شاطئ البحر أو التنزه في السوق، لم يكن الجو صافيًا جدًّا في ذلك الصباح، فقد بقي شيء من ضباب سابحًا في الجو ومضيفًا نوعًا من الجمال على البحر الذي كان مثل الزجاج الهش القابل للكسر.

ومع ارتفاع الشمس، ازدادت حرارة الجو وانقشع الضباب وصفت السماء، وبدأ أهالي هرمز يتحركون في السوق حاملين مظلاتهم التي تقيهم حرارة الشمس وهم يشترون أنواع الطعام لتخزينها، لم يكن الحديث يكثر خلال الشراء، فقد رفع التجار أسعار الطعام والناس يدفعون ما لديهم نظير أي كمية منه، بدت الوجوه حزينة منكسرة، ولم يكن هناك حديث في السوق عن البضائع الجديدة وحركة الرياح ونشاط التجارة والسفن القادمة كما كانت العادة، بل كان يتمحور حول ما فعله البرتغاليون في مدن الساحل العماني، وعن السفن التي حملت الضحايا مقطعي الأوصال والمشوهين إلى الشواطئ، ولم ينسَ الناس السفينة

Twitter: @ketab_n

الصغيرة التي وصلت من عمان مؤخرًا، فقد تحدث ركابها عن مجازر قام بها البرتغاليون هناك، لقد كان ركاب السفينة أشباحًا مشوهة بشكل فظيع، فقد قُطعت آذانهم وأنوفهم وهزلوا حتى بانت عظام صدورهم، وبعضهم مات في السفينة من كثرة ما فقد من دماء. لن ينسى الهرامزة تلك المناظر البشعة، هم الآن أمام حقيقة قاسية، أمام مجرم لا يرحم؛ أرسل إليهم رسالة لا تقبل أي تفسير عما يمكن أن يفعله فيمن يقاومه.

بدا الميناء خاليًا في ذلك اليوم، فلم تكن السفن لتبقى كما تفعل سابقًا، بل كانت تُنزل بضاعتها وتتموَّن ثم تغادر بأسرع وقت ممكن، فالحديث عن مجيء البرتغاليين جعل التجار في حال تحفز وخوف، وعدم وجود سفن في الميناء يعني أن الأمور ليست على ما يرام، وهذا يدفع التجار لإخراج أموالهم من الجزيرة إلى أي مكان آخر، وهذا يعني أيضًا أن الجزيرة بدأت تنزف بقوة وإن لم يتوقف هذا النزيف فإن الموت هو مصيرها المحتوم.

فجأة وبدون مقدمات، دوى صوت نفير من سور قلعة الملك، وتحولت أنظار الناس إلى مصدر الصوت، ثم جذب انتباههم صوت شخص آخر يشير إلى الأفق:

- لقد وصلوا، إنهم هنا!

من بعيد ظهرت سفن البرتغاليين الكبيرة وكأنها وحوش في الأفق، لم يشاهد الناس شيئًا مشابهًا من قبل، سفن ضخمة مرتفعة عن البحر حتى إنها تكاد تطير فوقه، تدفعها أشرعة مربعة الشكل كبيرة الحجم، ظهر الصليب الأحمر واضحًا عليها وكأنها

Twitter: @ketab_n

جاءت حاملة الموت معها، لم تكن هرمز مستعدة لمجابهة شيء كهذا، فما يشاهدونه الآن لم يكونوا يتخيلونه، أهي قلاع متحركة في البحر، أم أن الرعب يجعل المرعوب يرى خصمه ضخمًا وأكبر من حجمه الحقيقي، ولكنهم لا يملكون خيارًا آخر، عليهم أن يدافعوا عن مدينتهم بكل وسيلة ممكنة.

جاءت هذه الصرخة بمثابة إنذار لمن يستطيع حمل السلاح، فخرج كلٌّ بما يستطيع حمله إلى ساحل البحر، لقد شاهد الناس خلال الأيام الماضية سفنًا كثيرة تحمل نساء وأطفالًا من جزيرة هرمز إلى الساحل الفارسي هربًا من الموت القادم، كانت عملية النقل هذه تتم بنوع من التكتم، فلم يكن أثرياء هرمز يرغبون في أن يتحدث الناس عن أنهم يهربون عائلاتهم وأموالهم خارج الجزيرة، ولكنها عادة الأثرياء، هم أول المستفيدين وأول الهاربين.

بعد هذا النفير أصبح الفرار علنيًا، فقد شوهدت الكثير من العائلات وهي تتجه إلى سواحل الجزيرة حيث سفن المهربين في انتظارهم لنقلهم إلى أي مكان يرغبونه بعد دفع مبالغ ضخمة لهم، فتحول الساحل الشمالي للجزيرة إلى مكان مزدحم بالهاربين الذي يحملون ما خف وزنه وغلا ثمنه في مأساة إنسانية أخرى اختلط فيها صراخ النساء والأطفال بصراخ ربابنة السفن وهم يرفعون أسعارهم بشكل جنوني، رعب لم تشهده الجزيرة من قبل.

خرج الرجال بدروعهم وسلاحهم واصطفوا أمام الميناء بشكل عشوائي، يقف خلفهم الفرسان بأزيائهم الجميلة، وخلفهم الهجانة برماحهم الطويلة، وركض البحارة إلى سفنهم الصغيرة،

Twitter: @ketab_n

وفي خلال ساعات كان الجميع مستعدًّا للقتال، أو هكذا ظنوا أنفسهم.

فُتح باب القصر وخرج الملك على فرسه بدون زينته التي اعتادها إلى الميناء، يرافقه الخواجة عطار وقائد الجيش، وانضموا لجمع المرابطين على الميناء، نظر الخواجة إلى السفن البرتغالية وهاله حجمها وعدد المدافع التي تطل من كواتها، ثم نظر إلى جيشه وعرف أنه سيخوض معركة غير متكافئة، فالجيش الهرمزي بدا متهلهلًا ضعيفًا وغير منضبط، فمنذ أن بدأ الصراع بين الإخوة قبل عدة سنوات وهو في حال من الإهمال وقلة التدريب والتجهيز، ولم يكن الوقت كافيًا لفعل أي شيء الآن.

كانت أنظار الناس مُسمَّرة على خط الأفق، إلى تلك الوحوش التي تحركها الأشرعة المقدسة، الجميع بدا متحفزًا وغاضبًا مما شاهد وسمع عن المشوهين الذين تلقيهم زوارقهم ببؤس على شواطئ هرمز، ولا يريدون أن يكونوا رقمًا آخر يضاف إلى ضحايا البرتغاليين.

اقتربت السفن كثيرًا من الميناء ورمت مراسيها، كان «البوكيرك» قد جمع الكثير من المعلومات من الأسرى والبحارة عن قوة هرمز العسكرية والمالية، فأصبح متلهفًا لابتلاعها والسيطرة عليها بأي ثمن، وكان ما كتبه «كوفيلهام» عن ثرائها وجمالها الدافع الحقيقي لظهور «البوكيرك» على شواطئها، فخلال الرحلة لم يمل «ميكيل» من تذكير «البوكيرك» بما كتب «كوفيلهام» في ملفه عن هذه الجزيرة، فحرك هذا الوصف غريزة الدم وحب المال لديه، فقرر أن يأخذها قبل الوصول إلى الهند كما كان يخطط.

Twitter: @ketab_n

أنزلت إحدى سفن الأسطول البرتغالي زورقًا عليه مندوب «البوكيرك» الخاص، السيد «ميكيل فيريرا»، وشق هذا الزورق طريقه وسط السفن العسكرية التي ازدحمت في الميناء حتى وصل إلى الرصيف، فلما نزل رافقه ضابط هرمزي إلى الملك ووزيره خواجة عطار، فتلا «ميكيل» رسالة «البوكيرك» التي تطلب من ملك هرمز الاستسلام ودفع الجزية أو دمار المدينة على رؤوس أهلها.

سأله الملك:

- ولكن ما الذي تريدونه منا؟ لماذا لا تتركونا في حالنا؟

ردد «ميكيل» جملة تتناسب وشكله القاسي الذي لوحته الشمس:

- نحن رسل ملك البرتغال، وكل هذه الأراضي والمدن والبشر هي ملك لملكنا المعظم بناء على اتفاقية «توردسيلاس»، وعلينا أن نرفع عليها علمنا وصليبنا، لقد أتينا لنشر المسيحية وإنقاذ البشرية من الهرطقة، وعليكم التسليم بذلك.

سمع الملك هذا الكلام، فقال للرسول:

- إننا نطلب من «البوكيرك» مهلة للتشاور مع أعيان المدينة، وسنوافيكم بردنا غدًا صباحًا.

اعتبر «البوكيرك» رد الملك تحديًا له، وقرر أن يغزو الجزيرة غدًا صباحًا قبل أن يصله الرد، وفي الليل أمر سفنه بالاقتراب قدر الإمكان من الساحل بدون أن يلاحظها أحد، وفي صباح اليوم التالي استيقظ الناس على أصوات انفجارات لم يعهدوها، وصعدوا إلى أسطح منازلهم لمعرفة ما الذي يحصل، وهالهم أن

Twitter: @ketab_n

يروا السفن البرتغالية تقصفهم، فبدأت الحرائق تشتعل وصراخ الضحايا يصل إلى مسامعهم، لم تكن تتوقع هذه المملكة أن يتم غزوها وضربها بالمدفعية، فكان ما يحصل لهم كالحلم المزعج الذي يتمنون أن يستيقظوا ولا يشاهدوه، فالموت الذي ينطلق من كوات السفن الجاثمة على مدخل مدينتهم هو الذي ينشر أجنحته عليهم الآن.

ركض الناس في أزقة المدينة وطرقها لا يعرفون إلى أين يذهبون وكيف يحتمون من هذه القذائف، والنساء يولولن والأطفال يصرخون، لم يشاهد الناس القذائف من قبل، فانتشر الهرج والمرج فيهم، وتعرض قصر الملك للقصف بشكل مكثف حتى تحولت أجزاء منه إلى ركام.

بدأت السفن الهرمزية تخرج من الميناء لتهاجم السفن البرتغالية التي كانت لها بالمرصاد، وحال أن تخرج يتم تدميرها، وأنزل البرتغاليون زوارقهم الصغيرة التي شُحنت بالبحارة، فكانوا يقتربون من الجرحى والغارقين فيطعنونهم بالرماح القصيرة أو السيوف، ثم يستخدمون الخطاطيف لجذبهم إليهم ونزع ما عليهم من دروع وأسلحة وجواهر، فامتلأ مدخل الميناء بجثث الموتى والمقطعين واحترقت الكثير من السفن الراسية على مدخله.

تبعثر الجيش الهرمزي، وكثرت الضحايا، ولم تنفع الخيول ولا الهجانة في صد الموت القادم من البحر، وفي لحظات بدا كل شيء فوضويًا، فليس هناك قيادة ولا تشكيلات ولا تعليمات، ولم يعرف الناس كيف يحتمون من هذه الحمم القاتلة.

ومن بعيد شاهد الناس أعلامًا بيضاء ترتفع على قصر الملك

Twitter: @ketab_n

فرفعوا أعلامًا بيضاء بدورهم أيضًا حتى يراهم البرتغاليون فيتوقفون عن القصف، كانت عينا «البوكيرك» التمساحيتان تراقبان ذلك من بعيد وخلفه «ميكيل» ممسكًا بملف «كوفيلهام»، فقد كان يحتاج لفتح الملف من حين إلى آخر للرد على استفسارات «البوكيرك» عن الجزيرة وثرائها وقوتها ونقاط ضعفها، قبَّل «ميكيل» الملف وكأنه يُقبِّل امرأة جميلة، فقد ساعده هذا الملف على الإجابة عن استفسارات «البوكيرك» التي لا تكاد تتوقف، ومع حلول المساء أمر «البوكيرك» سفنه بوقف القصف، فقد تحولت مملكة هرمز الرائعة إلى أنقاض.

وبعد آخر قذيفة أطلقها البرتغاليون، احتاج الناس لبضع دقائق ليتأكدوا من أن الأعلام البيضاء قد أدت دورها، وبدأوا يسمعون صراخ الناس من تحت الأنقاض أو أولئك المحترقين في الطرقات والمقطعة أوصالهم، وبدأ البحر يرمي بالجثث على الساحل، فتكدست فوق بعضها، وحركها الموج فبدت وكأنها تعبث مع بعضها بهدوء، كان منظرًا بشعًا، شعر الخواجة أن نهاية العالم قد قامت، فلن تعود هرمز كما كانت بعد هذا اليوم.

وبعد أن شاهد «البوكيرك» الأعلام البيضاء تُرفع على المباني والمنازل ابتسم وبان على وجهه الرضا، فقال لضباطه:

- أما الآن، فنعم، من السهولة أن نتفاوض مع المنهزمين.

لم يعلم سكان هرمز على ماذا يبكون، هل على مدينتهم المحطمة، أم على الأرواح التي خطفتها القذائف، أم على سوء الطالع الذي أحضر هذه السفن إلى سواحلهم؟ فمملكة هرمز الجميلة تحترق الآن، وبيوتها مهدمة، وطرقها مدمرة، وجثث

Twitter: @ketab_n

سكانها تملأ سككها وأزقتها، وموج البحر يعيد جنودها إليها، لقد كان كل شيء محطمًا، فما بناه الأجداد في قرون حطمه «البوكيرك» في ساعات.

ومن مئذنة المسجد الكبير في المدينة دوى صوت الأذان بصوت متردد يغلبه البكاء، لم يستطع المؤذن أن يكمل، فأكمل الناس عنه وهم يبكون، فأمر «البوكيرك» أحد ضباطه بضرب مئذنة المسجد لإسكاتها نهائيًا، لم تصبها القذيفة ولكنها انفجرت قريبًا منها محدثة هزة قوية حطمت جزءًا من أساسها فمالت المئذنة على جنب قليلًا مما جعل المؤذن يخاف من البقاء فوقها، فسكت الأذان ولم يُرفع من ذلك المسجد بعدها أبدًا.

باتت مملكة هرمز ليلتها تلك تسمع أنين الجرحى والمكلومين، صراخ ينطلق من كل حي ومن كل زقاق وناحية، جمع الناس الجرحى في الطرقات وذهبوا يبحثون عمن يستطيع معالجتهم والاعتناء بهم، وكلما انتزعت روح من جسدها دوى صراخ الفزع والنحيب، وعمل حفارو القبور طوال ليلهم ونهارهم حتى تعبوا وبدأوا يضعون الجثث في حفر ضحلة ويهيلون عليها التراب فقط، لتأتي الكلاب ليلًا وتنبشها وتأكل منها، فالجميع بحاجة للطعام في ذلك الوقت حتى الكلاب.

وفي صباح اليوم التالي كانت أعين الناس تراقب تلك القلاع العائمة في البحر خوفًا من أن يتطاير الشرر منها مرَّة أخرى ويدمر ما بقي من حياة في مملكتهم، فشاهدوا زورقًا ينزل من إحداها متجهًا إلى الميناء، وعرفوا أن رسول «البوكيرك» قد وصل مرَّة أخرى.

Twitter: @ketab_n

تجمع من به قوة من الناس أمام قصر الملك في انتظار ما ستُسفر عنه زيارة الرسول خوفًا من أن ينزل بهم ما نزل بسكان مدن الساحل العماني.

وفي داخل القصر كان شيرغل في حالة من الفزع والحزن لا تسمح له باستقبال الرسول، فاستقبله الخواجة عطار، وكعادة رسل «البوكيرك» لم يأتوا ليناقشوا بل ليفرضوا شروطهم.

دخل «ميكيل» مسلحًا ومدرعًا بكل عنجهية، ووقف أمام الخواجة عطار وفتح رسالة وبدأ بقراءتها:

أنا رسول سيدي الحاكم «ألفونسو البوكيرك»، آمركم بالاستسلام وقبول الشروط التالية:

*** أن تدفع مملكة هرمز إتاوة سنوية لملك البرتغال يحددها الحاكم «البوكيرك».**

*** أن تفتح الجزيرة ميناءها أمام التجارة البرتغالية.**

*** أن تكون عائدات الضرائب لمصلحة ملك البرتغال.**

*** أن يُرفع العلم البرتغالي على قصر الحكم.**

*** أن تكون كل ممتلكات مملكة هرمز ومستعمراتها ملكًا لملك البرتغال.**

*** أن يُعين على الجزيرة مستشار برتغالي يحكم باسم «البوكيرك».**

لم يفهم الناس شيئًا عندما خرج رسول «البوكيرك» من القصر واتجه إلى الزورق الذي كان في انتظاره، ولكنهم شاهدوا الخواجة عطار وهو يمشي بكل تثاقل ناظرًا إلى الأرض ثم وقف أمامهم ليقول:

Twitter: @ketab_n

- لقد استسلمت مملكة هرمز للبرتغاليين!

اختلط شعور الناس بين فرح وحزن؛ فرح بأنهم خرجوا من كابوس القصف وتقطيع الأوصال، وحزن لأنهم خسروا مملكتهم وملكهم وأسلوب حياتهم التي اعتادوا عليها لسنوات طوال، وأصبح مستقبلهم بيد من لا يرحمهم.

بدأ الناس بالبكاء والصراخ وكأنهم شعروا بهول الصدمة وقوتها.

وفي عصر ذلك اليوم كانت البحرية البرتغالية تستعرض قوتها في الطريق العام أمام الميناء رافعة الصليب في استفزاز وقح لمشاعر الناس، ثم شاهد الناس علمًا آخر عليه صليب أحمر كبير يرفرف على قصر الملك، فعلموا أن هذا هو أهون القادم.

Twitter: @ketab_n

٢٦
ساحل الهند الغَربي

انتشر خبر انتصار الأسطول المملوكي على طول الساحل الغربي للهند، وبدأت الأخبار تختلط بالأساطير كعادة البحارة في أحاديثهم وهم جالسون حول النار لتناول الطعام، فتحول الأمير حسين القادم من مصر إلى رمز للمقاومة، وحاول الكثيرون، ممن لم تسنح لهم الفرصة لرؤيته، تخيله كما يسمح به خيالهم، فجاء في مخيلتهم بعدة صور وأشكال مختلفة، حتى قيل إنه يركب بساطًا يطير فوق الماء، ويقاتل بسيفين أحدهما من نار والآخر من برق، وبدأت الأمهات يتحدثن عن حسين لتهدئة أطفالهن عندما يصابون بالرعب من قصص البرتغاليين التي يتداولها الناس؛ فقد أصبح الأمل لسكان السواحل المرعوبين، والأسطورة التي يتغنى بها الشباب وهم يتحدثون عن المقاومة، لكن الأساطير كعادتها ليست ثابتة، فهي تتغير بتغير المتحدث والمتلقي والزمن والظروف.

كانت ردود الفعل على هذا الانتصار مختلفة، ففي هرمز المحطمة أصبح خبر انتصار الأسطول المملوكي على البرتغاليين شمعة في ظلام الهزيمة، وبدأ الشعور بالأمل يحل مكان اليأس،

Twitter: @ketab_n

وبدأت خلايا المقاومة تتشكل لاصطياد بحار سكير أو لحرق مستودع للطعام أو نهب مكتب لجبي الضرائب في الميناء. وكان أكثر الغاضبين من خبر انتصار المماليك هو «البوكيرك» الذي أمر «ميكيل» بالبحث عن أفضل مكان لبناء قلعة تحمي البرتغاليين من خطر الاغتيالات، ويستطيع أن يحكم منها ويحفظ فيها كنوزه بأمان. لم يبحث «ميكيل» طويلًا، فقد اختار الجامع الكبير في وسط المدينة الذي خرج منه آخر صوت للأذان في هرمز، فهو كبير وجاهز بعد أن تم عمل التعديلات المطلوبة عليه، وهذا لن يستغرق وقتًا طويلًا.

علم خواجة عطار بنية «البوكيرك»، فذهب إليه طالبًا أن يغير رأيه لأن قرارًا مثل هذا سيهيج الناس، وقد تسري روح المقاومة في الجزيرة، وقد يتخذ الصفويون مثل هذا الأمر ذريعة للتدخل، وبعد عدة لقاءات تمت بين «البوكيرك» والملك شيرغل وخواجة عطار تم الاتفاق على بناء القلعة في شمال الجزيرة على رأسها الناتئ، غير بعيد عن الساحل الفارسي، ليحمي الجزيرة من أي هجوم من قبل الصفويين مع وجود مكتب في الميناء لجبي الضرائب، على أن تُنقل هذه الأموال مخفورة بعسكر هرمزي وبرتغالي إلى القلعة في نفس اليوم، وحتى الانتهاء من بناء القلعة سيكون المسجد الكبير في المدينة هو قلعة البرتغاليين ومخزن ثرواتهم.

وقف «البوكيرك» بعد أن انتهى الاجتماع بدون أن ينظر إلى الملك أو الخواجة، وأشار إلى النتوء في شمال الجزيرة:

- سنبني قلعة كبيرة هناك، وسنُسميها «سيدة النصر».

Twitter: @ketab_n

نظر الخواجة إلى الملك شيرغل الذي لم يكن يعنيه سوى أن يبقى على عرشه بعد أن فقد كل شيء آخر. لقد عرف الخواجة أن الملك فقد إحساسه بالمكان والزمان، لقد أصبح شيرغل عبئًا على الجزيرة وعلى العرش، هكذا حدَّث الخواجة نفسه بعد أن تأمل ملكه المسكين.

رد «ميكيل» بنوع من التشفي:

- إنه اسم جميل أيها الحاكم، سيدة النصر.

عصر الخواجة قبضته وكأنه يحاول أن يكتم غضبًا عارمًا في صدره، فالتفت إلى «ميكيل» الذي كان جالسًا بالقرب من «البوكيرك»، فالتقت عيونهما، فأبقى «ميكيل» بصره مركزًا على الخواجة في بادرة تحدٍّ يفهمها الجميع وهو يقول:

- نعم يا سيدي، إنه اسم جميل، سيدة النصر، سيبقى العالم يتذكر هذا الاسم لسنوات طويلة قادمة، إنه النصر على هؤلاء الهراطقة الذي منَّت به علينا السيدة المقدسة.

ثم ابتسم بخبث وكأنه قد أحال كلماته إلى سكين يتحرك في أحشاء الخواجة.

وفي ديو بقيت الاحتفالات على أشدها لعدة أيام قبل أن تصلهم أنباء انتصار «البوكيرك» في معركة «هرمز»، وأنه يقوم ببناء قلعة تسمى «سيدة النصر» سينطلق منها لاحتلال بقية الموانئ في شرق الهند.

في مثل هذا الجو وصل ابن رحال إلى ديو. كان وصوله حدثًا ضخمًا؛ فقد شعر الناس أن القوات الإسلامية قد بدأت

Twitter: @ketab_n

تنظم نفسها لدحر البرتغاليين، وسرت روح الجهاد والمقاومة بشكل سريع وقوي.

وفي القاعة الملكية كان مالك عزيز في أوج نشاطه وحيويته ونشوته، فقد انتصر على البرتغاليين، وبدأ الجميع يحسب له ألف حساب، وزاد هذا الانتصار من شرعيته، وأصبح هذا العبد الروسي سيدًا مطاعًا ومجاهدًا في سبيل اللّه. جلس كعادة الهنود على سرير مذهب ومبطن بالحرير واضعًا قدميه عليه وهو يمضغ التنبول وبرفقته حسين الذي تبدو عليه السعادة وهو يحاول أن يمضغ التنبول الذي قدمه له مالك عزيز، ولكن الأمر لم يكن سهلًا كما يبدو، فمضغُ شيءٍ لا يُبلع ماؤه أمر بالغ الصعوبة ويحتاج إلى أن يعتاد عليه المرء.

بصق مالك عزيز في وعاء مذهب وُضع على طاولة بالقرب من كرسيه ثم مسح فمه بظاهر كفه قبل أن يقول:

- وصل إلينا ضيف عزيز من بلاد العرب يا حسين باشا، ونحن مسرورون بوجوده معنا، فقد أحضر معه عددًا كبيرًا من السفن والمقاتلين المتمرسين ونحن في أمس الحاجة إليهم، وقد أمرت بحسن استقباله، وأريدك أن تتعرف عليه.

رد حسين وهو يحاول التحدث بشكل واضح وورقة التنبول في فمه:

- إنه خبر سعيد أيها الملك، فلا نعلم ما هي قوة أسطول «البوكيرك» الذي غزا مملكة هرمز مؤخرًا، فقد يكون أقوى من الأسطول الذي هزمناه، يجب علينا أن نستعد له أيضًا، فمدافعهم أثبتت فاعليتها في المعركة كما تعلم.

Twitter: @ketab_n

كان ابن رحال قد لبس أجمل ما لديه وتعطَّر وتكحَّل، وكعادة العرب لم يكن لباسه مبالغًا فيه، فوضع على كتفه عباءة مطرزة بخيوط الذهب، ولبس أفضل عمامة لديه، وتزيَّن بخنجر مذهب في وسطه، ولكن مظهره بقي بسيطًا ومتواضعًا إذا ما قورن حتى بوجهاء الهنود. دخل القاعة الملكية التي يجلس فيها مالك عزيز وحسين، فهالته فخامتها وحسن بنائها وثراء صاحبها.
استقبله مالك عزيز بحفاوة بالغة واحتضنه بقوة وقبَّله وأجلسه بالقرب من حسين الذي سلَّم عليه بلغة عربية سليمة.

شعر ابن رحال بالراحة عندما سمع حسين يخاطبه باللغة العربية:

- إذن أنت حسين باشا المشهور؟ لقد سبقتك سُمعتك في البحر، فقد أصبحت بطل البحارة، ووصفوك بكل شيء عدا أنك إنسان طبيعي.

ضحك حسين بصوت عالٍ:

- إنني إنسان طبيعي بالفعل، ولست أحمل بيدي برقًا ولا رعدًا كما يزعمون، ولكن قل لي ما الأخبار من حيث جئت؟

حاول ابن رحال أن يطرد خيال حليمة الذي تشكَّل أمامه بسرعة قبل أن يقول:

- لقد سمعت وأنا بالقرب من الديبل أن قائدًا برتغاليًّا يُسمى «البوكيرك» هاجم عدة موانئ على الساحل العماني ودمَّرها، ثم هاجم مملكة هرمز ودمَّرها أيضًا، وأظنه قادمًا إلى الهند، لأنه كما قيل لي يريد أن يسيطر على خط تجارة البهارات بين الهند وبلاد العرب، فبلاده بحاجة إلى هذه التجارة التي تُدر ذهبًا.

Twitter: @ketab_n

لم يقابل ابن رحال برتغاليًّا من قبل، ولا يعرف كيف هي أشكالهم، ولا حجم سفنهم، سوى ما نقله له البحارة، وهو يعرف أن حديث البحارة يُغلَّف بكثير من الأساطير التي تشوهه، ولم يكن يريد أن ينقل لحسين خبرًا لم يتأكد من صحته، فواصل حديثه:

- أمرني السلطان مقرن بالمجيء إلى هنا للمشاركة في الحرب ضد هؤلاء البرتغاليين، لنحصل على شرف مشاركتكم هذا الجهاد المبارك، فقد سمعنا عنك عندما وصلت إلى الهند من مصر، وسيشرفني أن أكون مجاهدًا معك.

ابتسم حسين مسرورًا بحديث ابن رحال:

- نحن سعيدون بك أكثر يا أخي، فوجودك معنا سيُساهم في هذه المعركة ويجعلنا أكثر ثقة بأنفسنا.

بعد هذا التعريف البسيط قويت العلاقة بين حسين وابن رحال وأصبحا صديقين، وصارح كل منهما الآخر بهمومه، فالغربة تختصر زمن تطور العلاقات الإنسانية وتستعجل صاحبها لتقوية الروابط التي تحميه وتُشعره بالأمان.

كانا يجتمعان خلال الليل على إحدى السفن أو في إحدى غرف القصر ويتحدثان عن آمالهما وطموحهما، فسأل ابن رحال حسين يومًا:

- هل تعرف الحب يا حسين؟

- أعرفه ولكني لم أجربه.

ضرب ابن رحال بيده على مقدمة عمامته وعدل من جلسته قبل أن يقول:

Twitter: @ketab_n

- عليك أن تجربه، ولكن لا يجب أن تبحث عنه، فسيأتيك بدون أن تشعر وكأنه قدرك.

- لم أفهم يا ابن رحال! من الواضح أنك جربته، أليس كذلك؟

- نعم، جربته، وفي هرمز، هذه المملكة المكلومة الآن!

- هرمز؟!

- نعم، كنت خارجًا من معركة في هرمز عندما رأيتها، لم أستطع أن أفارقها، كان كل شيء في وجهها وجسدها يأسرني، عيناها، أنفها، شفتاها، حاجباها، لم أنم تلك الليلة، كانت ليلة طويلة جدًّا، وكأن الشمس قررت ألَّا تخرج ذلك الصباح، مرت الأيام بعدها عليَّ ثقيلة حتى قررت أن أخطبها من والدها بعد أن يئست من نسيانها!

- بهذه السرعة يا ابن رحال؟ ألم تستطع الانتظار قليلًا؟!

- لك أن تتخيل كيف كان وضعي وأنا أترقب ما الذي سيقوله والدها بعد أن حدثته برغبتي في الزواج منها، شعرت أنه كان مترددًا، آآآه يا حسين، لم أصدق أنني ملكتها حتى جاء من أمرني بتركها فتركتها وقلبي يحترق عليها، كانت تقف على رصيف الميناء تبكي بحرقة وأنا أختفي خلف رجولتي خوفًا من أن يفضحني عشقي لها، لقد جاءت تودعني وأنا أتظاهر أنني لم أكن أراها، لم أرغب في رؤيتها في ذلك المكان، ولكنها أصرت على المجيء بدون إذني، أعرفها جيدًا؛ هي عنيدة وحتى لو منعتها فستأتي، قلبها مليء بالحب والطهارة حتى إنه يكاد يسع أهل الأرض جميعًا!

Twitter: @ketab_n

لم يكن حسين يرغب في مواصلة حديث العشق، فقرر أن يغير الموضوع:

- ما الذي سمعته عن «البوكيرك» يا ابن رحال؟

- قيل لي إنه يتلذذ بشرب الخمر في جمجمة طفل، وإن الرعب يسبق سفنه، والخراب والدمار يرافقانه أينما حل، وإنه شخصية دموية تتلذذ بمشاهدة الدماء وتعذيب البشر، ليس إنسانًا طبيعيًّا، فمَن يقطع أوصال الناس ويقسم الأطفال إلى نصفين أمام أمهاتهم ليس بشرًا، إنه وحش في صورة إنسان.

يعرف حسين كيف هم البرتغاليون، ويعرف أنهم لا يملكون رحمة في قلوبهم، فهم ينظرون إلى بقية البشر على أنهم هراطقة يجب تطهير الأرض منهم، ولن يكون «البوكيرك» بأفضل ممن سبقوه إن لم يكن أسوأهم على الإطلاق. كان كعادته يفكر كثيرًا، فحاول أن يُشرك ابن رحال في خطته القادمة:

- علينا أن نستعد يا ابن رحال، فقد قيل عن هذا الرجل الكثير وأعتقد أننا سنواجه عدوًّا شرسًا ماكرًا. إنه لم يصل بعد ولا يعرف الخطة التي استخدمناها مع «لورنزو» في معركتنا الأولى، قد نُطبقها بحذافيرها معه مرَّة أخرى. إن سفنك يا ابن رحَال لا تصلح لمجابهة الأسطول البرتغالي، فهي صغيرة الحجم وليس بها مدافع، سنستخدمها كطعم له حين يصل.

استغرب ابن رحال:

- ما الذي تقصده بذلك؟ سأحتاج إليها للعودة إلى دياري!

ضحك حسين قائلًا:

- إن انهزمنا لن تنفعك سفنك أبدًا. إن رجالك لم يعتادوا

Twitter: @ketab_n

على مواجهة المدافع يا ابن رحال، قد يحسنون استخدام الخناجر والسيوف ولكن المدافع شيء آخر.

رد ابن رحال بنوع من الإصرار:

- صحيح، ولذلك عليك أن تدربنا على مواجهتها والتعامل معها.

قويت العلاقة بين الرجلين إلى درجة كبيرة، وأصبحا مثل الإخوة، ولم يجد ابن رحال غضاضة في أن يبث همومه لصديقه حسين عندما تسنح له الفرصة بذلك. وفي أحد الأيام سأله حسين عن سبب الحزن البادي على وجهه، فقال:

- إنني أتعذب لفراق حليمة، لست أعلم عنها شيئًا، لقد طلبت منها أن تغادر إلى هرمز حال سفري، ولكن البرتغاليين احتلوا الجزيرة الآن، ولست أعلم إن كانت هناك أم بقيت في البحرين، وفي كلا البلدين لست مطمئنًا عليها.

حاول حسين التخفيف عن ابن رحال، ولكنه واصل حديثه:

- هي الآن مقطوعة عني، لست أعلم مكانها، والبريد قد انقطع بين الموانئ بعد ما حصل في هرمز، كم أكره هؤلاء البرتغاليين، لقد دمروا كل ما هو جميل في البحر!

ثم رفع رأسه وسأل حسين:

- ما الذي تنوي عمله الآن و«البوكيرك» قادم إلينا؟

- يجب أن نستعد له، نحن لا نعرف أسلوبه في القتال ولكن قيل لنا إنه يستخدم المدفعية بشكل مكثف لتحطيم المدن وقتل المدنيين، ثم يُنزل قواته لتقتل كل شيء حي فيها، إنه لا يريد أن يرى أسرى، فسفنه لا تحتمل أن يضعهم بها فهي مكتظة بالجنود

Twitter: @ketab_n

أصلًا، ومَن يأخذهم من الأسرى يستخدمهم كرسائل إنذار بعد أن يقطع أوصالهم ويرسلهم إلى المدينة التي ينوي الهجوم عليها وكأنه يقول لهم إن لم تستسلموا فإني سأفعل بكم هكذا.

انشغل ابن رحال وحسين في التدريب وبناء التحصينات وتموين السفن وتعديلها، وكانوا يعتمدون على المستشار قاسم الحق حتى يمدهم بتحركات البرتغاليين الذين بنوا مركزًا تجاريًّا لهم في كاليكوت، ومن هذا المركز التجاري تتسرب أخبار تحركاتهم.

Twitter: @ketab_n

٢٧
جزيرة البحرين

في صباح يوم حار وقبل بزوغ الفجر، كان جوهر في طريقه إلى قصر الأمير ناصر وبيده صرة يبدو أنه حريص عليها، جلس مع الخدم الذين كانوا يرتشفون القهوة في ساحة أمام القصر، كم يكره هذا الشراب المُر الذي أحضره تاجر يمني منذ فترة، لقد سمعه يقول للأمير إنه شراب سحري يدفع النوم وينشط البدن، ولكنه لم يشعر أن هذا الشراب يفعل ذلك، فهو شراب مُر كريه الطعم وكفى.

سكب ما بقي من شراب في فنجانه على التراب وشاهد الأرض وهي تمتصه بسرعة، أخذ صرته مرَّة أخرى ومسها بيده ليتأكد من أن الخنجر موجود بها، لقد استطاع الحصول على فرح ولكنه لم يبلغ سيده بذلك في انتظار أن يحصل على جائزته منه بعد أن يسلمه الخنجر.

دخل الأمير ناصر إلى مجلسه بعد طلوع الشمس بفترة، تقدم منه جوهر وعلى وجهه ابتسامة يعرفها ناصر، فهي ابتسامة تحمل الكثير من المعاني، فبينهما لغة خاصة طوَّراها بحكم علاقتهما الطويلة ببعض:

Twitter: @ketab_n

- ماذا لديك يا جوهر؟ ابتسامتك هذه تدل على أنك قمت بما يجب القيام به.

جلس جوهر بسرعة واضعًا الصرة أمامه وكأنها صيد ثمين:

- لقد التهمت الطائر الصغير، ولم يبقَ سوى أن تلتهم أنت الطائر الكبير أيها الأمير!

بان الاندهاش على ناصر، فحرك جسده إلى الأمام في قفزة سريعة، وهي عادة لم يتركها عندما كان جوهر يأتيه بخبر عن النساء.

- ماذا تقول؟! قل ما لديك وبسرعة!

ابتسم جوهر، وظهرت أسنانه البيضاء التي لم تكن تظهر كثيرًا حتى وهو يحاول الابتسام:

- تعلم أني منذ عدة أشهر وأنا أتقرب إلى خادمتها فرح، وقد قلت لها إنك تريد مالًا مقابل حريتي، وقد كانت تعطيني ما تقع عليه يدها من جواهر وحلي حتى أشتري نفسي منك.

ثم أشار إلى الكيس الذي أمامه قائلًا:

- هذه هي المفاجأة التي حدثتك عنها يا سيدي!

توقف قليلًا قبل أن يمد يده إلى الصرة ويفتحها بهدوء مستمتعًا بتوتر سيده، ثم أخرج الخنجر وقرَّبه من وجه ناصر الذي أخرج زفيرًا من صدره قبل أن يقول:

- ما هذا؟ ما هذا؟ إنه خنجر جميل لم أرَ مثله من قبل!

ثم بدأ يُقلِّبه مستمتعًا بالنظر إلى جواهره وحسن صنعه:

- إنه رائع يا جوهر، هل قالت لك كم ثمنه؟ إنه ثروة يا جوهر، إنه ثروة!

Twitter: @ketab_n

كان ناصر يخاطب جوهر وعيناه مُسمَّرتان على الخنجر، وبعد أن انتهى من النظر إليه وضعه في حزامه وكأنه يريد أن يرى جماله وهو يزين وسطه. فزع جوهر من فكرة أن ناصر قد يتزين بالخنجر، فاختفت ابتسامته فجأة:

- دعني أشرح لك أهمية الخنجر يا سيدي. إن هذا الخنجر لأحد ملوك الهند، صنعه من جواهر والدته وزوجته ليكون هدية للخليفة في القاهرة، وقد أحضره رسوله إلى السلطان مقرن حتى يوصله إليه، وقد تركه السلطان أمانة لدى ابن رحال لأنه كان ذاهبًا لإخماد الثورة في نجد، وأتوقع أنه سيطلبه منه في أي وقت. كان ابن رحال حريصًا على هذا الخنجر أكثر من حرصه على حياته، فقد أخفته حليمة له في صندوق به ملابسه وحاجاته الخاصة ووضعت هذا الصندوق في غرفة نومهما، لم يكن ابن رحال يود أن يبتعد هذا الخنجر عن عينيه طوال الوقت، لقد استطاعت فرح بحكم علاقتها بحليمة أن تسرقه وتسلمه لي، وطلبت مني عدم إخبار أحد عنه، كانت تتوقع أن يكون هو الثمن الذي سيحررني من العبودية.

بقي الأمير مركزًا بصره على الخنجر، مستمتعًا بتفاصيل نقشه ولمعان جوهره:

- أنت شيطان أيها العبد!

ضحك جوهر، فهذا إطراء يحبه من سيده، ثم قال بصوت بين الهمس والجهر:

- إن وجود الخنجر معك يعني أنك استطعت أن تصل إلى غرفة نوم حليمة، هددها به، فلن يصدق الناس وحتى زوجها أي

Twitter: @ketab_n

قصة أخرى سوى أنها أعطتك إياه بنفسها. استخدمه في تهديدها لتحصل عليها، فليس لديك سلاح أفضل منه، ولكن يجب أن يتم الأمر بهدوء وبدون ضجة يا سيدي، قد يحتاج الأمر لبعض الوقت حتى تسقط هذه الفتاة في حبائلك.

ضحك الأمير بصوت عالٍ، وانتشى جسده واحمر وجهه، وكأنه انتصر في معركة:

- لو لم تكن عبدي لقبَّلتُك، ولكن لديَّ هدية ثمينة لك يا جوهر إن حصلت على حليمة.

اختفت ابتسامة جوهر فجأة:

- ألن تعطيني شيئًا نظير هذا الخنجر يا سيدي؟!

- لن تحصل على شيء قبل أن أحصل على حليمة يا جوهر، هل تفهم؟

قال كلمته الأخيرة وهو يضغط على كل حرف، ففهم جوهر أنه نوع من التهديد فتوقف عن السؤال.

لم يعد الأمير ناصر يحتمل، فقال لجوهر:

- عليك أن تذهب إلى حليمة الآن وتخبرها بأنني أريدها، وأن الخنجر لديَّ، فإن تمنَّعت فسأعلن عن عشقها لي، وأنها قد أهدتني الخنجر الذي يحتفظ به ابن رحال في غرفة نومها، أخبرها بشكل واضح، وأخبرها بأن كل الناس ستعلم عن ذلك إن هي تمنَّعت.

صُدم جوهر، ليس لرقة قلبه، ولكنه يعلم أن أمرًا كهذا سيُحدث زلزالًا في المدينة إن انتشر وخرج عن السيطرة، وقد

Twitter: @ketab_n

تسقط رؤوس من جراء ذلك، فابن رحال وزير مقرب من السلطان مقرن، وهي ابنة الوزير خواجة عطار وزير هرمز المشهور، لقد كان يتصور أن يتم الأمر بهدوء وبدون كل هذا الضجيج، صحيح أن الأمير ناصر يستطيع أن يهدد حليمة بالخنجر الآن، ولكن الأمر يحتاج إلى نوع من السرية والحرص اللذين لا يُحسنهما هذا الأحمق.

أمسك جوهر رأسه وكأنه لا يريد أن يصل إلى نتيجة أمر كهذا بعد أن ينتشر الخبر ويتناقله الناس، وبتصرفه هذا فإنما يحاول أن يشرح بلسان الحال حجم المصيبة التي قد تحدث إن رفضت حليمة طلبه، ولكن من الواضح أن الأمير ناصر كان مصرًّا، فكرر قوله مرَّة أخرى:

- اسمع يا جوهر، أنا لم أعد أحتمل، ستذهب إلى حليمة وتخبرها بأن الخنجر معي، وتخبرها أنني أريدها، وإن لم ترضخ فإنني سأعلن على الناس أنها أهدت إليَّ هذا الخنجر الذي وضعه ابن رحال في صندوقه الخاص في غرفة نومه بعد أن عشقتني، والناس ستُصدقني وتكذبها، فأنا الأمير الآن، قل لها ذلك.

حاول جوهر أن يُبدي وجهة نظره:

- مولاي الأمير، إن الخنجر لديك الآن، وتستطيع أن تهدد به حليمة بشكل آخر، أي أنك تستطيع أن تجد مدخلًا لها، ثم تحدثها بشأن الخنجر بهدوء، وستفهم بدون أن تُعلن أنها تحت رحمتك، ولكن أن ترمي التهديد هكذا فإننا أمام فضيحة كبيرة قد تقضي علينا!

تغير وجه الأمير:

Twitter: @ketab_n

- تبًّا لك أيها العبد، ستبقى عبدًا مهما فعلت معك، اذهب الآن وهددها، ولا تناقشني في هذا الأمر مرَّة أخرى!

كان جوهر على وشك أن يتحرك عندما قال له الأمير:

- هل سمعت عن تدمير البرتغاليين لمملكة هرمز مؤخرًا؟ لم يعد والدها وزيرًا بعد هذه الهزيمة القاسية، وربما يكون قد قُتل خلال المعركة، ليس لها أحد الآن، هي بمفردها تحت رحمتي، قل لها إنها لن تستطيع مقاومتي وعليها أن ترضخ لي، هددها بالخنجر، اذهب الآن، هيا، اذهب.

غادر جوهر مترددًا إلى المزرعة التي تسكنها حليمة لرؤية فرح، فهي وحدها التي تستطيع أن توصل طلب الأمير ناصر إلى حليمة، هي وحدها دون غيرها مَن يستطيع أن يُقنع حليمة بالاستسلام لرغبات الأمير. وقف جوهر أمام فرح بكل هدوء قائلًا:

- نعم يا فرح، إنه يريدها، وإن لم يحصل عليها سيفضحها، وسينشر أنه عاشرها وأنها أعطته الخنجر هدية له.

زاغت عينا فرح، وبدأت أطرافها في الرجفان، واحمر وجهها وكأنها شاهدت وحشًا مرعبًا أمامها:

- ماذا؟ ماذا؟ ما الذي تقوله يا جوهر؟! وكيف وصل الخنجر إلى الأمير ناصر؟! ألم أعطك إياه لتبيعه وتشتري حريتك؟!

ثم جلست على الأرض ولطمت بيديها على رأسها وكأنها فقدت شخصًا عزيزًا، فحاول جوهر أن يجد الأعذار لتصرفه هذا:

- كنت أساوم الأمير ناصر على قيمة الخنجر يا فرح، توقعت أنه سيوافق على أن يعطيني حريتي نظيره.

Twitter: @ketab_n

لم تستمع فرح لما كان يقوله هذا الشيطان، وكأنها في حالة صدمة، ويداها تتحركان بطريقة آلية لضرب رأسها.

بكت فرح، ورجت جوهر أن يُقنع الأمير بتأجيل ذلك، أمسكته من ثوبه وهي جاثية على الأرض، كانت كلماتها تخرج من أوداجها، ودموعها تنزل غزيرة على وجهها وهي تجر طرف ثوبه مستعطفة إياه بصوتها المتهدج، كانت كلماتها تخرج معجونة بصوت بكائها:

- قد يموت ابن رحال وتتزوجه، فإن حليمة لا تستحق كل هذه المصائب التي تنزل على رأسها، فهي وحيدة في بلاد غريبة، ولا تعلم عن زوجها شيئًا، ويجب إعطاؤها وقتًا لتنسى ابن رحال. إن ما تفعلونه بها ليس عدلًا، هل تسمعني يا جوهر؟ هل تسمعني أيها المجرم؟

سحب جوهر طرف ثوبه مبتعدًا عن فرح قليلًا:

- لا أستطيع فعل شيء يا فرح، عليك أن تُقنعيها بأن تستسلم لرغبات الأمير، ليس هناك حل آخر، إنك الوحيدة التي تستطيع فعل ذلك.

التفت مرَّة أخرى إلى فرح التي ما زالت جاثية ودموعها تتساقط على الأرض أمامها:

- فكري معي يا فرح، ما الذي سيحدث عندما يُخرج الأمير الخنجر ويعرضه على جلسائه ليقول لهم إنني عاشرت حليمة، وإنها أهدت إليّ خنجر السلطان مقرن؟ مَن الذي سيُصدق قولها ويُكذب قوله؟ حتى السلطان مقرن سيُصدق ما يقوله الأمير ناصر،

Twitter: @ketab_n

ليس هناك حل آخر يا فرح، دعينا ننتهي من هذه المسألة بأسرع وقت ممكن.

توقف جوهر قليلًا وكأنه يريد أن يُهيِّئ فرح لما يريد أن يقوله:

- إنها ليست المرأة الوحيدة التي تستسلم للأمير، هناك المئات منهن، والجميع يعلم بذلك، قولي لها إنها ليست الأولى ولن تكون الأخيرة، لعل ذلك يخفف عنها.

رفعت فرح رأسها لتنظر إلى جوهر بعينين باكيتين غاضبتين، وصكت على أسنانها لتظهر عضلات رقبتها:

- أنت لست سوى إنسان وضيع، استخدمتني لتصل إلى هذه المرحلة، كم أنت وغد، وأميرك وغد مثلك، إنكم ذئاب جائعة مسعورة لا يهمها سوى أن تُرضي شهواتها وغرائزها بذبح شرف النساء على نطع الابتزاز!

ثم أرجعت رأسها إلى الوراء قليلًا وحرَّكته إلى الأمام بسرعة دافعة بصقة قوية من بين شفتيها لتصل قريبًا من قدمي جوهر الذي عادت له الابتسامة الخبيثة التي تناسب وجهه:

- حسنًا، لقد قمت بواجبي وأوصلت لك الرسالة، وعليك أن توصليها إلى حليمة، سأمهلك أسبوعًا فقط، أسبوعًا فقط لا غير يا فرح، أو ستكون فضيحة لابنة وزير هرمز وزوجة الوزير ابن رحال.

وقبل أن يغادر تذكر أمرًا آخر:

- لقد نسيت أن أقول لك إن البرتغاليين هجموا على هرمز ودمروها عن بكرة أبيها، ولم يبقَ فيها حجر على حجر، واللّه

Twitter: @ketab_n

وحده يعلم أين هو والدها الوزير خواجة عطار، عليها أن تعرف أنها وحدها الآن، قولي لها ذلك.

ثم نظر إليها شزرًا وغادر المكان، وبقيت هي تندب حظها الذي أوصلها إلى هذا الموقف الشائن.

لم تستطع أن تفتح الموضوع مع حليمة. كيف ستفعل ذلك؟! أصبحت الدقائق التي تمر كأنها تستقطع لحمًا من جسدها أو سنوات من عمرها، عليها أن تتحدث وبسرعة قبل أن يُنفذ الأمير ناصر تهديده، ولكن قلبها يدفعها نحو الصمت، فحليمة حبيبتها وصديقتها وأختها، فكيف ستقول لها ذلك؟ ومتى سيحين الوقت المناسب؟ إن شاهدتها حزينة فهي لن تضيف لها مصيبة أخرى، وإن شاهدتها سعيدة فهي لا تريد أن تحطم سعادتها، فمتى هو الوقت المناسب يا إلهي؟

لقد أصبحت المسألة برمتها كالدم الفاسد المتراكم تحت الجلد، أو كالسن التالفة المؤلمة التي يجب أن تُخلع. تقدمت فرح بخطوات مترددة نحو سيدتها:

- سيدتي حليمة، يجب عليَّ أن أُصارحك ببعض الأمور التي لا بد أن تعرفيها.

ابتسمت حليمة لفرح؛ فهي تعرف أن همومها لا تتعدى سوء تصرف بعض خدم المنزل، أو الشكوى من بعض عمال المزرعة الذين يحدون النظر إليها عندما تخرج للمشي، أو من بعض النساء اللواتي يأتين للزيارة ويطلن المكوث، ولكن وجه فرح كان مختلفًا هذه المرَّة، مختلفًا بطريقة مرعبة مخيفة، لم يكن هو وجه فرح الذي اعتادت حليمة على رؤيته، تغير وجه حليمة وبان عليها

Twitter: @ketab_n

الخوف مما ستقوله لها، لماذا لم تلاحظ ذلك التغيير خلال الأيام الماضية، ما الذي يدور في رأسها؟

سبقت دموع فرح لسانها قبل أن تقول:

- خلال الأشهر الماضية، حاول جوهر أن يتقرب مني بكل وسيلة، فكان يُحضر لي الكثير من الهدايا والتحف حتى نشأت بيننا علاقة لست أعرف كيف أصفها، ولكنها كانت جميلة في ذلك الوقت، فأصبحنا نتحدث عن كل شيء، عن أحلامنا ومستقبلنا وطموحنا، فقد قال لي إنه حين يحصل على حريته سيتقدم للزواج مني، وسنذهب للعيش في هرمز أو في الهند، حيث سيُتاجر هو في البهارات وسأحصل أنا على منزلي الخاص الذي سيمتلئ خدمًا وحشمًا و... أطفالًا.

كانت حليمة تتابع كل كلمة تخرج من فم فرح وكأنها تتوقع سوءًا يأتي بعدها:

- وبعد عدة أشهر من إغداق الهدايا جاءني ذات يوم وقال لي أن الأمير ناصر يطلب منه مبلغًا كبيرًا من المال نظير أن يعطيه حريته، فأصبحت أنا من يعطيه المال، فاسترجع كل هدية أعطاني إياها، وأصبحت أعطيه من مالي، وحين انتهى بدأت أبحث في كل مكان عن أي شيء ذي قيمة حتى أساعده به.

ثم أنزلت فرح وجهها إلى الأرض لثوانٍ، وعندما رفعته مرَّة أخرى في وجه حليمة قالت:

- لقد أعطيته الخنجر وأنا في لحظة ضعف، الخنجر الذي في الصندوق، خنجر سيدي ابن رحال!

Twitter: @ketab_n

تدفق الدم في وجه حليمة وبدأت تشعر أن كثيرًا من الأمور التي كانت لا تفهمها قد بدأت تظهر:

- أكملي يا فرح.

- إن أكبر خطأ ارتكبته هو أنني سرقت هذا الخنجر الذي كان يخص السلطان مقرن والذي أوصله جوهر بدوره إلى الأمير ناصر.

- ماذا؟! ولماذا الخنجر يا فرح؟! كان بإمكانك أن تعطيه كل شيء آخر عدا الخنجر، إنه أمانة السلطان مقرن كما تعرفين!

بدأت فرح تبكي بحرقة ودموعها تنهمر بكثرة:

- لأني أردت أن أغير حياتي، فقد مللت من كوني وصيفة وخادمة، أردت أن أكون سيدة، لي قصري وخدمي، لقد قال لي جوهر إن هذا الخنجر وحده كافٍ لشراء حريته، ثم إني تصورت أن مسألة الخنجر قد نسيها الجميع!

ثم قامت من كرسيها ورمت بنفسها على أقدام سيدتها:

- أرجوك سامحيني واعذريني، لقد أخطأت خطأ كبيرًا، لأني بفعلتي هذه وضعت رقبتك تحت سكين الأمير!

- لماذا؟ لم أفهم قصدك يا فرح!

- لأنك إذا لم تُذعني له وتسلمي نفسك لرغباته ونزواته فإنه سيقول إنك أعطيته هذا الخنجر بعد أن عشقته وتوددت إليه خلال غياب ابن رحال!

توقف العالم لوهلة، كل شيء توقف، الهواء، والنفس، والحديث، والدموع، كل شيء كان جامدًا في تلك اللحظة، تسمَّرت عينا حليمة وأصبحتا تحدقان في الفراغ، وأصبح وجهها

Twitter: @ketab_n

رخاميًّا بدون أي تعابير غير رجة في جفون عينيها وأطراف فمها، ثم قامت من كرسيها ومشت بضع خطوات قبل أن تخونها قدماها وتجلس ودموعها تنهمر، قامت إليها فرح لتساعدها، ولكن نظرات حليمة تغيَّرت فجأة وأصبحت أكثر حدة وغضبًا:

- ماذا تقولين أيتها الخسيسة؟!

وجذبتها من شعرها بقوة ونزعت خصلات من شعرها بيدها، ثم ضربتها على وجهها بقوة عدة مرات حتى نزل الدم من أنفها وفمها:

- اغربي عني يا كلبة، لا أريد أن أراك، كيف تفعلين بي ذلك؟!

صرخت حليمة وكأنها آخر صرخة لها وهي تغرق:

- اغربي عني، اخرجي من بيتي، لم أعد أريد مشاهدة وجهك!

بقيت فرح على الأرض تتوسل:

- أرجوك سامحيني يا سيدتي، لقد خنتك، أعلم ذلك، وكل ما أرجوه هو أن تغفري لي زلتي!

لم تسمعها حليمة، وكأن كل كلمة تخرج من فرح تسكب وقودًا على غضبها.

قالت حليمة بهستيريا:

- اذهبي عن وجهي أيتها الخائنة، ابتعدي، ابتعدي، لا أريد أن أراك أبدًا، اغربي عني.

ثم انفجرت في نوبة بكاء شديدة.

Twitter: @ketab_n

مرت عدة أيام على منزل حليمة، لم يُوقد فيه فرن، ولم يطلب أحد طعامًا، ولم تُسمع ضحكة أو حديث، كان ليله كنهاره، مملًّا حزينًا مظلمًا، وكان الجميع قد غادره، ولم يبقَ فيه سوى ذِكرى البشر الذين سكنوه، غدا منزلًا كئيبًا، تُسمع فيه أصوات البكاء والنحيب ليلًا ونهارًا وكأن مصيبة قد زارت المكان وتأبى مغادرته.

وفي أحد الأيام تجرَّأت فرح على دخول غرفة نوم حليمة، وتقدَّمت إلى السرير الذي كانت حليمة نائمة عليه بهدوء وقبَّلت جبينها.

شعرت حليمة بذلك، فصرخت بأعلى صوتها:

- اغربي عن وجهي أيتها الكلبة الضالة، لا أريد أن أراك!

- سيدتي، إننا في موقف صعب، وأريد أن أكفر عن خطئي!

- وكيف ستفعلين ذلك؟ إنه يطلب أن أبيعه شرفي نظير الخنجر، فهل تريدينني أن أبيعه شرفي؟! هيا قولي لي؟!

تحدثت فرح بكل هدوء محاولة تهدئة حليمة حتى تستمع لما تريد قوله:

- سيدتي، أنا سأدفع ثمن إصلاح هذا الخطأ غاليًا، ولكن دعيني أشرح لك خطتي ثم قولي ما بدا لك.

انقلبت حليمة على جنبها، فظهر وجهها المتورم من البكاء، تحيط بعينيها هالتان سوداوان، لم تكن هذه حليمة التي عاشت معها فرح كل تلك السنوات.

جلست فرح على الأرض متذللة خجلة، وبدأت تحاول شرح خطتها بدون أن تنظر إلى حليمة، فقد كانت دموعها ونبرة صوتها

Twitter: @ketab_n

وآثار اللطم على وجهها كافية لأن تجعل الحوار جادًّا، فقد سبقته كل تلك الإشارات الواضحة:

- سأستدعيه إلى المنزل يا سيدتي.

- ماذا؟! هل جُننت؟

- كلا، ولكنني أطلب إذنك لأستدعيه إلى المنزل، وسأتصرف أنا وحدي، إن كل ما أطلبه منك هو أن توافقي على خطتي ثم تغادري المنزل، ولا تعودي سوى صباح اليوم التالي!

كان هذا الكلام صادمًا لحليمة، فجلست فجأة على السرير وتوجهت بنظرها إلى فرح:

- كم أكره ما فعلت يا فرح، ولكني لا أرضى أن تُقدمي له شرفك، أن...

فقاطعتها فرح بقوة:

- ليس لدينا وقت لذلك يا سيدتي، إما هذا وإما شرفك، إنني خادمة لك، لا يعرفني أحد وليس لي عائلة سواك، وشرفي لا يهم أحدًا غيري، لقد بعته لجوهر نظير أحلام قد لا تتحقق، ولا مانع لديَّ أن أبيع شرفي من أجلك ومن أجل أن تنتهي هذه الورطة التي أشعر أنها تأكل لحمي وقد تُنهيني ببطء!

ردت حليمة وهي في حالة شبه انهيار:

- لن تفعلي ذلك أبدًا، لن أسمح لك يا فرح، فكري في طريقة أخرى.

وقفت فرح بسرعة وهي تنظر إلى الفراغ:

- ليس هناك طريقة أخرى أبدًا يا حليمة، عليك أن تسمعي لقولي هذه المرَّة، فقد عشت سنوات طويلة وأنا أسمع لك.

Twitter: @ketab_n

وقفت حليمة بدورها وكأنها تريد مواجهتها، وقالت بصوت غاضب:

- لن أسمح لك يا فرح، لن أسمح لك أبدًا، هل تسمعين ما أقول؟ إن هذا جنون!

مدت فرح ذراعيها إلى كتفي حليمة وجذبتها بقوة إليها واحتضنتها وكأنها تريد أن تشعر بها وبحبها:

- لقد أخطأت في حقك يا حليمة، ولا بد من أن أدفع ثمن ذلك، أرجوك اسمعي لي هذه المرَّة فقط!

بقيت حليمة وفرح متعانقتين لفترة طويلة، وكأنهما وجدتا بعضهما بعد تعب، تثاقلت جفون حليمة، فقد شعرت أنها عادت إلى الأمان الذي فقدته لعدة أشهر، إنه حضن فرح الذي طالما شعرت فيه بالدفء، ثم تذكرت حلمها الذي حدَّثت فرح عنه منذ فترة، فهل ذلك الطائر كان فرح؟ وما معنى أن يطير بعيدًا عن يديها؟ لم تكن حليمة متأكدة من أن ما تمر به الآن هو تفسير ذلك الحلم.

Twitter: @ketab_n

٢٨
مملكة هرمز

حاول «البوكيرك» خلال الأيام الماضية تقوية سلطته في هرمز، فانشغل يوميًّا في بناء قلعة «سيدة النصر»، ومراقبة حركة التجارة في الميناء، وفرض الضرائب على السفن القادمة والمغادرة. لكن مشكلته الكبرى كانت في تمرد بعض ضباطه وجنوده عليه، فالحرارة المصاحبة للرطوبة غير المحتملة في هرمز جعلت الكثير منهم يرغبون في الهروب من هذه الجزيرة إلى مناطق أخرى، ومنذ أيام قليلة فقط هربت إحدى سفنه يقودها أحد ضباطه إلى الهند، فكان هدفه الأول هو دفع المزيد من المال للحامية العسكرية البرتغالية المتواجدة معه في الجزيرة حتى لا يُفاجأ باختفائها كلها، ولكن المال غير متوفر في الخزينة الآن، وعليه أن يعيد التجارة إلى سابق عهدها حتى يتدفق المال من عائدات الضرائب مرَّة أخرى.

استولى «البوكيرك» على جزء من قصر الحكم في هرمز، وهو الجزء الذي كان به المجلس الكبير الذي كان يستقبل فيه شيرغل الوفود والضيوف، ولم يبقَ للملك سوى بضع غرف خاصة وقاعة كبيرة حوَّلها إلى مجلس لضيوفه الذين لم يعودوا يأتون كما كانوا سابقًا.

Twitter: @ketab_n

أمر «البوكيرك» باستدعاء الخواجة، فهو الشخص الوحيد الذي يثق في رأيه وإن كان ولاؤه ما زال للملك شيرغل ولهرمز. كم يود «البوكيرك» لو يستطيع أن يُغير ولاء هذا الرجل حتى يجعله مستشاره الشخصي، ولكن لا يهم، فالخواجة سيقول رأيه ويبرره، ثم يرجع له الأمر في الأخذ به أو نسيانه كما فعل مرارًا من قبل.

دخل الخواجة على «البوكيرك» الذي كان جالسًا على كرسي خشبي وأمامه منضدة كبيرة مكدس عليها الكثير من الأوراق الرسمية، وتلك التي تُعطى لربابنة السفن لإثبات أنهم دفعوا ما عليهم من ضرائب، لم يكن «البوكيرك» يسمح بأن يوقع هذه الأوراق أحد غيره، لأنه سمع بأن مسؤول الميناء البرتغالي الذي عينه مؤخرًا كان يأخذ مبالغ من التجار بدون أن يقيدها في حساب المركز التجاري، لقد عرف «البوكيرك» أن ضباطه بدأوا يبحثون عن المال الذي لم يجدوه في البرتغال وأنهم عازمون على أن يعودوا بثرواتهم الخاصة.

تعود الخواجة على ألّا يُسلم على «البوكيرك» بالتحية التقليدية التي كان الناس يستخدمونها هناك بكثرة، لأنه لا يرد السلام كما يجب، ولأنه علم أن «البوكيرك» يكره كل شيء له علاقة باللغة العربية والإسلام، فقال كما يحب «البوكيرك» أن يسمع:

- مرحبًا أيها الحاكم.

- اجلس أيها الوزير، أريد أن آخذ رأيك في موضوع مهم.

جلس الخواجة الذي لم يبدُ عليه أنه مسرور للمجيء، حيث لم تكن العلاقة بين الرجلين جيدة، فهي تعيش على التوازنات التي يريدها كل منهما، فـ«البوكيرك» يحتاج لرأي الخواجة في

Twitter: @ketab_n

الكثير من الأمور الحياتية والقرارات التي تهم المملكة، والخواجة كان يود أن تبقى علاقته مع «البوكيرك» في أدنى درجاتها، فهو يريد أن يعرف الناس أن «البوكيرك» بحاجة إليه، ولكنه لا يريد أن يراها الناس أكثر من ذلك، فهي علاقة بين جندي وأسير، ولكن ما يجتمع الاثنان عليه هو أن تبقى هرمز آمنة وأن تعود إلى سابق عهدها، وإن اختلفت الوسائل التي يراها كل منهما لتحقيق هذه الأهداف.

طلب «البوكيرك» رأيه في بعض الأمور، فقد كان الخواجة يعرف أن «البوكيرك» حريص على أن يُبقي الوضع آمنًا بالنسبة له ولبحارته في هرمز، وهو حريص أيضًا على أن تنتعش التجارة بها، لأن تمويل أسطوله يقوم على الضرائب التي يأخذها من التجار، وفي حال توقفت التجارة فإن أسطوله سيعاني من نقص التمويل الذي لن يحتمله بعد حملة التمرد التي حصلت مؤخرًا.

- إنني بحاجة إلى المال أيها الوزير، وأريد أن أرفع الضرائب على التجارة.

قطب الخواجة بين حاجبيه بسرعة وهز رأسه وكأنه سمع خبرًا سيئًا:

- أنت تعلم أيها الحاكم أن تجارة هرمز تقوم على الخدمات التي نقدمها للتجار، فهم يأتون إلينا لأننا مملكة آمنة ولدينا الكثير من المخازن التي يستطيعون أن يخزنوا فيها بضائعهم، ولدينا الكثير من الخدمات التي تفتقدها الكثير من الموانئ الأخرى، ولذلك يأتون إلينا ويدفعون الضرائب بطيب خاطر ويبيعون ويشترون، وعلى هذا تقوم هرمز وحياتها.

Twitter: @ketab_n

كان الخواجة يغلي محاولًا ضبط نفسه لأنه يشعر أن قرارات «البوكيرك» لا تستند على أي منطق، بل إن منطقه الوحيد هو المال حتى إنه يكاد يعبده، ثم واصل حديثه:

- إن فرض المزيد من الضرائب مع غياب الأمن يعني أن التجار لن يأتوا إلينا، وهذا يعني دمار الميناء والمدينة وهروب الناس منها.

ثم أشار بيده في اتجاه البحر وكأنه يتحدث مع تلميذ كسول:

- أنت تعرف أن مسؤول الميناء البرتغالي الذي عينته أنت مؤخرًا كان يأخذ أموالًا من التجار على أنها ضرائب، ولكنه لم يكن يدونها في السجلات، كان التجار يدفعونها بطيب خاطر، ولكنهم اكتشفوا أن سفنكم تصادر أموالهم حال مغادرتهم للميناء لأنهم لا يحملون أوراقًا رسمية، إن الفساد الذي نعاني منه هو من ضباطك أيها الحاكم فهم يحبون المال أكثر من أي شيء آخر.

قام الخواجة من مكانه وسار إلى النافذة محاولًا أن يرى الميناء:

- هل شاهدت الميناء مؤخرًا أيها الحاكم؟ إن عدد السفن التي به الآن لا تكاد تصل إلى ربع العدد الذي كنا نشاهده في هذا الوقت من السنة، لقد بدأت تهرب، هل ترى هذا؟ بدأت تهرب!

اقترب «البوكيرك» من الخواجة بدون أن يشعر الأخير وقال بصوت به نوع من التهديد:

- اسمعني أيها الوزير، أنا بحاجة إلى المال الآن، إن رجالي يهربون من هذه الجزيرة البائسة لأنني لا أملك المال الذي أستطيع به أن أُغريهم بالبقاء، هل تسمعني؟

Twitter: @ketab_n

هدأ الخواجة من نبرة صوته محاولًا مخاطبة العقل في «البوكيرك»:

- إنني لست سوى مستشار تستشيره فيما تريد فعله، ولكنني أقول لك صادقًا إن قرارك بزيادة الضرائب ليس في مصلحة المملكة وليس في مصلحتكم أيضًا، وهل ستبقى محاربًا لكل المدن التي على الساحل حتى تأخذ أموالًا منها؟ إن كل المدن الساحلية تعتمد على التجارة أيضًا، فإن خاف التجار هربوا إلى أماكن أخرى، أكاد أشاهد بعيني توقف التجارة في هذه المناطق، لم تعد كما كانت، لقد آثر الكثير منهم البقاء في منازلهم لأن الربح أقل من المخاطر بكثير.

أبقى «البوكيرك» عينيه مثبتتين على الخواجة بدون أن يقول شيئًا، ومرت لحظات لم يتحدث فيها أي منهم ولم يقطعها سوى حركة خارج المكتب.

طرق «ميكيل» الباب بهدوء محاولًا جذب انتباه «البوكيرك»:

- إن رسول الشاه إسماعيل في الجزيرة وهو يطلب مقابلتكم يا سيدي.

أبقى «البوكيرك» بصره على الخواجة وهو يسأل «ميكيل»:

- متى وصل؟

- منذ عدة ساعات يا سيدي، لقد جاء من جهة الساحل الفارسي.

- حسنًا، أدخله، نحن بحاجة لشخص مثل الشاه ليكون في جانبنا، لقد سمعت الكثير عن ثروته وقوته، إنه الملك الوحيد الذي استطاع الوقوف في وجه العثمانيين، ولو استطعنا الوصول

Twitter: @ketab_n

إلى اتفاق معه ليفتح لنا الطريق التجاري من البصرة إلى بغداد ومنها إلى الشام فإننا سنختصر الكثير من المسافات، أدخل الرسول بسرعة.

ثم تحدث إلى الخواجة قائلًا:

- تستطيع أن تذهب، لست بحاجة إليك الآن.

غادر الخواجة مستعجلًا وكأنه يهرب من نقاش ليس له نتيجة، وبعد لحظات، دخل الرسول الفارسي يتبعه مجموعة من الخدم يحملون صناديق كبيرة مغلقة يرافقه مترجمه الخاص.

يلبس الرسول ملابس فارسية ثمينة، ويضع في يديه الكثير من الخواتم ذات الأحجار الكبيرة. ركع أمام «البوكيرك» بشكل مبالغ فيه، ثم تلا نصًّا مكتوبًا يمجد فيه الشاه إسماعيل وبطولاته وسلالته وختم كل ذلك بتمجيد ملك البرتغال وفتوحاته، وعندما انتهى طوى الورقة وسلمها لأحد أتباعه، وأمر الخدم بفتح الصناديق وعرضها على «البوكيرك».

كانت الصناديق مليئة بالحرير الفاخر وأواني الخزف والأحجار الكريمة ومجموعة من السيوف والخناجر المذهبة الثمينة.

فرح «البوكيرك» بكل ذلك وطلب من الرسول الجلوس معه للحديث.

عدل الرسول من جلسته وأخرج منديلًا مسح به رقبته ووجهه شاكيًا لـ«بوكيرك» حرارة الجو قبل أن يضع أصابعه في حزامه ويقول:

- سيدي «البوكيرك»، لقد كانت هناك الكثير من المراسلات

Twitter: @ketab_n

بين الشاه إسماعيل وملك البرتغال لتنسيق هجوم على الإمبراطورية العثمانية التي تسبب إزعاجًا لكل من ملكينا العظيمين، وقد حققت هذه المراسلات نتائج كبيرة، منها أن الملك العظيم «مانويل» قد تمكن خلال الأشهر الماضية من إقناع البابا في روما بوجوب الهجوم على العثمانيين من الغرب على أن نهجم نحن من الشرق بشكل متزامن.

توقف الرسول عن الحديث قليلًا، ومسح جانبي وجهه قبل أن يواصل:

- كادت الخطة أن تنجح لكن جابهتها عدة مشاكل، منها أن ملوك أوروبا لم يتفقوا على شكل هذا التحالف، وبعضهم كان مترددًا بسبب مشاكلهم الداخلية، والأمر الآخر هو أننا لم نجد لنا حلفاء في المنطقة لدعم هذا المخطط بنقل الأخبار من داخل السلطنة العثمانية وتوضيح نقاط الضعف، فكان أن قرر الشاه إسماعيل أن يرسل سفارة إلى السلطان الغوري، سلطان مصر، ليقنعه بالتحالف معه ضد العثمانيين، خصوصًا أن جيوش السلطان الغوري في الشام ما زالت في مناوشات معهم هناك، والسفارة في طريقها إليه منذ عدة أيام، ولو نجحت هذه السفارة فإن الغوري سيكون حليفًا قويًّا نعتمد عليه، وسيتشكل تحالف من ثلاث قوى، نحن وأنتم والغوري، ولن تقوم للعثمانيين قائمة بعدها.

توقف الرسول ومسح العرق من جبهته ورقبته مرَّة أخرى قبل أن يبعد عمامته قليلًا ويمسح تحتها أيضًا:

- إن الشاه إسماعيل على استعداد للتعاون معكم بصفتكم ممثل ملك البرتغال، في تحطيم الإمبراطورية العثمانية، ولا

Twitter: @ketab_n

أخفيك أن الشاه إسماعيل يخطط لبسط سيطرته على مكة والمدينة حتى يحصل على شرعية حماية الأماكن المقدسة ويكون هو خليفة المسلمين، وسيحصل ملك البرتغال بعدها على الكثير من الأراضي والامتيازات في هذه المنطقة مما سيجعله سعيدًا وثريًّا أبد الدهر.

قام «البوكيرك» من مكانه وبدأ يتحرك في القاعة جيئة وذهابًا مفكرًا فيما قاله الرسول الفارسي، لقد عرف الآن أن خطوط الاتصال بين فارس والبرتغال أصبحت فعالة، وأن أخباره سيتم نقلها إلى الملك «مانويل» عن طريق البلاط الفارسي بدون أن يكون له دور في صياغتها أو حتى معرفتها، لقد كان قبل هذا اليوم هو المصدر الوحيد للأخبار التي يحصل عليها الملك عن هذه المنطقة، ولكنه أصبح المصدر الثاني الآن.

لم يسعفه الوقت للتفكير بشكل عميق في الموضوع، فقرر أن يُحسن الرد على الرسول لأنه بحاجة لهذه العلاقة التي يرى أنها ستكون مهمة للطرفين كما يبدو:

- اسمع أيها الرسول، إنني أشك في أن هذا التحالف سينجح؛ لأنني سمعت أن السلطان الغوري قد غضب من سيطرتنا على تجارة البهارات، فبلاده تعاني الكثير الآن، فلم تعد قوافل البهارات تصل إلى طرابلس والإسكندرية، حيث تعطل كل شيء، إنهم يعانون من نقص العملات الذهبية التي كانت تصلهم من شركائهم البنادقة.

انتظر «البوكيرك» قليلًا حتى يُنهي المترجم دوره ثم أكمل:

- لقد أرسل السلطان الغوري رسالة تهديد إلى البابا يقول له

Twitter: @ketab_n

فيها إنه إن لم يتوقف البرتغاليون عن تدمير تجارة البهارات فإنه سيهدم كنيسة القيامة.

بدأ الرسول الفارسي في مخاطبة المترجم الذي قال:

- إن سيدي الرسول يسأل، وما هي كنيسة القيامة هذه؟

عاد «البوكيرك» إلى نظرته التمساحية قبل أن يقول:

- إنها كنيسة في فلسطين، مقدسة لنا نحن الكاثوليك، ولكن لا يهم، إن ما يهم الآن هو أنني أخبرت الملك «مانويل» أن لديَّ خطة ستُنهي وجود السلطنة المصرية، ونستطيع بها تركيع السلطان الغوري ووقفه عند حده.

رد الرسول بهدوء وبنبرة التوسل:

- هل لي أن أعرف هذه الخطة يا سيدي؟

- إنني هذه الأيام مشغول بالتخطيط للذهاب إلى الهند للتخلص من عار الهزيمة التي لحقت بالأسطول البرتغالي، ولتدمير الأسطول المملوكي هناك، وبعد ذلك سأبحر إلى البحر الأحمر وإلى ميناء ينبع بالذات، ومنه سننزل برًّا ونسير إلى المدينة التي دُفن فيها نبيهم، ثم ننبش القبر ونأخذه معنا إلى الأسطول ونهدد به السلطان المملوكي حتى نبادل كنيسة القيامة به، ولن نقف هنا، بل سنحضر العديد من المسيحيين إلى مملكة القديس «جون»، وبمساعدتهم سنحفر ممرًّا بين نهر النيل والبحر الأحمر، وسنحرم مصر من النيل حتى يموت كل مَن بها من البشر جوعًا وعطشًا، ونُعيد استيطانها، ونعلن تبعيتها لملك البرتغال.

توقف «البوكيرك» قليلًا وعبث بلحيته قبل أن يواصل:

- إن هذا المخطط ما زال سريًّا أيها الرسول، أعلم أنك

Twitter: @ketab_n

ستوصله إلى الشاه إسماعيل، ولكن لا بأس لأننا أصبحنا حلفاء الآن.

فرك رسول الشاه إسماعيل كفيه قبل أن ينطق:

- إن الوفد الذي أرسلناه إلى السلطان الغوري أصبح في الطريق الآن، ولن نستطيع اللحاق به قبل أن يصل، ولست أعلم إن كانت خطتنا في إدخاله للحلف تتناقض مع مخططكم هذا.

بقي «البوكيرك» يعبث بلحيته وينظر إلى خارج النافذة قبل أن يرد:

- لا، دع وفدكم يذهب، كلا المخططين لصالحنا، إن لم يقتنع الغوري بعرض الشاه فسيقتنع بعرضنا.

ثم ابتسم وكأنه سمع نكتة قبل أن يواصل:

- إنني خادم لمولاي الملك «مانويل» العظيم، وسأقوم بكل ما يأمرني به، دعنا نتبادل السفراء فيما بيننا، سأرسل لبلاط الشاه سفيرًا من قِبلي، وأرجو أن يرسل الشاه سفيرًا إلى هرمز أيضًا.

قام «البوكيرك» من مكانه وتوجه إلى النافذة المطلة على البحر قبل أن يكمل حديثه:

- سأتحرك إلى الهند في غضون أيام لضرب الأسطول المملوكي الذي أرسله الغوري، من الواضح أن الاتصال بين الأسطول المملوكي وسلطان مصر انقطع لطول المسافة، وأنا لن أنتظر حتى يقرر الغوري إن كان سيدخل هذا التحالف أم لا، لقد هزم هذا الأسطول أسطولًا برتغاليًّا وعليَّ أن أنتقم للبرتغال حَتى أحافظ على سُمعتها وجبروتها.

توقف «البوكيرك» وكأنه يريد أن يتذكر شيئًا آخر:

Twitter: @ketab_n

- إذا كنا نريد السيطرة على التجارة البحرية فعلينا أن نضرب كل مقاومة لوجودنا في هذا البحر.

رد الرسول بنوع من التبجيل:

- سيدي «البوكيرك»، لقد أخبرنا سفيرنا لدى «الساموثيري» بأسباب هزيمة أسطولكم، هل تريد أن تسمعها؟ لعلها تُنجيك من هزيمة أخرى إن كنت تنوي أن تحاربهم هناك.

- بالطبع أيها الرسول، وما هي الأسباب؟

أخبر الرسول الفارسي «البوكيرك» بتفاصيل الخطة التي رسمها حسين لهزيمة الأسطول في المعركة الأولى، وطلب منه ألّا ينجر لخطة حسين كما تنجر الضحية إلى الفخ، بل عليه أن يكون أكثر ذكاء إن أراد هزيمة المماليك.

ثم أضاف:

- إنني يا سيدي رهن إشارتكم، فقد طلب مني الشاه إسماعيل أن أكون في خدمتكم وخدمة أهدافكم، وسنقدم لكم كل الدعم الذي تطلبونه منا، ولكنْ لمولاي الشاه طلب آخر يا سيدي.

ثم واصل بدون أن ينتظر الإذن:

- إننا نطلب أن يساهم أسطولكم في نقل قواتنا من الساحل الشرقي للخليج إلى الساحل الغربي منه؛ فنحن بحاجة لتواجد دائم هناك ولكن تنقصنا السفن والخبرة لبنائها.

- ولكن لماذا يريد الشاه أن ينقل قواته إلى هناك؟

رد الرسول بهدوء:

- غير بعيد عن هنا تقع جزيرة ثرية جميلة ذات تربة خصبة

Twitter: @ketab_n

وبها الكثير من ينابيع الماء اسمها البحرين، ونحن نرغب في ضمها إلى مملكتنا، وبمساعدتكم سيكون هذا الهدف قريب التحقيق، ثم إننا بوجودنا هناك سنكون قريبين من الأماكن المقدسة، ويستطيع جيشنا التحرك إليها فيما لو أمر الشاه بذلك.

كان «البوكيرك» قد سمع عن البحرين مسبقًا، وكان يخطط لغزوها، ولكن كانت له أولوياته، فتحطيم الأسطول المملوكي المزعج في الهند يجب أن يتم بسرعة وبدون تأخير قبل أن يقوم بأي شيء آخر، ثم هل طلب نقل الجنود الفرس إلى البحرين رسالة له بأن الشاه الصفوي يعتبر البحرين من ممتلكاته وأن عليه أن يبتعد عنها!

حاول أن يُنهي اللقاء بسرعة:

- سأفكر في الأمر أيها الرسول، إنني الآن مشغول بالتحرك إلى الهند، وسأفكر في ذلك حال عودتي من هناك.

Twitter: @ketab_n

٢٩

خليج ديو، الهند

(٢ فبراير ١٥٠٩)

تحرك الأسطول البرتغالي الذي يقوده «البوكيرك» إلى مدينة ديو، وحين جاءت الإشارة من سفينة القيادة انفصلت بضع سفن من الأسطول واتجهت إلى عرض البحر، بينما أكملت البقية طريقها إلى الخليج الذي تطل عليه المدينة، لقد استمع «البوكيرك» جيدًا إلى نصيحة رسول الشاه إسماعيل عندما زاره في هرمز، ولم يود تكرار خطأ الأسطول السابق.

خرج حسين وابن رحال في سفينة القيادة لمواجهته، وبدأ القصف المتبادل بين الطرفين، وبعد أن أعطى حسين الإشارة لإشعال النيران من على الأبراج، تقدمت السفن المملوكية التي كانت مختبئة في عرض البحر للانضمام للمعركة ومحاصرة الأسطول البرتغالي، ولكن واجهتها السفن البرتغالية التي سبق أن انفصلت عن الأسطول، وبدأ بينهما تبادل مدفعي، فكانت هناك معركتان إحداهما على مدخل الخليج والأخرى بعيدة في عرض البحر.

أمر حسين بحارته بالتصدي للأسطول البرتغالي بكل تشكيلاته، خصوصًا أن خطته قد فشلت في الالتفاف على

Twitter: @ketab_n

الأسطول المهاجم من الخلف، فخرجت السفن من خليج ديو تتبعها سفن ابن رحال الأقل حجمًا والتي تحمل على ظهرها المقاتلين فقط، أما مالك عزيز فقد بقي في المدينة لحراستها فيما لو قام البرتغاليون بعملية إنزال مفاجئة.

استمر الاشتباك بين السفن المتقاتلة طوال النهار، ومع زوال الشمس لاحظ «البوكيرك» أن الأسطول المملوكي لم يعد يقاوم كما كان يفعل مسبقًا، فأمر سفنه بملاحقة السفن المنهزمة وقصفها محاولًا اقتناص فرصة ضعفها، ومع المغرب بدأ بحارة السفن المملوكية بالقفز إلى البحر، وكانت سفن ابن رحال تقوم بإنقاذ مَن تستطيع منهم وهي تحاول تفادي حمم القذائف التي لا تتوقف عن استهدافها.

عرف ابن رحال أن المسألة مسألة وقت قبل أن يتحطم الأسطول المملوكي كاملًا، ومن بعيد شاهد عددًا من سفنه وهي تحاول الاقتراب من السفن البرتغالية للاشتباك معها بشكل مباشر، إلا أن السفن البرتغالية كانت تقصف هذه السفن وتغرقها بمن عليها بسرعة.

التفت إلى حسين محاولًا إقناعه بإنهاء المعركة بأقل خسائر ممكنة، فمن الواضح أن الخطة فشلت، وأن سفن البرتغاليين أسرع وأكثر مناورة، ومدفعيتها أبعد مدى وأكثر تأثيرًا.

فجأة انفجرت قذيفة برتغالية على سطح السفينة قريبًا من مكانهما وتناثرت شظاياها في كل مكان، فانغرست قطعة خشب صغيرة في خاصرة حسين فسقط على الأرض يئن من الألم، فطلب ابن رحال أن تعود السفينة إلى الميناء لإسعافه بشكل عاجل.

Twitter: @ketab_n

وقف ابن رحال ليشاهد السفن البرتغالية وهي تستولي على سفنه المحترقة الواحدة تلو الأخرى، وكلما قفز الجنود البرتغاليون إلى واحدة منها انتزعوا علم السلطان الغوري وعلم الأمير حسين من ساريتها وتركوها تحترق، وعندما شاهد الجميع علم السلطان المصري مهانًا في يد البرتغاليين هبطت روحهم المعنوية وبدأ مسلسل الهزائم.

ومع حلول الليل امتلأ خليج ديو بالسفن المحطمة والجثث العائمة وصراخ الجرحى، وضاقت الساحات أمام الميناء بالناجين الذين تجمعوا حول النيران التي أشعلها المسعفون، وبدأت عربات الموتى التي تجرها الثيران في نقل الجثث المكومة لتأخذ دورها أمام ضابط مملوكي وقف يدون أسماء القتلى قبل أن ترسل الجثث إلى مثواها الأخير، وبقيت السفن البرتغالية على مدخل الميناء فارضة عليه حصارًا خانقًا، وكأنها تُذكِّر الناس بمَن هو المنتصر، وأن هذه ليست النهاية بعد.

ظهر مالك عزيز راكبًا فرسه، يسير بهدوء في الميناء، وكأن الفرس شمت رائحة الدم وجفلت منه، فبقيت حوافرها تتحرك بحذر شديد خوفًا من أن تطأ جريحًا أو مقتولًا. تحرك مالك عزيز وسط تلك الجثث والنيران المشتعلة وهو في حالة صدمة لم يخرج منها بعد.

شاهد الجميع شعلة من النار تسير في البحر متجهة إلى الميناء، فعرفوا أنه زورق صغير أشعل نارًا على ساريته، وخمنوا أن يكون رسولًا من «البوكيرك» لإملاء شروط الاستسلام، فتركزت عيونهم عليه حتى وصل إلى الشاطئ، ونزل منه رجل

Twitter: @ketab_n

مدرع من رأسه إلى أخمص قدميه، وطلب مقابلة مالك عزيز شخصيًّا.

اقتيد الرسول إلى حيث يقف مالك عزيز الذي كان في أسوأ حالاته؛ فقد خسر كل شيء وأصبحت مدينته عرضة للدمار والهدم بفعل المدافع البرتغالية، تقدَّم الرسول منه بدون أن يحييه وسلمه الرسالة مادًّا إياها بيد واحدة وهو ينظر إلى عينيه، مما يعتبر إهانة للملوك.

كسر الختم وقرأ الرسالة:

أيها الملك العظيم مالك عزيز، ملك ديو

أنا ممثل الملك «مانويل» ملك البرتغال، والحاكم نيابة عنه على كل الأراضي التي يملكها بموجب بركة البابا بعد اتفاقية «توردیسیلاس»، وعليه فإني أحذركم من أن يطالكم غضب الملك وغضبي، لأنه سيكون عنيفًا وشنيعًا وسيدمر بلادك وكل حياة فيها.

ليس بيني وبينك عداوة شخصية، فنحن نستطيع أن نصل إلى اتفاق بيننا، ولكنني آمرك بطرد قائدي الأسطولين المملوكي والعربي من مدينتك، على ألَّا تشرق الشمس وهما فيها، وعليك أيضًا أن تُخرج كل المقاتلين من مملكتك خلال ثلاثة أيام ليعودوا من حيث أتوا.

هذا يُعتبر إنذارًا نهائيًّا لك، وعليك أن تسمع وتُطيع، ويجب أن يحمل رسولي هذا جوابك معه حين يعود إلى سفينتي.

ألفونسو البوكيرك

ممثل جلالة ملك البرتغال المعظم

Twitter: @ketab_n

طوى مالك عزيز الرسالة وأبقاها في يده لبضع ثوانٍ وهو ينظر إلى الرسول قبل أن يقول بصوت ضعيف لا يتناسب مع شخصيته:

- إنني أعلن استسلامي للـ«بوكيرك»، وسأنفذ رغباته، وأطرد هؤلاء الناس من مدينتي قبل شروق الشمس.

غادر الرسول بسرعة إلى الزورق الذي جاء به، وبقيت السفن البرتغالية مرابطة على مدخل الميناء في انتظار أن يُنفذ مالك عزيز دوره في الاتفاقية.

وقبل بزوغ الفجر خرج ثلاثة فرسان من خلف قصر مالك عزيز بهدوء قبل أن يعدوا خببًا في اتجاه الشمال، لقد كانوا ابن رحال وحسين، الذي كان بالكاد يستطيع أن يصلب ظهره على فرسه، ومعهما سي الطيب.

لم يعلم كل من حسين وابن رحال إلى أين يجب أن يذهبا بعد أن تم تدمير أسطوليهما، وبعد أن طلب منهما مالك عزيز مغادرة أراضيه بسرعة؛ فكل المناطق التي تقع على الساحل الغربي من الهند إما أن تكون قد وقعت تحت الاحتلال البرتغالي المباشر وإما أنها لا تريد إغضاب «البوكيرك» على أقل تقدير، فشعرا أنهما في محيط من الأعداء ويتوجب عليهما أن يكونا حذرين.

كان ابن رحال وحسين الكردي وسي الطيب يجهلون المنطقة، فاتجهوا إلى قرية صغيرة تبعد مسيرة يوم إلى الشمال من ديو، سكنا في نُزل قذر صغير لعدة أيام، فأرسل سي الطيب إلى صهره قاسم الحق يطلب نصيحته فيما يجب أن يفعلوه.

كان رد قاسم الحق أن الأوضاع أصبحت خطرة جدًّا،

Twitter: @ketab_n

ونصحهم بأن يبقوا مختفين لحين كشف الغمة، فبعد هزيمتهم في ديو أصاب «البوكيرك» سعار النصر، والجميع في حال ترقب، لا يعلمون ما خطته التدميرية التالية، وإن عليهم أن يصلوا إلى ميناء الديبل شمالًا، ومن هناك سيسهل على حسين وابن رحال الوصول إلى هرمز أو عدن متخفين، وأرسل مع الرسول الذي حمل رسالته بعض الملابس والمال حتى يتمكنوا من تدبر أمورهم بدون أن يلفتوا الأنظار إليهم.

قرر سي الطيب أن يسير معهما إلى الديبل حيث سيبقى مختفيًا لبعض الوقت حتى يعرف كيف سيعود إلى كاليكوت، أما حسين وابن رحال فقد قررا أن يأخذا سفينة من الديبل إلى هرمز لأنها الأقرب، خصوصًا أن ابن رحال يستطيع الاتصال بنسيبه الوزير خواجة هناك والذي سيساعدهم للعودة إلى ديارهم.

ساروا لعدة أيام في مناطق زراعية حارة يكثر فيها البعوض والحشرات وثعابين الكوبرا التي كانت لدغة منها كافية لقتل فرس في دقائق. كانت أقدامهم تغوص في الحقول التي أغرقها أصحابها بالماء لزراعة الأرز، بدت الحركة مزعجة وصعبة ومجهدة، ولم يجدوا سوى منازل من القش أو من ورق الأشجار لتقيهم الشمس. مرت أيام وهم يعانون من الحرارة وسوء الطعام حتى وصلوا إلى قرية صغيرة تُسمى نواناغار، فربطوا خيولهم بالقرب من مطعم بائس على ساحل البحر، لم يكونوا جياعًا، فطلبوا شرابًا عشبيًّا نصحهم به سي الطيب، ثم سألوا عن أفضل وسيلة لاجتياز البحر إلى الشمال.

قال لهم الصيادون إن أفضل وسيلة هي انتظار مراكب العبور

Twitter: @ketab_n

التي تعمل نهارًا من ساحل البحر هذا إلى قرية في الشمال تُسمى مندرا، والمراكب لا تتحرك ليلًا، فليس هناك رياح لتدفعها، ولكن مع بزوغ الشمس تهب نسائم تستخدمها المراكب لاجتياز البحر. كان القرويون في هذه المناطق سُمر البشرة وذوي أجساد نحيلة جدًّا، ويلبسون عمائم لا تتناسب مع شكلهم، فهي كبيرة بشكل مبالغ فيه وملونة بألوان زاهية لا تعكس حقيقة حياتهم البائسة.

فجأة سقط حسين من فوق فرسه، فقد كان طوال تلك المدة يغالب نفسه حتى لا يعطل سير الجميع، ولكنه الآن لم يعد يستطيع المواصلة.

رفع ابن رحال قميص حسين وشاهد بقعة من الدماء ممتدة من خاصرته إلى ساقه، ورائحة الجرح كريهة، فقد تقيح وأصبح ينز صديدًا، عرف أن حسين سيعيش ولكنه بحاجة لعلاج جرحه المتقيح.

وفي صباح اليوم التالي عبر الفرسان الثلاثة إلى قرية مندرا، كانت قرية فقيرة معزولة ليس بها شيء سوى بضعة أكواخ من القش ومجموعة صغيرة من القرويين الذين يعيشون على تجفيف السمك الصغير الذي يصطادونه قريبًا من الساحل، كانت رائحة السمك المجفف قوية بشكل غير محتمل، فغدا كل شيء له ذات الرائحة، الماء والهواء والطعام وحتى البشر.

ومن مندرا واصلوا سيرهم إلى مدينة الديبل التي تقع على ساحل البحر في منطقة سبخة، فكان عليهم إيجاد أفضل الطرق وأسلمها حتى لا يقعوا في برك الرمال المتحركة التي تغطيها

Twitter: @ketab_n

الأعشاب البرية وتخفيها عن الأنظار في انتظار أن تقع الضحية فيها.

لم تكن المدينة تصلح للسكنى، فقد كانت حارة جدًّا، وماؤها طيني أصفر اللون، ومع ذلك يشربه المحليون الذين تكثر شكواهم من انتفاخ البطن والأمعاء. لم يفهم حسين سبب عيش هؤلاء البشر على مستنقع قذر كهذا، ولكن أحدهم شرح له أنه المكان الوحيد الذي يستطيعون فيه الاختباء من قبائل الشمال القوية التي تسرق منهم ماشيتهم وأبناءهم ومحاصيلهم.

سألوا عن حكيم يستطيع أن يعالج جرحًا عميقًا متقيحًا، فدلهم القرويون على منزل طيني يعيش به رجل كبير في السن يُقال إنه يعرف كيف يفعل ذلك.

وعندما أحضروا له حسين كان جرحه قد وصل إلى مرحلة خطرة من التلوث، كشف العجوز القروي عن خاصرته ثم وضع يده على أنفه مباشرة، ونظر إليهم وكأنه يلومهم على تأخير علاجه، رمى ابن رحال في كفه عدة عملات فضية وواحدة ذهبية، هزها الحكيم بكفه قبل أن يضعها في جيبه، ثم أمرهم بوضع حسين على سرير خشبي في زاوية الغرفة.

قام العجوز من مكانه وأحضر كيسًا ثقيلًا، وجلس بالقرب من حسين، فك رباط الكيس ونظر بداخله، ثم أمرهم بربط قدمي ويدي حسين بحبال مصنوعة من ليف شجر جوز الهند، فعلا كما طلب منهما، ثم نظرا إليه وكأنهما يقولان له فعلنا ما علينا والآن دورك.

أدخل العجوز يده في الكيس وأخرج كمية كبيرة من الدود

Twitter: @ketab_n

الصغير الأسود ووضعه على جرح حسين، وكأن الدود كان جائعًا، فبدأ يلتصق بالجرح والدم المتجلط حوله، عندها بدأ حسين بالضحك فجأة:

- إنه يدغدغني، إنه يدغدغني.

ضحك الجميع لضحكه، ثم بعد فترة قصيرة بدأت الدغدغة تتحول إلى شعور بالهرش والحكة، فصرخ فيهم:

- فكوا يدي، أريد أن أحك الجرح!

أشار الحكيم لابن رحال وسي الطيب بالصبر قليلًا.

- فكوا يدي، أريد أن أحك الجرح، إن هذا الدود بدأ يضايقني!

بقي الجميع ينتظر بدون أي رد فعل.

وبعد مدة قليلة، بدأ حسين يصرخ من الألم.

عندها تحدث العجوز قائلًا:

- اذهبا وناما، سيبقى يصرخ من الألم حتى طلوع الشمس.

لم يفهما أي شيء، وبديا مترددين في ترك صاحبهما بين يدي عجوز لا يعرفانه وهو يصرخ من الألم.

كان صراخ حسين يشق هدوء الليل، فوضع العجوز قطعة قماش في فم حسين حتى يعض عليها، وبطبيعة الحال لم يستطع ابن رحال ولا سي الطيب النوم ليلتهما تلك، فآثرا البقاء أمام النار التي أوقداها خارج الكوخ في انتظار بزوغ الفجر.

وعندما دخلا الكوخ فجرًا، كان حسَين يتصبب عرقًا، وبدت دوائر سوداء تحت عينيه، فنزع العجوز قطعة القماش من فمه، ثم نظر إلى الجرح الذي كان الدود يتقاتل عليه، وبدأ في التقاط

Twitter: @ketab_n

الدود بأصابعه ووضعه مرَّة أخرى في الكيس، فظهر الجرح وردي اللون نظيفًا، وبعد أن جففه بقطعة قماش نظيفة وضع عليه عجينة من الأعشاب والمراهم، ثم لفه بقطعة قماش كبيرة وترك حسين لينام يومه ذاك.

تحدث سي الطيب مع العجوز عن هذا العلاج الغريب، فشرح له أن هذا النوع من الدود يأكل اللحم الميت والدم المتجلط، وإنه عندما وضعه على الجرح وبدأ الدود في التحرك شعر حسين بالدغدغة، وبعد أن بدأ الدود في التعلق في اللحم الميت شعر بالحكة، ولذلك طلب منهم حسين أن يفكوا وثاقه ليحك مكان الجرح، ثم بعد ذلك بدأ الدود في العمل، وبدأ يأكل اللحم المتعفن، وهنا بدأ يشعر بالألم، وقد احتاج الدود لعدة ساعات ليقوم بعمله هذا، أما الآن فجرحه نظيف وتستطيعان أن تأخذاه معكما ولكن عليه أن يكون حذرًا حتى لا يتلوث مرَّة أخرى، وأنصح بغسل الجرح بماء البحر مرتين يوميًّا حتى يبقى نظيفًا.

وفي هذا المكان قرر سي الطيب البقاء عدة أشهر حتى تتضح الأمور، أما ابن رحال وحسين فقد قررا مواصلة السير بعد أن شُفي حسين.

انتظرا لعدة أيام لحين إيجاد سفينة مسافرة إلى هرمز، فلم تكن السفن تسافر كثيرًا هذه الأيام، وتوجب عليهما أن يُظهرا ما لديهما من مال لإقناع الربان بنقلهما إلى هرمز، وبعد أن وافق قال لهما:

- إن هرمز قد أصبحت تحت سيطرة البرتغاليين، وكل بحر العرب كذلك.

Twitter: @ketab_n

وأضاف ربان السفينة أنه سيسير ليلًا محاذيًا لساحل البحر حتى يتفادى السفن البرتغالية التي تصادر بضاعة أي سفينة تراها ثم تحرقها وتقتل أو تأسر مَن عليها.

تحركت بهم السفينة في عتمة الليل بدون أي ضوء، خارجة من بين الأعشاب الطويلة التي تخفي القرية في اتجاه البحر، لم يكن الإبحار في مياه ضحلة كهذه سهلًا، فقد توجب أن يقف رجل في المقدمة ليشير على الربان إلى أين يتجه، لم تكن هناك إضاءة غير القمر الذي نشر ضياءه على المستنقعات التي امتلأت بكل الأصوات الغريبة، وقبل الفجر كانت السفينة قد خرجت إلى البحر وإن بقيت تسير بالقرب من الساحل بشكل مبالغ فيه، ومع انتصاف اليوم تجد لها مخبئًا بين الصخور وبين الأعشاب المنتشرة على طول الساحل أو في خليج صغير غير مطروق.

وقبل وصولهم إلى هرمز أخبرهما الربان بأنه سيجتاز المسافة الفاصلة بين البر الفارسي والجزيرة خلال الليل، وأنه سيدخل الميناء فجرًا حين يكون الجميع نائمين، وعليهما أن ينزلا بسرعة لأنه سيغادر عائدًا إلى الساحل الفارسي قبل بزوغ الشمس.

نزلا في هرمز كتاجرين متخفيين، لم يتحدثا كثيرًا مع أحد، فهما يعلمان أن حياتهما مرهونة ببقاء شفاههما مطبقة طوال الوقت، استقبلهما ميناؤها الكئيب شبه الخالي من السفن، ونزلا على الرصيف تاركين الربان ليتعامل مع المركز التجاري لدفع ما عليه من ضرائب، وتنفسا الصعداء بعد أن بزغت الشمس واختلطا بالناس في السوق بدون أن يلحظهما أحد.

سار حسين خلف ابن رحال الذي يعرف طريقه إلى منزل

Twitter: @ketab_n

الخواجة عطار، وهناك طرقا الباب ففتح لهما أحد الخدم الذي لم يتعرف عليهما:

- هل الخواجة موجود هنا؟

- نعم، ولكن مَن أنتما؟

- قل له إن لديه ضيفين من البحرين يريدان مقابلته بسرعة.

- انتظرا هنا.

أغلق الحارس الباب وترك ابن رحال وحسين في الخارج، وبعد دقائق عاد إليهما طالبًا منهما أن يتبعاه.

أدخلهما إلى ذات المجلس الذي طلب فيه ابن رحال من الخواجة يد ابنته حليمة، لم يتغير شيء في المنزل. تنفس ابن رحال بعمق، فقد جلست حليمة على ذلك الكرسي حين زار منزلهم لأول مرَّة، هل ستكون حليمة هنا الآن؟

وبعد دقائق دخل الخواجة إلى المجلس، ونظر إلى الضيفين بسرعة قبل أن يركز بصره على ابن رحال ويبتسم:

- ابن رحال؟ هل هذا أنت؟

احتضنا بعضهما وبان الشوق في عيونهما؛ فابن رحال يرى في الخواجة صورة حبيبته حليمة، والخواجة يرى في ابن رحال صورة ابنته.

- أنت آخر من كنت أتوقع زيارته يا ابن رحال، وعندما قال لي الخادم إن هناك ضيوفًا من البحرين ظننت أن حليمة قد بعثت رسولًا إليَّ، لقد أرسلت إليَّ رسالة منذ عدة أشهر، رسالة طويلة تقول فيها إنك ذهبت إلى الهند لمحاربة البرتغاليين.

Twitter: @ketab_n

قال الكلمتين الأخيرتين بشبه الهمس مخافة أن يسمعه أحد.

- ومَن الذي معك؟

- إنه صديقي الباشا حسين، أمير البحر المصري وحاكم جدة.

قام الخواجة وأعاد الترحيب بحسين ممسكًا كفه بكلتا يديه:

- مرحبًا بك في منزلي، لقد شرفتني بقدومك أيها الباشا.

لم يكن ابن رحال يريد أن يوقع الخواجة في مشكلة إذا اكتُشف أمرهما، فالأمور غير مطمئنة هنا نظرًا للوجود البرتغالي الكثيف، فهما أعداء لـ«بوكيرك» الذي يحكم هرمز الآن، واكتشافهما في منزل الخواجة قد يقود الجميع إلى موت بطيء طويل سيتلذذ «البوكيرك» بتنفيذه بيده.

سأل ابن رحال بشوق بادٍ في صوته، وكأنه لم يسمع مقالة الخواجة بشأن حليمة ورسالتها:

- هل حليمة هنا؟

رد عليه الخواجة باستغراب:

- لا، ليست هنا، وهل كنت تتوقع أن تجدها هنا؟!

ظهر نوع من الحزن في نبرة ابن رحال:

- نعم، لقد طلبت منها أن تحضر إليك حال مغادرتي البحرين، ولكنني لا أعلم ما الذي حصل!

جلس الخواجة على كرسيه، فلم يعد يستطيع أن يبقى واقفًا لفترة طويلة:

- لقد قالت لي في رسالتها التي حدثتك عنها منذ قليل إنها

Twitter: @ketab_n

كانت تنوي القدوم ولكن وجود البرتغاليين منعها من ذلك، وبعدها تعطّل كل شيء، فلم تعد الرسائل تصل كما كانت سابقًا.

جلس ابن رحال وتبعه حسين:

- لا نريد أن نحرجك معنا أيها الخواجة، فنحن مستعجلان للذهاب إلى ديارنا، وأنا بالذات أريد العودة إلى حليمة، فقد تركتُها وحدَها وليس بيني وبينها سوى هذا البحر الذي أريد أن أجتازه بأسرع وقت ممكن، نريدك أن تساعدنا في العودة إلى ديارنا، ومن البحرين سيغادر حسين إلى الأحساء ومنها إلى جدة مع القوافل التي تذهب إلى هناك، ونريد منك بعض المال والملابس أيضًا، فكل ما معنا قد استهلكناه خلال هذه الرحلة المتعبة!

ابتسم الخواجة، فأشاعت ابتسامته نوعًا من الراحة لدى ضيوفه، فهما لا يعرفان الوضع جيدًا في هرمز، وهل الوزير ما زال متنفذًا فيها أم أنه أصبح يجد صعوبة في الإبقاء على حياته، وابتسامته أعادت إليهما الأمل بأن الخواجة ما زال ممسكًا بأطراف بعض الخيوط التي يستطيع أن يحركها متى يشاء.

- ستحصلان على كل ما تريدان أيها السيدان، فقط ابقيا في المنزل ولا تخرجا منه حتى أخبركما متى السفر.

حاول ابن رحال أن يعرف كيف هي الأوضاع في المنطقة بعد مغادرته إلى الهند.

زفر الخواجة زفرة قوية وكأنه كان يكتمها في صدره لفترة طويلة:

Twitter: @ketab_n

- إن الأوضاع في المنطقة سيئة جدًّا، فـ«البوكيرك» أصبح هو الحاكم الفعلي لكل الموانئ في المنطقة عدا تلك التي يحكمها الجبور، وهو متردد في الاستيلاء عليها لأنه لا يملك العدد الكافي من الجنود، وأظنه الآن يحاول أن يحصل على المزيد من المال لتجنيد مرتزقة للقتال معه، وإن استطاع الحصول على المال فإنه سيحتل البحرين وقد يفكر في الحصول على الأحساء.

ثم أكمل الخواجة وكَأنه تذكر أمرًا جديدًا:

- لقد زاره منذ فترة قصيرة رسول من الشاه إسماعيل الصفوي، واتفقا على عدة أمور، منها أن يتم نقل قوات الشاه إسماعيل إلى البحرين للاستيلاء عليها، وأن هذه القوات ستكون جاهزة للسير إلى الحجاز في حال طلب الشاه منها ذلك، لأن الشاه إسماعيل ينتظر فرصة هزيمة العثمانيين ليعلن نفسه خليفة للمسلمين، ولن يستطيع فعل ذلك بدون أن تكون الأماكن المقدسة تحت يديه.

سكت الخواجة حين دخل الخدم ببعض الطعام والشراب للضيوف، وبعد أن غادروا أكمل حديثه:

- لقد كوَّنت صداقة مع رسول الشاه إسماعيل الذي كان يحدثني بكل ما يدور بينه وبين «البوكيرك»، وأعتقد أن المسألة ليست في سيطرة «البوكيرك» على موانئ الخليج والهند ولكنها أكبر من ذلك بكثير، فقد نقل لي السفير أيضًا أن هناك اتصالًا سريًّا يحدث بين الشاه إسماعيل وبين السلطان الغوري.

عندما ذكر الخواجة اسم السلطان الغوري، نظر إلى حسين

Twitter: @ketab_n

محاولًا معرفة وقع ذلك عليه، ولكنه قرر أن يُكمل لأن الأمر مهم سواء قبِله حسين أم لم يقبله:

- إنهم يطمحون في إدخال السلطان الغوري إلى حلف يضم الشاه إسماعيل وملوك أوروبا لضرب العثمانيين وإنهاء وجودهم، وقد أرسل الشاه سفارة إلى الغوري طالبًا منه ذلك منذ عدة أسابيع.

نظر ابن رحال إلى حسين وكأنه في انتظار أن يقول شيئًا، وفهم الجميع أن الأمر جلل ومهم ولا بد من التصرف حياله، فبالنسبة لابن رحال فإن نزول القوات الفارسية في البحرين معناه إنهاء حكم الجبور، وإنهاء حكم الأشراف في الحجاز أيضًا إن قرر الشاه إسماعيل ذلك لاحقًا، أما بالنسبة لحسين فإنه يرى أن السلطان الغوري قد يُستدرج لحلف لن يكون في صالحه، فالبرتغاليون والصفويون سيتعاونان فيما بينهما أما الغوري فإنه سيكون جسرًا يحرقانه بعد أن يجتازاه لتحقيق أهدافهما، وسيخرج الغوري خاسرًا سواء انتصر الحلف أم فشل.

تطرق بهم الحديث بعد ذلك إلى عدة أمور حتى شعروا أنهم تحدثوا عن كل ما يريدون الحديث عنه، ووجدها ابن رحال فرصة ليسأل نسيبه:

- متى وصلتك آخر رسالة من حليمة؟

- منذ عدة أشهر، وقد كانت تشتكي فراقك، وتقول إن كل شيء على ما يُرام، ولكنني سأصدقك القول يا ابن رحال، فأنا أعرف ابنتي، هي لا تريد أن تؤذيني بأي شيء، حتى وإن كانت في عذاب مقيم فستقول إن كل شيء على ما يُرام، لست أعرف

Twitter: @ketab_n

لماذا لم يكن قلبي مرتاحًا لما قالته، إن قلبي يحدثني بأنها ليست على ما يُرام، وكنت أعلل لنفسي بأنه شعور الأب عندما تكون ابنته في غربة وهو بعيد عنها، أتمنى أن تكون بخير!

وبعد عدة أيام، وفي ليلة حالكة ومكان بعيد عن الميناء الرئيسي، ركب حسين وابن رحال سفينة ليست بها نار مضاءة بعد أن ودعا الخواجة متجهين إلى البحرين.

Twitter: @ketab_n

٣٠
جزيرة البحرين

بقيت المزرعة التي تعيش فيها حليمة هادئة كعادتها، ولم يكن يدخل إليها أو يخرج منها سوى عدد قليل من العمال أو الخدم، وأحيانًا يطرق بابها بائع يعرض بضاعته التي يحملها في صرة كبيرة على ظهره، وعندما يحل المساء تقفل المزرعة أبوابها وتضاء شعلة على مدخل المنزل لإنارته، ولا يُسمع بعد ذلك سوى أصوات نقيق الضفادع والحشرات.

وفي ذات الزاوية المظلمة التي اعتادا أن يلتقيا فيها كان جوهر في انتظار فرح التي طلبت منه الحضور على عجل لإبلاغه بأمر مهم، قالت له بدون مقدمات:

- لقد وافقت حليمة على استقبال الأمير ناصر في المنزل.

انفرجت أسارير جوهر وكاد أن يطير فرحًا بهذا الخبر الجديد:

- هل أنت متأكدة؟ أرجو ألّا تُغضب حليمة مولاي الأمير ناصر، لقد كان ينتظر هذه اللحظة من فترة طويلة، ولكن هل تعلمين ما يعني ذلك يا فرح؟ سأكون حرًّا، نعم سأكون حرًّا قريبًا، فعندما أعطيت الأمير ناصر الخنجر فرح به كثيرًا، ولكنه لم

Twitter: @ketab_n

يكن كافيًا في نظره، لقد قال إنه سيمنحني حريتي بعد أن يمضي ليلته مع حليمة، أكاد أشم رائحة حريتي يا فرح، سنغادر أنا وأنت من هنا قريبًا ونذهب إلى الهند حيث سأعمل تاجرًا، وسيكون لك منزلك الخاص وخدمك، وسنُنجب أطفالًا كما وعدتك.

لم تكن فرح سعيدة بكل هذه الأخبار التي يتحدث عنها جوهر، فقد كانت حزينة، ولم يشاهد جوهر آثار الكدمات على وجهها لأن الظلام كعادته يخفي جراح الوجوه ويفتح جراح الروح. بدأ جوهر يتحدث كثيرًا هذه المرَّة ولم تكن فرح تسمعه، بل كانت روحها في مكان آخر، ولم تنتبه له إلا حين حاول أن يُقبِّلها، فصدته بقوة، فقد كان قلبها مشتعلًا غيظًا منه بعد أن سمعت منه ما سمعت في آخر لقاء بينهما:

- ما الذي تريد فعله أيها الحقير؟ لقد اغتصبتني رغمًا عني في المرَّة الأولى ولكنك لن تفعلها مرَّة أخرى، اذهب الآن وأخبر سيدك أن حليمة ستكون جاهزة له غدًا مساء، وعليه أن يُحضر الخنجر معه، هل سمعت؟ عليه أن يُحضر الخنجر معه، لن يكون هناك شيء بدونه!

ثم جذبته من ثوبه لتشد انتباهه:

- اسمعني جيدًا يا جوهر، إن سيدتي امرأة كريمة، لم تفعل ذلك من قبل، على سيدك أن يحضر وحيدًا ومتنكرًا قبل الفجر بساعة، حيث سيكون كل شيء غارقًا في الظلام، لا نريد أن يراه أحد وهي لا تريد أن يراها أيضًا، وعليه أن يغادر قبل أذان الفجر، هل سمعت ذلك جيدًا؟ أخبر سيدك بذلك!

Twitter: @ketab_n

رد جوهر وهو يغادر فرحًا بما تم إنجازه حتى تلك اللحظة:

- سأخبره يا فرح، لا تقلقي.

ثم بصوت مكتوم بعض الشيء، صرخ:

- سأكون حرًّا غدًا.

وفي صباح اليوم التالي رسمت فرح الخطة في رأسها، ولم يبقَ لها سوى أمر واحد، فتقدمت من حليمة قائلة:

- عليك أن تنامي هذا المساء على سطح المنزل، ولا تعودي إليه إلا بعد طلوع الشمس.

نظرت إليها حليمة بعينين غاضبتين:

- إننا نعرف بعضنا جيدًا يا فرح، اشرحي لي ما الذي تُخططين له، أنت تعلمين أنني لا أحب أن أكون جاهلة بما يدور حولي!

- حسنًا، لقد وضعت الخطة ولم يبقَ سوى تنفيذها، وأنا لا أطلب منك سوى أن تكوني على سطح المنزل اليوم قبل حلول الظلام.

رفعت حليمة صوتها قليلًا وقالت بنبرة تشبه التهديد:

- فرح، عليك أن تشرحي لي ما الذي تنوين فعله!

ردت فرح بهدوء متجنبة توتر الجو:

- لقد طلبت من الأمير ناصر أن يأتي ليلًا إلى المنزل.

- ماذا؟ هل أنت مجنونة؟!

- لا، لست مجنونة، ولكن علينا أن نأخذ الخنجر منه أو أنه سيبقى يهددنا به ويحيل حياتنا إلى جحيم لا يُطاق!

Twitter: @ketab_n

اقتربت من حليمة قليلًا لتُشعرها بالاطمئنان:

- لقد طلبت منه الحضور ليلًا حتى أوهمه أنني أنت، سأُشاغله وأُشعره بالاطمئنان حتى آخذ الخنجر منه، لن يحدث أكثر من هذا، لا تخافي.

لم تكن حليمة مطمئنة لهذا الأمر، فوجود شخص مثل الأمير ناصر في منزلها ليلًا حتى وإن لم تكن موجودة ستكون له توابعه، فقالت لفرح:

- عليك أن تعرفي أنه يريدني، يريد أن يعاشرني كما يعاشر الزوج زوجته يا فرح، إنه لا يريد أن يعبث فقط، إنه يريد شرفي حتى يُعيد الخنجر إلينا!

تحدثت فرح بصوت هادئ محاولة أن تعيد الطمأنينة إلى سيدتها:

- لن يحدث أي من ذلك، إنني أعرف الرجال، سآخذ منه الخنجر ببعض الوعود فقط، إنهم أضعف ما يكونون مع النساء، سأستغل هذا الضعف فيه فقط، أرجوك ثقي بي هذه المرَّة فقط!

بدت حليمة مترددة، فلم تطمئن كثيرًا لما تقوله فرح، ولكن ما الحل؟ إن بقي الخنجر مع الأمير فستبقى في موقف ضعيف وتحت رحمة أي إشاعة يُطلقها عنها، لم يعد هناك سبيل سوى أن تثق بفرح وخطتها حتى وإن كان قلبها لم يطاوعها.

غابت شمس تلك الليلة، ودفعت فرح سيدتها دفعًا للذهاب إلى سطح المنزل، طالبة منها ألَّا تعود إلا بعد شروق الشمس، ثم جلست في الظلام تنتظر أن يحدث شيء.

Twitter: @ketab_n

مرت الدقائق على فرح وهي تُعيد المخطط في رأسها وتكرره، مخافة أن تكون قد نسيت شيئًا: كيف ستقابل الأمير؟ ومتى ستحدثه؟ وما الذي ستقوله له؟ لم تكن تعرف هذا الرجل، ولكنها رأته في ميناء العقير مع حليمة حينما كانتا تودعان ابن رحال من بعيد، لم تطمئن إليه ولا إلى حديثه، لم يبقَ في عقلها سوى تلك المنطقة المظلمة التي لا تعرف كيف ستتصرف بها، إنها اللحظة التي تبدأ منذ دخوله وحتى حصولها على الخنجر منه، ستعتمد على ذكائها وحُسن تصرفها، ولكنهما أمران غير ثابتين وسلاحان لا يُعتد بهما في مواجهة شخص آخر يملك كل أسلحة النذالة والخبث.

مر الوقت سريعًا وهي غارقة في أفكارها، وفجأة سمعت صوت طرق على الباب وعرفت أنه الأمير ناصر، رفعت بصرها إلى السماء وكأنها تستمد مددًا منها، تقدمت تحمل سراجًا صغيرًا إلى الباب، كانت شعلة السراج تهتز باهتزاز جسدها، يداها ترجفان وساقاها لا تكادان تحملانها من الخوف، وضعت أذنها وسألت:

- مَن هناك؟

رد الصوت هامسًا:

- إنه أنا، الأمير ناصر.

نفخت على السراج وفتحت الباب بهدوء، كان الظلام حالكًا فلم يتبين الأمير سوى خيالها، فطلبت منه أن يتبعها.

سار خلفها محاولًا تلمس طريقه في هذا الظلام، حتى دخلا

Twitter: @ketab_n

إلى غرفة غير بعيدة عن مدخل المنزل، عرف ناصر أنها لم تكن غرفة نوم حليمة، ولكن لا بأس ستفي بالغرض، فلن تكون هذه الغرفة سوى بداية لعلاقة طويلة وطويلة جدًّا، تلمَّس طريقه فيها حتى وصل إلى السرير فجلس عليه:

- مَن أنت؟ هل أنت خادمتها فرح؟ اذهبي واستدعي سيدتك بسرعة!

بقيت فرح محافظة على نبرة صوتها، فرائحة الخمر التي ملأت المكان، وترنحه الواضح، أعادا إليها شيئًا من الشجاعة التي تحتاجها:

- حسنًا، ستأتي إليك سيدتي خلال دقائق، ولكن لديها شروطها أيضًا.

رد الأمير بصوت مرتفع قليلًا:

- وما شروطها هذه المرَّة؟ لم أرَ أكثر تمنعًا من سيدتك هذه!

- إنها تطلب منك ألَّا تتحدث معها أبدًا، وعليك أن تغادر قبل بزوغ الفجر.

وضع الأمير كلتا يديه على السرير محاولًا معرفة مدى ليونته وراحته:

- أهاا، الآن فهمت لماذا نحن في هذا الظلام الدامس، لكن لا بأس، كل ذلك سيتغير بعد أن نتعرف على بعضنا أكثر.

مدت فرح يدها إليه باسطة كفها أمامه:

- هل أحضرت الخنجر معك؟

أدخل الأمير يده في طيات ملابسه وأخرج الخنجر، ثم مد

Twitter: @ketab_n

يده اليسرى محاولًا البحث عن يدها، أمسكها من معصمها بقوة ووضع الخنجر في كفها قائلًا بنوع من السخرية:

- سلِّميه إلى سيدتك هذه المرَّة، أرجو ألَّا يكون لك عشيق آخر غير جوهر لتعطيه إياه، يجب ألَّا تفقديه هذه المرَّة!

ثم ضحك ضحكة مجلجلة أثارت الرعب في قلب فرح، وشعرت برغبة عارمة في سحب يدها منه بقوة، فلم تعد تثق بمن يمسكها من معصمها بعد أن فعل جوهر معها الأمر ذاته، لقد علمت الآن أن جوهر ما هو إلا كلب حقير يعمل لصالح سيده ويخبره بكل شيء، عرف الأمير إذن بما فعله جوهر معها!

تحطم قلبها وكادت أن تُجرد الخنجر لتطعنه به، ولكنها لم تكن تملك الشجاعة لفعل ذلك، حمدت اللّه أنه لا يستطيع أن يرى تعابير وجهها الآن.

- إذن سيدتك لا تريد مني أن أتحدث معها! لا بأس، سترغب هي بالحديث معي بعد ذلك، النساء يتشابهن في أمور كثيرة، اذهبي الآن إليها واستدعيها.

غادرت فرح الغرفة محاولة ألَّا تتحدث معه أكثر من ذلك، فقد شعرت أن قلبها يكاد يقفز من بين ضلوعها. أغلقت الباب خلفها واستندت عليه وهي تتنفس بصوت مسموع وكأنها تبحث عن المزيد من الهواء لتسد به جوع صدرها.

وبعد عدة دقائق، عادت مترددة إلى ذات الغرفة وهي ترتجف بقوة، محاولة جهدها السيطرة على أطرافها. أغلقت الباب، فسمعت الأمير يقول وهو على السرير:

Twitter: @ketab_n

- وأخيرًا يا حليمة، لقد تمنعت عليَّ كثيرًا، تعالي إلى حبيبك الجديد.

بقيت الشعلة التي خارج الباب تجذب الحشرات إليها كعادتها كل ليلة، تاركة ضحاياها تتساقط تحتها، وبدت أصوات الضفادع أكثر إزعاجًا وكأنها تحاول إخفاء جرائم الليل، تحركت سلحفاة صغيرة من بين الأشجار ومشت بهدوء إلى مجرى الماء القريب ثم سقطت فيه، ومع صوت سقوطها توقفت أصوات الحشرات فجأة ثم عادت إلى ما كانت عليه.

وقبل الفجر والظلام ما زال حالكًا، هزت فرح جسد الأمير محاولة إيقاظه من نومه، هزته أكثر من مرَّة ولكنه كان يقول كلامًا غير مفهوم ويعود للشخير مرَّة أخرى، بقيت تهزه حتى فتح عينيه وعاد إلى وعيه، وعرف أنه يجب أن يغادر، لم تطمئن فرح إلا بعد أن شاهدت الباب يُغلق خلفه وأصوات حوافر الفرس تختفي رويدًا رويدًا.

ظهرت الشمس وضربت وجه حليمة التي ما زالت نائمة على سطح المنزل كما طلبت منها فرح أن تفعل، لم تستطع النوم طوال ساعات الليل الأولى، بقيت تفكر في فرح وقلبها يحترق لعدم تمكنها من فعل شيء، غلبها النوم في وقت متأخر من الليل، ولم تشعر إلا بجيش من الذباب يطن على وجهها وساعدته الشمس على إيقاظها، فجأة صحت من نومها وجلست مستندة على يدها وكأنها خرجت من حلم مزعج محاولة تجميع أفكارها، فما الذي حصل يوم أمس؟

Twitter: @ketab_n

جرت بكل سرعتها إلى غرفة فرح، ووجدتها ما زالت على سريرها، كانت ملتحفة وترتجف من البرد ولونها أزرق مع هالتين سوداوين تحيطان بعينيها.

سحبت حليمة الغطاء عنها، وشاهدت بركة من الدم تغطي نصف جسدها؛ لقد قطعت رسغيها بذات الخنجر الذي أعطاها إياه الأمير ثم وضعته بجانبها، ما زال نصله ملونًا بدمها، مدت حليمة يدها وأخذته، ثم نظرت إلى نصله ورمته مرَّة أخرى وكأنها تريد التخلص منه.

- لااا! ما الذي فعلته يا فرح؟!

ثم انهارت على جسد فرح تهزه محاولة إيقاظها، فسمعت همهمة وكأنها تريد أن تقول لها شيئًا.

وضعت أذنها قريبًا من فم فرح، وسمعتها تقول بصوت متقطع:

- لقد حصلنا على الخنجر أخيرًا يا حليمة، أرجوك سامحيني، لم أكن أقصد أن أضعك في هذا الموقف، لقد غشني جوهر اللعين، وحاولت أن أدافع بشرفي عن شرفك!

ثم أخرجت طرف لسانها، وبللت شفتيها عدة مرات قبل أن تبلع ريقها وتطلب شربة ماء.

وقبل أن تقوم حليمة من مكانها أمسكت فرح بيدها وكأنها تطلب منها البقاء، رجفت رجفة خفيفة قبل أن يجمد جسدها وتزفر آخر زفرة، وبقيت عيناها مُسمَّرتين على السقف وكأنها كانت ترى شيئًا هناك.

Twitter: @ketab_n

سمع جميع الخدم صراخ حليمة، كان صراخها مؤلمًا مصحوبًا ببكاء يقطع نياط القلب:

- لا تتركيني وحدي يا فرح! لا تتركيني وحدي يا فرح! اللعنة عليهما! لقد قتلوك! اللعنة عليهما! سأنتقم منهما، أقسم باللّه إنني سأنتقم منهما!

لم يفهم الخدم مَن تقصد، فالصراخ أمام أجساد الموتى لا يعني كثيرًا.

أشرقت الشمس بكل عنفوانها على المزرعة، وسكتت أصوات الحشرات والضفادع، ولم يعد يُسمع سوى صراخ حليمة من حين إلى آخر.

وفي مجلس الأمير ناصر بدا الأمر مختلفًا، فقد كان هناك شبه احتفال سري بينه وبين جوهر الذي جلس في انتظار أن يحصل على هديته التي وعده الأمير بها:

- كيف هي ليلتك يا مولاي؟

- لم تكن جيدة، ولكن لا بأس إنها الأولى، والقادم سيكون أفضل بالتأكيد، كنت أسمعها تبكي طوال الليل، ولم تُرد الحديث معي، وأتمنى أن يتغير ذلك قريبًا بعد أن تعتاد عليَّ.

ابتسم جوهر بخبث قبل أن يقول:

- وأين هديتي التي وعدتني بها، أريد حريتي أيها الأمير، لقد خدمتك بإخلاص طوال السنين الماضية وأتمنى أن تمن عليَّ بالحرية كما كنت تعدني دائمًا.

- سأفعل ذلك يا جوهر، لا تتعجل، عليك مهمة أخرى يجب أن تُنجزها الآن.

Twitter: @ketab_n

- وما هي يا مولاي؟

- عليك أن تنشر خبر مبيتي مع حليمة أمس، انشره حتى لا يبقى أحد في البحرين إلا ويعرف به، أريدها أن تأتي راكعة إليَّ طالبة مني أن أتزوجها وأستر عليها. اذهب الآن.

Twitter: @ketab_n

٣١
اليمن

من على سفح جبل شرقي مدينة عدن، رمى راعٍ للغنم حجارة على بعض الأغنام الشاردة التي بدأت تبتعد عنه، كرر ذلك عدة مرات، ولكن الأغنام العنيدة بقيت تبتعد عن القطيع وهي لا تعير حجارته انتباهًا، وفي كل مرَّة يفعل ذلك كان ينظر إلى البحر الممتد أمامه إلى ما لا نهاية، لفتت انتباهه عدة نقاط سوداء تتحرك على خط الأفق، ركز بصره عليها في محاولة لمعرفة ماهيتها، تأكد أنها سفن كثيرة قادمة من الشرق، وضع كفه بشكل أفقي أعلى عينيه ليحجب أشعة الشمس التي تضايقه، استطاع أن يشاهد نقطًا حمراء على أشرعتها تحولت بعد بضع دقائق إلى صلبان حمراء واضحة.

ترك الراعي الصغير قطيعه وذهب راكضًا إلى القرية، وأخبر أحد كبار السن الذي جاء راكضًا معه إلى حيث يمكن مشاهدة البحر من بعيد، وضع الرجل كفيه حول عينيه ونظر إلى البحر، ثم تغيرت ملامح وجهه وعاد راكضًا إلى القرية، وفي خلال دقائق كان عدد من الرجال في طريقهم إلى البحر لأخذ زورق صغير ذي مجاديف لإنذار الأمير مرجان في عدن، عرف المجدفون أنهم

Twitter: @ketab_n

يسابقون الأسطول البرتغالي إلى هناك، فإن نجحوا في إنذار المدينة فقد تستعد لملاقاة أسطول الموت هذا قبل وصوله إليها، أخذوا معهم راعي الأغنام الصغير لأنه يستطيع أن يجري بسرعة للوصول إلى قصر الأمير.

جدفوا بكل ما يستطيعون من قوة، كان الرجل المسن يحثهم على الإسراع وعدم التوقف، بدأت قطرات العرق تتفصد من أجسادهم، وشرع المسن ينشد أناشيد حماسية يرددها الجميع خلفه حتى بانت لهم المدينة من بعيد، وصلوا إلى ساحلها، وجرى الغلام بأقصى سرعة إلى قصر الأمير مرجان القريب من السور، لم ينتبه له الحرس، ولكن أحدهم ضربه بعصا رفيعة على ظهره محاولًا إيقافه لأن الأمير لديه بعض الضيوف، لم تُوقف هذه الضربة الغلام مع أنها جعلته يلوي جسده من ألمها، ومضى مسرعًا في طريقه.

دخل إلى مجلس الأمير وهو يلهث محاولًا لف ذراعه خلف جسده لحك ظهره لتخفيف ألم الضربة، تبعه الحارس وهو ممسك بخيزرانة طويلة يضرب بها الهواء في محاولة أخيرة لإيقاف هذا الغلام الذي لم يمتثل لأوامره.

- مولاي الأمير! مولاي الأمير!

رفع الأمير بصره إليه:

- ما بك يا غلام؟ ما الذي حصل؟

زفر بقوة قبل أن يقول:

- الأسطول البرتغالي متجه إلى هنا، لديكم بضع ساعات

Twitter: @ketab_n

فقط للاستعداد، لقد شاهدناه من قريتنا وجئنا لتحذيركم بأسرع ما استطعنا.

كان الأمير مرجان مستعدًّا لأمر كهذا، فلم يمل البحر من رمي الأجساد المقطعة والمشوهة والسفن المحترقة إلى ساحلهم، وقصص التعذيب التي يحملها الضحايا لم تجعل الحياة سهلة لأهل عدن، فخلال الأشهر الماضية وضعوا الكثير من أكوام الأخشاب على رؤوس الجبال المحيطة بالميناء وعلى الساحل بالقرب من البحر، لتكون إنذارًا بالهجوم أو تكون إنارة للمقاتلين فيما لو حصل الهجوم ليلًا.

بعد معركة «ديو»، عرف «البوكيرك» أنه لن يستقر له قرار إلا إن منع السفن المملوكية من الوصول إلى الهند، وحتى يتأتى له ذلك كان لا بد من أن يستولي على مدينة عدن بأي ثمن، فهي المدخل إلى البحر الأحمر، وبسيطرته على هذه المدينة سيتحكم في الخط الملاحي الممتد من السويس وحتى الهند، وسيمنع السفن المملوكية من المشاركة في أي معارك قادمة في بحر العرب.

جهز سفنه لأكبر حملة في تاريخ البحرية البرتغالية مكونة من ألف وسبعمائة جندي وبحار، وثمانمائة جندي مليباري حشرهم في عشرين سفينة، وأخبرهم أن الهدف هو احتلال عدن ثم سيعلمهم عن باقي الخطة لأنه يريد أن يفرض سرية على حركته، فهذه الخطة ستغير مجرى التاريخ كما كان يقول لضباطه.

عندما وصل أسطول «البوكيرك» إلى الساحل مساء كان اليمنيون مستعدين له، فأوقدوا نيرانًا كثيفة على رؤوس الجبال

Twitter: @ketab_n

ليكشفوا الساحل ليلًا، لقد أحالوا الليل إلى نهار بهذه النيران المشتعلة، فلم يتمكن المهاجمون من التسلل إلى الساحل تحت جنح الظلام.

قام خطباء المساجد بحث الناس على الجهاد والصبر وتحصين المدينة، فسرت روح الجهاد في الناس بسرعة، خصوصًا أن العلماء والمشايخ بدأوا في حمل السلاح وشوهدوا وهم يخطبون في الناس متكئين على سيوفهم ورماحهم.

وفي اليوم التالي وعندما كان «البوكيرك» على وشك أن يأمر إحدى سفنه بالاقتراب من الساحل لمعرفة الوضع وجس نبض المدافعين، خرج زورق يمني محمل بالهدايا وجدف إلى سفينة القيادة وطلب أحد ركابه مقابلة «البوكيرك».

تدلت الحبال من السفينة «سان جبرائيل»، وبدأ الرجال في الزورق بربط الهدايا حتى يسحبها البحارة البرتغاليون إلى الأعلى، استمر الوضع على هذا المنوال حتى انتهى نقل كل ما على الزورق، ثم صعد الرسول إلى السفينة، وكان «البوكيرك» في انتظاره واقفًا أمام كومة الهدايا التي وُضعت بشكل عشوائي على سطح سفينته، ولم يرد على سلام الرسول الذي سلم عليه.

كرر الرسول السلام مرَّة أخرى، ولكن «البوكيرك» لم يرد عليه أيضًا، بل بقي ينظر إليه شزرًا بعينيه التمساحيتين حتى شعر الرسول بالخوف مما قد يحدث، ثم تحدث «البوكيرك» قائلًا:

- اسمعني أيها الرسول، أريدك أن تأخذ هداياك معك من حيث جئت، لن أقبل أي هدايا من أميركم قبل أن تلبَّى جميع مطالبي.

Twitter: @ketab_n

بقي الرسول اليمني واقفًا في انتظار الشروط، فبدأ «البوكيرك» في سردها:

- على أميركم أن يفتح أبواب المدينة، وأن يُوقِّع شروط الاستسلام، وأن يقبل الخضوع لملك البرتغال، وبعد أن يفعل كل ذلك سنستعرض قواتنا في طرقات المدينة ونرفع علمنا على قصر الحكم.

ابتسم «البوكيرك» ابتسامة نادرة قبل أن يواصل كلامه:

- وإن رفض فإننا سندمر المدينة عن بكرة أبيها ونقتل كل روح حية فيها.

عاد الرسول إلى الأمير مرجان بشروط «البوكيرك»، فأيقن الأمير أنه لا مفر من الحرب، ولكنه أراد كسب الوقت لإنهاء تحصيناته وحشد رجاله، فطلب مهلة من «البوكيرك» ليستشير وجهاء المدينة وأعيانها، رفض «البوكيرك» ذلك معطيًا الأمير بضع ساعات فقط للرد، ثم أصدر أوامره بأن يتم سحب كل السفن من نوع السمبوك والزعايم التي تقف في ميناء عدن في اتجاه الأسطول لاستخدامها لنقل جنوده إلى الساحل عند الحاجة.

وبعد انتهاء المهلة المحددة، هجم «البوكيرك» على ثلاثة محاور بثلاثة أرتال، ولكن السفن الصغيرة التي استولى عليها من الميناء والتي حشد فيها جنوده اضطرت للتوقف على بعد رمية سهم من الساحل بسبب انحسار ماء البحر، فنزل الجنود منها بدروعهم وأسلحتهم وعتادهم وخاضوا البحر للوصول إلى الساحل مما تسبب في ابتلال البارود الذي كانوا يستخدمونه في بنادقهم.

نجح الرتل الأول في الوصول إلى البوابة الرئيسية والاشتباك

Twitter: @ketab_n

مع المدافعين عنها، ولكنهم وجدوا صعوبة في فتح البوابة؛ لأن اليمنيين بنوا جدارًا صخريًا صلبًا خلفها، فقاموا بتسلق السلالم التي أحضروها مستخدمين بنادقهم لضرب كل مَن يحاول منعهم، وصعدوا إلى أعلى الجدار ورفعوا العلم البرتغالي عليه ثم أطلقوا صيحات النصر لإعلام بقية الجنود بنجاحهم في مهمتهم.

أما الرتل الثاني بقيادة «البوكيرك» فقد اتجه إلى يمين البوابة الرئيسية، وهذا الرتل من رجال النخبة المدرعين، عندما وضعوا السلالم على الجدار وصعدوا عليها بشكل جماعي تكسرت بسبب ثقل الجنود وأسلحتهم ودروعهم، ركض بعض أفراد هذه المجموعة في اتجاه الرتل الأول لإحضار السلالم التي استخدمت في تسلق السور، وعندما بدأ الجنود في تسلقها تكسرت بدورها أيضًا.

أما الرتل الثالث فقد كان من المفترض أن يستخدم السلالم التي يتركها الرتلان خلفهما، ولكنهم لم يجدوا ما يتسلقون عليه، فبقوا أسفل الجدار من جهة البحر بدون أن يكون لهم دور في القتال الدائر في أعلى السور أو في الجهة الأخرى منه.

بدأ الرتل الأول في النزول خلف السور، ولكن اليمانيين قاوموهم مقاومة عنيفة مما أجبرهم على صعود السور مرَّة أخرى، فأمر الضابط الذي يقود الرتل جنوده بمعاودة الهجوم رافعًا الصليب بيده ليحثهم على القتال بكل طاقتهم، فما كان منهم سوى أن صرخوا صرخة واحدة ونزلوا للقتال دافعين اليمانيين إلى الخلف، ثم سيطروا على الدور المجاورة للسور، بدأ الرعب ينتشر في أوساط اليمانيين وبدأوا بالهروب بعيدًا عن الجدار.

Twitter: @ketab_n

شاهد الأمير كثرة الهاربين فأراد أن يُصدر أمرًا بالانسحاب، فما يملكه المدافعون من سلاح لا يكاد يجاري ما يستخدمه المهاجمون، وقد كثر القتلى في صفوف جنوده وهبطت روحهم المعنوية، وكادت المدينة أن تسقط، فنصحه أحد الشيوخ الذين بقربه بأن يركب فرسه ويقود الهجوم المضاد مرَّة أخرى؛ لأن المدينة ساقطة لا محالة إن لم يكن هو على رأس كتيبة الهجوم.

كانت أرتال البرتغاليين الأخرى قد تمكنت من إحداث ثغرات في السور والدخول لمساندة الرتل الأول، وبدا أن المعركة تسير لصالحهم حتى ظهر الأمير مرجان في أوساط المدافعين على فرس أشهب، رافعًا سيفه، حاثًّا جنوده على مشاركته في الدفاع عن مدينتهم وأعراضهم.

بدأت معركة حامية الوطيس بين الطرفين استُخدمت فيها كل أنواع الأسلحة المتوفرة، فالتحم الفريقان وأصبح القتال بالأسنان والأظافر، وتزاحم البرتغاليون على السور، وحوصروا بين اليمانيين والجدار الصخري، واستطاع بعضهم صعوده والقفز إلى خارجه، فمات الكثير منهم من جراء ذلك أو تكسرت أطرافهم، وتمكن اليمانيون من تسلق السور خلفهم حاملين حزمًا من الأخشاب فأشعلوها ورموها على البرتغاليين في أسفله وأحرقوهم.

عندما شاهد «البوكيرك» أن قواته لم تعد تستطيع عمل شيء، وأنها أُنهكت من جراء القتال المتواصل، أمرهم بالانسحاب، فاستطاعوا استخدام السفن الموجودة في الميناء للوصول إلى الأسطول، أما الجرحى فقد أُبيدوا عن بكرة أبيهم.

Twitter: @ketab_n

بقيت المدفعية البرتغالية تقصف عدن لمدة يومين متتاليين حتى دمرت جزءًا كبيرًا منها قبل أن يأمر «البوكيرك» سفنه بالتحرك وترك المدينة العاصية شبه مدمرة.

وبعد أن توقف القصف بدأ الأمير مرجان في تفقد الخسائر والقتلى، فوجد جثة مستشاره الذي أشار عليه بعدم فتح أبواب عدن للأسطول المصري، وقد هُشم رأسه جراء ضربة فأس، قيل له إنه كان يحاول الهروب حاملًا بعض أمواله معه، لم يهتم به كثيرًا، فأعداد القتلى كانت تفوق قدرته على تحمل عزائهم.

ومن عدن التف أسطول «البوكيرك» حول الزاوية الجنوبية الغربية لليمن واتجه شمالًا متجاوزًا مدينة الحديدة ليرسو في جزيرة كمران، وكان على ضباطه إحصاء الجنود ومعرفة عدد القتلى بعد معركة «عدن».

تبين أن حوالي نصف الجنود المهاجمين قد هلكوا خلال المعركة، وشعر «البوكيرك» بثقل الهزيمة وتأثيرها، وانتشرت هذه الروح الانهزامية في أوساط جنوده وضباطه، فهبطت الروح المعنوية لقواته بشكل كبير، فأراد أن يعيد لهم هيبتهم وينفخ فيهم روحًا جديدة، فتركهم لمدة يومين يعيدون لملمة جراحهم على هذه الجزيرة النائية.

وفي اليوم الذي قرر أن يخطب فيهم، وزع عليهم كمية كبيرة من الطعام، وسمح لهم بشرب الخمر واللهو، حتى إذا حل المساء وبرد الجو قليلًا أمر بوضع منصة له بالقرب من صليب كبير استطاع نجارو الأسطول صنعه من الأشجار الموجودة في الجزيرة، كان «البوكيرك» يرغب في أن ينسى جنوده ما حل بهم

Twitter: @ketab_n

على أسوار عدن، ولم يجد أفضل من الطعام والخمر ليقوما بالعمل.

صعد على المنصة ونظر إلى جنوده للحظات بدون أن يقول شيئًا، ثم رفع صوته قائلًا:

- أيها الجنود، يا جنود الملك «مانويل» العظيم، إننا أمام مهمة مقدسة، مهمة ستُغير مجرى التاريخ، وأي تضحية نقدمها هي تضحية لا قيمة لها أمام هدفنا السامي وهو رفع الصليب المقدس وتطهير الأرض من الهراطقة.

كان الجنود يصرخون بعد كل جملة ينطقها «البوكيرك»، خصوصًا حين يذكر الصليب والهرطقة والملك، فهذه الكلمات تُظهر أسوأ ما فيهم من تطرف دموي، ثم واصل حديثه:

- خلال الأشهر الماضية أرسل سلطان مصر رسالة إلى البابا يهدده بأنه سيحرق كنيسة القيامة إن لم تتوقف البرتغال عن إرسال أسطولها لنشر المسيحية في هذه البقاع من الأرض، إن هذا المهرطق لا يعلم أن هذه الأرض ومَن عليها مِلك لملك البرتغال وسلالته بموجب اتفاقية «توردیسیلاس» التي منحها البابا بركاته إلى يوم القيامة.

بدأ الجنود بالصراخ والهتاف للملك والمسيحية، وكالعادة أيضًا بدأ كاهنان بالمرور حولهم رافعين المباخر والصليب لإضفاء جو من الروحانية على الخطاب، وحانت اللحظة التي سيقول لهم «البوكيرك» فيها بقية خطته:

- إن لدينا هدفين هما: إعلان البحر الأحمر بحرًا مسيحيًّا خالصًا، والاستيلاء على ميناء ينبع ومنه سنسير في اتجاه المدينة

Twitter: @ketab_n

التي دُفن بها رسول المحمديين وسننبش القبر ونقايضه بكنيسة القيامة التي يسيطر عليها السلطان المصري الغوري، لن نسمح بأن يُهدد ملكنا المقدس أي شخص، وبعدها سندعو مليون مسيحي للقدوم إلى هذه البقاع، وسيُشرفهم العمل تحت إمرة القديس «جون»، حتى يحولوا نهر النيل إلى البحر فتعطش مصر وتجوع، وحين نبيد هذه السلطنة بكل مَن فيها من بشر، سنُعيد مجرى النيل إلى ما كان عليه وتصبح الأرض لنا بكل خيراتها.

صرخ البحارة بكل قوتهم مؤيدين لهذه الخطة الشيطانية، ثم ركعوا أمامه بعد أن رفع الصليب حتى يُذكِّرهم أنه يقودهم باسمه، وبدأ الكهنة برش الجنود بالماء المقدس لتطهيرهم من خطاياهم، فتحولت تلك البقعة النائية من الأرض إلى كنيسة كبيرة، يُبارك روادها الصليب الذي باسمه سُفكت الدماء وقُطعت الأعضاء ودُمرت المدن.

وبعد عدة أيام بدأ الجو في التغير، وتجمعت الغيوم، وهبَّت الرياح الشمالية تعصف بكل شيء في طريقها، ولم يستطع الأسطول الإبحار، فتمزقت الأشرعة، واندفعت السفن إلى الجنوب رغمًا عنها، وأصبح البحر خطرًا، وشاركت الصخور بدورها في تحطيم بعض السفن التي جنحت إلى الشاطئ، فلم يستطع الأسطول الإبحار أو الحركة، واستمرت هذه الحال لفترة حتى بدأ مخزون الطعام والماء ينفد، وبدأ البحارة يرون في ذلك علامة من الرب لمنعهم من المُضي قدمًا في خطتهم.

وانتشرت في أوساط البحارة أمراض يصاحبها إسهال وغثيان وارتفاع في درجة الحرارة، فقد كان كل شيء فاسدًا لطول فترة

Twitter: @ketab_n

التخزين، وشدة حركة الموج والرياح، فأمر «البوكيرك» جنوده الذين ما زالوا يملكون بعض القوة بنصب صليب خشبي كبير على الجزيرة ودفن كل مَن مات خلال الأيام العاصفة الماضية تحته.

وبعد أن هدأت الرياح تحركت السفن إلى الجنوب وبقيت أنظار البحارة معلقة بالصليب الخشبي الكبير على تلك الجزيرة النائية، فتحته دُفن العديد من رفاقهم. فكر «البوكيرك» في إعادة محاولة احتلال عدن، ولكنه لم يستطع أن يُقنع بحارته بذلك، فقد فقدوا الأمل في كل شيء، ورأوا في العواصف الهوجاء التي هبت عليهم علامات ربانية تُنذرهم بخطورة مخططهم، فقد يكون إله المحمديين غاضبًا منهم. مر الأسطول من أمام عدن في طريقه إلى هرمز، لقد كانت المدينة شبه مدمرة، ولكنها كانت جاهزة للدفاع عن نفسها إن اضطرت لذلك مرَّة أخرى.

Twitter: @ketab_n

٣٢
جزيرة البحرين

مرت الأيام وحليمة تتردد على قبر فرح الذي حُفر تحت ظل شجرة سدر عن يسار المنزل، جعلته قبرًا بسيطًا، وعلَّمته بحجرين صغيرين لفَّت أحدهما بقطعة قماش خضراء، ووضعت على القبر سعفتين تستبدلهما من حين إلى آخر كلما يبستا.

تعودت الخروج كل صباح من منزلها والجلوس على صخرة بجانب القبر لتبكي حتى تجف عيناها وتعود إلى منزلها مرَّة أخرى، لم تكن تتحدث مع أحد، وعزلت نفسها عن الناس، فقد عرفت عن طريق خدمها أن الناس يتحدثون أنها باعت شرفها للأمير ناصر، كرهت كل شيء، فلم يعد لها مَن تتحدث معه أو تثق به، أصبحت حياتها كئيبة محصورة في منزلها الذي ضاق عليها، لم تعد تشعر بكيانها وبوجودها، لقد أصبح قبر فرح هو المكان الوحيد الذي تبث إليه حزنها وخوفها، فهو في نظرها أرحم من كل شيء آخر.

لم تعد حليمة تفرق بين الناس، فكلهم ضدها، إنها تشعر بكل القيل والقال الذي يدور خلف ظهرها، فالجميع يستمتع بقطع لحمها وعلكه ثم لفظه، .أليس هناك مَن يسألها عن صدق

Twitter: @ketab_n

الإشاعة؟ هل تعوَّد البشر على تصديق كل ما يُرمى في آذانهم من سفه وكذب؟ ما الذي حصل للبشر حتى يستمتعوا بأكل لحمها والنيل من شرفها وسُمعتها؟

فكرت في الصراخ لإعلام الناس بما حصل، فكرت بتركهم يتحدثون حتى يملوا، ولكنهم لا يملون، إنهم لا يملون أبدًا، يظهر ذلك في عيونهم وتصرفاتهم عندما يرونها، يتهامسون ويتغامزون ثم يبتسمون، لقد نجح الأمير ناصر في تحطيم سُمعتها وتلويث شرفها وقتل أقرب الناس إليها، لم يبقَ لها سوى أن تتمنى الموت ليأخذها من بين أيديهم، طلبت كثيرًا من فرح وهي في قبرها أن تأخذها معها، سترحب بالموت، ستقبل به، كثر بكاؤها ونحيبها على القبر الذي أصبح مزارها اليومي.

وصلت سفينة هرمزية إلى البحرين، ونزل منها ابن رحال وحسين متنكرين في أزياء تجار، لم يتعرف عليهما أحد في الميناء، استأجرا جيادًا وجريا بها بأقصى سرعة إلى المزرعة، أوقفهما الحارس عند الباب، عرَّف ابن رحال بنفسه، حاول الحارس أن يجري إلى المنزل ليُبشر حليمة فلعله يحصل على البشارة منها، ولكن ابن رحال منعه من ذلك.

كانت حليمة على سريرها عندما سمعت أصوات حوافر خيل تجري في اتجاه المنزل، توقف الصوت فجأة، وسمعت باب المنزل يُفتح، جرت من سريرها وأقفلت باب غرفتها؛ فقد خشيت أن يكون الأمير ناصر قد قرر أن يزورها فجأة.

طرق ابن رحال باب الغرفة:

- حليمة، هل أنت هنا؟

Twitter: @ketab_n

تسابقت يدا حليمة إلى القفل لفتحه، إنه صوت زوجها وحبيبها ابن رحال، بدأ جسدها يرتجف فرحًا به، لم تستطع أصابعها إمساك مفتاح القفل، كل شيء يقاومها، يداها، قدماها، أنفاسها، إنها تريد أن تحتضنه، تشمه، تُلقي بجسدها المتهالك على جسده.

فتحت الباب وشاهدته، ثم سقطت مغشيًا عليها قبل أن تنطق بكلمة.

تأمل ابن رحال وجهها، لقد غدت هزيلة صفراء اللون، غارت عيناها الجميلتان في محجريهما وكأنهما محتجتان على إهمالهما، لم تكن هي حليمة التي تركها، فتحت عينيها بعد عدة دقائق ووجدت ابن رحال أمامها وهو يضع قطعة من القماش المبلل على جبهتها، مدت ذراعيها إليه واحتضنته، شعر بحرارة جسدها وهزالها وهشاشتها فاحتضنها محاولًا التخفيف عنها، ثم ناولها كوب الماء لتشرب منه، شربت قليلًا وهي تنظر إليه وكأنها غير متأكدة من وجوده معها، لقد كتمت في قلبها الكثير وانعكس ذلك على جسدها الذي بدأ يتمرد عليها، فظهرت عليها عوارض المرض والهزال.

- نامي الآن يا حبيبتي، أنت مريضة جدًّا فحرارتك مرتفعة!

- لا لست مريضة، أنا سعيدة بك سعادة الأم بولدها والحبيبة بحبيبها، لقد أعدت لي حياتي، لم أكن أطيق الطعام بدونك، لقد مررت بظروف صعبة لا بد أن أحكيها لك!

- ستقولين لي كل شيء يا حبيبتي، نامي الآن وسنتحدث لاحقًا.

Twitter: @ketab_n

مرت تلك الأيام جميلة على حليمة، فقد تبدَّل حزنها فرحًا، وارتد لها جمالها وحيويتها، وأخبرت ابن رحال بكل القصة التي مرت عليها، ابتداءً من اختفاء الخنجر من غرفة نومهما بعد أن وعد جوهر فرح بأنه يرغب في شراء حريته من الأمير ناصر، مرورًا بوصول الخنجر إلى يد الأمير ناصر الذي بدأ يهددها به، وانتهاءً بمحاولات فرح إصلاح خطئها باستدعاء الأمير إلى المنزل وإيهامه أنه قد نام مع حليمة. عادت الرجفة إلى حليمة حين وصلت إلى نهاية القصة، وحكت لابن رحال كيف قطعت فرح رسغيها بذات الخنجر، وكيف ماتت معتذرة لها عن خطئها، وبموت فرح مات كل شيء جميل في هذا المكان، وأخبرته أيضًا أنها لم تستطع أن تغادر إلى هرمز بعده مباشرة لأن البرتغاليين ظهروا في مياه الخليج وتوقفت الملاحة خوفًا منهم، فوجدت نفسها مجبرة على البقاء هنا.

لقد كان أقسى ما مرت به حليمة أنها لم تكن تعرف إن كان ابن رحال حيًّا أو ميتًا؛ فقد انقطعت الرسائل منه منذ أن انهزم أسطوله في معركة «ديو»، ولم تكن تريد أن تترك منزلها وتغادر إلى هرمز عند والدها بعد ذلك خوفًا من أن يُكرس هذا الإشاعة بخيانتها لزوجها وهربها، ما سيجعل والدها في موقف الدفاع عن شرف ابنته وهذا ما لا تريده.

عادت الحياة إلى الزوجين، وبدأت حليمة تستمتع بكل شيء حولها، فقد أصبح لشروق الشمس معنى آخر، ولزقزقة العصافير لحن راقص عذب، وأصبح نقيق الضفادع وأصوات الحشرات في الليل أكثر نعومة ورقة، كم كانت حياتها بائسة بدون ابن رحال.

Twitter: @ketab_n

تعرَّف حسين على حليمة التي أكرمته غاية الإكرام، وجعلته يشعر أنه في منزله وسط أهله، فهو صديق زوجها وتوأم روحه، ولم تتوانَ عن خدمته، وسمعت الكثير من أحاديثه عن جدة والقاهرة والإسكندرية والهند، وفتح بقصصه الكثير من العوالم أمام حليمة التي ما زال عالمها محصورًا في هرمز والبحرين، ولكن حسين لم يكن ليبقى طويلًا بعيدًا عن السلطان الغوري، فحديث الخواجة عن الاتصالات السرية بين الشاه إسماعيل والسلطان الغوري لا يوحي بخير ولا بد من تنبيه السلطان، فبعد أن أمضى أسبوعين في ضيافة ابن رحال وزوجته قرر أن يسافر إلى الأحساء ومنها إلى جدة. غادر بدون أن يعلم أحد بوجوده، فقد حضر بصمت وسيغادر بصمت أيضًا، كما قالت حليمة حين كان يودعهما.

طلب منهما أن يزوراه في جدة في موسم الحج لعله يرد لهما شيئًا من كرم ضيافتهما.

وغير بعيد عن مزرعة ابن رحال، دخل جوهر إلى مجلس الأمير ناصر مبكرًا كعادته عندما يريد أن يتحدث معه على انفراد، وجلس قريبًا منه. ما زال جوهر يأمل في أن يعطيه سيده حريته، فقد سئم العبودية، وسئم أن يكون أداة بيد غيره، وسئم من وعود الأمير ناصر التي لا تتحقق، لقد أصبح جوهر يرى هذه الحرية أمامه، يحلم بها ويأمل في أن يحصل عليها، لقد وعده سيده بها بعد أن يحقق رغبته في الحصول على حليمة، وقد حصل عليها كما كان يرغب، فما الذي سيمنعه الآن من أن يجعله حرًّا؟

كان الأمير ناصر بدوره يبحث عن عذر في عدم تحقيق رغبة

Twitter: @ketab_n

جوهر، لم تعجزه الأعذار، ولكنه بدأ يكره كثرة حديث جوهر عن الحرية، فحاول أن يكون هو المسيطر على مسار الحديث قبل أن يعيد جوهر طلبه المتكرر:

- أظنك عرفت بأن ابن رحال هنا في البحرين يا جوهر، إنه مثل الشيطان لا يموت بسهولة.

تلمس جوهر خنجره الذي يتزين به عادة في وسطه:

- إن كنت تريده أن يموت فلديَّ خنجر قادر على قتل الشياطين، عليك أن تأمر فقط يا مولاي.

مد الأمير ناصر قدميه أمامه ثم سحب وسادة واتكأ عليها:

- لا، ليس الآن يا جوهر، ليس الآن.

ثم وكأنه تذكَّر شيئًا، قال وابتسامة خبيثة على وجهه:

- كنت أظنك ستتوقف عن القتل بعد أن ماتت حبيبتك فرح!

- كانت فتاة جميلة يا سيدي، ولكن لعل من الأفضل لها أن تموت مثل وعودي لها بالضبط!

أبقى الأمير ناصر ابتسامته الخبيثة على وجهه كعادته عندما يتحدث مع جوهر:

- ولكنك لم تقل لي كيف ماتت!

- لقد قال لي حارس المزرعة إنها قطعت رسغيها ونزفت حتى فارقت الحياة، ودفنتها سيدتها بالقرب من المنزل، وأظنها فعلت ذلك لحزنها على سرقتها الخنجر واكتشافها بعد ذلك أن الخنجر استُخدم لتهديد سيدتها، لقد انتحرت تكفيرًا عن ذنبها كما قال لي الحارس، ولكني لست أعرف لماذا لم تنتحر حليمة أيضًا! فهي التي باعت شرفها لك نظير الخنجر!

Twitter: @ketab_n

حرك جوهر عينيه قليلًا وكأنه يبحث عن جواب ثم أضاف:

- يبدو أن مخططك أصبح أكثر تعقيدًا بعودة ابن رحال يا مولاي، فمنذ أيام والرجل لم يخرج من منزله، ومن الواضح أن حياتهما أصبحت أكثر سعادة، فحارس المزرعة لم يفتح بابها منذ أن دخلها ابن رحال، ما الذي يحصل؟ ألم يعلم هذا الرجل بما فعلته زوجته معك في غيابه؟!

أمسك الأمير ناصر طرف شاربه وكأنه يفكر في أمر ما:

- هل أنت متأكد أنك نشرت خبر مبيتي معها كما يجب؟

- دعني أؤكد لك يا مولاي أنه لم يبقَ شخص في البحرين لم يعلم بذلك، إن قصتك معها أصبحت حديث الناس.

- لست أفهم يا جوهر، قد نحتاج لأن نقتل ابن رحال أيضًا، إن الكثير من الأمور التي تحدث في تلك المزرعة أصبحت لغزًا بالنسبة إلينا!

مد الأمير ناصر يده إلى طبق التمر الذي أمامه وأخذ واحدة منه ووضعها في فمه، كان جوهر في أثناء ذلك قد بدأ ينظر بعيدًا، فأخرج الأمير النواة من فمه ورماها على وجه جوهر ليلفت انتباهه، أصابت النواة جانب وجهه فالتفت غاضبًا إلى سيده ولكنه تمالك نفسه:

- عندما أُحدثك عليك أن تنظر إليَّ أيها العبد!

ثم هدَّأ من نبرة حديثه:

- هل عرفت مَن هو الضيف الذي حل في منزل ابن رحال لبضعة أيام؟

مسح جوهر أثر النواة بطرف ثوبه ثم نظر إلى سيده بحقد:

Twitter: @ketab_n

- لا ، لم أعرف مَن هو، ولم يتحدث ابن رحال مع أي شخص بخصوصه، لعله صديق هرمزي تعرف عليه بعد هروبه من الهند، ولكن أليس من المفترض أن يمر عليك للسلام بعد وصوله إلى البحرين؟

بقي الأمير ناصر يفتل شاربه بطرفي إصبعيه:

- نعم، ولكنه أرسل لي يخبرني أن زوجته مريضة وأنه يريد أن يكون معها وسيأتي حال شفائها، ولكن دعنا ننتظر قليلًا لنرى ما الذي ستقوله له حليمة، وكيف سيتصرف إن لم يسمع بخبرها بعد، فسُمعتها قد أصبحت ملوثة وكان توقعنا أنه سيُطلقها بعد أن يسمع ما يتناقله الناس عنها ولكنه لم يفعل حتى الآن، أليس هذا غريبًا؟!

لم يجد الأمير ناصر حلًّا سوى أن يُرسل رسالة واضحة لابن رحال بأنه قد نام مع حليمة حتى يُطلقها وتصبح له.

أما ابن رحال فقد بدأ يخطط للانتقام من الأمير ناصر بأفضل وسيلة ممكنة، لم يكن لديه سوى جوهر؛ لأنه الوحيد الذي قد يعترف بسرقة الخنجر أمام السلطان مقرن بعد عودته، ولم يكن هناك من وسيلة للوصول إلى جوهر إلا بتوطيد العلاقة مع الأمير ناصر مرَّة أخرى، فجوهر عبد فقير يحتاج إلى المال لشراء حريته وقد يستغل ابن رحال هذه الحاجة لصالحه.

بقي ابن رحال يُقلِّب الأمور في رأسه، فالناس ما زالوا يتحدثون عن أن الأمير ناصر قد عاشر حليمة، وهم في انتظار رد فعله بعد أن يعلم بذلك، ولكن ماذا لو لم يفعل شيئًا، وقويت علاقته بالأمير، كيف سيكون رد فعل الناس حينها؟ وماذا سيقولون؟

Twitter: @ketab_n

إن أي رد فعل سيقوم به هو تكريس للإشاعة، فقرر أن يسير بعكس توقع الناس، لم يكن ابن رحال يملك وسيلة واحدة لإسكات كل هذه الإشاعات، ولكن بإمكانه أن يجعل الناس يعيدون حساباتهم على الأقل.

بدأ ابن رحال يتردد على الأمير ناصر في مجلسه للعب الشطرنج وكأن شيئًا لم يحدث، وفعلًا كما توقع ابن رحال فقد بدأت علامات استفهام كثيرة تبرز من هذا التصرف، فإن كانت حليمة قد خانته مع الأمير فلماذا لا يزال معها ولماذا يتردد على مجلس الأمير؟!

قرر ابن رحال أن ينشر حقيقة ما حصل في أوساط الناس، فسرَّب إشاعة تقول إن الأمير ناصر قد نام مع خادمة حليمة وليس مع حليمة نفسها، وإنها استطاعت غشه لتفادي شره ونجحت في ذلك.

لم يكن للناس حديث تلك الأيام سوى تناقل هذه الإشاعات وإثبات خطأ عكسها، فكان كل حديث بين شخصين يتمحور حول حليمة وخادمتها وابن رحال والأمير ناصر وهذه المؤامرات التي يحيكونها لبعضهم البعض، ونظرًا لبُغض الناس للأمير ناصر فقد صدقوا ما يقال بأن حليمة قد تمكَّنت من غشه وجعلته ينام مع خادمتها.

كان ابن رحال يقابل كل هذه الإشاعات التي تصله عن طريق الخدم وبعض أعوانه الذين بثهم في أوساط الناس لنقل الأخبار له بابتسامة، فهو يعرف أن معركته قد تكون طويلة ومؤلمة ولكن مخططه بدأ يسير في الاتجاه الصحيح.

Twitter: @ketab_n

ترك ابن رحال الأمور تجري في أعنتها، كورق الشجر الذي يسقط في مجرى الماء، فالزمن ومجرى الماء سيحددان مصيره، وهكذا كانت حال الإشاعات التي يطلقها لتتصادم مع الإشاعات التي يطلقها الأمير ناصر.

جلس جوهر مع الأمير ذات ليلة، لم يكن جوهر مسرورًا، فقد شعر أن مخططه ليكون حرًّا أصبح هباءً منثورًا بعد أن وصلته إشاعة تقول إن الأمير قد نام مع فرح وليس مع حليمة، وهذا يعني أن حليمة استطاعت أن تغش الأمير، ويعني أيضًا أن الأمير لن يُحقق وعده بجعله حرًّا.

تساءل الأمير:

- ما الذي يدور في رأسك أيها العبد؟

- لا شيء يا مولاي، لا شيء!

غضب الأمير ورفع صوته:

- بل هناك أشياء، هل سمعت الإشاعة التي تقول إن خادمة حليمة هي مَن كانت معي في تلك الليلة؟ لقد جعلتني أنام مع خادمتها! أنا الأمير ناصر أنام مع خادمة! هل من المعقول أن أنام مع خادمة نمت معها أنت أيها العبد؟! لو كان الأمر صحيحًا فإنها ستكون وصمة عار تلاحقني إلى الأبد!

صمت الأمير للحظات ولكن نَفَسه ما زال مسموعًا، ثم قال:

- هناك طريقة واحدة لمعرفة الحقيقة، طريقة واحدة فقط.

وفي منزل ابن رحال، أخرجت حليمة ملابس نظيفة لزوجها، فقد قرر أن يذهب كعادته إلى مجلس الأمير ناصر، ولكنه في هذه

Twitter: @ketab_n

الليلة بالذات وضع صرة كبيرة من المال في جيبه، فلسان جوهر له ثمن، ولا بد له من أن يخلو بجوهر ليدس في يده هذه الصرة لعله ينجح في تغيير ولائه.

ركب فرسه واتجه إلى مجلس الأمير الذي استقبله بكل ترحاب وكأن شيئًا لم يحصل، وكأن معركة الإشاعات التي تدور في البحرين ليسا هما أهم أبطالها.

وخلال لعب الشطرنج، وحين كان ابن رحال على وشك أن يُنهي اللعبة بحركة واحدة، استند الأمير ناصر على جنبه وأمسك طرف شاربه مرددًا:

ذيب سرى في ظلام الليل كَل شاتك
كَل الشحم واللحم وأروى حشاشاته
والصاحب اللي بعد تهوى حماماته
إن ردت لاماه لا تطري لياشاته

لم يرد ابن رحال، فحرك البيدق ليُسقط بيدقِ الأمير ويُنهي اللعبة، ثم استند على وسادة كبيرة كانت بقربه وقال:

يا من حبل للبطوط واصطاد عنقوده
هذاك بين الخلايق شاع منقوده

تغير وجه الأمير ناصر فجأة، وتورمت أوداجه، وعرف ما الذي يقصده ابن رحال بقوله، وتأكد أن عار النوم مع الخادمة حقيقة ستلاحقه طوال حياته، لم يعد يحتمل، فصرخ على جوهر الذي جاء راكضًا:

Twitter: @ketab_n

- اقتله يا جوهر! اقتله!

التفت ابن رحال إلى جوهر، ولكن الأخير كان أسرع منه، فأحكم ذراعه حول رقبته واستل خنجره وطعنه في جنبه بقوة، فسقط ابن رحال على الأرض مضرجًا بدمه، ووضع يده بشكل تلقائي على جرحه محاولًا إيقاف النزيف قبل أن يمدها مرَّة أخرى ليمسك بثوب جوهر الذي بقي واقفًا بالقرب منه، تقوس جسد ابن رحال بشدة ثم خفت قبضته قليلًا قليلًا حتى سكن جسده ومات.

بصق الأمير ناصر على الجسد الهامد:

- تبًّا لك ولزوجتك، لقد جعلتماني أنام مع خادمة وفضحتماني بين الناس! سأنتقم من زوجتك حليمة قريبًا أيضًا!

كان الأمير ناصر يخاطب جسدًا مسجى أمامه، فما يتناقله الناس الآن بالنسبة إليه فضيحة يجب أن يُسكتها بأي طريقة، نظر إلى جوهر قائلًا:

- حسنًا فعلت، عليك أن تحمل جثته وتُلقيها في إحدى التُّرع التي على الطريق حتى يقال إن قُطاع الطرق قد سلبوه وقتلوه.

مد جوهر يده إلى جيب ابن رحال باحثًا عن أي شيء ذي قيمة:

- دعنا نفتشه قبل أن أفعل ذلك، فقد يكون في جيبه شيء من المال.

فتش جوهر الملابس، ووجد الصرة التي كان ابن رحال يحملها ليشتريه بها، هزها بيده قبل أن يضعها في جيبه، ثم حمله ورماه في إحدى التُّرع المعزولة بعيدًا عن الناس.

لم يعد ابن رحال إلى منزله تلك الليلة، فذهبت حليمة إلى

Twitter: @ketab_n

حارس المزرعة لتحثه للذهاب والبحث عن زوجها، فهو لم يعد حتى الآن من مجلس الأمير ناصر. وبقيت تنتظر على أحر من الجمر عودة الحارس الذي ذهب باحثًا.

عاد حارس المزرعة من مهمة البحث ولم يكن وجهه يوحي بأن للمهمة نهاية جميلة، كانت حليمة واقفة بباب المزرعة حين شاهدت وجهه:

- هل وجدته؟

لم يرد الحارس، وبقي وجهه متجهمًا حزينًا وكأنه مصاب بصدمة، اقتربت منه وأمسكته من تلابيبه في إصرار على معرفة ما حصل مع زوجها:

- قل لي، هل وجدته؟! هل وجدته؟!

هز الحارس رأسه وهو ينظر إلى الفضاء متفاديًا النظر إليها:

- لقد وجدوه مقتولًا، وأظن أن قطاع الطريق حاولوا سلبه فقاومهم.

فتحت حليمة فمها وكأنها تريد الحديث، لم يخرج من حنجرتها أي صوت، حاولت مرَّة أخرى ولكن الأمر تكرر، أرخت قبضتها عن ملابس الحارس قليلًا قليلًا، زاغت عيناها، ثم سقطت مغشيًّا عليها.

عندما أفاقت بعد عدة ساعات، كان منزلها مليئًا بالنساء اللواتي لم تتعرف عليهن، بدت مصدومة وضائعة وفاقدة للتركيز وعيناها زائغتين، حاولت أن تعرف ما الذي حصل ومَن هؤلاء النسوة، وهل فعلًا مات ابن رحال أم أنه كان كابوسًا وانتهى.

نظرت إليهن، وسمعت صوت بكاء وعويل وهمهمات،

Twitter: @ketab_n

وأسماء مختلفة: الأمير ناصر، فرح، عاشرها، فضيحة... لم تتعرف على وجوههن، فصرخت بأعلى صوتها:

- مَن أنتن؟ اخرجن من منزلي، اخرجن الآن، لا أريد أن أراكن هنا، اغربن عن وجهي، لقد قتل الأمير ناصر ابن رحال، لقد قتله هذا المجرم، ومَن غيره يتجرأ على القيام بذلك؟!

قامت النساء بتثاقل وغادرن المنزل وهن يتحدثن مع بعضهن، فذكر الأمير ناصر هكذا قد يجر عليهن الويلات، لم تكن حليمة في وعيها، فقد كانت تحت تأثير الصدمة، صدمة شعرت أنها نُزعت معها روحها وحياتها فبدأت تبحث عن سكين لتقطع به عروق يدها كما فعلت فرح من قبل، لم تعد الحياة تستحق أن تعيشها، قامت من سريرها وبدأت برمي الأغراض باحثة عن أي آلة حادة، لقد كانت تبحث عن وسيلة لتوقف عذابها وتُنهي بؤسها كما يبحث العطشان عن الماء في صحراء قاحلة، سقطت على الأرض مرَّة أخرى، ولم يكن معها أحد هذه المرَّة، فقد خافت الخادمات منها وانزوين في غرفهن خوفًا من غضبها. غابت الشمس التي ما فتئت تخرج على مصائب الخلق وتغيب عنها، ومع غروبها خرجت حشرات الليل وبدأ نقيق الضفادع، لقد بدا المنزل مهجورًا وأصوات الحشرات في الخارج توحي بليل طويل مظلم لا صباح له.

صحت حليمة فجأة، وكأن هناك من أيقظها من نوم نسيت فيه مصيبتها، ملأت سمعها أصوات الحشرات في الخارج، تذكرت موت ابن رحال فبدأت في البكاء والنحيب ثم شدت خصلة من شعرها بقوة حتى خرجت في يدها وكأنها تريد أن توقظ نفسها من

Twitter: @ketab_n

هذا الحلم المزعج، ضربت الأرض بكفها عدة مرات حتى شعرت بخدر فيها، وفجأة توقفت عن كل ذلك، مسحت وجهها بكف يدها.

دخلت غرفتها، ووضعت كل مجوهراتها وأموالها في صندوق صغير، ثم كسرت قفل الصندوق الخاص بابن رحال وأخرجت منه بعض ثيابه ومقتنياته الثمينة، ثم مدت يدها إلى الخنجر الذي أعاده ابن رحال إلى صندوقه وقفله حتى لا تصل إليه يد غير يده، أصبح صندوقها الآن ثقيلًا، ففيه بقايا حبيبها ابن رحال، بدأت في تكديس ثيابها بشكل عشوائي في صندوق آخر، وبقيت طوال الليل تبحث في منزلها عما يجب أن تضعه في هذه الصناديق، لقد قررت أن تسافر إلى الأحساء لمقابلة السلطان مقرن وتطالبه بأن يأخذ لها حقها من الأمير ناصر الذي قتل زوجها.

Twitter: @ketab_n

٣٣
مدينة جدة، الجزيرة العربية

وصل حسين إلى جدة، لم تكن المدينة مسرورة برؤيته مرَّة أخرى، فقد كان الجميع يأمل في موته مقتولًا بعد هزيمته في معركة «ديو»، ولكن ها هو إبليس، كما كانوا يدعونه، يعود إليهم من جديد، لم تتغير المدينة طوال الفترة التي غاب فيها حسين عنها، فقد بقيت هادئة بدون تلك القرارات والعقوبات القاسية، وبقي الناس في خوف من أن يرسل الغوري مَن هو أسوأ منه، وبما أن حسين في الهند والغوري لم يرسل بديلًا، فهم في مرحلة الأعراف كما كانوا يقولون عن أنفسهم، ولكنه جاء لهم من ناحية البر هذه المرَّة ودخل من بوابة السور التي لم يتوقعوا أن يشاهدوه يدخل منها.

دخل حسين قصر الحكم، وعرف أن هناك الكثير من الأمور التي يجب أن يطلع عليها، فطلب البريد، ففيه الكثير من الأخبار التي تنتظر أن يقرأها، أحضر له الدوادار مجموعة من اللفائف التي وصلت إليه خلال غيابه، وفي أعلاها رسالة من السلطان الغوري، أخذها وسأل:

- منذ متى وصلت هذه الرسالة؟

Twitter: @ketab_n

- بعد مغادرتك إلى الهند بعدة أيام يا مولاي، إن تاريخها مدون عليها، لقد جمعت كل الرسائل التي وصلتك منذ أن غادرت وحتى عودتك، آخرها وصلت منذ عدة أشهر.

سكت الدوادار قليلًا ثم قال:

- اعتقد الجميع هنا وفي القاهرة أنك قُتلت بعد هزيمة الأسطول في معركة «ديو»، ولكن وصلتنا رسالة من السلطان الغوري تأمرنا بالمضي في كل الإجراءات التي كنت قد أقررتها قبل سفرك، على أن يقوم نائبك بمهامك حتى عودتك، لقد غبت عنا فترة طويلة أيها الباشا.

ثم ابتسم وكأنه سيقول خبرًا سعيدًا، وأكمل:

- ولكن لا تقلق يا سيدي، كل الأمور هنا على ما يرام، الجنود ما زالوا يرابطون على السور الذي أمرت ببنائه، لقد عادت الأمور إلى ما كانت عليه قبل مغادرتك، عدا أن التجار ما زالوا يشتكون كعادتهم من كل شيء، وقد أرسل السلطان الغوري بعض الأموال لتجديد قبة المسجد النبوي، إنها الآن أفضل بكثير، فهي خضراء زاهية، يستطيع المسافر أن يراها من بعيد، جاء المعماري مع الأموال، وذهب بعد أن انتهى من مهمته، عليك أن ترى القبة بعد عملية الترميم هذه.

لم تكن ذاكرة الدوادار جيدة، فقد كان يتذكر الأمور بشكل مُتقطِّع، وكلما تذكَّر شيئًا قاله، لقد كان كبير السن، في الستين من عمره، ولكنه كان مخلصًا لحسين وكتومًا، وهذا ما يحبه حسين فيه.

- نعم، تذكرت شيئا آخر، لقد أحضرنا مجموعة من الحمام

Twitter: @ketab_n

الزَّاجل من مصر لأننا بحاجة للبريد السريع مع القاهرة، إن الأمور هناك ما زالت مشتعلة يا مولاي، ولا نتحمل تأخر البريد في البحر لأيام طويلة.

بعد أن شعر حسين أن الدوادار قال كل ما لديه وأنه لن يتذكر المزيد قال:

- اكتب رسالة إلى السلطان الغوري، وقل له إنني وصلت إلى جدة سالمًا وإنني جاهز لتنفيذ أي مهمة يطلبها مني.

- سأفعل ذلك يا مولاي، وسأرسلها عن طريق الحمام الزَّاجل، فلم نستخدمه منذ أن وصل إلينا.

فتح حسين اللفافة التي ما زالت في يده وبدأ في قراءتها.

كانت رسالة طويلة أملاها السلطان بنفسه على كاتبه، وكان السلطان يريد أن يضع حسين في صورة الأحداث المتفاقمة في المنطقة، فقد أخبره بأن السلطان سليم بعد أن قتل كل إخوته الذين ينافسونه على العرش قرر محاربة الصفويين، وإنه شكَّل جيشًا كبيرًا مكونًا من مائة وأربعين ألف جندي، وهو الآن في طريقه إلى شرق الأناضول لمجابهة الشاه إسماعيل الصفوي، ثم أبدى السلطان الغوري تخوفه من القوتين، فالمنتصر منهما في نظره سيهدد مصر، وأخبره بأن الخطر الأكبر قد يكون من السلطان سليم نظرًا لقربه من حدود السلطنة المصرية.

كانت آخر فقرة في الرسالة توحي بالأسلوب الذي سيتبعه الغوري مع خصومه الأقوياء، فقد ذكر بأنه أرسل هدايا إلى السلطان سليم لكسب وده، وأنه أمر قادة الجبهات الشمالية في الشام بتفادي الاشتباك مع الجيش العثماني، ثم ذكر في آخر

Twitter: @ketab_n

الرسالة أن هناك وفودًا تأتي من الشاه إسماعيل الصفوي تطلب منه التحالف معه ضد السلطان سليم العثماني.

انتهت رسالة الغوري بدون نهاية، وكأنها خبر مبتور، استدعى الدوادار بسرعة وسأله:

- هل دارت معركة بين السلطان العثماني سليم وبين الشاه إسماعيل الصفوي؟

- أوه، نعم يا مولاي، إنها معركة «كالديران» العظيمة، انتصر فيها السلطان العثماني، لقد كان نصرًا كبيرًا، ولكني سمعت أن السلطان لم يكمل هذا النصر، فقد انسحب بسرعة عائدًا إلى تركيا، مما أعطى الشاه إسماعيل فرصة للتعافي من هذه الهزيمة وإعادة تنظيم جيشه مرَّة أخرى.

ثم رفع الدوادار يديه إلى السماء وكأنه يطلب الرحمات:

- يا إلهي كم من الدماء سالت في تلك المعركة! ما زال الناس يتحدثون عنها.

لم يهتم حسين كثيرًا بما كان يقوله الدوادار بعد ذلك، فأشار إليه بالمغادرة، ثم بدأ في قراءة اللفائف الأخرى محاولًا ملاحقة الأحداث التي غاب عنها لفترة طويلة.

وبعد عدة أيام دخل الدوادار على حسين وهو يسير بشكل سريع على غير عادته، وكان يحمل ورقة صغيرة لم يكن يزيد عرضها عن إصبعين ملفوفة بطريقة خاصة لتبدو أصغر من حجمها الحقيقي:

- لقد وصلت هذه الرسالة من القاهرة اليوم يا سيدي، كم هو سريع هذا الحمام الزَّاجل!

Twitter: @ketab_n

مد حسين يده وأخذ الرسالة من يد الدوادار، لقد كانت من السلطان الغوري ومكتوبة بخط صغير، هذا نصها:

سعيد بعودتك سالمًا.

سأرسل لك سفنًا ورجالًا لتُعيد تشكيل أسطولك من جديد، لا بد من هزيمة البرتغاليين، لقد عطلوا تجارتنا.

ثم قلب حسين الورقة، التي كُتب على ظهرها:

لقد علم السلطان سليم باتصالاتنا مع الصفويين، وأرسل لنا رسالة تهديد. انتهى.

لم يعلم حسين ما الذي يتوجب عليه فعله، فمن الواضح أن السلطان سليم غاضب جدًّا من السلطان الغوري لاتصاله بالصفويين، فمعركة «كالديران» التي انتصر فيها السلطان سليم قد استنزفت قوته بشكل كبير وخسر الكثير من جنوده فيها، وهو يحتاج إلى وقت طويل لإعادة تنظيم قواته وسد النقص فيها، ولن يحتمل أي خيانة أو طعنة في الظهر الآن، فما هي الخطوة التالية التي سيقوم بها هذا السلطان المنتصر الجريح؟ هل سيغزو مصر؟

عادت المخاوف إلى حسين مرَّة أخرى، وأصبحت تتوالى على رأسه كعادته حين يفكر، استدعى الخازندار وأمير الزردخانة، وطلب منهما تقريرًا عن أوضاع مدينة جدة من الناحية المالية والتسليحية، والاستعداد لوصول سفن الأسطول القادم من السويس.

جاء موسم الحج، وجاءت معه الأخبار من كل بلاد الدنيا، ووجدها حسين فرصة ليعرف كيف هي الأوضاع، فعرف أن

Twitter: @ketab_n

الصفويين قد أثخنوا في العراق، وأن دماء كثيرة قد سالت، وأن المذابح تكاد تكون بشكل يومي، فقد حوَّل الصفويون مسجد الإمام أبي حنيفة إلى إسطبل لخيولهم، وقتلوا الكثير من علماء السُّنة، وأحضروا معهم أعدادًا كبيرة من شيعة الهند والسند لإسكانهم في العراق.

أما الخبر الذي زلزل كيان حسين وجعله لا يطمئن لما هو قادم فهو خبر نقلَه له أمير المحمل المصري، ومفاده أن العثمانيين ألقوا القبض على مبعوثٍ من قبل الشاه إسماعيل الصفوي إلى السلطان الغوري، ووجدوا معه رسالة تطلب من السلطان الغوري التحالف معه ومع البرتغاليين لمحاربة العثمانيين.

أكمل أمير المحمل بقوله:

- وقد أقسم السلطان سليم على أن ينتقم من الغوري نظير خيانته!

تذكَّر حسين الحديث الذي دار في منزل الخواجة عطار بحضور ابن رحال، إذن لقد كان الخواجة عطار على حق حين قال إن الصفويين على اتصال بالغوري لجره إلى تحالف معهم ومع البرتغاليين! ولكن هل يُعقل أن تكون هذه الرسالة مزوَّرة؟ وأن القصد منها دق إسفين العداوة بين السلطان العثماني والسلطان الغوري؟ كيف يمكن الربط بين رغبة الغوري في محاربة البرتغاليين بحرًا وبين التحالف معهم ومع الصفويين برًّا؟! لم يطمئن حسين لكل هذه الرسائل المتناقضة.

طلب من الدوادار إرسال رسالة إلى القاهرة يطلب فيها من

Twitter: @ketab_n

السلطان أن يخبره عن حقيقة المبعوث الصفوي الذي أُلقي القبض عليه في بلاد الشام من قِبل العثمانيين.

مرت الأيام ولم يصل الرد من القاهرة، ليس الأمر طبيعيًّا. وبعد أن أصر حسين على إرسال رسالة أخرى جاء الرد من القاهرة بأن السلطان قد غادر إلى بلاد الشام لمجابهة الجيش العثماني الزاحف جنوبًا.

علم حسين أن المعركة بين الطرفين قادمة لا محالة، وليس هناك ما يستطيع فعله الآن، لقد خرجت السيوف من أغمادها، ولن تعود إلا وهي مروية بدماء ضحاياها، هكذا هي الحروب، تبدأ بالتهديد المتبادل، ثم تنتهي ببحر دم لا يجف سريعًا!

توقفت السفن عن الوصول من السويس، لم تصل إلى ميناء جدة سوى ثلاث منها فقط، لم يعد يصل شيء من هناك كما أخبره الدوادار، كل شيء قد تعطل.

عرف حسين بعد ذلك أن المناوشات بين الجيشين العثماني والمملوكي على أشدها في بلاد الشام، وأن الجيشين يستعدان لمعركة كبيرة خارج مدينة حلب.

مرت الأيام ثقالًا، محمَّلة بالمخاوف، وتوقف الحمام الزَّاجل عن الوصول، وانقطعت كل وسائل الاتصال، ولم يعد هناك سوى الانتظار، فلم يكن حسين يعرف ما يتوجب عليه فعله، فليس لديه أسطول يستطيع أن يُبحر به ليحارب البرتغاليين، ولا يستطيع أن يترك مدينة جدة ويذهب إلى القاهرة لأن الأوضاع العسكرية لا تسمح له بذلك، لقد كانت حركات التمرد تكثر في

Twitter: @ketab_n

الحجاز، والقبائل البدوية حولها تثور على الحاميات المملوكية من حين إلى آخر، وأصبح الطريق من جدة إلى مكة غير آمن، ولم يستطع بضع مئات من الحرس غير المدربين وغير المجهزين فعل شيء لرد هذه الهجمات، ولم يبقَ صامدًا سوى سور المدينة.

Twitter: @ketab_n

٣٤
الأحساء، شرق الجزيرة العربية

اختارت حليمة مجموعة من الخدم لمرافقتها، واتجهت في قافلة صغيرة من خدمها وحاشيتها إلى الميناء. ركبت البحر إلى العقير ومنه إلى الأحساء، وسكنت في منزل ابن رحال. بقي المنزل كما تركه صاحبه، كل شيء على حاله، حتى غرفة والدته وأغراضها. استقبلها الخدم بكل ترحاب محاولين جهدهم تسليتها بعد وفاة زوجها، كل شيء في هذا المكان يُذكِّرها بابن رحال: بقايا ملابسه، وغرفة نومه، وكتبه، وأوراقه المتراكمة على المنضدة، وأسلحته المعلَّقة على الجدار، حتى البركة التي يحب أن يغمر نفسه فيها في الصيف. لم يبخل عليها الخدم بأي معلومة، فقد شرحوا لها كل شيء عن المنزل وعادات صاحبه فيه.

سألت عن قصر السلطان مقرن، وعندما وصلت إليه قيل لها إنه لم يصل بعد، ولكنه قد يكون في طريقه إلى الأحساء خلال الأيام القادمة، لم تحصل على موعد واضح، فقط عليها أن تنتظر حتى يعود خلال الأيام القادمة! ولكن كم هو عدد الأيام القادمة؟ لا أحد يعلم، عليها إذن أن تعيش بحسرتها وآلامها وغضبها وحزنها حتى يعود، لم تحتمل.

Twitter: @ketab_n

اسودت الدنيا في وجهها، فهذا يعني أنه قد لا يعود قبل أشهر طويلة، إنهم يعزونها بعودته سريعًا فقط. عادت إلى منزل زوجها، ودخلت غرفة والدته، كل شيء فيها يوحي بتوقف الزمن: فراشها، عصاها، مصلاها، سبحتها. دخلت مترددة، وبدأت في البحث في كل زاوية فيها، أزاحت بعض المفارش عن صندوق خشبي كبير قديم منقوش عليه صور حيوانات ترعى بالقرب من مجرى ماء، رسومات جميلة ولكنها بهتت بفعل الزمن، مررت يدها عليها فعلق بها بعض الغبار، ثم مررتها مرَّة أخرى، فظهرت ملامح النقش أكثر، تناولت قطعة قماش ومسحت الصندوق كله، وبدا أجمل مما كان عليه، فتحته بهدوء فوجدت الكثير من أغطية الرأس الخاصة بوالدة ابن رحال وصرة مربوطة بها عنبرة كبيرة، أعادت ربط الصرة ووضعتها في مكانها ثم مدت يدها أسفل كل ذلك لتجد صندوقًا معدنيًّا، فتحته، فوجدت فيه كمية كبيرة من السلاسل الذهبية والأساور والمجوهرات وعقودًا كبيرة من اللؤلؤ الثمين والخلاخل. ثم بدأت في تفتيش الغرفة بشكل أدق، فوجدت صندوقًا آخر به كمية كبيرة من اللؤلؤ، كمية تكاد تكون كنزًا، لقد أبقى ابن رحال كل شيء على حاله، لم يمس شيئًا من ممتلكات والدته، لقد حرص على حماية هذا بنفسه.

أغلقت كل ذلك وأعادته كما كان، ثم أعادت فتح الصناديق مرَّة أخرى، وأخرجت كل تلك المجوهرات ووضعتها في قطعة قماش وصرتها، ثم خرجت من الغرفة وذهبت إلى غرفتها وأضافت إليها مجوهراتها التي أحضرتها معها من البحرين، فأصبح لديها كنز ثمين ثقيل من المجوهرات والذهب واللؤلؤ.

Twitter: @ketab_n

وفي صباح اليوم التالي طلبت من أحد الخدم أن يدلها على أفضل صائغ في الأحساء. أخذت الصرة وذهبت إليه برفقة خادمة لها وحارس، وما إن وصلت إلى المحل حتى طلبت من الحارس أن يبقى خارجه ويمنع دخول أي شخص بعدها.

فتحت الصرة أمام الصائغ، وعرضت عليه المجوهرات كلها؛ عقدًا عقدًا، وحبة حبة، وكان هو بدوره يزنها ويدون النتيجة على ورقة، حتى إذا انتهوا من كل ذلك قالت له:

- ضع ختمك على الورقة حتى تثبت أنك استلمتها مني.

أخرج الصائغ من جيبه ختمًا صغيرًا وختم الورقة، أخذتها منه وقالت وهي تشير إلى مجوهراتها:

- أريدك أن تصنع لي نخلة مسكوبة من كل هذا الذهب الذي أمامك، على أن يكون رُطبها من هذه المجوهرات، وأرضيتها من حبات اللؤلؤ، أريدها تحفة رائعة لم يشاهد الناس مثلها من قبل، استخدم كل ما لديك من مجوهرات، وسأقوم بِعدِّ كل حجر كريم، وكل حبة لؤلؤ، لأتأكد من استخدامها كلها في صنع هذه التحفة، فإن انتهيت من عمل كل ذلك وأبدعت فيه فإن لك مني هدية ثمينة جدًّا.

عرف الصائغ أن هذه التحفة تليق بملك، فعزم على أن تكون أفضل ما صنع صائغ في الأحساء، فستُخلِّد هذه التحفة اسمه، وستفتح له أبواب الملوك على مصراعيها. وخلال بضعة أسابيع انتهى من صناعة التحفة، ووضعها في صندوق من خشب الصندل محكم الإغلاق، وأقفله بقفل أعطى مفتاحه إلى حليمة مع نصيحة

Twitter: @ketab_n

بألّا تفتح الصندوق إلا عندما تكون في مكان آمن، فمثل هذه التحفة قد يتقاتل من أجلها الملوك.

وفي المنزل، أقفلت حليمة الباب خلفها، وفتحت الصندوق لتشاهد شيئًا لم تتخيله في أحلامها، نخلة بارتفاع ذراع من أسفلها إلى أعلاها، سعفها من الذهب المسكوب، ورُطبها من المجوهرات الملونة التي صُفت بطريقة تخلب الألباب، وساقها من الذهب الخالص بنفس نتوءات النخلة الحقيقية، مزروعة في وسط عشب من اللآلئ التي تدرَّجت ألوانها من الأسود إلى الأبيض، وتنوعت أشكالها من الدائري إلى البيضاوي، وُضعت اللآلئ الكبار منها قريبة من ساق النخلة وتدرَّجت في الصغر لتشكل منظرًا مبهرًا.

مررت حليمة يدها على كل جوهرة فيها، ولمست نقوشها ولؤلؤها، مبهورةً بما بين يديها، ثم تذكَّرت أن هذه النخلة هي كل ثروتها وثروة والدة زوجها المقتول، لقد حوَّلت الثروة إلى طُعم لا يمكن أن يتركه حيوان مفترس، طُعم يستطيع أن يُحوِّل كل المبادئ والقيم الإنسانية إلى ذرات لا قيمة لها، لقد عرفت حليمة قوة المال وتأثيره، وتريد أن تستخدمه لتثأر لزوجها!

أخرجت ورقة وقلمًا وكتبت لوالدها الرسالة التالية:

والدي المكرَّم

أفرحني البشير بخبر سلامتك من هجوم البرتغال،

وأتمنى أن تبقى سالمًا بعون الله.

لقد حاولت خلال الأشهر الماضية أن أُخفي عنك

Twitter: @ketab_n

ظروفي وما أمر به من مصاعب، ولكني لم أعد أحتمل أن أُبقي كل ذلك في نفسي.

بعد أن غادر السلطان مقرن إلى نجد للحرب، عيَّن ابن عمه الأمير ناصر مكانه على عرش السلطنة، وهو أمير سيِّئ الطِّباع، كثير الشُّرب واللّهو، وسُمعته مع النساء كسُمعة الذئب الجائع مع الغنم، أرسل زوجي إلى الهند لمحاربة البرتغال أملًا في موته حتى يستطيع أن يخلو بي، عرف زوجي بذلك فأمرني أن أبحر إلى هرمز بعد مغادرته مباشرة، ولكن وجود البرتغاليين في البحر واحتلالهم لهرمز حال بيني وبينك، فبقيت في البحرين على أمل أن يعود ابن رحال.

إن للأمير ناصر هذا عبدًا يُسمى جوهر، أغرى فرح برغبته في الزواج منها إن استطاع أن يشتري حريته من الأمير، فأخطأت فرح وسلَّمته خنجرًا ثمينًا كان زوجي ابن رحال يحتفظ به أمانة للسلطان مقرن، وبدوره أعطاه للأمير الذي بدأ يهددني به، ولكن فرح ضحت بشرفها من أجلي واستطاعت الحصول على الخنجر منه ثم قتلت نفسها.

وبعد عودة ابن رحال من الهند قام الأمير ناصر بقتله أيضًا، وأنا الآن وحيدة في هذه الدنيا، ليس لي سواك، وأريد أن آخذ بثأر زوجي وثأر فرح من هذا المجرم.

سافرت إلى الأحساء حتى أقابل السلطان مقرن لأخبره بالقصة كلها، ولكنه لم يعد من رحلته حتى الآن.

لم أعد أحتمل أبدًا، لقد انتظرت طويلًا، ستصلك مع هذه الرسالة هدية، أرجو أن توصلها إلى الملك شيرغل حتى تُذكِّره بالثمن الباهظ الذي دفعه لعودته إلى عرش

Twitter: @ketab_n

هرمز، ويجب أن تقول له إن مَن يملك هرمز والبحرين يملك الخليج، قد تُغريه هذه الهدية بإعادة احتلال البحرين وقتل الأمير ناصر فلم تعد الأرض تحتمل بقاءنا نحن الاثنين عليها.

لن أستطيع أن أعود إلى هرمز بدون أن أقابل السلطان مقرن وأشرح له ما حصل.

هذه الهدية هي كل ما أملك، اعمل جهدك لتكون ثمنًا لدم الأمير ناصر.

ابنتك حليمة

بعد أيام كانت النخلة التي وُضعت في صندوق من خشب الصندل قد وصلت إلى الخواجة عطار الذي فرح برسالة ابنته المرفقة معها وبدأ في قراءتها بدون أن يفتح الصندوق، عرف بكل ما حصل، فاستشاط غضبًا لما مرت به ابنته، وأسف على موت فرح التي كان يعاملها كابنته، وقرر أن يقوم بدوره.

دخل إلى قصر الملك يتبعه اثنان من خدمه يحملان الصندوق، أمرهما بوضعه أمام الملك في مجلسه ثم أمرهما بالخروج من القاعة.

فتح الصندوق بهدوء وأخرج منه النخلة وأبقاها بالقرب منه، ثم نظر إلى الملك متوقعًا رد فعله على منظر كهذا.

- ما رأيك أيها الملك؟

ترك شيرغل عرشه وتقدم في اتجاه النخلة، ومرر يده عليها برقة وكأنه يمررها على حرير ناعم:

- هل... هل... هل هذا حقيقي؟!

Twitter: @ketab_n

- إن كل ما تراه أمامك حقيقي، فكل ما يلمع ذهب، وكل ما هو أبيض لؤلؤ، وكل ما هو ملون حجر كريم، إنها تحفة ثمينة أيها الملك!

- ولكن ممن؟ مَن الذي أرسلها؟

- لقد أرسلتها ابنتي حليمة من البحرين، وهي تقول لك إن هذه الجزيرة ثرية إلى درجة كبيرة، فنخلها يُنتج جواهر، وبحرها مليء باللؤلؤ، وأرضها كالذهب، من الواضح أننا دفعنا ثمنًا باهظًا لتدخل الجبور العسكري، ولكننا نستطيع أن نُعيد احتلال الجزيرة مرَّة أخرى.

عاد شيرغل للجلوس على عرشه مرَّة أخرى، ولكنه بقي ينظر إلى النخلة متأملًا جمالها:

- لقد وقَّعنا اتفاقًا مع الجبور على أن نتخلى عن أملاكنا في البحرين، وعلى أن يتوقفوا عن دفع الضريبة لنا و...

قاطعه الخواجة:

- فعلًا اتفقنا معهم على كل ذلك، ولكن الأمور تغيرت، فنحن بحاجة للبحرين الآن، فلسنا نملك المال الكافي لإدارة هرمز بعد أن احتلنا البرتغاليون، والتجارة في كساد كما ترى، وبدون البحرين وثرواتها لن نستطيع الصمود طويلًا.

قام شيرغل من عرشه مرَّة أخرى وسار في اتجاه النافذة التي تطل على البحر:

- أنت تعرف أيها الوزير بأننا لا نملك جيشًا الآن، وأمرنا ليس بيدنا، بل بيد «البوكيرك»!

أعاد الخواجة النخلة إلى صندوقها خوفًا من أن يدخل

Twitter: @ketab_n

أحدهم فجأة، فـ«البوكيرك» وضباطه يستطيعون أن يدخلوا أي غرفة من غرف القصر بدون استئذان.

- اسمعني أيها الملك، أنا أعلم أننا لن نستطيع فعل شيء وحدنا، فنحن أسرى لدى «البوكيرك» وجنوده، وحياتنا معلقة برغبته في وجودنا فقط، ولكننا نستطيع أن نغير ذلك إن أردنا!

عاد شيرغل إلى عرشه مرَّة أخرى، قائلًا للخواجة الذي يبدو أن لديه ما يقوله:

- ما الذي تريد قوله أيها الوزير؟

- أقترح التالي يا مولاي: أن نعرض هذه التحفة على «البوكيرك»، فهي ستُغريه باحتلال البحرين، وسنكون نحن معه في هذه الحملة، فهو بحاجة إلينا لأنه لا يعرف البحرين كما نعرفها، ولو نجحت هذه الحملة فإنه سيحتاج إلينا لإدارة الجزيرة، حينها نستطيع أن نتصرف بها كما نشاء، عليك أن تعرف أن مَن يملك هرمز والبحرين يملك الخليج.

وفي ذات اليوم دخل الخواجة والملك إلى القاعة التي يجلس فيها «البوكيرك»، ومعهما خادمان يحملان الصندوق.

- ما هذا أيها السادة؟

- إنها هدية لك أيها الحاكم من ابنتي حليمة التي تعيش في البحرين.

- لم تقل لي إن لك ابنة تعيش هناك!

- هي متزوجة من وزير سلطان الجبور، وقد تُوفِّي مؤخرًا، أرسلت لك هذه الهدية لتُخبرك كم هي البحرين ثرية.

Twitter: @ketab_n

فتح الخواجة الصندوق وأخرج منه النخلة ووضعها أمام «البوكيرك».

رفع «البوكيرك» حاجبيه فتغيرت نظرته التمساحية للحظات ثم عادت إلى ما كانت عليه، تقدَّم من التحفة ووضع يده عليها أيضًا، ثم قرب عينيه إلى مجوهراتها وكأنه يتفحصها، ثم نظر إلى الخواجة واستفسر:

- كنت قد سألتك عن البحرين من قبل ولكنك لم تذكر لي ثرواتها هذه، وشككت أنك تُخفي شيئًا عني، فأرسلت سفينة استطلاع لتجوب سواحلها، وأخبرني قائدها بأنه شاهد جزيرة خضراء غنية بالثمار والمياه، وأن البحر حولها يعج باللؤلؤ الذي يستغله سلطان الجبور لصالحه، وكنت في انتظار وصول المدد من البرتغال لتجهيز حملة لاحتلالها.

اقترب «البوكيرك» من الوزير حتى كاد صدره أن يلمس صدر الخواجة:

- اسمعني أيها الوزير، عليك أن تعلم أنك لن تستطيع أن تُخفي شيئًا عني، وعليك ألَّا تفعل ذلك من الآن فصاعدًا، والآن قل لي، إذا كانت هذه الجزيرة بهذا الثراء فلماذا تنازلتم عنها إذن؟

تردد شيرغل قبل أن يرد بدلًا من الخواجة:

- لقد كان هذا ثمن مساندتهم لنا لعودتي إلى عرشي أيها الحاكم، لقد وقَّعنا معهم اتفاقية تنازل عن الضريبة وعن أملاك هرمز في البحرين.

عادت إلى «البوكيرك» نظرته السابقة قبل أن يقول:

Twitter: @ketab_n

- تبًّا لكل الوثائق التي وقَّعتموها معهم، سنُعيد احتلال الجزيرة، فنحن بحاجة إلى المال الآن!

نظر «البوكيرك» إلى الخواجة بغضب:

- جهز ما تستطيع من سفن ورجال، سأرسل إليهم ضابطًا لم يُهزم من قبل، سأرسل إليهم «أنطونيو كوريا».

•

Twitter: @ketab_n

٣٥
الأحساء

طال على حليمة المكوث في الأحساء، لم تفعل شيئًا سوى السؤال من حين إلى آخر عن السلطان مقرن الذي لم يعُد من نجد، كانت تسأل كل صباح عن الأخبار، ما الذي حصل؟ لماذا لم يعد السلطان حتى الآن؟ علم الناس بوجود حليمة في منزل زوجها المتوفَّى، فبدأت بعض النسوة بالتعرف عليها والتودد إليها، وكانت هذه الزيارات القصيرة هي تسليتها الوحيدة، فالأيام متشابهة رتيبة لا تتغير، وحديث النسوة هنا لا يكاد يختلف عن حديثهن في البحرين سوى أنهن لا يلمزنها بما سمعنه عن علاقتها بالأمير ناصر.

بدأت في الاستعداد لعودتها إلى البحرين بعد أن أمضت عدة أشهر في انتظار أن يعود السلطان مقرن، لم تستسغ البقاء في الأحساء لمزيد من الوقت، وقررت أن تعود إلى البحرين وفي قرارة نفسها أنها لم تكن تود فعل ذلك، ففي هذا المنزل ذكريات زوجها ابن رحال ورائحته، وفي هذا المنزل تاريخه وصباه ووالدته التي أبقى ذكراها حية فيه، فخيال ابن رحال معها في كل مكان، إلا أنه خيال هادئ هنا وصادم هناك، فقد أنشأت لها حياة

Twitter: @ketab_n

جديدة هنا، وصديقات جديدات، وستعود إلى هناك لذكرى زوجها الأليمة، ولحرب الإشاعات التي ما فتئ الأمير ناصر يقودها.

ما زالت تتوقع أن يفعل والدها شيئًا بالهدية الثمينة التي أرسلتها إليه، فهل سيُغري بها الملك شيرغل؟ وهل سيقبل الملك باحتلال البحرين مرَّة أخرى؟ إن ما يهمها الآن هو أن تتخلص من الأمير ناصر وتأخذ بثأر زوجها، لا بد أن تنتقم لزوجها فقلبها يحترق شوقًا لرؤية الأمير ناصر مقتولًا، ونار الثأر حارقة، لا يُطفئها سوى الدم.

حملت متاعها في قافلتها الصغيرة متجهة إلى ميناء العقير، وعندما أقبلت على الميناء شاهدت به حركة غير طبيعية، فقد كان مكتظًّا بالناس ومزدحمًا على غير عادته، والكثير من الخيول والجمال يتم تحميلها في مراكب كبيرة تجمَّعت بطريقة عشوائية على رصيف الميناء، كان هناك الكثير من الصراخ والتوتر والفوضى، لم تفهم حليمة سبب كل ذلك، فأوقفت قافلتها الصغيرة غير بعيد وطلبت من أحد خدمها أن يتحرى عن الأمر ويأتيها بالخبر.

جاء خادمها يجري إلى حيث كانت في هودجها، وطلب منها أن تشاهد عاصفة الغبار القادمة من جهة الصحراء.

نظرت إلى الجهة التي أشار إليها، فشاهدت غبارًا كثيفًا يملأ الأفق:

- ما الذي يحصل؟!

- إنه جيش السلطان مقرن يا سيدتي، لقد وصل للتوِّ من نجد

Twitter: @ketab_n

وهو في طريقه إلى البحرين، وكل ما ترينه من فوضى في الميناء هو مقدمة الجيش الذي من المفترض أن يحمل المؤونة إلى البحرين، ولا أظن أننا نستطيع أن نبحر اليوم أو حتى غدًا، فربابنة السفن يرفضون حتى الاستماع، كلهم مستأجرون لحمل الجيش وعدته.

- ولكن لماذا؟!

- يُقال إن أسطولًا من السفن البرتغالية والهرمزية يحاصر البحرين لاحتلالها، والسلطان مقرن ذاهب إلى هناك للدفاع عنها.

نزلت من هودجها واضعة نقابها الهرمزي على وجهها، ووقفت بالقرب من قافلتها في انتظار أن يراها السلطان مقرن، أبقت عينيها مركزتين على عاصفة الغبار التي بدأت تقترب، ولكن ما الذي ستقوله له؟ هل ستشكو الأمير ناصر له في مثل هذه الظروف، أم ستقول إنها هي التي أحضرت الأسطولين البرتغالي والهرمزي إلى البحرين؟ إنها لا تريد أن يذهب السلطان مقرن إلى هناك للقتال، كانت تود فقط أن يُقتل الأمير ناصر، لكن من الواضح أن الأمور خرجت من يدها الآن.

اقترب جيش السلطان مقرن من الميناء، وزاد الازدحام، وتداخل الناس بعضهم ببعض، ولحقت موجة الغبار بالجيش لتجعل المكان مظلمًا قاتمًا، تلثَّم الناس بملابسهم وغطوا أنوفهم وأفواههم، وتراكمت حول وجوههم طبقة من الغبار شوهت ملامحهم.

لم تكن حليمة لتستسلم، كان عليها أن تقابل السلطان، رأته مختفيًا خلف غيمة من الغبار حينًا وظاهرًا حينًا آخر. ركضت إليه

Twitter: @ketab_n

واقتربت من جواده، ولكن الحرس أوقفوها قبل أن تستطيع لفت انتباهه. صرخت بأعلى صوتها:

- أيها السلطان، أيها السلطان.

نظر إليها نظرة خاطفة وزم ما بين عينيه.

صرخت بأعلى صوتها:

- أنا حليمة، زوجة ابن رحال أيها السلطان.

أبقى السلطان نظره عليها لبضع ثوانٍ قبل أن يلتفت إلى شيخ على جواد خلفه، تحدث معه وهو يشير إلى حليمة، رفع السلطان يده ليودعها ثم ابتعد مختفيًا في سحابة الغبار العنيدة التي كانت تخيم على الميناء.

تقدم الشيخ من حليمة ونزل عن صهوة جواده، كان شيخًا جليلًا، له لحية بيضاء طويلة، وعمامة لُفت على طاقية حمراء بكركوشة صغيرة لم تشاهد حليمة مثلها من قبل. عرَّف نفسه:

- أنا جمال الدين التازي يا ابنتي، لقد طلب مني السلطان أن أعتني بك.

نظرت إليه حليمة بسرعة قبل أن تعيد نظرها إلى السلطان محاولة أن تراه مرَّة أخرى، ولكن السلطان لم يعد هناك؛ لقد اختفى. أعادت حليمة النظر إلى الشيخ بعينين باكيتين:

- لديَّ الكثير لأقوله للسلطان أيها الشيخ!

- لا تقلقي يا ابنتي، ستحدثينه بما تريدين بعد أن يعود، تعالي معي.

أعادها الشيخ جمال الدين إلى قافلتها. لقد بدأ الغبار يخف قليلًا، وأصوات البشر وإزعاجهم ذهبا مع السلطان في اتجاه

Twitter: @ketab_n

البحر. انتظرا حتى يتمكنا من الحديث فيما بينهما، ولم يدم انتظارهما طويلًا، فقد كانت السفن جاهزة لنقل الجيش ومع تحرك السفن خفت الفوضى في الميناء.

نظر الشيخ الجليل إلى حليمة بعينين حانيتين مغبرتين، وأعاد تعريف نفسه:

- أنا الشيخ جمال الدين التازي من بلاد المغرب، قابلت السلطان في الحج وطلب مني أن أحضر معه إلى هنا لتعليم الناس المذهب المالكي، وطلب مني أيضًا أن تكوني في رعايتي حتى يعود من حملته.

أخرج الشيخ منديلًا من جيبه ومسح وجهه من الغبار المتراكم عليه قبل أن يواصل:

- أخبرني السلطان بوفاة زوجك ابن رحال، لقد بكى عندما وصله خبر مقتله وهو في الحج، وكان مُصرًّا على أن يبحث عن قاتله، ولكن مع اقترابنا من الأحساء وصله خبر حصار البرتغاليين للبحرين. لا تقلقي يا ابنتي، لقد تركت زوجتي التي جاءت معي في الأحساء، وجئت لوداع السلطان، وسنعود معًا إلى الأحساء حتى تتعرفي عليها، ستعتني بك حتى يعود السلطان من حملته هذه.

عادت حليمة برفقة قافلتها الصغيرة إلى الأحساء التي تركتها، كانت تفكر فيما فعلته، هل تخبر الشيخ التازي بما قامت به أم تصمت، إن كل ما سيحصل الآن من سفك دماء ستكون هي سببه، هل أخطأت فيما فعلت؟ هل يجب عليها أن تحدث الشيخ بما يجول في خاطرها؟

Twitter: @ketab_n

بقيت حليمة مع الشيخ وزوجته، وأصبحت لا تفارقهما ولا يفارقانها، ولكنها بدأت تستكشف دينها الذي لم تُلق له بالًا خلال تربيتها في هرمز، لقد كان الإسلام بالنسبة إليها شكليًّا، تقوم عليه طقوس التعبد التي تراها، لم تُفكر فيه، فقد وُلِدت مسلمة وأصبح الدين جزءًا من حياتها، كاللغة واللباس والعائلة وهرمز، هو موجود بطبيعته، لم تُفكر فيه كثيرًا، ولكن الشيخ وزوجته يتعاملان مع الدين بطريقة مختلفة، فقد جعلاه مركزًا لحياتهما، لم يكن تعبدهما طقسيًّا، بل كان حقيقيًّا، إنهما يستمتعان به، فهما يتحدثان عنه بشكل دائم، يقومان الليل ليخاطبا ربهما، كانت تراهما يبكيان وهما يفعلان ذلك، ولم تعلم ما السبب! وبعد أن ينتهيا يبتسمان وكأن البكاء والابتسامة شيء واحد في الدين، بدأت تعرف أمورًا لم تكن تعرفها، وبدأت تسأل عن أمور لم تكن تفكر فيها من قبل، فإذا كان الرب هو الذي خلقنا وهو رحيم بنا، فلماذا تنزل علينا كل هذه المصائب إذن؟ وهل نعبده لأنه سيغضب إن لم نفعل؟ وكيف سيكون أمر الذين لم يُولدوا مسلمين؟ هل سيذهبون إلى النار؟ ولماذا خلق أناسًا سيئين إن كان سيعذبهم في الآخرة؟ ولماذا يبكي الشيخ وهو يخاطب اللّه؟

كانت حليمة تسأل زوجة الشيخ هذه الأسئلة، ولم تكن العجوز لتجد أجوبة لها، فكانت تطلب منها أن تسأل الشيخ حين يعود، والشيخ كان يستمع إليها ويجيب عن أسئلتها بسعة صدر، فمن حقها أن تسأل ما يحلو لها، فكما يقول الشيخ لزوجته: «هي على باب الدار، تريد أن تعرفها قبل أن تدخلها»، ثم يكرر جملة

Twitter: @ketab_n

يحب قولها دائمًا: «لا تردوا السائلين ولا تنهروهم، هي تسأل، فلا يجوز أن نردها ولا يجوز أن ننهرها».

عندما وصل السلطان مقرن إلى البحرين وجد أن الاستعدادات على أشدها لمقاومة الغزو البرتغالي، فقد قام الأمير ناصر قبل وصول السلطان ببناء جدار من جذوع النخل والطين على طول الساحل حول المدينة وفيه فتحتان فقط تطلان على البحر.

استلم السلطان القيادة، وبدأ في تنظيم قوة المدافعين، فقسمهم إلى ثلاثة أقسام ووضع على كل قسم قائدًا من رجاله الذين يثق بهم ثقة كبيرة. كانت تحت إمرة السلطان مقرن قوة معتبرة، فلديه ثلاثمائة فارس وأربعمائة من رماة النبال بالإضافة إلى عدد كبير من جنود المشاة، ولكنه كان يفتقر للمدافع والبنادق.

أما على الجانب البرتغالي فقد أمر «أنطونيو كوريا» أن يبقى الخواجة عطار على رأس الأسطول الهرمزي في البحر لمنع أي حركة التفافية تقوم بها سفن ابن جبر من الخلف على أن يكون مستعدًّا لدعم المشاة البرتغاليين حين يُطلب منه ذلك.

كان الجو حارًّا ورطبًا جدًّا، ففي الصيف ترتفع درجة الحرارة لتصبح خطرة على الإنسان خصوصًا في منتصف النهار، والشمس لم تكن ترحم، والرطوبة خانقة، وكل شيء حار، الماء والرمال والهواء.

نزل «أنطونيو» بقوة تُقدَّر بحوالي مائة وسبعين مقاتلًا، ومن خلفه أحد قواده بحوالي خمسين جنديًّا، تسللوا قبل طلوع الفجر

Twitter: @ketab_n

إلى الساحل، استطاع بعض جنوده تسلق السور بعد أن تخلصوا من المدافعين عنه بسرعة، ومع ظهور الفجر شاهد الجميع العلم البرتغالي يرفرف فوق أحد الأبراج، فتقدم الفوج البرتغالي الآخر من السور واستطاع تسلقه والنزول إلى الجهة الأخرى منه بعد انسحاب جميع المدافعين العرب منه.

كانت البندقية التي يحملها الجنود البرتغاليون هي السلاح المسيطر على ساحة المعركة، فالكثير من المدافعين لم يكونوا قد رأوها من قبل، فهي تُسقط الفارس من فوق فرسه من مسافة بعيدة، وتصد هجمات الخيالة بشكل فعال، فلم تكن كل التكتيكات التي اعتادوا عليها تنفع في معركة يوجد بها هذا السلاح.

فجأة وبدون مقدمات هجم جنود السلطان بكل قوتهم على المهاجمين الذين أصبحوا محاصرين بين السور وبينهم، وحصلت معركة كبيرة قُتل فيها الكثير من الطرفين واستمرت حتى الظهر، وبلغت حرارة الجو أشدها، وبدأ المقاتلون يتساقطون بفعل العطش وضربات الشمس التي لا ترحم، فانسحب الجيشان إلى مراكزهما ساحبين معهما القتلى والجرحى.

قرر الجنود البرتغاليون التخلص من دروعهم؛ فقد كانت حارة كالأفران تحت لهيب الشمس الحارقة، ولكنهم سيكونون عرضة لنبال المدافعين. وجدها الخواجة عطار فرصة لإنهاء الموضوع برمته بسرعة، فنزل من سفينته ووصل إلى الساحل لمقابلة «أنطونيو»، عرف الجميع أن الجو هو العدو الحقيقي إن لم يتم حسم هذه المعركة بسرعة.

Twitter: @ketab_n

كانت نصيحة الخواجة أن يتم ترتيب مجموعة من رماة السهام المدربين لتُركز ضرباتها على قادة جيش السلطان مقرن، لأن جيشه يبدو كبيرًا وموزعًا على طول السور، ويحتاج إلى القادة لتنظيمه، وفي حال ضُرب هؤلاء فإن الفوضى ستدب في صفوفهم وستسقط دفاعاتهم لغياب مَن سيقوم على تنظيم هذا العدد الكبير من الجنود.

تم اختيار مائتين من رماة السهام الهرامزة المهرة ووُضعوا خلف الصفوف بين المهاجمين والبحر. كانت مهمتهم انتقاء الضباط واصطيادهم بالنبال، ومع زوال الشمس بدأت الاستعدادات للمجابهة مرَّة أخرى، والغريب أن قادة الجيش الجبري اعتقدوا أن هؤلاء الرجال الذين نزلوا من السفن يحملون أقواسهم هم جزء من تشكيلات المهاجمين التي يجب التعامل معها في ساحة المعركة ولم يفكروا في أبعد من ذلك.

ومع بدء المعارك من جديد، انهالت سهام الهرامزة على المدافعين فأردت الكثير من قادتهم، وبدأت الفوضى تدب فيهم خلال فترة قصيرة نسبيًّا، ولم يستطع الجيش التكيف بدونهم.

كان السلطان على فرسه يقاتل مع جنوده في ساحة المعركة، فشاهد الفوضى تدب في أجنحة جيشه، فجرى بسرعة ليعرف السبب، فأصيب برصاصة في مفصل فخذه، سقط على إثرها عن جواده ينزف بشدة، حمله الجنود إلى مسجد قريب تم تحويله إلى مستشفى وحُجز هناك ليعالج من جرحه.

اختفى السلطان من ساحة المعركة فجأة، واختفى معه ضباطه الذين سقطوا صرعى، وبدأت بوادر الهزيمة.

Twitter: @ketab_n

رفع الأمير ناصر، بعد أن علم بجرح السلطان، العلم الأبيض طالبًا التفاوض مع البرتغاليين، فقرر من بقي من قادة السلطان مقرن نقل السلطان إلى ميناء العقير خوفًا من سقوطه في أيدي المهاجمين، فلم يكونوا يتوقعون أن يرفع الأمير ناصر علم الاستسلام بهذه السرعة. وُضع السلطان الجريح على محفة ونُقل بسرعة إلى مركب غير بعيد عن ساحة المعركة كان السلطان قد خطط لجعله وسيلة اتصال مع الأحساء عند الحاجة.

بدأ الأمير ناصر يتفاوض مع البرتغاليين، وكانت الشروط التي تقدم بها البرتغاليون هي: استسلام الجزيرة كلها، وأن يُرفع الصليب على قلعتها، ويعين البرتغاليون حاكمًا عليها. وكان الأمير ناصر يرغب في أن يكون هو الأمير المعين من قِبلهم.

شعر رجال السلطان أن الأمير ناصر قد قرر الاستسلام بدون تفويض، وأنه بدأ يخطط لنفسه ولمصلحته وليس لأي شيء آخر، فآثروا الهروب من الجزيرة خوفًا من انتقام البرتغاليين، خصوصًا أن سُمعتهم في التنكيل بأعدائهم قد سبقتهم.

بدأت السفن الصغيرة في نقل الجنود والعائلات من البحرين في اتجاه العقير، وعندما علم الخواجة عطار بذلك أمر مراكبه بالدوران حول البحرين من الجنوب لإغلاق الطريق على الهاربين.

كان الخواجة حاقدًا وغاضبًا، يريد أن يأخذ بثأر ابنته وثأر فرح، وعندما شاهد مركبًا هاربًا طلب من سفنه ملاحقته وإحضار مَن عليه.

Twitter: @ketab_n

حاصرت السفن الهرمزية المركب البحريني، وكان مركب السلطان الجريح، وحصل اشتباك بين المهاجمين والمدافعين، قُتل كل المدافعين عن السلطان ولم يبقَ سوى بحارة المركب الثلاثة.

وقف الخواجة على رأس السلطان الجريح وسأله:

- مَن أنت؟

- أنا السلطان مقرن بن زامل الجبري.

زم الخواجة حاجبيه مستغربًا:

- سلطان الجبور؟! لم أكن أتوقع أن أراك في الأسر.

كان السلطان يئن من الألم وهو ممسك بأعلى فخذه الذي ينزف بشدة. نظر الخواجة إلى الجرح ثم سأل مرَّة أخرى:

- وأين هو الأمير ناصر إذن؟

- آآآه، لا أعرف أين هو.

- إن لي معه ثأرًا أيها السلطان، لقد حاول تلطيخ شرف ابنتي!

كان السلطان يتألم ويتأوه بعد كل جملة يقولها:

- ومَن هي ابنتك؟

- إنها حليمة زوجة وزيرك ابن رحال، وأنا الخواجة عطار، وزير ملك هرمز.

مرت على ذاكرة السلطان الكثير من الحوادث منذ أن عاد ابن رحال من مهمته في هرمز منتصرًا، وتذكَّر المزاح الذي كانا يتبادلانه فيما بينهما عن خطف ابنة الوزير. مر شريط الذكريات

Twitter: @ketab_n

على السلطان حتى أخرجته منه موجة ألم حادة صرخ على إثرها بقوة، ثم هدأ الألم قليلًا قبل أن يتحدث:

- نعم، لقد أحب ابن رحال ابنتك حبًّا كثيرًا.

كان بإمكان الخواجة والسلطان أن يكونا صديقين، ولكن الظروف جعلتهما في موقف العدوين الآن، وفي قلب الخواجة شيء على السلطان لأنه يراه سببًا في محنة ابنته:

- نعم، لقد أحبها كثيرًا، ولكن قتله الرجل الظالم الذي عينته أميرًا على البحرين وبديلًا لك.

لم يكن السلطان على علم بما كان يدور في البحرين خلال غيابه، فسأل:

- هل تقصد أن الأمير ناصر قتل ابن رحال؟ هل هذا ما تقوله؟

- نعم، لقد قتل ابن رحال، فقد أخبرتني ابنتي بذلك.

مر على السلطان خيال حليمة في ميناء العقير وهي تحاول الحديث معه، وعرف سبب حرصها على مقابلته.

واصل الخواجة حديثه:

- إن هذا الذي عينته قد بدأ يفاوضنا على الاستسلام وتعيينه حاكمًا على البحرين، لقد خانك في غيابك وخانك وأنت مثخن بجراحك.

بدأ الخواجة في الصراخ وكأنه يُحمل السلطان كل المآسي التي مرت بها حليمة وابن رحال وفرح:

- إنك أيها السلطان لم تهتم باختيار خليفتك في غيابك، كل

Twitter: @ketab_n

ما يهمك هو أن يكون خليفتك ممن تثق بهم حتى ولو كان مجرمًا قاتلًا كالأمير ناصر، إنك لا ترى ظلمه وغطرسته، ولكنك ترى فيه حاميًا لعرشك فقط، إنكم هكذا أيها السلاطين، لا تفكرون فيمن هم تحت سُلطتكم، كل قراراتكم تدور حول مصلحتكم ومصلحتكم فقط، لقد خسرت ابنتي بسببك فرح، وأنت خسرت ابن رحال وعرشك ومملكتك!

تجمدت نظرات السلطان وتوقف تنفسه، فقال أحد الجنود:

- لقد مات يا سيدي.

نظر الخواجة إلى الجندي الهرمزي الذي نطق بها، ثم أعاد بصره إلى السلطان الذي كان جثة هامدة بعد أن امتلأ المركب باللون الأحمر من جرحه الذي لم يكن ليتوقف عن النزيف.

زفر الخواجة بصوت مسموع ثم أمر بالعودة إلى البحرين.

أقبلت السفن الهرمزية تجر مركبًا خلفها، علم «أنطونيو» أن لدى الخواجة صيدًا ثمينًا، فخاض البحر بقدميه محاولًا رؤية مَن الذي في المركب، وعندما اقترب واستطاع رؤية الجسد المسجى فيه قال له الخواجة:

- إنه السلطان مقرن أيها الضابط، لقد كان يحاول الهروب إلى الأحساء.

أمر «أنطونيو» أحد جنوده بفصل رأس الجثة عن جسدها، وإرساله إلى هرمز ليُعرض على «البوكيرك».

بقي الأسطولان الهرمزي والبرتغالي على سواحل البحرين، وبدأت عمليات السلب والنهب، وأصبح كل شيء في البحرين مباحًا للبحارة والجنود.

Twitter: @ketab_n

وخلال أيام وصلت سفينة من هرمز تحمل رسالة موجهة إلى «أنطونيو» من «البوكيرك» تهنئه بالنصر، وتطلب منه أن يغير اسمه إلى «أنطونيو كوريا البحرين»؛ حتى يلتصق النصر الذي حققه في هذه الجزيرة بعائلته إلى الأبد، مع مقترح أن يتخذ له شعارًا جديدًا يحمله أبناؤه من بعده يصور درعه بذراع خارجة من فوقه تحمل رأس السلطان مقرن.

يعلم الخواجة أن الأمير ناصر هو الذي قتل فرح، وهو الذي قتل ابن رحال أيضًا، ولكنه لا يستطيع فعل شيء حيال ذلك، فهذا الرجل في حماية «أنطونيو» الآن. قرر أن يزور منزل ابنته ويأخذ من هناك حاجياتها التي ربما تكون قد تركتها، ويزور قبر فرح أيضًا، اختار مجموعة من حرسه وذهب إلى المزرعة التي يعرف مكانها جيدًا، فهي مزرعة والد الملك شيرغل التي لم يتنازل عنها للجبور.

ركب الخواجة فرسه يتبعه مجموعة من الفرسان الهرامزة إلى المزرعة، وجد بابها مشرعًا والمكان مهجورًا، فالجميع هرب بعد أن استُبيحت البحرين للجنود المنتصرين، نزل عن فرسه وجره من خطامه، وكذلك فعل بقية مرافقيه، ومشى بهدوء بين صفين من أشجار النخيل إلى المنزل، سلم فرسه إلى أحدهم، وسار إلى قبر فرح ووقف عليه يقرأ الفاتحة، نظفه من بعض الأغصان التي كانت حليمة قد وضعتها عليه قبل أن تغادر إلى الأحساء. تذكَّر فرح وهي صغيرة حين اشتراها من النخاس، وكيف فرحت بها حليمة، وتذكَّرهما وهما يلعبان معًا، ثم تكبران كأختين، لم يكن يتخيل حليمة بدونها، فهي توأمها، أغدق عليهما حبه وعطفه، مع أنه

Twitter: @ketab_n

أبقى شيئًا من الحاجز بينه وبين فرح، فهي لم تكن ابنته من دمه وإن كانت عاشت في منزله. مر شريط الذكريات سريعًا في عقله ولم يشعر إلا بدمعة دافئة نزلت على خده، مسحها بهدوء ثم مسح يده المبللة على شاهد القبر وكأنه يريد أن يوصل حزنه إلى فرح.

وفجأة سمع صوتًا من داخل المنزل.

Twitter: @ketab_n

٣٦
مدينة جدة، الجزيرة العربية

لم يكن الحمام الزَّاجل ينفع عندما يحتاج المرء إلى التفاصيل، لقد عرف حسين بهزيمة المماليك في «مرج دابق»، ولكن كيف انهزموا؟ وما الذي سيحصل بعد أن يدخل السلطان العثماني سليم إلى القاهرة؟

بدأت الأفكار تتداعى على رأس حسين وكأنها سيل لا يتوقف عن الجريان، أفكار يلطم بعضِها بعضًا، منعته من النوم ومن حُسن التصرف، فقد أصبح كل شيء في حياته مشوشًا وغير واضح.

دخل عليه الدوادار ذات يوم ليُخبره بأن أحد التجار قد عاد من مصر مؤخرًا ولديه أخبار يود أن يوصلها إليه.

- ائذن له وبسرعة.

لقد كانت معركة «مرج دابق» ضخمة وذات تأثير كبير على المنطقة، فالسلطان سليم يمثل القوة العثمانية الفتية التي تتلمس حدودها في محاولة لدفعها إلى أبعد نقطة ممكنة، فالإمبراطوريات لا ترضى بما رُسم لها من حدود، ستتوسع بقدر ما تستطيع، وفي نظر الناس فإن العثمانيين هم القوة السُّنية الوحيدة القادرة على الوقوف في وجه الإمبراطورية الصفوية التي كانت تتلمس حدودها

Twitter: @ketab_n

أيضًا، فكثرة الحديث عن المذابح في العراق التي يرتكبها الصفويون جعلت الناس يبحثون عن قوة جديدة تحميهم منها، ولهذا السبب أصبح انتصار العثمانيين في «مرج دابق» خبرًا سارًّا للكثيرين حتى في مصر، فقد أنهت تلك المعركة عهد المماليك الطويل غير مأسوف عليه، فالناس لا ترى الحسنات في بدايات الدول ولكنها تحفظ سيئات نهاياتها، وسيئات المماليك في آخر عهدهم لم تكن تسر أحدًا.

جلس الرجل أمام حسين وعرف أن الباشا لن يتحمل المجاملات وأنه يريد تفاصيل الأخبار، فشرع الرجل في الحديث بدون أي مقدمات:

- أظنك تعرف أيها الباشا بالخلاف الذي كان حاصلًا بين السلطان سليم والسلطان الغوري، لقد ألقت بعض تجريدات العثمانيين في الشام القبض على مبعوث صفوي من قِبل الشاه إسماعيل، وبعد تفتيشه وجدوا معه رسالة موجهة من الشاه إسماعيل إلى السلطان الغوري يطلب منه فيها الدخول في حلف معه ومع البرتغاليين ضد العثمانيين و...

لم يكن حسين يريد الاستماع إلى أخبار سمعها من قبل، وإن كان يرى أن هذه القصة ملفقة من السلطان سليم كحجة لغزو مصر، فقاطع التاجر بقوة:

- اتركنا من هذه القصص واحك لنا عن المعركة.

تلعثم الرجل قليلًا قبل أن يقول:

- زحف السلطان العثماني بحوالي نصف مليون جندي وثلاثمائة وخمسين مدفعًا، وبعد أن علم السلطان الغوري بذلك

Twitter: @ketab_n

أرسل رسالة إلى واليه في الشام ليوافيه بما يستطيع من مقاتلين في «مرج دابق»، استطاع هذا الوالي أن يحشد له الكثير من أهل الشام ومن سكان جبل لبنان، فبلغ عدد جنود الغوري حوالي أربعمائة وخمسين ألف مقاتل وثمانين مدفعًا، والتقى الجيشان في ساحة المعركة.

وبعد بدايتها بقليل هجم المماليك على جناح العثمانيين وضربوه ضربة موجعة خلخلت أركانه وجعلته يتراجع. لقد أظهر المماليك شجاعة منقطعة النظير في تلك المعركة أيها الباشا.

بدأ تفكير حسين يأخذه إلى ذكرياته حين كان فتى في ثكنات المماليك برفقة صاحبه سليمان، وكيف كانا يبكيان من قسوة التدريب ثم يضحكان وهما يحاولان إكمال أكل رغيف تحت اللحاف حتى لا يراهما مسؤول العنبر، إن مَن تربوا على فنون القتال منذ نعومة أظفارهم لا بد أن يُظهروا تلك الشجاعة في المعركة.

عاد حسين إلى واقعه وبدأ ينصت إلى حديث التاجر مرَّة أخرى.

- بعد أن تضعضعت أجنحة الجيش العثماني وكان على وشك التراجع انسحب الوالي بمجموعة كبيرة من مقاتلي الشام وجبل لبنان وانضم إلى جيش السلطان سليم، شاهد الغوري كل ذلك وهو يقاتل على فرسه كما شاهده جنوده وضباطه، ومع هبوط معنويات المقاتلين صرخ الغوري فيهم بأعلى صوته يحضهم على القتال والثبات، ولكن صوته كان يضيع في المعركة.

صمت التاجر قليلًا قبل أن يقول:

Twitter: @ketab_n

- فجأة وبدون مقدمات، انقطع صوت الغوري وجحظت عيناه، ثم تراخت كفه، وأسقط سيفه، ووضع يده على صدره، وبقي على هذا الوضع للحظات قبل أن يتهاوى عن فرسه، شاهد جنوده ذلك وعرفوا أن قلبه توقف عن الخفقان، فانهزموا أمام العثمانيين الذين لم يجدوا مقاومة تُذكر حتى دخولهم القاهرة.

وضع حسين رأسه بين يديه وبدأ يهزه بقوة وكأنه يريد أن يوقظ نفسه من حلم مزعج، فهزيمة الغوري في «مرج دابق» أقسى من هزيمته هو أمام البرتغاليين في ديو، إنها تعني سقوط مصر في يد العثمانيين الذين تربى على بُغضهم لسنوات طويلة، فما الذي سيفعلونه بمصر الآن؟ لم يكن لديه سوى سور جدة ليحميه من أي هجمات قد يشنها العثمانيون عليه، ولكنه يعلم بأنه وحيد هنا، ليس له أنصار يدافعون عنه، فأي مصيبة حلت عليه؟

انتشر خبر الهزيمة في أوساط الجداويين الذين عرفوا أن الباشا حسين أضحى وحيدًا بدون أي سند أو دعم من مصر، بل إنه غدا بدون شرعية تؤهله للجلوس على كرسي الحكم في جدة، فقرروا إسقاطه.

بدأوا في مهاجمة المراكز العسكرية البعيدة عن سور جدة، وأحرقوا المستودعات القريبة من البوابات ليلًا، ووضعوا كميات هائلة من الرمل والملح في خزانات الماء التي تُغذي القصر ومعسكر الجند، وقطعوا الطريق إلى مكة، وفي كل صباح كان قائد العسكر يقدم تقريره للباشا عن مقتل عدد من الحرس أو حرق عدد من المقار، لقد بدأت يد حسين تضعف أمام مقاومة منظمة.

لم يفهم حسين لماذا يفعل الناس ذلك! أليس هو هنا

Twitter: @ketab_n

لحمايتهم من البرتغاليين الذين قد يهاجمون المدينة في أي لحظة ويستبيحون الدم والمال؟ لماذا لا يفهم هؤلاء البشر مسؤوليته وما الذي يريد أن يفعله من أجلهم؟

بدأ يتصرف كالقط المحصور في زاوية، هو يعلم أن أهل جدة يكرهونه ولا يريدونه بينهم، ولكنه يعلم أيضًا ألَّا أحدًا سيقبل به لاجئًا لديه، حتى وإن فعل فإلى أين يذهب؟ لم يبقَ له سوى أن يتحصن بما يستطيع أن يفرض عليه سلطته، قصر الحكم والأحياء المحيطة به فقط.

مرت بضعة أشهر لم يكن حسين يترك خلالها حذاءه وملابسه وسيفه، كان ينام محتضنًا سلاحه، ففي كل يوم يرى الموت يقترب منه كلما اقترب التخريب من القصر، وكلما سمع صراخ البدو من خارج السور.

وذات صباح عندما كان يتفقد الحراسة على السور المطل على البحر سمع أحد الجنود يصرخ وهو يشير إلى نقاط سوداء قادمة من الشمال الغربي، لم تكن هوية السفن واضحة، فكثر التخمين عن هوية هذه القلاع العائمة القادمة من بعيد، فمنهم من يقول إنها للبرتغاليين، ومنهم من يقول إنها للمماليك، ولكن أحد الحرس المخضرمين تعرف على بيارقها حين اقتربت قليلًا، لقد كانت حمراء ببقع خضراء في وسطها:

- إنها سفن عثمانية أيها الباشا.

أمر حسين بغلق البوابة التي تُطل على البحر وتحصينها والاستعداد للمواجهة، لقد وصل جيش السلطان سليم إلى أسوار جدة وهذا ما كان يحذره.

Twitter: @ketab_n

صعد الكثير من الحرس بكامل أسلحتهم إلى أعلى السور بعد أن سمعوا صراخ الضباط وفتحوا كوات المدافع وبدأوا في تلغيمها، ووقف خلف كل مدفع جندي يحمل مشعلًا في انتظار أن يقربه من القداحة لإطلاق النار.

خيم صمت غريب على الجميع، كانت أعينهم مركزة على تلك السفن الخمس التي تقترب منهم بشكل بطيء، اقتربت قدر الإمكان من الميناء ثم رمت مراسيها، لم تكن كوات مدافعها مفتوحة، ولم تكن مستعدة للقتال كما يبدو، لقد اقتربت حتى أضحى بالإمكان تدميرها إن أمر الباشا بذلك، ولكن الجميع يتصرف بغير المتوقع في هذا اليوم، فما الذي يحصل يا ترى؟

بقيت السفن راسية لعدة ساعات بدون أي حركة مريبة، ثم نزل من إحداها زورق صغير عليه ضابط انكشاري ومجموعة من البحارة وجدف حتى وصل إلى الساحل.

نزل حسين من أعلى السور واتجه إلى البوابة التي أمر بفتحها بسرعة، لم يتمكن الجنود من فعل ذلك بسهولة حيث وضعوا خلفها لوحًا خشبيًّا ضخمًا بشكل عرضي يمنع فتحها من الخارج، فتطلب الأمر عدة جنود أقوياء لرفع اللوح الثقيل قبل فتح البوابة، كان الضابط العثماني قد وصل إلى البوابة التي ما إن فُتحت حتى وجد نفسه مقابل الباشا.

سأل الضابط:

- هل أنت الباشا حسين الكردي؟
- نعم أنا هو.
- تفضل يا سيدي.

Twitter: @ketab_n

ثم مد يده بأنبوب معدني استلمه حسين وفتح أحد جوانبه وأخرج منه رسالة مطوية وبدأ في قراءتها:

أخي حسين باشا الكردي

مرت سنوات طويلة منذ أن افترقنا عن بعضنا، لقد كان آخر لقاء لنا تحت شجرة التين ونحن نأكل سكرجة في الخان الذي يعمل به جعفر، هل تذكر ذلك؟

دعني أقل لك بعض أخباري، لقد ذهبت مع الأمير لقتال قراصنة رودس، ولكنني وقعت في الأسر بعد أن جُرحت جرحًا بليغًا، بقيت في الجزيرة عدة سنوات مع مجموعة من الأسرى العثمانيين، لقد كانت سنوات صعبة جدًّا، استخدمونا لبناء تحصينات حول المدينة حتى تمكَّن السلطان سليم من تحريرنا باستبدالنا بمجموعة من الفرنجة الذين أسرتهم بحريته.

إنني الآن ضابط في البحرية العثمانية وأقود هذه السفن التي تراها واقفة أمامك في البحر، لم أتغير كثيرًا، وأتمنى ألَّا تكون أنت قد تغيرت أيضًا.

تعلم أيها الباشا أن مع النصر المبين الذي مَنَّ اللّه به على السلطان الغازي سليم الأول فإنه أصبح خليفة للمسلمين بعد أن تنازل محمد المتوكل آخر خليفة عباسي له عن هذا اللقب، هو الآن خليفة المسلمين وسلطان الفاتحين الذي تجب له الطاعة.

إنك وحدك الآن، ليس لك نصير في جميع أراضي المسلمين الذين ارتضوا بالسلطان سليم خليفة لهم، وقد أعلن سلطان اليمن ولاءه للسلطان سليم مؤخرًا، وكل الموانئ والممالك ستُغلق أبوابها في وجهك، ولم يبقَ لك سوى الاستسلام.

Twitter: @ketab_n

وبناء على ذلك فإني أطالبكم بفتح أبواب مدينة جدة، وتسليمي مفاتيحها فأنا الذي سأحكمها بموجب أمر السلطان سليم.

والسلام.

التوقيع

سليمان باشا العثماني

بدأ جسد حسين بالرجفان، وتنملت أطرافه، فها هو أعز أصدقائه في صف أعدائه، بل إنه يطلب منه الاستسلام! هل نسي سليمان ضحكهم وبكاءهم وعرقهم وطعامهم مع بعض؟ كيف تغيَّر ذلك الإنسان الضحوك الذي لا يعرف كيف يحمل همًّا إلى قائد عسكري كبير يقود خمس سفن؟ هل تغير الناس إلى هذا الحد؟

لم يعد يفهم! كان الضابط أمامه في انتظار الرد، بدت عينا حسين زائغتين وغير مستقرتين، خاف أن يراهما الضابط فيعرف نقاط ضعفه، أخبره أنه سيرد على الخطاب قريبًا وأمره بالانصراف.

عاد إلى قصره، بدا منكسرًا وكأنه فقد شيئًا ثمينًا من حياته، تساءل كل من حوله عن فحوى الرسالة التي قرأها، هل هو تهديد بتدمير مدينة جدة؟ هل هو تهديد بقتله؟ انعزل في قصره وانتشر خبر هذه الرسالة في طرق وأزقة المدينة، كلٌّ يفتي بما لديه وبما يظن في الرسالة، ولكنهم في النهاية اتفقوا على أنه أيًّا كان فحواها فهي تعني أن قوة حسين قد انتهت، وأن قبضته على المدينة قد تراخت، وأن من الواجب عمل شيء لاستغلال الوضع لأن السفن العثمانية ما زالت راسية خارج الميناء، ولو قررت

Twitter: @ketab_n

المغادرة لأي سبب، فسيعود الباشا حسين لممارسة سلطته في استعباد أهل المدينة ومصادرة أموالهم.

ظهرت في أحياء مدينة جدة مجموعات من الأهالي اتفقت على التحرك لإسقاط حسين سريعًا، فالفرصة مواتية طالما بقيت تلك السفن العثمانية راسية في الميناء.

بقي حسين طوال ليلته تلك يفكر في كيفية الرد على سليمان، وبأي صيغة؟ هل سيعارض تسليم المدينة إليه؟ وما الذي يمكن أن يحصل لو وافق؟ وهل يملك ما يكفي من الجنود لمقاومة تلك السفن ومدافعها التي قد تخرج من كواتها في أي وقت؟

تضاربت الأفكار في رأس حسين، ولم يكن سليمان بقربه ليُحدثه ويأخذ بنصيحته، إنه سليمان الذي يسبب له كل تلك الأفكار الآن! يا إلهي كيف تغير الزمن وتبدَّل!

وفي اليوم التالي كان الدوادار قد لف رسالة حسين في أنبوب معدني وأغلقه قبل أن يسلمه إلى رئيس الحرس لإيصاله إلى سليمان باشا العثماني.

Twitter: @ketab_n

٣٧
مدينة جدة

من على سفينة القيادة، فتح سليمان باشا الرسالة التي وصلته من حسين، وقبل أن يقرأها نظر إلى مدينة جدة، لم يكن يستطيع أن يراها جيدًا، فقد كانت أشعة الشمس قوية وهي تخرج من حافة سورها، لقد بدت المدينة وديعة هادئة مستسلمة لشمس الصباح، ولو لم تكن هذه الرسالة في يده لبدا صباحًا اعتياديًّا كأي صباح آخر.

أعاد بصره إلى الرسالة:

صديقي العزيز سليمان باشا

لم أكن أتوقع مجيئك أو حتى رؤيتك في بحر جدة، مرت عليَّ سنوات طويلة وأنا في انتظارك، لقد اعتدت على أن أبثك همومي وأن تستمع إليَّ مهما بالغت في الشكوى، ولكننا هنا الآن نمثل جبهتين مختلفتين ولكل منا سلطان مختلف وإن كان سلطانك قد قتل سلطاني!

لم أكن أود مُطلقًا أن نتقابل في ظروف مثل هذه، لقد اجتمعنا كطفلين في ثكنات المماليك، وها نحن نتقابل في البحر بعد أن بدأ بياض الشعر يغلب سواده، ولكنها إرادة

Twitter: @ketab_n

اللّه، ولست أدري ما الذي كتبه اللّه لنا، وكيف ستكون نهاية هذه القصة التي لا أريد أن أعرف نهايتها.

لقد عينني السلطان الغوري، رحمه اللّه، حاكمًا على مدينة جدة، ولست أرى سببًا لتسليمك إياها بدون أن أدافع عنها حتى آخر قطرة من دمي، ولكن دعنا نتفق على شيء واحد إن خرجنا من هذه الأزمة أحياء، أن نأكل سكرجة تحت شجرة التين في مطعم جعفر، هل أنت موافق على ذلك؟

لست أعلم إن كنت أتمنى لك النصر أو أتمناه لنفسي، فلست أجد فرقًا.

أمير جدة وباش عسكر البحرية

حسين باشا الكردي

بلع سليمان ريقه، فقد ضربته كلمات حسين في الصميم، قاوم دمعة تجمعت في زاوية عينه، لم يكن يستطيع نسيان تاريخ طويل من الصداقة والوفاء والضحك والبكاء، وكيف ينسى كل ذلك!

جلس على كرسي يفكر فيما يتوجَّب عليه فعله، فإن قرر قصف مدينة جدة بمدافعه فإنه سيدمرها عن بكرة أبيها، ولكنه سيخسر حسين إلى الأبد، وسيخسر الكثير من أهل المدينة أرواحهم نتيجة ذلك، وإن لم يفعل شيئًا فقد يطول الحصار. لم يكن هناك من سبيل سوى أن تسقط جدة من الداخل، أي أن يثور أهلها على حسين ثم يسلموه إليه.

بقيت سفن سليمان بضعة أيام هادئة في أماكنها، فلم يرَ الحرس الذين يراقبونها من أسوار جدة أي حركة مريبة عليها. اعتاد الناس رؤيتها هناك وعادوا إلى حياتهم الطبيعية، لكنهم لم

Twitter: @ketab_n

يكونوا يعرفون سر العلاقة بين القائدين، والأدهى من ذلك أنهم لم يكونوا يعلمون بالاتصالات التي تحدث ليلًا بين مجموعات الثوار وتلك السفن الرابضة على مدخل مينائهم.

في الليل إما أن يخرج زورق صغير من البر في اتجاه السفن أو ينزل آخر من السفن في اتجاه البر، لقد كان هناك تنسيق قوي ودقيق لثورة مُحكمة التخطيط على حسين، حيث اشترط سليمان على قادة الثورة أن يسلموه حسين سليمًا حيًّا عندما ينجحون في الاستيلاء على قصر الحكم.

وفي إحدى الليالي هاجمت مجموعات من الأهالي المسلحين بالسيوف والخناجر مركزًا للحراسة في طرف السور، ثم بعد ذلك بساعات حدث الشيء نفسه في مركز على الطرف الآخر من السور وقُتل الكثير من الحرس الذين كان حسين يعتمد عليهم للسيطرة على أطراف المدينة، تزامن ذلك مع اشتعال النار في سوق المدينة وانشغال الناس بإطفائها، ثم فُتحت بوابة السور التي تطل على الصحراء فدخلت منها أعداد كبيرة من البدو المسلحين، وحدث هرج ومرج في كل أنحاء المدينة، وأقفل الناس عليهم أبوابهم، واجتمعت الكثير من العائلات في بيت واحد بحثًا عن الأمان، وسُمع صراخ الناس في الشوارع، فلم يعلم الناس ما الذي يحصل في أحيائهم وأزقتهم. خرج العديد من الشباب المتحمسين للمشاركة في الثورة التي يرون أنها ستُخلصهم من حكم حسين باشا الكردي الذي صادر أموالهم وأذلَّهم، وخرج معهم الكثير من اللصوص الذين وجدوها فرصة لنهب السوق وسرقة ما يمكن سرقته من المدينة.

Twitter: @ketab_n

تفكك كل شيء في المدينة، فهرب الجنود من مراكزهم، وسُرقت مخازن الحبوب، واستغل البعض هذا الاضطراب للأخذ بثاراتهم من أعدائهم فكثر القتلى في الشوارع، وخرج الناس لحماية منازلهم وحاراتهم بالعصي وبما يستطيعون حمله، وسيطر جو محموم على المدينة التي بدت وكأنها تشتعل في تلك الليلة.

كان سليمان يراقب كل ذلك من سفينته داعيًا اللّه أن يحمي حسين من هذه الفوضى التي لا يستطيع السيطرة عليها، فالثورة كما يراها كالنار المشتعلة التي يصعب التكهن بمدى ارتفاع لهيبها.

قرر الحرس المملوكي الخاص الموالي لحسين التجمع في قصر الحكم لحماية الباشا، فلم يعودوا يستطيعون النجاة متفرقين، فشكلوا صفًا قويًا متراصًا أمام البوابة الرئيسية في انتظار أن يسفر الصباح لمعرفة حقيقة ما يحدث، كان الجميع متوترًا ومترقبًا، فالموت قد يأتي من أي مكان ومن أي زاوية.

بقي حسين في قصره طوال تلك الفترة، ثم قرر أن يشهر سلاحه وينضم إلى جنوده، شعر الجنود بنوع من الاطمئنان بعد أن شاهدوا الباشا بسيفه يقف خلفهم، فلم يعد لديهم سوى هذا القصر لحمايته، تذكَّر حسين صديقه سليمان فجأة، وفكر فيما يفعله هذا الصديق الآن وهو يشاهد جدة تحترق، ما الذي يتغير في البشر عادة؟ هل هي الروح التي تتلون؟ أم المصالح التي تتغير؟ هل الروح تلبس السواد وتُعيد تشكيل هيئتها؟ أم أنها المصالح التي تُغير البشر وتجعلهم يُعيدون حساباتهم فتتبعهم الروح مرغمة؟

تراخت قبضته عن سيفه قليلًا وهو يفكر، ثم فجأة سمع

Twitter: @ketab_n

الجميع ضجة وصراخًا قادمًا من أحد الأزقة عن يمينهم، ثم تكرر الأمر من الأحياء التي عن شمالهم، رصوا صفوفهم وجردوا سيوفهم وانتظروا.

فجأة، خرجت مجموعة كبيرة من الغوغاء المسلحين بكل ما يمكن حمله متجهة إليهم، ثم خرجت مجموعات أخرى من الأزقة التي تنتهي أمام قصر الحكم، تردد الناس بعد أن شاهدوا المماليك شاهري أسلحتهم، فتلاقت نظراتهم للحظات، وخيم شبح الموت على الجميع، واحمرت العيون، وانتفخت الأوداج، فالثارات لا تموت، ثم قرروا الهجوم.

اشتبكت هذه الجموع البشرية بعضها ببعض، وأضحت وحوشًا جائعة تنقض على ضحاياها، فتطاير الدم، وانفجرت الرؤوس، وتساقط الجرحى ليُداسوا بالأقدام، وبعضهم توقف تنفُّسه بعد أن انحصر بين كل هذه الجموع المتصارعة وبين الجدران، واستمر القتال لفترة من الوقت قبل أن تقل مقاومة المماليك وتهدأ، ولم يبقَ سوى صراخ الجرحى وتوسل الأسرى، ثم سمع الناس شخصًا يصرخ بأعلى صوته من وسط الجموع الهائجة:

- لا تأخذوا أسرى، اقتلوهم جميعًا!

وبدأت كل أنواع الأسلحة تنزل على رؤوس الأسرى والجرحى، وتحول مدخل قصر الحاكم إلى مجزرة دموية لا تُبقي على حي، استطاع حسين ومعه مجموعة صغيرة من حرسه الهروب ودخول القصر ثم أغلقوا على أنفسهم باب إحدى القاعات وهم يلهثون خوفًا ورعبًا.

Twitter: @ketab_n

فجأة بدأ الباب الذي يفصل الجموع الغاضبة عن حسين ومجموعته بالتحرك، ثم انفتح بقوة جراء تراكم الأجساد عليه من الخارج، كان منظرًا مرعبًا، فقد كانت أسلحة وأجساد المهاجمين ملطخة بالدماء، وبعضهم كان يحمل رؤوسًا تم فصلها عن أجسادها وما زال الدم يقطر منها، أمر حسين جنوده بإلقاء أسلحتهم والاستسلام لقدرهم فلم تعد المقاومة مجدية.

لم تكن جموع المهاجمين تحمل عقلًا، فقد كانوا مجموعة من الغوغاء الغاضبين الذين يبحثون عمن يقول لهم أمرًا فينفذونه بدون تفكير، لقد أصبح حسين باشا بين أيديهم، صرخ أحدهم:

- لنأخذه إلى سليمان باشا، فإنه ينتظرنا على سفينته.

سارت كل تلك الجموع يتقدمها حسين ومن بقي من حرسه مجردين من ملابسهم سوى ما يستر عوراتهم، وجوههم مشوهة من الضرب، وأجسادهم تنزف دمًا في منظر محزن، حتى وصلوا إلى الميناء.

ومن على سفينة سليمان استدعى أحد البحارة الباشا ليرى ما يحدث، وعندما وصل إلى ظهر السفينة شاهد كل تلك الجموع الغاضبة، ولكنه لم يستطع أن يميز ما يحدث.

- ماذا يحدث؟ وما الذي يريدونه؟

رد عليه الضابط الواقف بقربه:

- إنهم الثوار يا سيدي، ومعهم حسين باشا إن كنت تستطيع أن تراه من هذه المسافة، إنه ذلك الشخص العاري الواقف على حافة رصيف الميناء، هل تراه يا سيدي؟ ولكننا لا نعلم ما الذي يريدونه، أعتقد أنهم يريدون أن يسلموننا إياه.

Twitter: @ketab_n

بدأ الدم يتدفق إلى وجه سليمان فقال لاشعوريًّا:

- لقد اتفقت مع قادتهم على أن يسلموه لي سليمًا معافى! لماذا يفعلون به ذلك؟ أين هم الآن؟

رد الضابط وهو في حالة توتر:

- لم نستطع التواصل مع أي منهم أيها الباشا، إن المدينة في حالة فوضى.

أبقى سليمان عينيه مُسمَّرتين على تلك الجموع وهو يأمر الضابط بالنزول لتخليص حسين من أيدي الثوار.

بدأ زورق صغير في النزول ببطء من سفينة القيادة، وعندما أصبح في البحر ركب عليه الضابط وأمر أربعة من البحارة المسلحين بمرافقته.

أما على الساحل فلم تكن هذه الجموع الحمقاء ترى أي شيء، فقد أعماها غضبها، وبدأ صراخها يتعالى، فجاء صوت الشؤم من خلف الجموع:

- ما الذي تنتظرونه؟ اقتلوهم، لا أحد يريدهم.

وعندما همت الجموع بضرب رؤوسهم وطعنهم سُمع صوت آخر يقول:

- اقتلوه بالسور الذي قتلنا به، اربطوه بحجارته وارموه في البحر حتى نتخلص منه!

اندفع الناس لإحضار صخور كبيرة من بقايا السور، ووضعوها بالقرب من أقدام المجموعة البائسة، ثم رُبطت بها بإحكام، وشُدت أيديهم خلف ظهورهم، وبدأ حسين ورفاقه بالتشهد وإن انحبست دموعهم وتجمدت أطرافهم. كان الزورق

Twitter: @ketab_n

يقترب والضابط يصرخ على المجدفين ليُسرعوا قبل فوات الأوان، وسليمان باشا لم يعد يقوى على الصراخ وهو يرى عملية الإعدام البطيئة هذه.

كان الضابط في الزورق واقفًا على قدميه وهو يحث البحارة على التجديف:

- بسرعة! بسرعة! بسرعة!

أما على الساحل فقد دُحرجت الصخور من الميناء وتبعها ضحاياها، وبعد لحظات خرجت بعض الفقاعات وانتهى الأمر.

خيَّم السكون على الجموع الغاضبة، وكأن عملية الإعدام هذه استنزفت قوتهم وأنهكت قواهم، فرموا خناجرهم وسيوفهم وأخشابهم المصبوغة بالدم وبدأوا في الانسحاب من المكان. أما الضابط الذي كان على الزورق فقد جلس بعد أن شاهد المنظر، ولم يستطع فعل شيء، ومن على السفينة بدأ سليمان بالصراخ، ثم أُصيب بالغثيان المصحوب بالبكاء، فقد فقد صديقًا شعر أنه السبب في قتله.

Twitter: @ketab_n

٣٨
جزيرة البحرين

سمع الخواجة عطار صوتًا من داخل المنزل، فأمر جنوده بمحاصرته بهدوء، وبعد لحظات خرج جوهر متسللًا وهو يحمل كيسًا كبيرًا على ظهره، فألقى الجنود القبض عليه وأحضروه إلى الخواجة الذي كان واقفًا بالقرب من قبر فرح.

أخذ أحد الحرس الكيس من كتف جوهر، وفتحه وأخرج منه الكثير من المسروقات الثمينة ووضعها على الأرض بالقرب من قدمي الخواجة الذي نظر إلى جوهر بغضب وسأله:

- مَن أنت؟

رد جوهر ببعض الكبرياء الذي اعتاد عليه:

- اسمي جوهر، وأنا عبد لمولاي الأمير ناصر.

تذكر الخواجة الرسالة التي أرسلتها إليه حليمة تخبره فيها عن موت فرح وعن الأمير ناصر وعبده جوهر. إذن هذا هو جوهر الذي كان سببًا في موت فرح وتهديد حليمة، هذا الرجل الذي كان مشاركًا في المؤامرة!

أشار الخواجة بإحدى قدميه إلى المسروقات وسأل:

- وما هذه؟

Twitter: @ketab_n

بدأت نغمة صوت جوهر في التغير:

- لقد بدا لي أن هذا المنزل خالٍ من أهله، وأنت تعلم يا سيدي أن الحرب قد هجَّرت الكثير من الناس، وبدأ البرتغاليون في نهب منازل المدينة، وقررت أن آخذ ما أستطيع من هذا المنزل قبل أن يأتي أحد إليه.

حاول جوهر أن يجد عذرًا لفعلته الخسيسة هذه بقوله:

- إن لم آخذ هذه الأشياء من المنزل فقد يأخذها غيري، أنت تعلم يا سيدي أن...

قاطعه الخواجة:

- وأين هو سيدك الأمير ناصر؟

- لا أعلم، لقد رأيته آخر مرَّة بالقرب من السور قبل أن يعلن الهزيمة ويستسلم، ولم أره بعد ذلك.

أشار الخواجة إلى قبر فرح:

- هل تعلم لمن هذا القبر؟

بلع جوهر ريقه وبدا عليه الاستغراب:

- إنه قبر إحدى الخادمات التي كانت تعمل في هذا المنزل، ولست أعلم سبب وفاتها يا سيدي.

أمر الخواجة حرسه بربط يدي جوهر خلف ظهره قبل أن يكمل:

- سأحدثك بأمر هذه الخادمة يا جوهر.

ثم اقترب من القبر ومسح الشاهد:

- إنه قبر ابنتي فرح، لقد ربيتها كابنتي مع ابنتي الحقيقية حليمة، إنه قبر فرح التي كذبت عليها وجعلتها تسرق الخنجر من

Twitter: @ketab_n

غرفة حليمة لتسلمك إياه، ثم لتعطيه بدورك إلى سيدك الأمير ناصر ليُهدد به حليمة، لقد قتلت فرح نفسها بعد أن ضحت بشرفها لتحمي شرف حليمة من سيدك ناصر!

بدأ جوهر بتحريك يديه محاولًا فك القيد استعدادًا للهروب، فالذي يحدثه الآن هو والد حليمة، وهو يعرف كل شيء عن المنزل والخنجر والمؤامرات التي كان يحيكها مع الأمير ناصر، وما يقوله له الآن يوحي بأن للرجل ثأرًا معه، كان الدم يتجمع في يدي جوهر وهو يحاول أن يفك قيده بكل قوته، وحين شعر بأنه عاجز عن ذلك سقط على ركبتيه في محاولة للتوسل:

- سيدي، إن ما أعرفه هو أن فرح قتلت نفسها بعد أن سلَّمتني الخنجر حزنًا على فِعلتها وخيانتها لحليمة، وليس لي ذنب فيما حصل بعد ذلك!

عاد الخواجة إلى قبر فرح لينظفه من بقية الأغصان الصغيرة الجافة، ويمسح على شاهد القبر عدة مرات وكأن شاهد القبر يُمثل فرح التي تستمع إلى كل ما يُقال، ثم عاد للحديث مع جوهر مرَّة أخرى:

- إن الخنجر الذي سلَّمته إلى سيدك ناصر هو ذات الخنجر الذي استخدمه لتهديد حليمة، ولكن فرح استطاعت خداعه وأنقذت شرف حليمة، وبعدها قطعت رسغي يديها لأنها لم تحتمل العار!

سكت الخواجة قليلًا وكأنه يفكر في الأمر برمته، ثم أعاد النظر إلى جوهر:

Twitter: @ketab_n

- لا بد أن يُسفك دمك على قبر فرح حتى ترتاح في قبرها، فهي قد ماتت حزينة غاضبة ولن تهدأ روحها إلا بعد أن تعرف أن ثأرها قد أُخذ لها، لدينا تقليد نحن الهرامزة في الثأر يجب أن يتحقق، هل تعرف ما هو يا جوهر؟

عرف جوهر أنه ميت إن لم يفعل شيئًا، فحاول أن يهرب إلا أن الحارس أمسكه من ذراعه بقوة.

لم يرغب الخواجة في أن تستمر هذه المسرحية لأطول من هذا، فأشار برأسه لحرسه الذين دفعوا جوهر إلى جانب القبر وجعلوه يركع أمامه. بدأ جوهر بالصراخ والاحتجاج فأخرج أحد الحرس خنجره وقطع عرقوب قدمه ليمنعه من القيام والحركة، زاد في الصراخ بشكل هستيري حتى صمت فجأة بعد أن هوى السيف على رقبته فتدحرج رأسه بعيدًا عن القبر، أما جسده فقد سقط قريبًا من الشاهد ولم يعد يُسمع سوى صوت شخيب الدم من أوداجه المقطوعة وهو ينساب على الرمل الجاف.

انتظر الخواجة لعدة دقائق حتى هدأت حركة الجثة وتوقف الدم عن الجريان على رمل القبر، ثم أمر حرسه بوضع الرأس في الكيس مع المسروقات ودفن الجسد بعيدًا عن قبر فرح، فهي لن تقبل أن يبقى هذا الجسد العفن فوق قبرها كما قال الخواجة للحرس.

ركب الجميع خيولهم وانطلقوا خببًا إلى ساحل البحر حيث كانت المعركة التي انتهت منذ أيام. تحول ذلك المكان إلى مقر للقوات المهاجمة، ففيه تتوقف سفن التموين القادمة من هرمز بشكل يومي، وعلى رماله يرتاح الجنود ويلعبون بعد عناء دفن

Twitter: @ketab_n

أجساد القتلى. كان «أنطونيو كوريا» جالسًا مع الأمير ناصر تحت أطلال المسجد الذي استخدمه الجبور كعيادة طبية خلال المعركة. من الواضح أن الاتفاق قد تم بينهما ولم يبقَ سوى أن يُظهر الأمير المزيد من الولاء حتى ينتهي أمر تعيينه حاكمًا على الجزيرة ممثلًا للبرتغاليين كما يرغب.

تقدم الخواجة وحرسه إلى المسجد، ثم طلب منهم إخراج رأس جوهر وعرضه على الأمير ناصر، الذي تغيرت ملامح وجهه فجأة وكأنه أُصيب بصدمة.

وجه الخواجة حديثه لـ«أنطونيو»:

- إن هذا رأس أحد عبيد الأمير ناصر الذي أرسله ليسرق منزل الملك شيرغل، وقد قبضنا عليه وهو متلبس، وهذه هي المسروقات التي وجدناها معه.

ثم رمى أحد الحرس كيس المسروقات التي كانت مع جوهر تحت أقدام «أنطونيو» ليراه، فتناثرت منه أحجار كريمة، ومجموعة من المجوهرات، ومكاحل، وقطع كبيرة من العنبر، وخناجر ذات مقابض من العاج، وأشياء ثمينة أخرى.

التفت «أنطونيو» بغضب إلى الأمير متسائلًا عن ذلك.

- غير صحيح أيها القائد، فهو قد تصرف وحدَه، وكيف أجرؤ على سرقة منزل الملك شيرغل؟ إنه غير صحيح يا سيدي!

أمر «أنطونيو» بنقل كيس المسروقات إلى سفينته، لكن الأمير ناصر لم يكن يود أن تُفسد هذه الحادثة علاقته مع البرتغاليين، فقال محتجًا:

Twitter: @ketab_n

- أنت تعلم أيها القائد أن السلب والنهب قد تم على نطاق واسع بعد انتصاركم ومقتل السلطان مقرن، ومن المستحيل أن أستطيع السيطرة على كل خدمي وعبيدي!

نظر إلى الخواجة الذي بقي واقفًا أمامهما:

- أعتقد أن من مصلحة الخواجة أن يُفسد سُمعتي أمامكم، فابنته كانت زوجة لابن رحال وزير السلطان مقرن، وهي ما زالت في الأحساء كما أعرف.

أصبحت نظرة الأمير أكثر خبثًا قبل أن يقول:

- إن لابنته سُمعة سيئة، ومن مصلحته أن يتخلص مني لأني أعرف الكثير عنه وعن ابنته، ولكن اسأله أيها القائد، لماذا ذهب هو أصلًا إلى مزرعة الملك إذا كانت ابنته لم تعد تعيش فيها!

تدفق الدم إلى وجه الخواجة وأصبح أكثر احمرارًا، وكاد أن يتصرف تصرفًا يائسًا، فهذه أول مرَّة تتم إهانته بهذه الطريقة المذلة. كان «أنطونيو» ما زال ينظر إليه في انتظار أن يُقدم تبريره، ولكنه كان يفكر في الكلمات التي فعلت فعل السكين في لحمه عن شرف ابنته.

تلعثم الخواجة قليلًا قبل أن يقول:

- ذهبت لزيارة قبر ابنتي بالتبني فرح، فقبرها ما زال هناك!

كان الأمير ناصر ينتظر هذه الكلمات لتخرج من فم الخواجة، فقال بسرعة:

- اسأله أيها الحاكم عن سبب موتها، فهي لم تمت موتًا طبيعيًّا كما أعرف.

Twitter: @ketab_n

بقي «أنطونيو» يدير رأسه بينهما مستمتعًا بهذا الصراع الذي كان يحب أن يغذيه؛ لأنه يعلم أنه إذا وحد هذان الشخصان قواهما فإن السفن البرتغالية في الخليج ستكون في خطر إن لم يكن الوجود البرتغالي برمته في خطر محدق، إنها عادة الظالم في دق إسفين صلب من سوء الظن وعدم الثقة بين مَن هم دونه حتى لا يجتمعوا عليه يومًا ما، إنه قانون قديم قِدم الدم والحياة.

نظر الخواجة إلى وجه «أنطونيو» وعرف أنه يستمتع بهذا الصراع الذي يدور حول شرف عائلته، فقال محاولًا إنهاء الموضوع الذي يريد الأمير ناصر أن يجره إليه:

- لقد انتحرت أيها القائد، انتحرت لأنها لم تعد تحتمل أن تعيش في عالم فاسد قذر!

أطلق الأمير ضحكة عالية سمعها الجنود في الخارج، ثم سكت فجأة ليقول:

- ماذا؟ هل أنت متأكد؟ لقد قتلت عبدي جوهر لأنه يعرف كل القصة، لقد باعت فرح نفسها لجوهر نظير وعود وأحلام رخيصة، وباعت ابنتك حليمة شرفها لي لأنها لم تحتمل أن تتحقق أحلام الأولى، إنهما فتاتان رخيصتان!

ثم أعاد الأمير نظره إلى «أنطونيو» الذي بقي مبتسمًا، وقال:

- ولكنهما جميلتان جدًّا.

أبقى بصره مثبتًا على «أنطونيو» وهو يشير إلى الخواجة:

- هذا الرجل يحمل ثأرًا ضدي وضدكم أيها القائد، إنه يشكل خطرًا على كلينا، ولن يتوانى عن خيانتكم إن استطاع.

Twitter: @ketab_n

تأكد «أنطونيو» بعد أن سمع كل هذه الخلافات أن ليس هناك أمل في أن يجتمع هذان الرجلان على أمر، فأصدر أمرًا بتعيين الأمير ناصر حاكمًا على البحرين وممثلًا للبرتغاليين، ثم غادر عائدًا إلى هرمز مع الخواجة الذي بدأ يشعر بألم في صدره وضعف في أطرافه بعد أن تعرَّض لإهانة لم يحتملها جسده.

Twitter: @ketab_n

٣٩
الأحساء، شرق الجزيرة العربية

مع وصول الأنباء عن مقتل السلطان مقرن إلى الأحساء خيَّم حزن على الجميع، خصوصًا حليمة التي شعرت أنها السبب في مقتله. لقد أصبح البرتغاليون على مرمى حجر من الأحساء، وهم قادمون لا محالة، فلم يعد للسلطان مقرن ولا لجيشه وجود، لقد تفككت الدولة، وبدأ البدو يهاجمون أطراف المدينة وانعدم الأمن، وتمترس الناس داخل القلاع الموزعة في المنطقة.

أصابت حليمة حالة هستيرية بعد موت السلطان مقرن، فقد حمَّلت نفسها مسؤولية موته وموت مَن معه من الرجال، وحمَّلت نفسها أيضًا مسؤولية سقوط البحرين ونهبها على أيدي البرتغاليين، كرهت كل شيء حتى إنها كانت تمشي في الطرقات كالتائهة، وتتذكر حياتها مدللة كالأميرة مع والدها في هرمز، ثم زواجها من ابن رحال وعيشها كالملكة معه، ثم مقتله، وحتى وصولها إلى حالة البؤس التي تعاني منها الآن. تنتابها نوبات من الغضب والبكاء وشعور بالضياع ودمار الحياة فتهيل الرمال على رأسها وتصرخ بأعلى صوتها، وتستمر في فعل ذلك حتى تسقط مغشيًا عليها، فيركض أحد الأطفال ليستدعي زوجة الشيخ التي

Twitter: @ketab_n

تُحضر معها قماشًا مبللًا بالماء فتمسح على وجهها لتوقظها، ثم تأخذها معها إلى المنزل وتغسلها من الرمال، ثم تجلس معها في انتظار أن يأتي الشيخ ليقرأ عليها بعض آيات القرآن، ويتكرر الحال في اليوم التالي.

ظن الناس أن جنيًّا قد تلبَّسها، ولكنها لم تكن ممسوسة، إنه الشعور بخسارة الحياة وكل شيء جميل في الدنيا. شعرت حليمة أنها محطمة النفس والروح، تحوَّل كل شيء في وعيها إلى ضده؛ فالموت بدا لها مرغوبًا ومطلوبًا، والجنون وفقدان الوعي أصبحا خلاصًا لها من واقعها المؤلم، اختفت لذائذ الحياة وتلاشت بالنسبة إليها، فلم يعد في حياتها سعادة، وأصبح طعم الطعام في لسانها مرًّا علقمًا لا تستسيغه، أنكرت جسدها وأهملته، تفرح برؤية القبور وتحسد الموتى على ذهابهم، إنها تقف على حافة الجنون، حيث تتأرجح بين الواقع المؤلم والماضي المفقود. ظن الناس بها الظنون، ولكنها صدمات الحياة القاسية التي يصعب التعامل معها.

مرت الأيام عليها طويلة ثقيلة، ولكنها أيضًا بدأت تتعافى من صدمتها وتخرج من بؤسها، فتحسَّنت حالتها قليلًا ولم تعد تفقد عقلها كما كانت تفعل سابقًا.

لم يبقَ لها سوى والدها الذي بدأت تخجل من العودة إليه، فهل تعود بعد أن خسرت زوجها ومالها وتسببت في موت السلطان مقرن واحتلال البحرين؟ لم تعد تعرف ما الذي تريده من حياتها، أو ماذا تريده حياتها منها، لماذا لا تغادر روحها جسدها فترتاح، لقد يئست من كل شيء ولم يعد للحياة معنى!

Twitter: @ketab_n

قرر الشيخ جمال الدين التازي أن يعود إلى دياره في المغرب؛ فالحياة في الأحساء أصبحت صعبة وغير آمنة، ولم تود حليمة أن تبقى وحدَها في مدينة لم يبقَ لها أحد فيها، فقررت أن ترافقهم إلى الديار المقدسة. تذكَّرت الخنجر وهي ترتب أغراضها، فهو الخنجر الذي وعد السلطان مقرن بإيصاله للخليفة، إنه وعد أطلقه لملك من ملوك الهند ولا بد من تحقيقه حتى بعد موته، قلَّبت الخنجر في يدها وجرَّدته من غمده، ثم نظرت إلى نصله الذي غسلته منذ فترة طويلة محاولة أن تزيل منه دم فرح، لم يبقَ مَن يُحقق رغبة السلطان مقرن غيرها، ستوصل الخنجر إلى الخليفة بأي ثمن، وضعته مع متاعها بدون أن تفكر كيف ستفعل ذلك، ثم وضعت معه الخاتم الذي اشتراه السلطان ليرسله هدية للخليفة أيضًا، إنه خنجر ثمين، ولكنه بقي في مأمن من السرقة، وقد آن أوان إيصاله مع الخاتم.

كانت زوجة الشيخ التازي تساعدها على تجهيز أغراضها حين سألتها:

- وإلى أين تنوين أن تذهبي بعد الحج يا حليمة؟

- لا أعلم يا خالة، قد أبقى في المدينة المنورة حتى أموت، لم تعد الأحساء تريدني ولم أعد أريدها، لقد انتهت كل علاقة لي بها.

- ولكن لماذا لا تذهبين لوالدك في هرمز؟!

زفرت حليمة زفرة قوية، فسيرة والدها ما زالت تُثير مشاعرها وتجعلها تشعر بطفولتها، وقالت:

- لم يعد لي أحد في الدنيا سواه، لقد أرسلت له رسالة

Twitter: @ketab_n

أخبره فيها بأنني مغادرة إلى الحج ولكنه لم يوافق، فليسامحني اللّه، لن أعود إليه قبل أن أحج، لا بد لي من الحج وزيارة قبر النبي، إنها فرصة واحدة ستُتاح لي في العمر يا خالة، ولن أجد رفقة أفضل منكما، سأبقى في المدينة لفترة، وسأحقق رغبة السلطان مقرن في إيصال الخنجر إلى الخليفة.

- ولكن مع مَن ستبقين هناك يا حليمة؟ أخاف عليك من البقاء وحدَك بعد أن نغادر!

- لا تشغلي بالك بي يا خالة، لقد عمَّت المصائب كل البلاد حولنا، حتى بلادي هرمز أصبحت لا تُطاق بعد أن استولى عليها البرتغاليون، ورسائل والدي تقطر حزنًا وألمًا مما يرى ويعاني، إن ذهبت إليه سأفرح برؤيته لساعات ثم سأتقلب في جحيم الخوف والألم مثله، دعيني أقضي فريضتي ثم يكتب اللّه لي ما يشاء، لم يعد يهمني أن أموت بعدها.

نظرت إلى الخنجر مرَّة أخرى قبل أن تواصل:

- لقد أحببت زوجي ابن رحال حبًّا لا يجاريه شيء، وكان بدوره يحب السلطان مقرن حبًّا كثيرًا، وسأبر به وبالسلطان وأوصل الخنجر إلى الخليفة عسى أن أُكفِّر عن سوء فِعلتي.

قطبت زوجة الشيخ بين حاجبيها وتساءلت:

- فِعلتي! عن أي فِعلة تتحدثين يا بُنيتي؟ مثلك لا يأتي منه إلا كل خير!

ابتسمت حليمة محاولة تجاوز هذا النقاش قدر المستطاع، فما فعلته في جر البرتغاليين إلى البحرين لاحتلالها يؤلم قلبها ويؤنب ضميرها:

Twitter: @ketab_n

- لا يهم يا خالة، المهم أن يصل الخنجر إلى الخليفة.

كانت العجوز على وشك أن تقوم من مكانها وكأنها تذكَّرت شيئًا:

- ولكن عن أي خليفة تتحدثين يا حليمة؟! لقد مررت مع زوجي بالقاهرة في طريقنا للحج أول مرَّة وعرفنا أنه خليفة ضعيف يتلاعب به أمراء المماليك، وليس له أمر على أحد باستثناء حريمه!

ثم توقفت قليلًا قبل أن تقول بخبث:

- ولست متأكدة من ذلك أيضًا!

ردت حليمة بشكل تلقائي:

- أيًّا كان يا خالة، عليَّ تحقيق رغبة السلطان!

تحركت قافلة الشيخ غربًا ومعها مجموعة من الحُجاج، ومجموعات أكبر ممن يريدون الهروب من الأحساء. كانت القافلة كبيرة وحَسنة الحراسة؛ فالطريق لم يعد آمنًا بعد تمرد قبائل العرب في وسط الجزيرة، وغياب سُلطة مركزية تفرض سطوتها عليها. ارتفعت أكف الناس إلى السماء طلبًا للرحمة والأمان، كم تبدو القافلة كئيبة وهي تغادر، ترافقها دموع المودعين وآهات المسافرين، ثم ارتفع صوت الحادي بشجن حزين يُذكرهم بوحشة الطريق واستحالة اللقاء.

وصلت القافلة إلى مكة قبل موسم الحج بقليل. شاهدت حليمة كل أولئك البشر القادمين من زوايا الأرض؛ ألوان وألسنة مختلفة، يبيعون ويشترون ويأكلون ويتحدثون ويتزاحمون. كانت

Twitter: @ketab_n

تأمل أن ترى حُجاجًا من هرمز، ستعرفهم بلباسهم وهيئاتهم كما قالت لزوجة الشيخ، ولكنهم لم يكونوا هناك، قيل لها إن طريق البحر إلى جدة أصبح مقطوعًا وغير آمن، ولم ينجح في اجتياز مخاطره سوى قلة، شعرت بالضيق، فلم تكن الحال هكذا قبل مجيء تلك السفن ذات الصليب الأحمر الكبير.

كان الحج بالنسبة إلى حليمة تجربة فريدة؛ فهذه الفتاة التي لم تُسافر خارج جزيرتها الصغيرة إلا بعد أن تزوجت، بدأت ترى العالم بكل تنوعه، لقد شربت آسن الماء، وجاعت، وأكلت القديد، وامتلأت عيناها بالتراب، ووضعت وجهها في الرمل شاعرة بذل العبد أمام الخالق، لقد مرت بتجربة لم تكن تحلم أن تمر بها في قصر والدها الوزير، شعرت بكبر حجم العالم، فلم يعد عالمها محصورًا في قصر والدها الخواجة أو في مزرعة زوجها المرحوم، إنه عالم واسع شغلها عن التفكير في محنتها، وكأنها كانت تتأمل لوحة معقدة الألوان، متداخلة الأشكال، متغيرة المعالم، لا تمل من النظر إليها.

وخلال موسم الحج عرفت أن الخليفة العباسي قد تنازل عن الخلافة للسلطان سليم العثماني، وأن السلطان سليم هو خليفة المسلمين الآن، لم تستوعب أن يكون الخليفة غير عربي، ولكن لا يهم، فسألت الشيخ التازي عن الذي يتوجب عليها فعله بالخنجر والخاتم، هل تسلمهما للخليفة العباسي المعزول أم إلى السلطان سليم؟ وإن كان السلطان سليم فكيف ستصل إليه؟

نصحها الشيخ التازي أن تهديهما إلى السلطان العثماني، فهو خليفة المسلمين الآن، ولكن بما أن السلطان بعيد عنها جدًّا ولا

Twitter: @ketab_n

تستطيع أن تصل إليه فعليها أن توصلهما إلى أعلى سلطة تمثل السلطان في الحجاز، ولم يكن سوى سليمان العثماني قائد الأسطول العثماني في البحر الأحمر وحاكم جدة، ولكن عليها أن تنتظر حتى ينتهي موسم الحج، فهو مشغول هذه الأيام في استقبال الوفود القادمة من كل مكان.

انتهى موسم الحج، وبدأ الناس في مغادرة الديار المقدسة، قوافل طويلة من الجِمال محملة بمتاعها تتجه إلى زوايا الأرض المختلفة، وأخرى تتجه إلى مدينة جدة للسفر بحرًا في اتجاه بلاد الزنج أو بلاد الهند والصين، بدأ الناس يعودون من حيث جاءوا، وبدأت مكة تتخلص من ازدحامها، وعادت إليها حياتها الطبيعية في انتظار عام آخر.

تحركت قافلة الشيخ التازي ترافقها حليمة في اتجاه جدة، المدينة التي يسكنها سليمان باشا العثماني، الحاكم الجديد، الذي أحبه سكانها بعد ما عانوه من الباشا حسين الكردي، فهو وحده الذي يستطيع أن يوصل الخنجر إلى السلطان سليم، وهي المدينة التي ستفترق فيها الأرواح، فسيذهب الشيخ التازي وزوجته إلى الساحل المصري في طريقهم إلى المغرب، ولا تعلم حليمة في أي أرض سيستقر بها المقام.

اجتازت قافلة الشيخ الصغيرة باب جدة الذي كان مشرعًا على مصراعيه، لم يسألهم الحرس عن وجهتهم وسبب دخولهم؛ فالوضع في جدة أصبح أكثر أمانًا، وقد عادت الحياة إلى ما كانت عليه قبل مجيء إبليس كما كان يُسمي سكان جدة حاكمهم السابق، سكنوا في نُزل صغير يقع بعد السور مباشرة، واستطاع

Twitter: @ketab_n

الشيخ أن يجد مَن يشفع له للدخول إلى قصر الحكم، وطلب من حليمة أن تأتي معه:

- عليك أن تأتي معي إلى قصر الحكم يا حليمة، وتسلمي الخنجر والخاتم لسليمان باشا بنفسك.

لم تكن حليمة متحمسة لذلك، فهي تخجل من الذهاب إلى هناك:

- سأعطيك إياهما يا عمَّاه، لست أرغب في الذهاب إلى مكان يكثر فيه الرجال الغرباء.

أصر الشيخ على حضورها لسبب ليست تفهمه:

- سأكون معك طوال الوقت، ولكن من الواجب أن تسلميه الهدية بنفسك يا حليمة، ليس هذا أوان التراجع، لقد جئت من الأحساء إلى هنا لهذا الغرض وعليك إكماله.

دخل الشيخ التازي وبرفقته حليمة إلى قصر الحكم، وطلب منها الانتظار في قاعة صغيرة خارج ديوان يعقد الباشا اجتماعاته الخاصة به، أما هو فدخل إلى الديوان الذي كان مليئًا بالضيوف، وجلس في انتظار دوره، حتى إذا بدأ الناس في الخروج التفت إليه الباشا وسأله عن حاجته.

- اسمي جمال الدين التازي، أنا من بلاد المغرب، ذهبت إلى بلاد الأحساء العام الماضي برفقة السلطان مقرن الجبري، ولكنه استُشهد في معركة مع البرتغاليين دفاعًا عن البحرين، وقد أصبح الوضع خطيرًا هناك، فقررت القدوم للحج وبعدها العودة إلى المغرب.

بدا الباشا مهتمًّا اهتمامًا بالغًا بما يقوله الشيخ:

Twitter: @ketab_n

- لقد أخبرني أحد جلسائي أنك قادم لمقابلتي منذ يومين، وقال إنك تحمل أخبارًا من شرق الجزيرة العربية، وإنك تريد أن تراني لأمر مهم.

- نعم أيها الباشا، سأُعطيك أخبار شرق جزيرة العرب والتي أرى من واجبي أن أُخبرك بها حتى تقوم بما يتوجَّب عليك عمله، ثم إن لي معك أمرًا خاصًّا أيضًا.

ابتسم الباشا ابتسامة عريضة:

- حسنًا لنبدأ بالأخبار أيها الشيخ، إني مهتم بما كنت تقوله عن السلطان مقرن والبرتغاليين.

استهل الشيخ حديثه بالقول:

- أنت تعلم أيها الباشا أن البرتغاليين قد استولوا على الخط التجاري بين الهند وبلاد العرب، ولذلك لم تعد هذه التجارة إلى سابق عهدها، ولكن الأمر الأكثر أهمية هو أن البرتغاليين قد نشروا الرعب والموت على طول خط سير سفنهم، فدمروا المدن وقتلوا البشر وكثُر الخراب، ولم تبقَ سوى مدن قليلة لم تطالها مدافعهم وسيوفهم.

لم يكن الشيخ يريد الإطالة، فهو يعرف أن الباشا قد قابل الكثيرين، وأنه لا يريد أن يسمع أخبارًا أخرى لا تسر، فحاول الاختصار قائلًا:

- لقد أرسل السلطان مقرن أسطوله إلى بلاد الهند لمساعدة الأسطول المملوكي الذي كان يقوده حسين باشا الكردي هناك، ولكن هذا الأسطول هُزم في معركة «ديو»، ومنذ ذلك اليوم وحِمانا مستباح لهم، فقد ملكوا البحر، ولم يعد هناك مَن يستطيع

Twitter: @ketab_n

أن يتصدى لهم أو يردهم، حتى وصلوا إلى جزيرة البحرين واحتلوها واستباحوها وقتلوا السلطان الذي بقي يدافع عنها بعد أن جُرح في المعركة، ثم جزوا رأسه وأرسلوه إلى هرمز!

كان الشيخ يراقب عيني الباشا وهو يتحدث محاولًا معرفة تأثير تسلسل الأحداث عليه، ثم واصل:

- بعد احتلالهم للبحرين سيدخلون الأحساء بالتأكيد، فهي لا تبعد كثيرًا عنها، وإن فعلوا ذلك فإنهم سيستولون على كل شرق جزيرة العرب، وأنت تعلم أيها الباشا أن البرتغاليين قد تحالفوا مع الصفويين الذين سبق أن احتلوا العراق ودخلوا بغداد وهدموها حتى إنهم أحالوا مرقد الإمام أبي حنيفة إلى إسطبل لخيولهم.

توقف الشيخ بعد أن أحضر له أحد الخدم كوب ماء ليشرب منه:

- إن الأمر خطير أيها الباشا، وإن لم ينتبه السلطان سليم، الذي هو خليفة المسلمين وحامي ديار الإسلام، لهذا فإنهم قد يفاجئونه من الجنوب.

كان سليمان متابعًا لما كان الشيخ يقوله حتى وصل إلى الأسطول المملوكي ومعركة «ديو». توقف سليمان عن المتابعة، وتذكَّر صديقه حسين وحماسه لقتال البرتغاليين، ومر عليه شريط الذكريات كله، لم يستطع أن يُخفي تأثره فقال:

- كان حسين باشا الكردي صديقي، فقد تربينا في ثكنات المماليك معًا، وعشنا سنوات طويلة لا نكاد نفترق فيها، ولكنها إرادة اللّه!

Twitter: @ketab_n

ثم كأن الشيخ تذكَّر شيئًا فجأة:

- إن لديَّ مَن يعرفه جيدًا أيها الباشا، وهو يريد مقابلتك أيضًا.

- مَن؟

- إنها حليمة، ابنة الوزير الهرمزي الخواجة عطار، وأرملة الوزير ابن رحال، وزير السلطان مقرن، ولديها شيء تريد أن تعطيك إياه.

وقف الباشا لاشعوريًّا:

- وأين هي الآن؟

- إنها في القاعة الصغيرة تنتظرك أيها الباشا.

سار سليمان برفقة الشيخ إلى المكان الذي كانت تجلس فيه حليمة بعيدًا عن الرجال، كانت منقبة بنقابها الهرمزي التقليدي، فلم تظهر إلا عيناها الجميلتان، وعندما شاهدت سليمان باشا قادمًا وقفت على قدميها احترامًا، ولكنها لم تمد يدها للمصافحة، ثم جلست مرَّة أخرى.

نظر إليها سليمان وشاهد خصلة صغيرة من شعرها تتسلل من تحت غطاء رأسها متوسدة رمش عينها. كانت عيناها الواسعتان تشعان سحرًا وحزنًا. انبهر بحديثها وجديتها وحُسن منطقها.

حدثته عن خطر البرتغاليين في الخليج، وكيف أن زوجها ابن رحال ذهب إلى الهند لمساندة حسين باشا الكردي حتى هزيمتهما في معركة «ديو»، ثم هروبهما ووصولهما إلى البحرين متخفيين في زي تاجرين هرمزيين، وحتى عودة حسين إلى جدة مرَّة أخرى.

اغرورقت عينا سليمان بالدموع وهو يستمع إلى ما مر به

Twitter: @ketab_n

صديقه حسين من مِحن رافقته حتى موته غير بعيد عن القصر الذي هُم فيه. شاهدت حليمة تراكم الدمع في عيني الباشا فسألته عن السبب، فقال:

- لقد كان صديق عمري، عشنا معًا لفترة طويلة حتى فرَّقنا الزمن، إنها أيضًا قصة طويلة.

أخرجت الخنجر من بين طيات ملابسها ونزعت عنه قماشًا حريريًّا كانت تلفه فيه وسلَّمته إليه. أخذ الخنجر منها وبدأ في تفحُّصه. عرف أنه خنجر ثمين بديع الصنع لم يرَ مثله من قبل، ثم سلَّمته الخاتم أيضًا. لم يهتم سليمان كثيرًا بالخاتم، فقد كان مبهورًا بالخنجر فسألها عن قصته:

- سأحكي لك قصته أيها الباشا كما سمعتها من زوجي المغدور، لقد أحضر هذا الخنجر إلى الأحساء رسول من الوزير عماد الدين محمود، وزير المملكة البهمنية في الهند، وطلب من السلطان مقرن توصيله إلى الخليفة في القاهرة قائلًا إن هذا الخنجر صُنع من ذهب والدته وزوجته ومزين بالجواهر التي كانت لهما، لقد وثق الوزير الهندي في السلطان، فقد كان سلطانًا كريمًا عادلًا محسنًا يعرفه القاصي والداني، وقد يحدثك عنه الشيخ التازي أفضل مني.

أبقى السلطان مقرن هذا الخنجر لدى زوجي الوزير ابن رحال، وطلب منه أن يحفظه لديه لأنه كان مغادرًا الأحساء إلى نجد لقتال بعض القبائل هناك، ولم يرد أن يترك هذا الخنجر في قصره في أثناء غيابه، وقبل أن يذهب زوجي ابن رحال إلى الهند لقتال البرتغاليين مع حسين باشا طلب مني أن أحتفظ به حتى عودته،

Twitter: @ketab_n

وأوصاني إن مات أن أوصل هذا الخنجر إلى الخليفة بأي وسيلة كانت، احترامًا لوصية السلطان مقرن.

عاد زوجي من حملته في الهند وقُتل بعدها غدرًا، وعندما عاد السلطان مقرن من سفره لم يتوقف في الأحساء، ولم تسنح لي مقابلته، بل ذهب مباشرة إلى البحرين لقتال البرتغاليين الذين حشدوا أساطيلهم على سواحل البحرين، ولم يعد من هناك، حيث قُتل في المعركة.

بكت حليمة وتغيَّر صوتها، وشاهد سليمان دموعها وهي تبلل نقابها أسفل عينيها، أبعد نظره عنها فقد شاهد ضعفها ومأساتها التي تعاني منها، ولم يلتفت إليها إلا بعد أن بدأت في الحديث مرَّة أخرى قائلة:

- لم أكن أعلم كيف سأوصل هذا الخنجر ولمن، حتى أرسل اللّه إليَّ الشيخ جمال الدين التازي الذي لم يمانع في مرافقتي له إلى الحجاز، وبعد وصولنا إلى هنا علمنا أن الخليفة العباسي قد تنازل عن الخلافة للسلطان سليم، وكما قال لي الشيخ التازي فقد أصبح هذا الخنجر من حق السلطان سليم الآن، ولست آمن أحدًا عليه سواك، وها أنا أطلب منك أن توصله له بناء على طلب السلطان مقرن، رحمه اللّه، وبناء على وصية زوجي ابن رحال أيضًا.

نظر سليمان إلى الخنجر مرَّة أخرى وبدأ يتأمله، خيم صمت على الجميع وكأنهم في انتظار أن يحدث شيء:

- سأوصله للسلطان بإذن اللّه.

ثم نظر إليها سليمان خلسة قبل أن يقول:

Twitter: @ketab_n

- حدثيني عن نفسك يا سيدتي، فأنا أسمع لكنة غريبة في حديثك!

أبعدت بصرها عن سليمان، ونظرت إلى أرضية الديوان وكأنها تستدعي ذاكرة لم ترد أن تستدعيها:

- أنا حليمة، ابنة الوزير خواجة عطار، الوزير الهرمزي المشهور، لقد تعرَّف عليَّ ابن رحال في هرمز عندما جاء ليُعيد الحكم للملك شيرغل بعد أن أزاحه أخوه عنه، وطلب يدي من والدي بعد المعركة بأيام.

تغيرت عينا حليمة، فقد كانت تبتسم وهي تستدعي أطيب ذكرياتها. استطاع سليمان أن يلمح تغيرًا في زوايا عينيها، وشعر أنها تحكي ذكرى جميلة فقدتها.

شعر بنوع من الشفقة والحزن والإعجاب بهذه السيدة، فهي ابنة وجيه هرمزي عاشت في أرض غريبة، وفقدت أعز الناس إليها، وها هي الآن في الحجاز تسلمه أمانة ثمينة كان باستطاعتها أن تعيش بثمنها حياة رغيدة.

- وهل ستعودين إلى هرمز بعد الحج؟

- لا يا سيدي، ليس بعد، سأبقى في المدينة المنورة لفترة، ولست أعلم ما الذي سيكتبه لي ربي، فالبرتغاليون قد احتلوا هرمز التي بها والدي، والبحرين التي بها ذكرى زوجي، وقد يكونون قد احتلوا الأحساء الآن، ولست أحب أن أعود إلى أرض يحتلها هؤلاء المجرمون!

فجأة، طلب الشيخ جمال ماء للشُّرب، فأحضر له الحارس كوب ماء، أمسكه بيده ثم سأل:

Twitter: @ketab_n

- هل هذا ماء زمزم؟

رد عليه الحارس بقوله:

- نعم أيها الشيخ، نحن لا نشرب في هذا القصر سوى ماء زمزم الذي يأتينا يوميًّا من مكة.

غادر الحارس، فشرب الشيخ ما استطاع ثم سكب بعضًا من الماء في يده ومسح وجهه قبل أن يقول:

- هل سمعتم بالحديث الذي يقول: إذا شربتم من زمزم فليكن لوجوهكم نصيب منه؟

رد سليمان باستغراب:

- لم أسمع بهذا الحديث من قبل أيها الشيخ!

ثم قالت حليمة بعده:

- لقد بقيت معك في مكة عدة أيام تحدثني عن فضل ماء زمزم ونحن نشرب منه ولم تقل لي هذا الحديث يا عمَّاه!

نزع الشيخ عمامته ومسح بها وجهه قبل أن يقول:

- لقد نسيت أن أخبرك بهذا الحديث يا حليمة، ولكنه حديث يتوجب علينا تطبيقه، أعطوني أيديكما.

مد سليمان يديه ضامًّا كفيه مع بعضهما حتى يصب الشيخ عليهما الماء، وبعد أن فعل، مسح على وجهه، انتظر الشيخ حتى فرغ سليمان من تجفيف وجهه ثم طلب من حليمة مد يدها.

ترددت حليمة بعض الشيء، فما الذي ستفعله بنقابها؟ وهل ستكشف وجهها أمام الباشا؟

تدخل الشيخ بسرعة وكأنه عرف ما يجول في خاطرها:

Twitter: @ketab_n

- اكشفي وجهك، فماء زمزم له الأولوية كما جاء في الحديث.

فكت نقابها وانكشف وجهها وبان جمالها الأخَّاذ. تسمَّرت عينا سليمان عليها وكأنه وجدها فرصة لم يرغب في إضاعتها.

سكب الشيخ الماء على كفيها فمسحت وجهها بسرعة ثم أعادت النقاب كما كان.

احتاج سليمان لبعض الوقت حتى يبعد ناظريه عن حليمة ويقول:

- ستكونون ضيوفي حتى يصل الخنجر إلى السلطان سليم، لن أسمح لكم بالسفر، فقد يسألني السلطان عنكم بعد أن يصله الخنجر، فماذا سأقول له بعد أن تكونوا قد غادرتم؟

بدأ الشيخ في الدعاء لسليمان قبل أن يقول:

- أنا هنا مع زوجتي، وسنعود إلى ديارنا في قافلة الحجيج التي ستذهب إلى المغرب قريبًا، وعلينا أن نغادر أيها الباشا، فإن استطعت أن تجد سكنًا آمنًا لحليمة في المدينة فسأكون شاكرًا لك، هي مَن أحضرت خنجر السلطان وهي التي تريد أن تبقى، إنها بمثابة ابنتي وأريد التأكد من طيب مقامها قبل أن أغادر.

Twitter: @ketab_n

٤٠
مملكة هرمز

تهاوى جسد الخواجة على الكرسي الذي يحب الجلوس عليه مقابل شرفة البحر، لم يعتد أن يكون وحيدًا منذ أن غادرت حليمة المنزل، كم يود لو أنها أمامه يضع يده على رأسها وهي تمسد قدميه بيديها، لم يعد للخواجة حياة، فابنته ووحيدته قد ذهبت إلى الحج كما أخبرته، ولا يعلم متى ستعود، حاول جهده حتى تأتي لتعيش معه بعد أن فقد كل شيء تقريبًا، لقد أصبح المكان موحشًا من بعدها، لم يعد منزله نظيفًا كما كان، بل لم تعد هرمز كلها كما كانت، لقد ملأ الغبار أرجاء المنزل، وتكاسل الخدم عن خدمته، فليس هناك مَن يراقبهم أو يأمرهم، كل شيء أصبح قذرًا، وكرسيه الذي تعوَّد أن يجلس عليه أصبح مغبرًا، وطعامه لم يعد شهيًّا، وهو ليس بكامل أناقته وهيئته التي اعتاد عليها، لم يعد هناك مَن يعتني به، لقد بدأ الخواجة يشعر أنه سيموت وحيدًا محطمًا.

قام من كرسيه وتقدم في اتجاه الشرفة التي يحب أن يجلس عندها حين يكون الجو لطيفًا، شعر بطيف حليمة يقف معه، حاول أن ينظر إليها ويتأملها ولكنه كان يتأمل الفراغ، هي ليست

Twitter: @ketab_n

هنا وعليه أن يقبل ذلك، مد نظره إلى البحر، شاهد بضع سفن صغيرة تتحرك في الأفق وأخرى راسية في الميناء، لا، ليست هذه هرمز التي يعرفها، شاهد ثلاث سفن برتغالية راسية في الميناء، بدت كواتها مفتوحة وكأنها تنتظر أوامر «البوكيرك» بحرق المدينة، كم يكره هؤلاء البرتغاليين، لقد دمروا كل شيء جميل في هرمز.

سمع صراخًا في الشارع أمام منزله والذي تعوَّد الملك أن يمر به كل يوم مسببًا إزعاجًا لساكنيه، لقد أصبح الشارع قذرًا شأنه شأن الكرسي والمنزل وكل شيء آخر يقع نظره عليه، ازداد الصراخ حدة، كان خلافًا بين الباعة الجائلين أمام داره، لم تكن هرمز تعرف هذا الكم الهائل من الفقراء والبؤساء والشحاذين من قبل، لقد كانت مدينة ثرية، يتحدث الناس عن ثرائها في كل أرجاء الدنيا، حتى هذا الطريق الذي يمر أمام منزله شهد الكثير من حوادث الإعدام لأناس لا يعرفهم، لصوص وثوار وتجار، بعضهم قُتِل حرقًا أو تفجيرًا أمام فوهات المدافع أو بطرق لا يريد أن يتذكرها، كانت الجموع التي ترى عملية الإعدام يُحكم عليها بالإعدام النفسي أيضًا، فكل مَن يرى عمليات الإعدام تلك يعلم أن هؤلاء البرتغاليين لا يعرفون العدل ولا يفهمونه، إنهم ساديون قتلة، يتلذذون بتعذيب ضحاياهم، فيتسلل الناس بعد أن يروا حفلات الموت إلى منازلهم لجمع حاجياتهم ومغادرة البلاد، فبلاد يُعتقل الناس فيها بدون تهمة ويُقتلون بدون سبب لا تستحق أن يعيش بها أحد.

عاد إلى كرسيه وجلس عليه متهالكًا مرَّة أخرى، ما الذي

Twitter: @ketab_n

حصل لمدينته حتى تُصبح هكذا؟ تذكر كيف هجم البرتغاليون عليها ودمروها ثم سيطروا على تجارتها وبدأت بعدها الرشوة بالظهور، وهي الظاهرة التي لم يكن يعرفها الهرامزة من قبل، لقد كان القانون يجرم مَن يفعلها بعقاب رادع، ولكن هؤلاء الضباط البرتغاليين الفاسدين هم مَن نشروها، وأصبح من الواجب أن يدفعها كل شخص لأي شخص ولأي سبب حتى وإن لم يكن مقنعًا! بل إنها أصبحت من متطلبات الحياة، لن تستطيع أن تحيا بدون أن ترشو، لقد باع الناس سفنهم ومنازلهم وكل ما يملكونه في سبيل أن يدفعوا رشوة لأحدهم حتى يسمح لهم بالتجارة أو المغادرة، لقد أصبحت الحياة في هرمز كالجحيم الذي يدفع الناس ثمنًا باهظًا ليغادروه، هل هذه هرمز فعلًا؟ هل هي المدينة الرائعة التي كانت جوهرة العالم؟ المدينة التي كان الناس ينزلون فيها ولا يصرفون درهمًا لأن كل شيء متوفر كرمًا ووقفًا.

لم يستطع أن يبقى على كرسيه أكثر من ذلك، قام وسار في اتجاه الشرفة مرَّة أخرى وكأنه يبحث عن هواء نقي بعد أن لوث البرتغاليون هواء المدينة، لم يعد يحتمل، عليه أن يفعل شيئًا ليُغير هذا الواقع الثقيل.

- أين أنت يا حليمة، كم اشتقت إليك، أتمنى ألَّا أموت قبل أن أراك، ما الذي تفعلينه وحيدة في الحجاز الآن؟

عاد إلى كرسيه، ثم قام منه مرَّة أخرى وذهب إلى رف وضعت عليه مجموعة من الأوراق والمحابر، وأخذ منها عدة أوراق وكتب عدة رسائل شغلته حتى آخر الليل.

كانت رسائل موجهة إلى حكام الأحساء وخور فكان وصحار

Twitter: @ketab_n

وقريات ومسقط، لقد قرر أن يقود ثورة ضد الوجود البرتغالي في الخليج، لقد حدد يوم الثورة وعلى الجميع أن يحمل السلاح في ذلك اليوم ويقتل كل البرتغاليين المتواجدين على أرضه، لن يستطيع هؤلاء المحتلون أن يكونوا متواجدين في كل هذه البقاع، ستتشتت جهودهم وتُحرق سفنهم ومراكزهم التجارية وقلاعهم، لا بد أن تعود هذه البلاد إلى سابق عهدها، لا بد أن يُضحي الناس بدمائهم ليستعيدوا حريتهم، ليختفي هذا الصليب من شواطئهم ويزول الشراع المقدس زورًا من بحارهم.

لقد حدد الخواجة يوم الثلاثين من نوفمبر عام ١٥٢١ بحسب تأريخ البرتغاليين ليكون يوم الثورة، وطلب من الجميع أن يحرقوا المراكب البرتغالية، والمراكز التجارية، والقلاع، والكنائس، وكل شيء يمت للبرتغاليين بصلة، يجب أن يعود هؤلاء من حيث أتوا، أو أن يذهبوا إلى الجحيم.

وبعد أن كتب كل هذه الرسائل ختمها بختمه، ثم أرسلها إلى أمراء وحكام تلك المناطق. ثم استدعى بعض مَن يثق بهم إلى منزله وحدثهم عن الثورة التي يخطط لها، وافقه الجميع على ذلك، ولكن اعتراضهم كان على إرسال الرسائل لأمراء وحكام موانئ الخليج قبل هذا الاجتماع لأخذ رأيهم فيها، وكان رد الخواجة أنه أراد أن يضعهم أمام الأمر الواقع، فليس هناك تراجع، إما أن يحيوا كرامًا وإما أن يموتوا كرامًا.

وضع المجتمعون خطة للسيطرة على هرمز، على أن يكون الخواجة عطار هو قائدها ومنفذها.

وصلت الرسائل إلى حكام الموانئ، فبدأوا في التجهيز

Twitter: @ketab_n

للثورة، وسرت روح غريبة جديدة بعد سنوات من الاضطهاد والقهر، وانتظر الناس التاريخ المحدد للثورة بفارغ الصبر.
وصلت رسالة الخواجة إلى حاكم مسقط فقرأها بعناية، شغلت تفكيره، ولكنه وجد أن تحالفه مع البرتغاليين أفضل من الاشتراك في ثورة لا تُعرف نتائجها، طوى الرسالة وأرسلها إلى «البوكيرك» بعد أن كتب في ذيلها شرحًا عنها. وصلت الرسالة إلى «البوكيرك» قبل أيام من قيام الثورة، ولم يكن أمامه الكثير ليفعله سوى أن يُخمدها في مركزها وبسرعة.

أُلقي القبض على الخواجة في منزله واقتيد إلى السجن.
طلب «البوكيرك» المساندة من المراكز العسكرية والتجارية في الهند، ومن المناطق التي تتواجد بها بعض السفن البرتغالية.

أمر «البوكيرك» جنوده بالسيطرة على مداخل المدينة وميناءها، وتعزيز الحراسة على المراكز المهمة فيها، وفي ساعة الصفر خرجت مجموعة كبيرة من الرجال رافعين أسلحتهم البسيطة وهم يصرخون بكل عبارة تخطر على بالهم، جابههم الرصاص ومدافع السفن التي دمرت كل المنازل المحيطة بالثورة، لقد أراد «البوكيرك» أن يُرسل رسالة قاسية إلى الثوار مفادها أنني أستطيع تدميركم وتدمير مدنكم.

أما بالنسبة إلى بقية المدن الأخرى فقد ثارت بدورها أيضًا، وقتل ثوارها الكثير من البحارة والجنود البرتغاليين، ولكن التعزيزات البرتغالية كانت قد وصلت وبدأت حفلة الموت مرَّة أخرى، وقُتل كل من رفع السلاح، وطال الموت عائلاتهم، ودُمرت مدن كثيرة وانتشرت الفوضى في كل مكان.

Twitter: @ketab_n

كان لرسو السفن البرتغالية أمام هذه المدن ومشاهدتها وهي تفتح كوات مدافعها وقع مرعب على السكان، فهدأت الثورة خلال أيام، واقتيد قادتها إلى الموت بكل أنواعه وأشكاله وصوره، لقد أبدع البرتغاليون في اكتشاف طرق جديدة للموت لم يكن الناس يعرفونها، طرق ترسل رسائلها القوية إلى الأحياء فتجعلهم أمواتًا وإن كانوا يتنفسون، فهدأت الثورة وضاعت فكرتها وخمدت بسرعة.

قرر «البوكيرك» أن يتخلص من الخواجة بشكل نهائي، فقد علم أنه لا مجال لشرائه، وأنه لن يحصل على ولائه أبدًا، فأمر بوضع النخلة الذهبية أمامه، ثم أمر بإحضار الخواجة مكبلًا من سجنه.

دخل الخواجة مربوطًا بسلسلة حديدية بين كاحليه وسلسلة أخرى تربط رسغيه، كان حاسر الرأس ينسدل شعره الأبيض على جانبي رأسه حتى أسفل أذنيه، أثار منظر الخواجة بهذا الشكل لغطًا في وسْط الحرس الهرمزي الذي لم يشاهده حاسرًا من قبل، فعرفوا أن القصد من ذلك هو إذلاله وتحطيم نفسيته.

دخل الخواجة يجر سلاسل الحديد معه بصوتها المزعج، فأمره «البوكيرك» بالجلوس على كرسي وُضع في مقابله وبينهما النخلة الذهبية.

- هل تذكر هذه النخلة أيها الوزير؟

نظر الخواجة إليها وكأنه لم يهتم لوجودها:

- نعم، أذكرها أيها الحاكم، ما بها؟

- لا، لا شيء، أحببت أن أُذكرك بأن هذه النخلة صنعتها

Twitter: @ketab_n

ابنتك حليمة، التي قتل الأمير ناصر زوجها، لقد صنعتها بجواهرها، أليس كذلك؟

لم يرد الخواجة، وكأنه شعر بما يريد أن يصل إليه، ثم واصل «البوكيرك» حديثه:

- أظن أنها وضعت بها كل ما تملك، أليس كذلك؟ لقد أصبحت ابنتك فقيرة بعد أن بددت ثروتها، إنها معدمة الآن لا تملك من المال شيئًا.

كان «البوكيرك» يتحدث وهو ينظر بعينيه التمساحيتين إلى الخواجة:

- ولكن كيف ستعيش في تلك البلاد الغريبة التي لا تعرف أحدًا فيها؟

لقد بدأ «البوكيرك» في إدخال أصابعه إلى قلب الخواجة ليعبث به، فحاول الخواجة أن يُركز بصره على التحفة متخيلًا ابنته ومحاولًا تجاهل استفزاز محدثه.

وبعد بضع جمل حارقة، لم يحتمل الخواجة تمادي «البوكيرك» في حديثه، ولم يكن يريد أن يراه يستمتع بتعذيبه بذكر أحب الناس إلى قلبه:

- ما الذي تريد الوصول إليه أيها الحاكم؟

زادت ابتسامة «البوكيرك» الخبيثة وعرف أنه نجح في تعذيب ضحيته:

- أبدًا، أريد أن أقول إن فتاة جميلة كابنتك لن تعدم وسيلة تجد بها ما يسد رمقها.

Twitter: @ketab_n

تدفق الدم إلى وجه الخواجة غضبًا مما يحاول «البوكيرك» قوله، وقبل أن يرد الخواجة غيَّر «البوكيرك» مجرى الحديث:

- هل تعلم لماذا أنت هنا؟

رفع الخواجة رأسه في بادرة تحدٍّ، ثم نظر إلى النافذة التي تُطل على الميناء، لقد كان نفس المكان الذي اجتمع فيه مع ابن رحال وحليمة وشيرغل بعد المعركة التي خاضها الجبور لإعادة الحكم للملك. تنفس بعمق وكأنه يحاول أن يشم رائحة ابنته في المكان قبل أن يقول:

- منذ أن وصلتم إلى ديارنا ونحن نعيش في بؤس دائم، لقد أفسدتم علينا حياتنا، ودمرتم مملكتنا، وصادرتم أموالنا، لقد أصبحت هرمز خرابًا بعد أن كانت مركز الدنيا، لقد دمرتم أخلاق البشر قبل أن تدمروا حياتهم، إنكم وحوش أرسلكم الشيطان إلينا، لقد شاهدنا الموت في أشرعتكم التي ساقتكم إلى شواطئنا!

قاطعه «البوكيرك» بخبث:

- هل تقصد أشرعة الصليب المقدس؟!

لم يحتمل الخواجة هذا الرد، انتفخت أوداجه وظهر على وجهه غضب قديم متراكم:

- إنه ليس مقدسًا، فمن يحمل الموت والدمار ليس مقدسًا، لقد قدَّستم الموت وعبدتم الشيطان وتجاهلتم كل الأوامر التي أنزلها الرب من السماء، فعن أي مقدس تتحدث؟! لقد نقلتم محاكم التفتيش إلى هنا، إنكم تفتشون قلوب البشر وعقولهم، ثم تعذبونهم ليقولوا ما تريدون ثم تقتلونهم لتُرضوا أرواحكم المريضة!

Twitter: @ketab_n

توقف الخواجة وبدأ يتنفس بسرعة، فلم تعد صحته تسعفه على تحمل الغضب، شعر فجأة بخمول يمتد إلى أطرافه فيشله عن الحركة، فآثر السكوت. عرف «البوكيرك» أن الخواجة لن يعمر طويلًا، فقرر أن يقتله بالقهر، ليكون موته بطيئًا بائسًا مزريًا:

- ها قد ظهرت على حقيقتك أيها الوزير، إنك تكرهنا وتريد دمارنا، ولهذا السبب أرسلت رسائلك إلى كل مستعمراتنا في الخليج لتثور وتحرق سفننا ومقراتنا وقلاعنا، أنت السبب في كل ذلك، أنت السبب في موت جنودنا وبحارتنا وخسارة أموالنا!

ثم أشار «البوكيرك» إلى النخلة الذهبية قائلًا:

- سأرسل هذه النخلة إلى ملك البرتغال، وعليك أن تفرح لأن الذهب والمجوهرات التي كانت تملكها ابنتك وزوجها ستقع في يد ملك البرتغال، أي شرف هذا؟

توقف «البوكيرك» قبل أن يواصل:

- سأصادر كل أملاكك أيضًا ولن يبقى لك سوى ما تلبسه حاليًا، لقد أصبحت أيها الوزير فقيرًا معدمًا، كل أملاكك أصبحت ملكًا لملك البرتغال تعويضًا عن الخسائر التي تسببت فيها، ولو استطعت وضع يدي على ابنتك لجعلتها خادمة في إحدى سفني.

سرت قشعريرة في جسد الخواجة وشعر بتنميل أطرافه وعرف أنها نهاية حياته، لقد فرح بقرار ابنته بعدم العودة إلى هرمز، يكفيه أنه يعرف أنها حية تتنفس هواء الحرية بعيدًا عن هذا الوحش.

- افعل ما بدا لك أيها الحاكم، لم أعد أهتم كثيرًا، سأبقى ألعنك حتى أموت!

Twitter: @ketab_n

- قد يكون هذا آخر أمر تفعله أيها الوزير، لا يهم ما دمت أستمتع بتعذيبك.

ثم ضحك ضحكة مدوية قبل أن يصمت فجأة وينظر بغضب إلى الخواجة:

- سأرسلك مكبلًا إلى لزبن حيث ستتعفن في أحد سجونها، وسأرسل رسالة إلى الملك حتى يُحسن ضيافتك على طريقتنا، وأتمنى لك رحلة ممتعة إلى هناك.

اسودت الدنيا في وجه الخواجة، فقد كان يتمنى أن يرى ابنته قبل أن يغادر إلى المجهول، لم يكن يتوقع أن ينتهي به المطاف غريبًا فقيرًا سجينًا منفيًّا في إحدى قلاع البرتغال.

- هل لي أن أطلب منك طلبًا أخيرًا أيها القائد، فقد أجد في إحدى زوايا قلبك بقايا رحمة نسيها الزمن!

أرسل الخواجة بصره إلى النافذة وكأنه يطلب رحمة السماء وعونها فيما سيقول:

- أنت تعلم أن ابنتي بعيدة عني ولا أعلم عنها شيئًا الآن، وكل ما أطلبه قبل أن ترسلني إلى البرتغال هو أن أكتب لها رسالة أُخبرها بما يحدث معي!

ركز «البوكيرك» بصره على الخواجة وكأنه يريد انتزاع قلبه:

- لا، لن ترسل رسالة إلى أي شخص، لن يعلم عنك أحد شيئًا، طلبك مرفوض.

ثم أشار للحرس لأخذه.

Twitter: @ketab_n

٤١

استانبول، تركيا

(بعد مرور عدة سنوات)

أمام منزل جميل يقع في أحد أحياء استانبول الراقية، توقف رجل رث الثياب في أطمار بالية، يتناقض مظهره مع جمال الشارع النظيف الذي زُرعت على جوانبه أشجار الصنوبر والتفاح، وتفوح من حدائق منازله رائحة الورود وعبق الأشجار المثمرة التي أزهرت بعد شتاء طويل.

أمسك الرجل قضبان السياج الخارجية، ونظر إلى حديقة المنزل الكبيرة المرتبة، وزع بصره حولها وكأنه يبحث عن شيء ما، لم يكن الدرويش ليلفت النظر، فهو يشبه الكثيرين ممن يجولون في أحياء استانبول يتسولون بالأدعية والرقص الصوفي، ولكن هذا الرجل تميز عنهم بكبر حجم كرشه والطيبة الظاهرة في وجهه.

خرج حارس من غرفة ملتصقة بالحديقة وطلب منه المغادرة بأسلوب فظ:

- اذهب من هنا أيها الدرويش، هيا اذهب.

ترك الرجل السياج مترددًا، وتوجه إلى الحارس الذي بدا متحفزًا وهو يشاهده قادمًا إليه:

Twitter: @ketab_n

- ماذا تريد؟ اذهب من هنا قبل أن أجرك جرًّا.

كانت ملامح الرجل السمين توحي بالطيبة والوداعة خصوصًا بعد أن علت وجهه ابتسامة الترجي:

- أرجوك يا سيدي اغفر لي تطفلي، لست سوى درويش فقير لا أضمر للناس شرًّا!

ثم أكمل حين شعر أن الحارس قد اطمأن إليه:

- هل هذا منزل سليمان باشا العثماني؟

- نعم، إنه هو، والآن اذهب قبل أن يحضر ثم نعاقب أنا وأنت.

لم يكن الدرويش يستمع إلى ما يقوله الحارس فواصل حديثه:

- إنه يعرفني جيدًا، فقد كنت صديقًا قديمًا له، صحيح أنني أصبحت فقيرًا ولكنني صديقه، لم يتغير فيَّ شيء منذ أن افترقنا، آآاه، طبعًا ابيض رأسي وكثرت تجاعيد وجهي وكبر بطني، ولكنني أنا، صديقه القديم.

كان الرجل يلمس وجهه وكرشه وملابسه وهو يتحدث وكأنه يحاول أن يتأكد من أنه لم يتغير ولم يُغيره الزمن.

لم يهتم الحارس بما كان يقوله الدرويش أيضًا فطلب منه المغادرة:

- اذهب الآن، فقد بدأت تضايقني!

لم يستمع الدرويش بدوره إلى أوامر الحارس وبقي يردد ما كان يقوله:

- إنه يعرفني فأنا صديقه القديم، عليك أن تقول له إنني هنا فقط.

Twitter: @ketab_n

ارتفع صوت الحارس مهددًا ومتوعدًا، ثم فجأة خرجت سيدة من بين الأشجار المشذبة حديثًا تحمل بين يديها شتلة ورد صغيرة، لقد كانت مختفية خلفها وهي تزرع شتلاتها فلم يشاهدها الدرويش، سألت الحارس بهدوء:

- ما الذي يحصل معك؟ لماذا هذا الصراخ؟

أشار الحارس إلى الرجل صاحب الكرش قائلًا:

- هذا الدرويش لا يريد المغادرة، لقد كثر الشحاذون في هذا الحي يا سيدتي، وأنت تطلبين مني ألَّا أرد أحدًا، ولكن هذا بالذات أريد أن أرده لوقاحته!

ترك الدرويش الحارس يتحدث مع السيدة، واتجه مرَّة أخرى إلى السياج محاولًا أن يقترب من السيدة قدر الإمكان.

- سيدتي، أنا جعفر من مصر، صديق الباشا سليمان فهو يعرفني، أرجوك قولي له ذلك!

تشبث جعفر بالسياج الحديدي وكأن حياته مرتبطة به.

نظرت إليه السيدة بنوع من الريبة، فكيف يمكن أن يعرف الباشا شخصًا بائسًا مثل هذا؟ فقالت له بنوع من الحذر:

- حسنًا، سأرسل لك بعض الطعام والمال ولكن عليك أن تذهب بعد ذلك.

قويت قبضتا جعفر على السياج خوفًا من أن يفقد هذه اللحظات التي لن تُتاح له مرَّة أخرى:

- سيدتي، لقد أتيت من بلاد بعيدة بحثًا عن الباشا، أرجوك لا تطرديني ولا تدعي هذا الحارس يبعدني، فالباشا يعرفني جيدًا، أنا جعفر من مصر، فقط قولي له ذلك!

Twitter: @ketab_n

نظرت المرأة إلى قسمات الرجل، فأحزنها إصراره والذلة البادية على محياه.

أمرت السيدة الحارس بفتح البوابة وإدخال الرجل إلى الحديقة، ثم أمرت خدمها بإحضار بعض الطعام والمال له.

وضع الخدم الطعام على عشب الحديقة، وطلبوا من الرجل الأكل ثم الانصراف.

بقي الرجل يبكي ولم يلتفت إلى الطعام، وهو يردد:

- فقط قولوا للباشا مَن أنا، فهو يعرفني!

لم تحتمل السيدة بكاء الرجل فأخرجت بعض المال ومدته إليه، مد الرجل يده وأخذه بهدوء ثم واصل بكاءه وطلبه.

بقيت السيدة واقفة أمامه باستغراب، ثم جلست مترددة بقربه وسألته:

- وكيف تعرف الباشا؟

مسح الرجل دموعه بطرف عمامته الخضراء القذرة قبل أن يقول بصوت متهدج:

- أنا جعفر المصري، كنت جنديًّا في جيش المماليك قبل أن أُصاب في إحدى المعارك وأخرج من الجيش، وعملت نادلًا في خان على بحر الإسكندرية، كان الباشا يتردد عليه مع صديقه حسين الكردي عندما كانا يعيشان هناك، ومنذ أن غادر سليمان إلى رودس لقتال القراصنة لم أسمع عنه شيئًا.

نظر جعفر إلى الطعام ولكنه لم يمد يده إليه، ثم أكمل حديثه:

- بعد أن سيطر البرتغاليون على البحر انقطعت التجارة إلى

Twitter: @ketab_n

الإسكندرية وساءت الحياة، فلم يعد هناك مال ولا تجار ولا حركة سفن، وانهار كل شيء، واضطر صاحب الخان إلى إغلاقه وطرد جميع مَن كان يعمل فيه ومن ضمنهم أنا!

وضع جعفر يده على كرشه وكأنه يشير إلى نفسه:

- حاولت أن أعمل في كل مهنة، وتنقلت في مصر من مدينة إلى أخرى محاولًا إيجاد رزقي، وكنت في ذات الوقت أبحث عن حسين صديق الباشا سليمان والذي بدوره أصبح باشا أيضًا، حتى سمعت أنه مات مقتولًا في جدة، فيئست من الحياة ولم يبقَ لي سوى أن أبحث عن سليمان الذي هو آخر صديق لي قد ينقذني من بؤسي ومن فقري.

نظر جعفر إلى السيدة وكأنه يستمطر عطفها:

- جئت إلى استانبول معدمًا، وعملت حمالًا في السوق لأعيش، وعندما كبرت ووجدت صعوبة في مزاولة هذه المهنة قررت أن أترك كل شيء خلفي وأبحث عن الباشا بأي وسيلة كانت!

نظر جعفر إلى ملابسه القذرة والممزقة قبل أن يواصل:

- ما الذي يتوجب عليَّ أن أفعله يا سيدتي؟ كلما سألت عن الباشا كنت أقابَل بالإهمال أو الإهانة، فالناس لا يعرفونني، إنهم يرون ملابسي وهيئتي فيحتقرونني، ولكنها الدنيا، ماذا أفعل؟ لقد حاولت أن أكسب من المال ما أحفظ به ماء وجهي ولكنني لم أستطع، فعاهتي تمنعني من العمل!

تغيَّر وجه السيدة بعد أن سمعت اسم حسين، وتأكدت من صدق الرجل، فقد كان حسين صديقًا لسليمان فعلًا:

Twitter: @ketab_n

- لا بأس عليك، أنا زوجة الباشا، سأطلب منه أن يساعدك.

التفتت السيدة إلى شاب يلبس لباس ضابط عثماني كان قد اجتاز بوابة المنزل لتوِّه، وقامت إليه واحتضنته وقبَّلته، نظر الشاب إلى جعفر بنوع من الاحتقار:

- مَن هذا يا أمي؟ درويش آخر؟

- نعم، إنه درويش ولكن ليس آخر، تعال معي.

اقترب الضابط من الدرويش الذي وقف على قدميه احترامًا، فقالت السيدة:

- هذا ابني حسين يا جعفر، لقد أسميته على اسم حسين باشا الكردي صديق الباشا سليمان.

ركز جعفر بصره على حسين وكأنه يحاول أن يرى فيه صديقه القديم:

- أتمنى ألا يأخذ من حسين سوى اسمه، فذلك الرجل كان كثير الشكوى من كل شيء.

ضحكت السيدة قائلة:

- لم يكن يشتكي حين قابلته آخر مرَّة.

تغيرت ملامح جعفر فجأة:

- هل قابلته يا سيدتي؟ وأين؟ وكيف؟

أشارت السيدة إلى الأرض وهي ما زالت ممسكة بيد ابنها:

- اجلس يا جعفر، لعل الحديث معك يطول. أنا من مملكة هرمز، وهي جزيرة تقع إلى الشرق من هنا، كانت مملكة جميلة ثرية قبل أن يظهر البرتغاليون على شواطئها، تزوجت من رجل اسمه غرير بن رحال، كان وزيرًا للسلطان مقرن، سلطان العرب

Twitter: @ketab_n

في تلك النواحي، وقد أرسله السلطان لمقاتلة البرتغاليين في الهند، وقابل حسين باشا هناك وحاربوا معًا، ولكنهما مع الأسف انهزما في إحدى المعارك وعادا متخفيين إلى البحرين حيث كنت أقيم.

واصلت حليمة حديثها:

- لم يبقَ حسين معنا فترة طويلة فقد قرر المغادرة إلى جدة ولم أسمع عنه بعد ذلك.

أكملت حليمة حديثها:

لقد قُتل زوجي ابن رحال بعد مغادرة حسين بعدة أشهر، وغادرت بعدها إلى جدة للحج، وهناك تعرَّفت على سليمان الذي أصبح زوجي، وقد أخبرني أن حسين الكردي قد مات مقتولًا في ثورة أهالي جدة.

ثم أشارت إلى الضابط الشاب الذي كان ما زال واقفًا بقربهما:

- وأنجبت من سليمان ثلاثة أبناء، هذا ابني حسين أكبرهم، وقد أسميناه على اسم حسين باشا الكردي، ثم فتاة أسميناها فرح، على اسم أعز صديقة لي تُوفيت منذ سنوات طويلة، ثم فكري وهو ما زال في المدرسة العسكرية.

بدت حليمة متحمسة لهذا الدرويش الذي يعرف الكثير عن زوجها، ثم قالت:

- عليك أن تنتظر حتى يأتي زوجي قريبًا.

بدأ جعفر في مد يده إلى الطعام، وجلست حليمة وابنها حسين الذي كان لا يزال غير مطمئن لهذا الغريب بالقرب منه

Twitter: @ketab_n

وهو يحدثهما عن سليمان وحسين عندما كانا ضابطين صغيرين في الجيش المملوكي، حدثهما بالكثير من القصص المضحكة التي يعرفها عنهما.

سمعوا أصوات جلبة خارج الباب الرئيسي، فشاهدوا عربة الباشا عليها أعلام البحرية العثمانية، يرافقها حرس من الإنكشارية، تدخل من البوابة الرئيسية ثم تسير في الممر المؤدي إلى مدخل المنزل الذي تزينه شتلات الورود الجميلة.

قامت حليمة وابنها حسين، وسارا إلى مكان وقوف العربة، ثم تحدثا مع الباشا قبل أن يعودا مرَّة أخرى إلى جعفر، فقد شرحت له حليمة على عجالة حالته البائسة. وعندما اقترب الباشا من جعفر فتح ذراعيه قائلًا:

- جعفر، أيها البدين، كم اشتقنا للسكرجة التي كنت تقدمها لنا، لقد صغرت كرشك قليلًا وأتمنى أن تكون أصبحت قليل الكلام الآن.

- سيدي الباشا، لقد نجوت من لقب الأتابك إذن، فلم تقتل أحدًا ولم يقتلك أحد في القاهرة!

جلس الجميع في الحديقة وتحدثوا عن كل شيء، حتى تذكروا كيف التقت حليمة بسليمان في جدة، فقالت حليمة لزوجها:

- لقد كان الشيخ التازي ذكيًّا حين طلب مني أن أغسل وجهي بماء زمزم أمامك، مدعيًا حديثًا غير صحيح، كان قصده أن تراني وتتزوجني قبل أن يُغادر إلى المغرب!

رد عليها سليمان ضاحكًا:

Twitter: @ketab_n

- لقد نجح الشيخ في مهمته تلك، ولو لم يفعل ذلك لما نظرت إلى وجهك وتزوجتك!

زفرت حليمة بقوة، وتذكَّرت فضل الشيخ وزوجته عليها، ثم قالت بصوت هادئ كعادتها:

- لست أعلم عنه شيئًا منذ أن غادر جدة، رحمه اللّه إن كان ميتًا، لقد غيَّر حياتي بحلمه وعلمه وذكائه.

لم يفهم جعفر عن أي شيخ يتحدثان فقاطعهما:

- هل أناديك يا سليمان؟ أم أناديك سليمان باشا؟ لقد أصبحت أخاف من هذه الألقاب التي لست أفهم قيمتها، لقد كانت أقصى رتبة أعرفها هي الأتابك، رحم اللّه والدتي، كان من الأولى لو أسمتني الأتابك جعفر حتى يلتصق بي هذا اللقب طوال حياتي، فيقول الناس لي أيها الأتابك جعفر أحضر لنا طبق السكرجة وأكثِر من الزيت فيه.

ضحك الجميع، فنظرت حليمة إلى وجوه مَن حولها، وتذكرت كيف تغيَّرت حياتها، فرفعت بصرها إلى السماء داعية لوالدها الذي لم تسمع عنه خبرًا منذ سنوات طويلة.

انطلقت ذاكرتها إلى البحرين، إلى المنزل الذي في المزرعة الذي عاشت فيه أجمل فترات حياتها، ثم حاولت تخيل قبر فرح كما تتوقعه الآن، وحيدًا معزولًا في أرض غريبة. أعادت النظر إلى زوجها وابنها وهذا الدرويش الغريب، ورفعت بصرها إلى السماء:

- الحمد للّه على كل حال، رحماك بوالدي يا رب!

Twitter: @ketab_n

٤٢
ميناء مصوع، شرق إفريقيا

نزل كاهن برتغالي كاثوليكي من إحدى السفن التي وصلت إلى الميناء، بدأ يتأمل الناس وكأنه يبحث عن شيء، كان الميناء مليئًا بالحركة والناس والبضائع، لم يلتفت إليه أحد، فهذا الميناء شاهد الكثيرين يأتون إليه ويغادرونه، شاهد شابًّا يجر بغلًا خلفه بتثاقل، فطلب منه أن يرافقه إلى مكان يقع بين الجبال الخضراء البعيدة التي تقع خلف الميناء وتكاد تحجبها الغيوم.

- نعم يا سيدي، سآخذك إلى هناك، ولكن أجرتي سأحسبها باليوم، فالمكان بعيد كما تعرف.

رد الكاهن وهو يضرب جيبه ليسمع الدليل صوت كمية النقود التي معه:

- حسنًا، سأدفع لك باليوم، وستأخذ أجرتك مع مغيب شمس كل يوم، شريطة ألَّا تتركني لأي سبب ونحن في وسط الطريق.

رد الدليل وهو يمسح على رقبة بغله:

- وأنا موافق يا سيدي.

سارا متجهين نحو الغرب في طرق ترابية تكثر فيها قطعان

Twitter: @ketab_n

الأغنام والأبقار التي يرعاها أناس طوال القامة نحيلو الأبدان، يسترون أجسادهم بأقمشة يلفونها حول خصورهم ويرمون أطرافها على أكتافهم.

سأل الدليل:

- إلى أين يا سيدي؟

- إلى الإمبراطورة «هيلينا».

ارتعب الدليل وتوقفت ساقاه عن الحركة:

- هل أنت واثق مما تقول يا سيدي؟! إن الداخل إلى مملكتها قد لا يخرج منها أبدًا، لقد قلت لي حين سألتك إنك ذاهب إلى مكان يقع بين الجبال الخضراء تلك!

رد الكاهن بنوع من الاستهزاء:

- إن المكان الذي يقع بين الجبال الخضراء تلك هو مملكة الإمبراطورة «هيلينا».

ثم أضاف:

- تذكَّر الشرط الذي اشترطته عليك قبل أن نبدأ مسيرنا هذا.

- نعم أذكره أيها الكاهن، ولكن هل تعرف أنك قد لا تخرج من مملكتها أبدًا؟

حاول الكاهن أن يُنهي هذا الحديث:

- أعرف أيها الدليل، أعرف.

سارت القافلة الصغيرة متجاوزة الكثير من الجبال والعوائق المائية والوديان في اتجاه هضبة تقع في وسط المملكة، لم يحتمل الدليل صمت الكاهن فقال:

Twitter: @ketab_n

- سيدي الكاهن، لنا بضعة أيام ونحن نسير معًا ونأكل معًا بدون أن تخبرني عن اسمك!

- حسنًا، اسمي «فرانسسكو الفاريز»، كاهن برتغالي، وأنا في طريقي إلى الإمبراطورة لأسألها عن شخص فقدناه في هذه الأراضي منذ سنين طويلة ولا نعرف له خبرًا.

أشار الدليل إلى الجبال الخضراء العالية أمامهما:

- إنها أراض شاسعة أيها الكاهن ومليئة بالحيوانات المفترسة وقُطاع الطرق، أي شيء ممكن أن يكون قد حدث له، لكن لماذا هو مهم بالنسبة إليك؟

- إنه ليس مهمًّا بالنسبة إليَّ، إنه مهم بالنسبة إلى مَلكي، فقد جاء هذا الرجل منذ حوالي ثلاثين سنة مبعوثًا من قِبل ملك البرتغال للبحث عن مملكة القديس «جون» ثم اختفى، وعلينا أن نعرف كيف اختفى.

حاول الدليل سحب البغل الذي كان مترددًا في اجتياز طريق ضيق مرتفع وهو يقول:

- إن الإمبراطورة «هيلينا» أفضل من زوجها الذي كان قاسيًا؛ كان يمنع الأجانب من الخروج من مملكته لأنه يعتقد أنهم جواسيس حضروا إلى مملكته لمعرفة قوتها ونقاط ضعفها، فيمنعهم من الخروج ويأمرهم بالبقاء معه، أما الإمبراطورة فقد سمعت أنها تسمح للبعض منهم بالخروج لأنها ترى أنهم سيعودون إليها بمزيد من المال والبضائع للتجارة، ولكنني لست أثق في كل ذلك يا سيدي، فهؤلاء الملوك يُغيِّرون رأيهم كل مرَّة يصحون فيها من نومهم، ولو كنت مكانك لترددت في الذهاب إليها.

Twitter: @ketab_n

استغرب الكاهن من نصيحة الدليل:

- تحدثني وكأنك لست من رعايا الإمبراطورة، ألست تعرف عنها شيئًا؟

أخرج الدليل صوتًا من فمه محاولًا حث البغل على التحرك بعد أن توقف:

- أنا من الساحل يا سيدي، ونحن لا نعتبر أنفسنا من رعاياها، فهي تحكم تلك الجبال البعيدة التي أمامك، وشعبها لا يعرف البحر، ولكنها ملكة قوية استطاعت أن تعود إلى العرش بعد أن طُردت منه، فالصراع على العرش في هذه البلاد لا يكاد يهدأ.

مرت القافلة بعدة شعوب تسكن السفوح، بعضهم كان عدوانيًّا والبعض الآخر مسالمًا، ولكل شعب لباسه وهيئته، فمنهم مَن يكون عاريًا تمامًا، ومنهم مَن يضع الكثير من الألوان والمساحيق على جسده، ومنهم من كان يستتر بجلود الحيوانات، ولكن يجمع هؤلاء كلهم تشويههم لوجوههم بجروح وعلامات تميزهم عن غيرهم. أحضر الكاهن معه بعض الجلود والمرايا والقبعات والأحذية وقِطع من القماش التي كان يوزعها على رؤساء هذه القبائل ليكسب ودهم، فالهدية لها مفعول السحر على هؤلاء البرابرة كما كان يقول الكاهن للدليل.

وبعد عدة أيام وصلا إلى ربوة عالية باردة الهواء، يظهر فيها شيء من التمدن الذي افتقدوه خلال الأيام الماضية، فقد كان الناس هنا يسترون أجسادهم بقماش أبيض اللون مصنوع من صوف الحيوانات، ويسكنون منازل مبنية من الصخور المتناثرة

Twitter: @ketab_n

والمتوفرة في كل مكان، كانت هناك أسواق وحيوانات للتربية وطعام يُباع، شعر الكاهن أنه في مكان فيه نوع من الحضارة التي فقداها في طريقهما إلى هنا.

سارا بهدوء وسط كل ذلك محاولين تجاهل نظرات الناس الذين بدأوا يحدقون إليهما باستغراب، خصوصًا أن الكاهن جاء بلباسه الأسود الذي لم يكن مألوفًا في هذه البقاع، فلم يكن الناس يشاهدون غرباء كثرًا في مدينتهم المعزولة هذه.

وصلا إلى هضبة حجرية محفورة بشكل بديع وعليها بعض النقوش الجميلة المزينة لمدخلها وأطرافها، يقف أمام المدخل مجموعة من الرجال والنساء بلباسهم الأبيض، وعلى الباب يقف حرس يحملون رماحًا طويلة وسيوفًا مستقيمة سيئة الصُّنع، تحدث معهم الدليل قليلًا ثم نظروا إلى الكاهن بريبة قبل أن يسمحوا له بالدخول.

سار الكاهن في ممرات محفورة في الصخور وهو يرى السماء من أعلى، فلم يكن للممرات سقف حتى وصلوا إلى باب حجري آخر وأمره الحرس بالوقوف في انتظار الإذن.

جاء صوت من داخل القاعة، فأشار له الحرس بالدخول، كانت القاعة مضاءة بعدة مشاعل موزعة في زواياها، احتاج الكاهن بعض الوقت ليشاهد بشكل جيد، فقد كانت أمامه الملكة تجلس على كرسي خشبي مزين بالكثير من النقوش الجميلة، وتلبس ملابس بيضاء تُغطي أغلب جسدها، وعلى صدرها جلد نمر صغير؛ أوله بالقرب من ذقنها وطرفه يصل إلى ركبتيها وكأنه معلق بصدرها، وتضع على رأسها تاجًا من الذهب الخالص،

Twitter: @ketab_n

وتمسك بيدها صولجانًا مصنوعًا من العاج ومنقوشة عليه نقوش جميلة بالذهب والفضة، ويجلس حولها مجموعة من الأمراء والوجهاء، وأمامها وبالقرب من قدميها مجموعة من الفتيات الصغيرات يلبسن ملابس صوفية مصبوغة بعناية وملونة برسوم مختلفة.

انحنى الكاهن لها محاولًا إبداء احترامه، أشار عليه أحدهم بالجلوس فجلس كما تعود أن يفعل أمام المذبح في الكنيسة، بدأ يشعر بألم في ركبتيه، ولكنه لم يجرؤ على تغيير وضعية الجلوس هذه التي اعتاد أن يجلسها أمام مَن هم أعلى منه مرتبة.

سمع صوتًا باللغة البرتغالية، التي لم يكن يتوقع سماعها في هذا المكان، خارجًا من شخص قريب من الملكة يأمره بالجلوس على الأرض حتى يريح ركبتيه.

نظر في وجوه الحضور وكانت عيناه قد بدأتا في التأقلم مع ظلام القاعة، ولفت نظره رجل كبير السن، أبيض اللون، تعلو وجهه ابتسامة غريبة، وبدأ يسأله بلغة برتغالية سليمة:

- مَن أنت؟ ولماذا حضرت إلى هنا؟

ارتسمت على محيا الكاهن ابتسامة كبيرة، وشعر أن مهمته نجحت، فقال بسرعة:

- إنني كاهن كاثوليكي من البرتغال اسمي «فرانسسكو الفاريز»، وقد حضرت بناء على طلب الملك البرتغالي بحثًا عن السيد «كوفيلهام» الذي اختفى في هذه البلاد.

ترجم المسن ما دار بينه وبين الكاهن للملكة التي هزت رأسها ثم أشارت له بيدها.

Twitter: @ketab_n

قام الرجل المسن وانحنى للملكة قبل أن يطلب من الكاهن الخروج معه من القاعة، تبع الكاهن الرجل المسن إلى الخارج حتى وصلا إلى عربة يجرها ثوران، ركباها واتجهت بهما إلى خارج المدينة في صمت غريب.

لم يكن الكاهن يعرف مَن هذا الرجل المسن الذي يعامله الناس باحترام في كل مكان.

وبعد أن سارت بهما العربة قليلًا في اتجاه الغرب، تجرأ الكاهن وسأل:

- مَن أنت يا سيدي؟

ابتسم المسن قائلًا:

- كنت على وشك أن أسألك لماذا تبحث عن «كوفيلهام» الآن بعد كل هذه السنين؟!

رد الكاهن بصوت به نبرة فرح:

- أنت «كوفيلهام» يا سيدي، أليس كذلك؟

- نعم، أنا «كوفيلهام»، ولكنك لم تجب عن سؤالي.

بدأ الكاهن يتحدث بفرح، فقد حقق الهدف الأول من رحلته:

- سيدي «كوفيلهام»، لقد اجتزت الكثير من المخاطر والصعوبات حتى أصل إليك، لقد نجحنا بفضلك وبفضل صاحبك «بافيا» في السيطرة على تجارة البهارات بعد أن وصل التقرير الذي كتبتماه عن رحلتكما، لقد كان تقريركما شاملًا وبه الكثير من المعلومات التي قادتنا إلى هنا وكانت السبب في نصرنا، إنه هو الذي دل سفننا إلى هذا الجزء من العالم.

Twitter: @ketab_n

عدل الكاهن من جلسته، فقد أتعبه الخشب الذي يجلس عليه فالطريق ليس مستويًا، وكل حركة للعربة تجعل الخشب يضرب مؤخرته وظهره بشكل مؤلم، ثم واصل:

- لقد طلب الملك أن يُنسخ تقريركما ويُعطى إلى قائد كل رحلة بحرية، وبعد عدة سنوات استطاع بحارتنا رسم خرائط لتلك المناطق، وعندما لم يعودوا بحاجة إلى تقريركما أعادوه إلى المكتبة الملكية.

لاحظ «كوفيلهام» أن الكاهن بدا كثير الحركة والتململ بسبب الألم الذي يشعر به في ظهره:

- لا تقلق، نحن قريبون من مزرعتي، هيا أكمل حديثك.

- حسنًا يا سيدي، وبعد عدة سنوات، انتعشت تجارتنا وأصبحت البرتغال ثرية بفضلكما، ونسي الناس أمر تقريركما.

بقي «كوفيلهام» منصتًا للكاهن وإن كان بقي يحيي المزارعين الذين يركعون له عندما تمر عربته من أمامهم، وواصل الكاهن حديثه:

- وأعتقد يا سيدي أن أحد جلساء الملك ذكَّره بعد مرور ثلاثين عامًا بفضلكما في إخراج البرتغال من محنتها المالية، فطلب الملك أن نبحث عنكما لأنه يريد إكرامكما.

بدا الاندهاش على وجه «كوفيلهام»:

- إكرامنا؟! بعد كل هذه السنوات؟! هل تعلم ما الذي فعلته محاكم التفتيش بعد أن غادرنا «لزبن» بفترة وجيزة؟ لقد شردوا أهلنا، وأحرقوا والد «بافيا» حيًّا، وصادروا أملاكنا، لم يحفظ الملك وعده لنا، لقد أعماه المال!

Twitter: @ketab_n

رسم الكاهن إشارة الصليب على صدره، فلم يعتد أن يسمع كلامًا مثل هذا عن الملك.

صمت «كوفيلهام» لفترة وهو ينظر إلى الأمام قبل أن يقول:

- لقد اختفى صديقي «بافيا» في هذه الجبال، بحثت عنه لسنوات طويلة ولم أجد له أثرًا، فجئت إلى هذه المملكة، ثم منعني الملك السابق من الخروج منها، ولكنه منحني أرضًا كبيرة وكثيرًا من الحيوانات وأهداني زوجة أيضًا، فعشت هنا وأنجبت.

وصلت العربة إلى سفح مزروع بعناية، وعلى جانبه حقل به الكثير من الأبقار والأغنام، وفي أعلى السفح منزل كبير مبني من الحجارة، أشار «كوفيلهام» إليه:

- هذا منزلي، عشت هنا طويلًا وسأموت هنا أيضًا، اذهب إلى ملكك وقل له إن «كوفيلهام» كَفَر بكل «الأشرعة المقدسة» التي أرسلتها، والتي حملت الدم والدمار إلى هنا، لقد فتحنا بتقريرنا ذلك أبواب الجحيم على أناس لم يكونوا يعلمون بوجودنا على هذه الأرض!

نظر الكاهن إلى العجوز «كوفيلهام» مستغربًا من جرأته على الملك، ولكن «كوفيلهام» أكمل حديثه وكأنه فيلسوف يتحدث أمام طلبته:

- طيب الحياة ليس بالسيطرة على المال والبشر، ولكنه بالابتعاد عن الملوك الظلمة الذين يتلذذون بسفك الدم وقهر الناس!

أعاد الكاهن رسم الصليب على صدره، فهذا قاس في حق الملك العظيم.

Twitter: @ketab_n

ومن بعيد كانت الشمس على وشك الغروب، هبت نسمة على الرجلين فغسلت وجهيهما بعليلها. تنهد الكاهن بعد أن شم رائحة الجبال، شعر «كوفيلهام» بتغير تنفس الكاهن فعلق قائلًا:

- إنه هواء طيب أيها الكاهن، أليس كذلك؟

لم يُجب الكاهن، فقد شغله جمال المنظر عن الرد.

أكملت العربة طريقها واقتربت من المنزل ثم توقفت.

نزل «كوفيلهام» منها بصعوبة، فلم يكن جسده يساعده على ذلك، مشى في اتجاه منزله وتبعه الكاهن محاولًا السير ببطء على وقع خطواته، خرجت فتاة شابة جميلة ذات سحنة سمراء وشعر يميل للشقرة من المنزل وسارت مسرعة في اتجاه «كوفيلهام»، ثم ركعت أمامه وقبَّلت يده التي مدها إليها، نظر إلى الكاهن قائلًا:

- إنها ابنتي «هيلينا»، لقد أسميتها على اسم الملكة، ولديَّ أيضًا ابن قد يعود مع المساء سأعرفك عليه، فهو يشبهني كثيرًا.

غابت شمس ذلك اليوم، ونشر الليل أشرعته على المكان، وحول نار كبيرة عليها بقايا حيوان مشوي، جلس «كوفيلهام» وضيفه وعائلته، كان الضحك يملأ المكان. لم يفهم الكاهن كثيرًا مما كان يُقال في تلك الليلة، ولكنه عرف أن «كوفيلهام» لن يعود أبدًا.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

«في روايته الثانية بعد «القرصان» يسجل عبدالعزيز آل محمود قفزة كبيرة في إبداعه الروائي، ما يضعه دون مجاملة في مصاف كبار الروائيين.» ياسر الزعاترة - «العرب» القطرية

* * *

«منذ أن وصلتم إلى ديارنا ونحن نعيش في بؤس دائم، لقد أفسدتم علينا حياتنا، ودمرتم مملكتنا، وصادرتم أموالنا، لقد أصبحت هرمز خرابًا بعد أن كانت مركز الدنيا، لقد دمرتم أخلاق البشر قبل أن تدمروا حياتهم، إنكم وحوش أرسلكم الشيطان إلينا، لقد شاهدنا الموت في أشرعتكم التي ساقتكم إلى شواطئنا!»

هكذا صرخ الوزير الهرمزي خواجة عطار في وجه «البوكيرك» وهو يرى مملكته تتهاوى، بعد أن أبعدته الأحداث عن ابنته الوحيدة حليمة، التي تزوجت من نبيل عربي أخذها معه إلى شرق الجزيرة العربية، ووجدت نفسها هي الأخرى في خضم صراعات سياسية لم تكن مستعدة لمجابهتها.

في هذه الرواية المدهشة التي تستعير مادتها من أحداث التاريخ وشخوصه في نهايات القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر، يصور عبد العزيز آل محمود الصراع الذي خاضته كل من سلطنة الجبور ومملكة هرمز للحفاظ على بقائهما خلال صراع طويل ودموي مع الأسطول البرتغالي الذي جاء بأشرعته المقدسة إلى هذه المنطقة من العالم للسيطرة على تجارة البهارات.

* * *

عبد العزيز آل محمود، مهندس وصحفي من قطر، حصل على شهادة البكالوريوس في الهندسة من جامعة «كلاركسون» في نيويورك، وعلى دبلوم في هندسة الطيران من بريطانيا. عمل رئيسًا لتحرير صحف «الشرق» و«البننسولا» و«العرب» وموقع «الجزيرة نت». صدر له عن دار بلومزبري - مؤسسة قطر رواية القرصان (٢٠١١)، وهذه هي روايته الثانية.

www.bqfp.com.qa

ISBN 9789927101700

90100

9 789927 101700

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING

مؤسسة قطر
Qatar Foundation